

احمد الكاتب

استراتيجية الرسول الأعظم في الدعوة للاسلام

السيرة النبوية على ضوء القرآن الكريم

ملاحظة: الكتاب معروض للمناقشة، وقابل للتغيير والتعديل، ويرحب المؤلف بتعليقات القراء عليه، قبل صياغته النهائية

فهرست كتاب

استراتيجية الرسول الأعظم في الدعوة للاسلام:

- 1 - مقدمة
- 2 - تقييم المصادر الرئيسية:
التوراة والتلمود والقرآن وكتب السيرة والحديث والأخبار
1 - ما هي التوراة؟ وما هو التلمود؟ وما هي قيمتهما التاريخية؟
2 - ما هي الأنجيل؟ من كتبها؟ ومتى؟ وما هي قيمتها التاريخية؟
3 - متى وكيف جمع القرآن الكريم
4 - تقييم مصادر السيرة النبوية
5- منهج البحث التاريخي

الجزء الأول :

الوحي والنبوة والأنبياء عبر التاريخ

يضم ثلاثة أبواب:

- 1- الوحي والنبوة والأنبياء قبل الإسلام، على ضوء التوراة والتلمود والانجيل والقرآن
- 2- الصابئة والمجوس عشية ظهور الإسلام
- 3- العرب الأحناف والمشركون، عشية ظهور الاسلام

الباب الأول:

الوحي والنبوة والأنبياء قبل الإسلام
طبيعة الوحي الى الأنبياء السابقين، في التوراة والتلمود والانجيل والقرآن
يضم عشرة فصول

الفصل الأول: الوحي الى الانسان الأول ابي الأنبياء آدم

الفصل الثاني: الوحي الى الأنبياء نوح وهود وصالح وشعيب

ما هي رسالة النبي نوح؟

الوحي الى هود وصالح

النبي شعيب في القرآن

الفصل الثالث: النبي إبراهيم ولوط في التوراة:

طبيعة الوحي الى إبراهيم، في التوراة:

طبيعة الوحي الى النبيين إبراهيم ولوط، في القرآن

هل كان للنبي إبراهيم معاجز؟

ما هي رسالة النبي إبراهيم، في التوراة؟

ما هي رسالة النبي إبراهيم، في القرآن؟

ما هي رسالة النبي لوط؟

الفصل الرابع: طبيعة الوحي الى الأنبياء إسحاق ويعقوب ويوسف والأسباط، في التوراة

الوحي الى إسحاق ويعقوب، في القرآن:

الوحي الى يوسف والأسباط، في التوراة:

يوسف والأسباط في القرآن

ما هي رسالة الأنبياء إسحق ويعقوب ويوسف والأسباط؟

الفصل الخامس: الوحي الى النبي موسى، في التوراة:

الوصايا العشر:

الوحي الى موسى، في القرآن:

معاجز النبي موسى

ما هي رسالة النبي موسى؟

إيمان اليهود بالآخرة والجنة والنار بين الإهمال والاثبات

الفصل السادس: الوحي الى أنبياء التلمود (بعد موسى والتوراة) :

الوحي الى النبي سليمان، في التلمود

الوحي الى داود وسليمان، في القرآن

التلمود: الوحي الى قورش

الوحي الى أشعيا

الوحي الى الأنبياء يونس وزكريا ويحيى، في التلمود:

الوحي الى الأنبياء أيوب وزكريا ويحيى، في القرآن
الفصل السابع: الأنبياء الكذبة:

التوراة: هارون يصنع العجل في غياب موسى
خطايا داود

ارتداد سليمان

ارتداد بلعام بن باعوراء

الدعوة لقتل الأنبياء الكذبة والمرتدين

كيف كان الأنبياء الصادقون يثبتون نبوتهم للناس؟

الفصل الثامن: طبيعة الوحي الى النبي عيسى، في الأناجيل

الوحي الى مريم بنت عمران وابنها عيسى المسيح، في القرآن

الوحي الى النبي عيسى في القرآن

ما هي رسالة النبي عيسى؟

الفصل التاسع: العقائد النصرانية، عشية ظهور الإسلام

المسيح ابن عذراء

دعاوى المعاجز

التعميد والنبوة: هل أعلن المسيح نبوته؟

هل صلب المسيح؟ ولماذا؟

ارتباط عقيدة الفداء بالصلب

صعود المسيح الى السماء

عودة المسيح الى الأرض

هل بشر عيسى بالنبي محمد؟

الفصل العاشر: الصراع الفكري بين الفرق المسيحية

يسوع الكلمة روح الله

ثنائية الناسوت واللاهوت

"الملكانية"

"النساطرة"

"اليعاقبة"

المسيحية في الجزيرة العربية عند ظهور الإسلام

الباب الثاني: الصابئة والمجوس

الفصل الأول: الصابئة عشية ظهور الاسلام
طائفة غنوصية منطوية.. افكار سرية
الفصل الثاني: المجوس أو الزرادشتية

الباب الثالث: المجتمع العربي عشية ظهور الإسلام: الأحناف والمشركون
الفصل الأول: أساطير المشركين الأوائل
الفصل الثاني: الأحناف
الحنيفية بقية دين إبراهيم؟
الاحناف ورفض عبادة الأصنام
الفصل الثالث: المشركون عشية ظهور الاسلام

الجزء الثاني:
الباب الأول: استراتيجية النبي محمد في الدعوة للاسلام

مدخل: كيف أصبح محمد (ص) نبيا؟ ما هي طبيعة الوحي النازل اليه؟
أ. الرؤيا الصادقة أولى مراحل النبوة وأشكالها
ب - سماع الصوت
ج - نزول الملك وبدء الوحي
الرعب والشك
د - الصور المختلفة للوحي النازل الى النبي محمد

الباب الأول: إستراتيجية النبي محمد في الدعوة للاسلام في مكة
يضم ستة فصول
الفصل الأول: دعوة الحنفاء الموحدين للاسلام
كيف أسلم المسلمون الأوائل في مكة؟
إسلام الأنصار
قصة صنم عمرو بن الجموح

الفصل الثاني: استراتيجية النبي محمد في دعوة المشركين للاسلام، في مكة
لماذا رفض المشركون الإيمان بمحمد؟
ولماذا رفض النبي الاستدلال على نبوته بالآيات (المعاجز)؟

النبي يرفض الاتيان بمعجزة ويتحدث عن معاجز الأنبياء السابقين
حوار المشركين مع النبي الأكرم
تحدي النضر بن الحارث للنبي محمد والقرآن
المشركون يطلبون نزول ملائكة
القرآن يرفض طلب المشركين بنزول الملائكة ويفسره بالعامل النفسي
الله يرفع معنويات النبي
اليأس من اسلام قريش
إشكالات المشركين الواهية على القرآن
النسخ والتبديل
"يعلمه بشر"
التحدي القرآني: معجزة النبي الخالدة
ما هي طبيعة إعجاز القرآن؟
اسألوا أهل الذكر

الفصل الثالث: اختبار المشركين للنبي محمد في مادة التاريخ

قريش تبعث وفدا لليهود لتسأل عن حقيقة النبي محمد (ص)
أصحاب الكهف

ذو القرنين ويأجوج ومأجوج

يسألونك عن الروح

موسى والعبد الصالح

قصة يوسف واخوته

ملك سليمان

الرجل الميت الذي عاد الى الحياة

مسخ الذين اعتدوا في السبت قرده وخنازير

قصة هاروت وماروت في بابل

الفصل الرابع: هل حاول النبي محمد التنازل قليلا للمشركين؟

• انشقاق القمر .. معجزة حدثت؟ أم آية ستحدث في المستقبل؟

2 - الإسراء والمعراج

3 - قصة الغرانيق.. هل كانت محاولة للتقرب من المشركين؟

قصة الغرانيق في المصادر الشيعية

المحدث الألباني يرفض رواية الغرانيق جملة وتفصيلا

الأثر المعاكس لحديث الغرانيق

الفصل الخامس: القطيعة مع المشركين، وقرار الهجرة من مكة
إيمان الجن بدل الإنس، بمجرد الاستماع للقرآن
طلب المشركين نزول العذاب عليهم
محاولة بني حنيفة استغلال الدعوة الإسلامية، سياسيا
إسلام الأنصار وبيعة العقبة
قرار الهجرة الى المدينة

الفصل السادس: توجه الدعوة الإسلامية للإنس والجن

الباب الثاني: استراتيجية النبي محمد في دعوة اليهود الى الإسلام
يضم أربعة فصول

الفصل الأول: الموقف الإيجابي الأول من اليهود

موقف النبي من اليهود، وهو في مكة
أ. اليهود مرجعية للحكم على صحة النبوة
ب - التعاطف مع بني إسرائيل
ج - الحوار بالتي هي أحسن
موقف النبي الإيجابي من اليهود في المدينة
دستور المدينة: المسلمون واليهود أمة واحدة
دعوة اليهود للإسلام

الفصل الثاني: الموقف السلبي لليهود من الإسلام

رفض عامة اليهود الاستجابة للنبي محمد (ص)
الاحتكام للنبي في قضية الزنا، وكتمان اليهود لحكم الرجم
اتهام اليهود بتحريف التوراة

الفصل الثالث: التآمر اليهودي على الإسلام ورد فعل النبي عليهم

الطلاق بين اليهود والمسلمين
النبي محمد يهاجم اليهود
إلغاء الاتفاقية مع اليهود ومقاطعتهم
ملة إبراهيم، أصالة الإسلام، لا اليهودية
تحويل القبلة من بيت المقدس الى الكعبة
الحج الى بيت الله الحرام

الفصل الرابع: المجابهة العسكرية مع اليهود

I - غزوة بني قينقاع

- 2 - اغتيال زعماء يهود
- 3 - إجلاء بني النضير
- 4 - بنو قريظة ينقضون العهد مع رسول الله، في حرب الخندق
غزوة بني قريظة
الدعوة للإسلام قبل الحرب
- 5 - غزوة خيبر
استسلام حصون فدك
- 6 - إعلان الحرب على اليهود والنصارى

الباب الثالث: استراتيجية النبي محمد (ص) في دعوة النصارى للإسلام
يضم ثلاثة فصول
الفصل الأول: تعظيم السيدة مريم وتأكيد حملها بالمسيح بصورة اعجازية
نصارى؟ أو مسيحيون؟
استراتيجية النبي محمد في دعوة النصارى للإسلام
تأكيد حمل النبي عيسى بصورة اعجازية
أسرة مريم وميلادها
معاجز النبي عيسى
إقرار رفع عيسى الى السماء
الفصل الثاني: الموقف الاسلامي الأول الإيجابي من النصارى
الدعوة للجمع بين التوراة والإنجيل
توقع النبي محمد إسلام أهل الكتاب
أهل الكتاب مرجعا للحكم على صحة الرسالة المحمدية
البشارة بالنبي محمد في التوراة والإنجيل
نقد غلو النصارى وتأليه النبي عيسى
إسلام الملوك النصارى
الفصل الثالث: الصدام مع غلاة النصارى
امتناع نصارى نجران عن الإسلام، ودعوتهم للمباهلة
مؤامرة مسجد ضرار، بتخطيط أبي عامر الراهب (الفاسق)

الباب الرابع: الموقف من المجوس والصابئة

يصم فصلين:

الفصل الأول: الموقف الإسلامي من المجوس

الفصل الثاني: الموقف الإسلامي من الصابئة

الباب الخامس: الهجرة الى المدينة، وإقامة الدولة الإسلامية

يضم خمسة فصول

الفصل الأول: هل اختلفت استراتيجيات النبي الدعوية في المدينة عنها في مكة؟

هل اعتمد النبي على الآيات وعلم الغيب في دعوة الناس للإسلام؟

المبحث الأول: نزول الملائكة

نزول الملائكة في بدر

هل نزلت الملائكة في أحد؟

جبرئيل ينزل أمام الناس ويسأل النبي أسئلة

جبرئيل يتمثل في صورة دحية الكلبي

أبو سفيان يسمع قعقعة سلاح الملائكة

المبحث الثاني: الإخبار عن الغيب

النبي يتنبأ بفتح قصور كسرى والروم وصنعاء

قصة إسلام عمير بن وهب الجمحي

إسلام باذان والي كسرى في اليمن

إسلام أهل جرش في اليمن

الفصل الثاني: استراتيجية الأسلمة السياسية

الدعوة الإسلامية في المدينة

حركة الاسلام بين العرب ما بعد الحديبية

إسلام قريش الجماعي بعد فتح مكة

إسلام وفد ثقيف

الوفود العربية

إسلام عدي بن حاتم الطائي

قدوم رسول ملوك حمير على رسول الله

قدوم وفد الأزد

إسلام مسلمة الكذاب وبني حنيفة

إعلان البراءة من المشركين

سرية خالد بن الوليد إلى بني الحارث بن كعب وإسلامهم

ماذا يعني إسلام الملوك؟

الفصل الثالث: نشوء ظاهرة النفاق في المجتمع الإسلامي الوليد

النفاق في معركة بدر
النفاق في غزوة بني قينقاع
النفاق في غزوة أحد
النفاق في غزوة بني النضير
النفاق في معركة الخندق
النفاق في غزوة بني المصطلق
المنافقون وحديث الإفك
المنافقون والتحرش بنساء المسلمين
تضعف إيمان بعض المسلمين في الحديبية
النفاق في معركة حنين
النفاق في غزوة تبوك
المنافقون يحاولون اغتيال النبي في العقبة
المنافقون ومسجد ضرار
بوادر الردة في حياة الرسول
الفصل الرابع: هل أصبح النبي محمد ملكا في المدينة؟
النبي محمد: لست ملكا
الفصل الخامس: بناء الدولة الإسلامية في المدينة
المبحث الأول: دستور المدينة
المبحث الثاني: المواجهة مع قريش:
معركة بدر
معركة أحد
غزوة الرجيع
معركة الخندق
فشل الأحزاب منعطف تاريخي كبير
غزوة بني قريظة
تحليل سبي النساء وملك اليمين
النبي يشن سلسلة من الغزوات على الأعراب
الانتقام من قبيلتي عكل والعرنين
صلح الحديبية
غزوة خيبر
المبحث الثالث: رسائل نبوية إلى الملوك
ردود الملوك والأمراء النصارى
رد هرقل ملك الروم
رد كسرى العنيف

المبحث الرابع: غزوة مؤتة: تحدي الأمبراطورية الرومانية
فتح مكة
معركة حنين
غزوة تبوك.. إعلان الحرب على اليهود والنصارى
قدوم رسول ملوك حمير على رسول الله بكتابهم
إعلان البراءة من المشركين
المبحث الخامس: إقرار قانون الزكاة
إعلان الحرب على المرابين
خروج الأمراء والعمال على الصدقات
حجة الوداع
ما هو النظام السياسي الذي تركه الرسول وراءه؟

• المقدمة

هل كان محمد (ص) نبيا؟ أم ملكا؟ أم نبيا وملكاً؟

هل كان محمد نبيا؟ أم ملكا؟ أم نبيا وملكاً؟ فإذا كان نبيا فقط، فلماذا استخدم القوة لفرض الاسلام على الناس؟ وهل كان استخدام النبي محمد للقوة، متعلقا بتأسيس الأمة الاسلامية، وفي مواجهة المشركين فقط؟ أم أنه كان بهدف انشاء مملكة سياسية للرسول الأعظم؟
وإذا كان نبيا ملكا، فلماذا لم يبن دولته كما تبنى الدول؟ ولماذا لم يرسم نظاما دستوريا لخلافته؟

لقد كتب الشيخ الأزهري علي عبد الرازق ، منذ حوالي مائة عام (الاسلام وأصول الحكم) وقال فيه بأن النبي محمد لم يكن ملكا ، وانما كان فقط نبيا، ولم يؤسس لدولة إسلامية، ولكن الكاتب المصري المعاصر خليل عبد الكريم توصل الى رأي معاكس، في كتابه (قريش من القبيلة الى الدولة المركزية) وقال بأن النبي محمد أسس دولة عربية وسلمها لقبيلته قريش. وانه لم يكن إلا متمما لمشروع بدأه جده قصي بن كلاب. (وكذلك: هشام جعيط: في السيرة النبوية: الوحي والقرآن والنبوة)

وقد يستغرب البعض من وصف النبي محمد بالملك، أو يرفض اطلاق هذه

الصفة عليه، كما فعل علي عبد الرازق، ولكن ذلك الرفض قد يعود الى الصورة السلبية عن الملك في الأذهان، وأما الصورة الإيجابية التي تعني الحكم وتطبيق شرع الله وأحكامه، فهي لا تتناقض مع النبوة، وقد أشار القرآن الكريم في آيات عديدة الى اتصاف بعض الأنبياء السابقين بصفة الملك، كما في الآيات التالية:

- "أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله، فقد آتينا آل إبراهيم

الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما" (النساء، 54)

- "ألم تر الى الملائكة من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم

ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله... " (البقرة، 246)

- "وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا؟ قالوا أنى يكون له

الملك علينا ونحن أحق بالملك منه، ولم يؤت سعة من المال؟ قال إن الله

اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من

يشاء، والله واسع عليم" (البقرة، 247)

- "وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكم وعلمه مما يشاء" (البقرة، 251)

- "وشددنا ملكه (داود)، وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب" (ص، 20)

- "يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع

الهُوى فيضلك عن سبيل الله، ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب

شديد بما نسوا يوم الحساب" (ص، 26)

- "رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث" (يوسف، 101)

فماذا كانت حقيقة تجربة النبي محمد (ص)؟

هل كان نبيا؟.. أم ملكا؟.. أم .. نبيا وملكاً ، في نفس الوقت؟

لقد حسب مشركو قريش بأن هدف النبي محمد (ص) من دعوته للتوحيد

هو الوصول الى السلطة، فاجتمعوا معه وقالوا: لقد شتمت الآباء، وعبت

الدين، وسفهت الأحلام، وشتمت الآلهة ، وفرقت الجماعة ، فما بقي من أمر

قبيح إلا وقد جنَّته فيما بيننا وبينك! فإن كنت إنما جنَّت بهذا الحديث تطلب

به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت إنما تطلب

الشرف فينا، سودناك علينا، وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا.

فقال رسول الله (ص): " ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن بعثني الله إليكم رسولا وأنزل علي كتابا ، وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا ، فبلغتكم رسالة ربي ، ونصحت لكم ، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به ، فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله ، حتى يحكم الله بيني وبينكم".

وذهب رجال قريش الى عمه أبي طالب، يشتكون ويطلبون منه: أن يكف النبي عن شتم ألتهم، فقال له النبي: أي عم، أولا أدعوهم إلى ما هو خير لهم منها؟ قال أبو طالب: وإلام تدعوهم؟ قال: أدعوهم إلى أن يتكلموا بكلمة تدين لهم العرب، ويملكون بها العرب والعجم.

وعندما نظر أبو سفيان الى جيوش المسلمين وهي تدخل مكة عام الفتح، ورأى رسول الله في الكتيبة الخضراء؛ كتيبة المهاجرين والأنصار، في الحديد؛ سأل العباس: من هؤلاء يا أبا الفضل؟ فقال: هذا رسول الله في المهاجرين والأنصار؛ فقال أبو سفيان: يا أبا الفضل، لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً. فنهره قائلاً: ويحك إنها النبوة! فقال: نعم إذأ.

ويحدثنا محمد ابن اسحاق عن موقف فريد لبني حنيفة من دعوة الرسول، يتضمن قيامهم بحسابات سياسية مستقبلية، أكثر مما اهتمامهم بصدق النبي أو كذبه، فيقول: إن رسول الله أتى بني حنيفة في منازلهم، فدعاهم إلى الله، وعرض عليهم نفسه، فلم يكن أحد من العرب أقبح ردًا عليه منهم...
أنه أتى بني عامر بن صعصعة، فدعاهم إلى الله، وعرض عليهم نفسه، فقال رجل منهم، يقال له (بيحرة بن فراس):
والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب. ثم قال للنبي: رأيت إن نحن تابعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على من خالفك؛ أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال: الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء. قال: فقال له: أفتهدف نحورنا للعرب

دونك، فإذا ظهرت كان الأمر لغيرنا! لا حاجة لنا بأمرك. فأبوا عليه.

وهكذا كان سائر العرب ينظرون الى النبي محمد بتردد، وهو يسيطر على الجزيرة العربية، حيث كانوا يخلطون بين النبوة والملك، وعندما ذهبت سرية الى قبيلة طي وأسرت اخت عدي بن حاتم الطائي، وكانت امرأة حازمة، فأطلق النبي سراحها فذهبت الى أخيها الهارب الى الشام، فسألها: ماذا ترين في أمر هذا الرجل؟ قالت: أرى والله أن تلحق به سريعاً، فإن يكن الرجل نبياً فالسابق إليه له فضيلة، وإن يكن ملكاً فلن تذل في عز اليمن وأنت أنت! قال: والله إن هذا للرأي. فذهب الى الرسول وأسلم.

وشجع ذلك زعيماً من زعماء اليمن هو عمرو بن معد يكرب، فقال لقيس بن مكشوح المرادي: يا قيس؛ إنك سيد قومك اليوم؛ وقد ذكر لنا أن رجلاً من قريش يقال له محمد قد خرج بالحجاز يقول، إني نبي؛ فانطلق بنا إليه حتى نعلم علمه؛ فإن كان نبياً كما يقول؛ فإنه لا يخفى عليك. إذا لقيناه اتبعناه؛ وإن كان غير ذلك علمنا علمه، فأبى عليه ذلك قيس بن مكشوح وسفه رأيه. فركب عمرو حتى قدم على رسول الله فصدقه وأمن به؛ في أناس من بني زبيد.

وقال أناس من بني تميم لبعضهم البعض: انطلقوا بنا الى هذا الرجل، فإن يكن نبياً فنحن أسعد الناس به، وإن يكن ملكاً نعش في جناحه. ثم جاءوا الى حجر النبي فجعلوا ينادونه: يا محمد، فأنزل الله: " إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون، ولو أنهم صبروا حتى تخرج اليهم لكان خيراً لهم، والله غفور رحيم ". (الحجرات، 4 - 5) وقالت العرب: " دعوا محمدا يقاتل قومه فان نجح فهو نبي".

ولم يكن المشركون وحدهم يعتقدون بأن النبي يهدف من رسالته الوصول الى الملك، فقد كان اليهود أيضا ينظرون اليه كذلك، فقد قال زعماءهم مثل حيي بن أخطب وكعب بن أسد، للحبر اليهودي الذي أعلن إسلامه عبد الله بن

سلام: "ما تكون النبوة في العرب، ولكن صاحبك ملك".

وعندما عرض النبي على نصارى نجران المباهلة، قال شرحبيل لصاحبيه: يا عبد الله بن شرحبيل، ويا جبار بن فيض ... إني والله أرى أمرا مقبلا، إن كان هذا الرجل ملكا مبعوثا فكنا أول العرب طعنا في عينه وردا عليه أمره لا يذهب لنا من صدره ولا من صدور قومه حتى يصيبونا بجائحة، وإنا لأدنى العرب منهم جوارا، وإن كان هذا الرجل نبيا مرسلا فلاعناه فلا يبقى على وجه الأرض منا شعر ولا ظفر الا هلك.

وقد شاعت في الغرب الأوربي صورة عن النبي محمد (ص) بعيدة عن النبوة، تقتصر على النظر اليه كملك. تقول كارين أرمسترونغ في كتابها "سيرة النبي محمد": "لا يزال من الشائع عند أبناء الغرب أن يسلموا دون نقاش بأن محمدا ليس سوى رجل استغل الدين في تحقيق الفتوحات وسيادة العالم".

ونقل المستشرق الإنجليزي توماس أرنولد في كتابه (الدعوة الى الاسلام، بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية) عن كثير من الكتاب الأوربيين: أن النبي سلك مسلكا جديدا تمام الجدة منذ أن هاجر الى المدينة ومنذ أن تغيرت ظروف حياته هناك، وأنه لم يعد ذلك البشير النذير المرسل الى الناس الذي كان قد أقنعهم بالحجة بصدق الدين الذي أوحى اليه، وإنما ظهر الآن أقرب الى أن يكون مندفعاً يستغل كل ما في سلطته من قوة ومهارة سياسية في فرض نفسه وفرض آرائه.

لست ملكا

لقد كان النبي محمد (ص) في قمة الزهد والتواضع، وكان يرفض أي نوع من التبجيل والتعظيم لشخصه الكريم، حيث كان يجلس مع أصحابه كأنه واحد منهم بحيث لا يستطيع الغريب أن يفرق بينه وبينهم، وكان يرفض تقبيل يده، وعندما حاول أحدهم ذات مرة أن يقبل يده، حذف يده منه، وقال

مستنكرا: "ما هذا؟ إنما يفعل هذا الأعاجم بملوكها و لست بملك، انما أنا رجل منكم".

وكان النبي محمد يردد قول الله تعالى: "فإنما عليك البلاغ، وعلينا الحساب" (الرعد، 40) "فذكر إنما أنت مذكر، لست عليهم بمسيطر" (الغاشية، 21 - 22)

وأما الآيات التي تحت على القتال مثل: " وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَأَخْرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ " (الأنفال، 60) و"قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر- ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون". (التوبة، ٢٩) فهي من أجل الدفاع عن الدعوة الإسلامية ونشر الإسلام، وليست من أجل تأسيس دولة أو ملك خاص للنبي محمد (ص).

لم يكن الرسول يهتم بفرض سلطته السياسية على القبائل العربية التي كانت تدخل في الإسلام، بقدر ما كان يهمله أمر التوحيد والصلاة والزكاة. ولذلك لم يتدخل (ص) كثيرا في أمور السياسة المحلية للقبائل والشعوب التي كانت تعلن الإسلام. وإنما كان يخاطب الملوك المعاصرين له ويدعوهم الى الإيمان برسالته ويعدهم بالمحافظة على ملكهم تحت أيديهم. وقد ترك الأمراء والملوك والأقبايل والسلاطين الذين أسلموا في حياته على ما هم عليه، ولم يطلب منهم التخلي عن سلطاتهم السياسية لسلطته. فقد ارسل الى عامل كسرى على اليمن (باذان): إنك إن أسلمت أعطيتك ما تحت يديك؛ وملكتك على قومك من الأبناء .

وبعث الى أمير الغساسنة في دمشق الحارث بن شمر الغساني، كتابا يقول فيه: " السلام على من اتبع الهدى وأمن به ، أدعوك الى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبقى لك ملكك".

وكتب الى المنذر بن ساوي العبدى عامل كسرى على البحرين: "...سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإنني أدعوك الى الإسلام فأسلم تسلم يجعل الله لك ما تحت يديك. واعلم أن ديني سيظهر الى منتهى الخف والحافر". كما كتب الى هوزة بن علي ملك اليمامة: "... أسلم تسلم ، واجعل لك ما تحت يديك".

وكتب الى جيفر وعبد ابني الجلندي في عمان يدعوها بدعاء الإسلام ، ويقول لهما: "اسلما تسلما، فإنني رسول الله الى الناس كافة، لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين. وإنكما ان أقررتما بالإسلام وليتكما، وان أبيتتما ان تقررا بالإسلام فان ملككما زائل، وخيلي تحل بساحتكما، وتظهر نبوتي على ملككما".

وعندما عاهد النبي أهل مقنا، اتفق معهم على "...ان ليس عليكم أمير إلا من أنفسكم".

وعندما أسلم جبلة بن الأيهم، وهو أحد ملوك الغساسنة، أبقاه النبي ملكا على قومه.

وكذلك عندما أسلم ملوك حمير أبقاهم رسول الله على مكانتهم. وأرسل اليهم معاذ بن جبل يعلمهم الدين ويقضي بينهم، وكتب اليهم عهدا جاء فيه: "هذا عهد محمد بن عبد الله رسول الله الى معاذ بن جبل وأهل اليمن حين ولاه أمرهم فيهم... وان يكون أبا رحيمًا يتفقد صلاح أمورهم... وإنني لم ابعث عليكم معاذا رباً، وإنما بعثته أخاً ومعلماً ومنفذاً للأمر الله تعالى ومعتيا الذي عليه من الحق مما فعل ، فعليكم له السمع والطاعة والنصيحة في السر والعلانية، فان تنازعتم في شيء أو ارتبتم فيه فردوه الى الله والى كتابه عندكم، فان اختلفتم فردوه الى الله والى الرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلكم خير لكم وأحسن تأويلاً".

وكتب الى خالد بن ضماد الأزدي رسالة خاصة جاء فيها: "... إن له ما اسلم عليه من أرضه على أن يؤمن بالله لا شريك له ويشهد ان محمدا عبده ورسوله... وعلى محمد النبي أن يمنع منه نفسه وماله وأهله، وان لخالد الأزدي ذمة الله وذمة محمد النبي ان وفى بهذا".

وكذلك فعل مع ملوك حضرموت الذين أمر عليهم أحدهم وهو وائل بن حجر، وأمرهم بالسمع له والطاعة.

فقد كتب اليهم: من محمد رسول الله الى وائل بن حجر والأقيال والعباهلة والأرواع المشابيب من حضرموت... ووائل بن حجر يترفل على الأقيال ، أمير أمره رسول الله فاسمعوا واطيعوا.

ووعد كثيرا من القبائل العربية التي أسلمت بأن يحافظ على ما بأيديها وان يولي عليها أمراءه، وكتب الى ثقيف عهداً بأنه " لا يؤمر عليهم إلا بعضهم على بعض، على بني مالك أميرهم وعلى الأحلاف أميرهم".

وكتب الى عامر بن الأسود الطائي: " أن له ولقومه من طي ما أسلموا عليه من بلادهم ومياهم ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وفارقوا المشركين".

وكتب الى حبيب بن عمرو أخي بني أجا، ولئن أسلم من قومه وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، أن له ماله وماءه وما عليه حاضره وبأديه، على ذلك عهد الله وذمة رسوله.

وقد خلت رسائل الرسول الى كسرى وقيصر وعظيم القبط من أية دعوة للتنازل عن الملك إليه، وإنما تضمنت فقط دعوتهم الى الدخول في الدين الجديد، فقد جاء في رسالته الى كسرى: " بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس. سلام على من اتبع الهدى وأمن بالله ورسوله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، أدعوك بدعاية الله، فإنني أنا رسول الله كافة لأنذر من كان حياً،

ويحق القول على الكافرين. أسلم تسلم. فإن أبيت فعليك إثم المجوس".

وجاء في رسالته الى قيصر الروم ما يلي:

" بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن عبد الله ورسوله، إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى: أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت عليك إثم الأريسيين، " قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ". (آل عمران 64).

وجاء في كتابه إلى النجاشي ملك الحبشة:

(بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى النجاشي ملك الحبشة، أسلم أنت، فإني أحمد إليك الله، الذي لا إله إلا هو، الملك القدوس، السلام المؤمن، المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول، فحملت به، فخلقه من روحه، ونفخه، كما خلق آدم بيده، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاتة على طاعته، وأن تتبعني، وتؤمن بالذي جاءني، فإني رسول الله، وإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل، وقد بلغت ونصحت، فاقبلوا نصيحتي، والسلام على من اتبع الهدى).

وكذلك كانت رسالته الى المقوقس عظيم القبط: (بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد بن عبد الله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم القبط، " قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ". (آل عمران: 64).

إن كل ذلك يدل على ان الرسول محمد (ص) لم يكن بصدد تغيير الأنظمة السياسية القائمة، بقدر ما كان يهتم بنشر الدعوة الاسلامية، فضلاً عن أن يكون بصدد تشكيل حكومة دينية مشابهة للحكومات اليهودية القديمة التي كان يقودها الكهنة والأحبار، أو مشابهة للحكومات المسيحية التي كان يقودها القياصرة بدعم من بابوات الكنيسة في العصور الوسطى. حيث لم يقر الرسول نظام ازدواج السلطتين الزمنية والدينية. ولم يؤسس سلطة دينية كالكنيسة عند المسيحيين، ولم يكِل إليها مهمة منح الشرعية للملوك ولا مهمة محاسبتهم أو مراقبتهم.

وخلالها لعادة ملوك ورؤساء القبائل في تلك الأيام بتوريث الحكم والخلافة الى أبنائهم وأهل بيتهم، فان النبي محمد (ص) لم يعين أحدا خليفة من بعده لا من أهل بيته ولا من أصحابه. ولم يضع دستورا للحكم من بعده، ولم يتحدث عن أسلوب تداول السلطة وطريقة انتخاب الحاكم أو صلاحياته، ولا عن تفاصيل العلاقة بين الحاكم والمحكوم، كما لم يؤسس مجلسا للشورى يضمن انتقال السلطة بعده بشكل آلي لمن يريد. مما يؤكد أن النبي محمد (ص) كان نبيا فقط ولم يكن ملكا، كما كان هو ينفى دائما أن يكون ملكا.

وسوف نترك القراء الكرام لكي يقرروا بأنفسهم، من خلال هذه الدراسة عن السيرة النبوية على ضوء القرآن الكريم، واستراتيجية الرسول الأعظم في الدعوة للاسلام.

٢- تقييم المصادر الرئيسية للبحث: التوراة والتلمود والانجيل والقرآن وكتب السيرة والحديث والأخبار

- ما هي التوراة؟ وما هو التلمود؟ وما هي قيمتهما التاريخية؟
- ما هي الأنجيل؟ من كتبها؟ ومتى؟ وما هي قيمتها التاريخية؟
- متى وكيف جمع القرآن الكريم

- تقييم مصادر السيرة النبوية:
- كتاب المغازي لابن إسحاق (سيرة ابن هشام)
- ب - كتب التاريخ الأخرى وكتب الحديث كالبخاري ومسلم وما شابه

- منهج البحث في الكتب التاريخية :
أ - المنهج العلمي الأكاديمي المستقل.
ب - المنهج الأيديولوجي

- ما هي التوراة؟ وما هو التلمود؟ وما هي قيمتهما التاريخية؟

"التوراة" هو كتاب اليهود المنسوب للنبي موسى، وهو يتألف من خمسة أسفار هي (التكوين والخروج واللاويين والعدد والتثنية). وأضاف عليها اليهود بعد موسى "التلمود" وهو يضم:

- (الأنبياء : القضاة، يشوع، صموئيل الأول، صموئيل الثاني، الملوك الأول، الملوك الثاني، أشعيا، إرميا، حزقيال، هوشع، يوشع، عاموس، عوبيديا، يونان، ميخا، نحوم، حبقوق، صفنيا، حجابي، زكريا، ملاخي)
- (الكتابات: الأشعار، المزامير، الأمثال، أيوب)
- اللغات الخمسة: نشيد سليمان، راعوت، المراثي، الجامعة، استير.
- النبوءة: دانيال.
- التاريخ: اخبار الأيام الأول، اخبار الأيام الثاني، عزرا، نحميا.

وللتوراة نسختان هما السامرية والعبرية اليهودية، كتبتا بعد السبي البابلي سنة ٥٨٦ ق.م عن الذاكرة اليهودية بعد ضياع النسخة الأصلية للتوراة التي يقول اليهود أنها انزلت على النبي موسى في جبل سيناء، قبل ذلك بقرون. ومن يطلع على "التوراة السامرية" ويقارن بينها وبين "التوراة العبرية" يرى أن الأولى تخلو من عقيدة التجسيم، بينما تصور الثانية (العبرية) الله كجسم يصعد وينزل ويتحرك ويتكلم. وأن الأولى (السامرية) تصرح بالنص على يوم القيامة، بينما تخلو (العبرانية) من ذلك، في حين يذكر العبرانيون يوم القيامة

في (أسفار الأنبياء) إلا أنهم يختلفون فيما بينهم: هل القيامة بالجسد والروح؟ أم بالروح فقط؟.

كما يوجد في بعض الأسفار غير القانونية التي كتبت باللغة اليونانية، حديث صريح عن بعث الأجساد في الآخرة، والثواب والعقاب والجنة والنار.

ويؤمن اليهود العبرانيون أيضا بالإضافة الى التوراة، بالتلمود (اسفار الأنبياء والكتب) الذي يؤلف معظم التراث اليهودي المعترف به من عامة اليهود، بينما يرفض اليهود السامريون الاعتراف بالتلمود. وفيما يرفض هؤلاء السامريون الاعتراف بأي نبي بعد موسى، ويقولون بأن من جاء بعده من الأحرار هم حاملون (أي: راؤون) لم ينزل عليهم وحي مباشر من السماء. يقول اليهود العبرانيون بأن محتوى التلمود بأسره قد أنزل على موسى بشكل شفهي فوق جبل سيناء وتم نقله من جيل الى آخر بصورة شفوية. ؟؟؟؟؟؟

وبالرغم من أن اليهود يعتقدون بأن "التوراة" أنزلت على موسى وكتبت في عهده، إلا أن من يقرأ التوراة بكل نسخها العبرانية، والسامرية، واليونانية، يدرك بوضوح أن كاتبها (أو كتابها) رجل متأخر (أو رجال متأخرون) عن موسى، حيث ورد في (سفر العدد، ٣: ١٢) مثلا: "وأما الرجل موسى فكان حليما جدا، أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض". وورد في (سفر التثنية، ٣٤: ٥-٦): "فمات هناك موسى عبد الرب في أرض مؤاب، حسب قول الرب، وتم دفنه في الجواء في أرض مؤاب، ولم يعرف انسان قبره الى هذا اليوم". وكما يقول أحمد حجازي السقا: "ليس في توراة موسى ما يدل على اسم الكاتب، وانما يشتبه في أن (عزرا) هو الكاتب، من آيات في سفر عزرا أو سفر نحemia، كما قرر اليهودي العبراني الفيلسوف الهولندي (باروخ سبينوزا، المتوفي سنة ١٦٧٧م) في كتابه: (رسالة في اللاهوت والسياسة) انه قرر بأدلة من التوراة العبرانية: أن موسى لم يكتب هذه التوراة. والسامريون يقولون: ان التوراة العبرانية كتبها عزرا".

وهذا ما يؤكد عالم الآثار اليهودي الإسرائيلي إسرايل فنكلشتاين، رئيس قسم علم الآثار في جامعة تل أبيب، وزميله الأميركي اليهودي نيل إشر سيلبرمان، اللذان ألفا كتابا تحت عنوان: "The Bible Unearthed" والذي ترجم الى

العربية تحت عنوان: "التوراة اليهودية (العبرية) مكشوفة على حقيقتها" وقدمنا دراسة نقدية مفصلة للتوراة، وقالنا فيه: "كان السؤال الأول: هل من الممكن أن يكون موسى هو - حقا - مؤلف كل الأسفار الخمسة الأولى من الكتاب المقدس العبري المعروفة بكتب موسى؟ كيف ذلك، والسفر الأخير منها - أي سفر التثنية - يصف - بتفصيل دقيق ظروف موت موسى، ووقت وفاته بالضبط. لقد اقنعت هذه العوامل بعض علماء القرن السابع عشر أن أسفار "الكتاب المقدس العبري" الخمسة الأولى - على الأقل - قد كتبت، ثم وسعت، وزينت لاحقا، من قبل محررين مجهولين، ومراجعين متعددين، على مدى عدة قرون".

وقالنا: "إن التوراة العبرية - بشكلها الحالي - كان قد كتبها كهنة يهود في عهد حكم الملك يوشيا، ملك يهوذا في القرن السابع قبل الميلاد، أي بعد فترة طويلة من الزمن الذي يفترض أنها أنزلت فيه".

وقالنا أيضا: "لم تكن تلك القصة التاريخية التي ترويها "التوراة" بدءا من لقاء إبراهيم مع الله ورحلته إلى كنعان، إلى تخليص موسى لبني إسرائيل من العبودية، وحتى صعود وانهيار مملكتي إسرائيل ويهوذا، وحيا اعجازيا، بل كانت نتاجا رائعا للخيال الإنساني الخصب. لقد تم تصورهما - حسبما نستنتج من الاكتشافات الأثرية الأخيرة - على مدى جيلين أو ثلاثة أجيال، قبل حوالي ستة وعشرين قرنا من الآن".

وأضاف الكاتبان اليهوديان: "لقد اتجه العلماء - بشكل تدريجي - إلى النتيجة الحتمية القائلة بأن الكتب الخمسة الأولى "للكتاب المقدس العبري" - كما نعرفها الآن - هي حصيلة عملية تحريرية معقدة، تم خلالها - تجميع الوثائق المصدرية الرئيسية الأربع (جي وإي وبي ودي)، ودمجها بشكل ماهر، وتم الربط بينها بشكل حاذق من قبل النساخ أو المنقحين. وأصبح الكل يجمع على أن الأسفار الخمسة (التوراة) ليست تأليفا فرديا واحدا (كتلة واحدة) بل تجميع وترقيع لمصادر مختلفة، كل منها كتب تحت ظروف تاريخية مختلفة، لإبداء وجهات نظر دينية، أو سياسية مختلفة".

واستشهد الكاتبان بقول "العالم التوراتي يوليوس فيلهاوزن على أن

قصص الآباء في كلا المصدرين اليهودي والإيلوهي انما عكست مخاوف الحكم الإسرائيلي الملكي المتأخر، التي تم اسقاطها على حياة الآباء الأسطوريين في ماض أسطوري بشكل كبير. وبناء عليه يجب النظر الى القصص التوراتية كأساطير وطنية لا يزيد أساسها التاريخي على الأساس التاريخي لأسفار "أوديسوس" في ملحمة هوميروس، أو قصة إينياس لمدينة روما في ملحمة فيرجل".

• ما هي الأنجيل؟ من كتبها؟ ومتى كتبت؟ وما هي قيمتها التاريخية؟

لم يترك النبي عيسى (ع) وراءه كتابا يجمع أقواله أو الآيات النازلة عليه من الله، وإنما أقوالا متناثرة رويت عنه، وجمعها رجال آخرون فيما بعد، وأضافوا إليها قصصا عن ولادته ونشأته ومعجزه وصلبه وقيامته، وما الى ذلك، وقد عرفت بـ "الأنجيل". وهي تعني "البشارات". وتوجد منها لدى المسيحيين أنجيل عديدة بعضها رسمية (قانونية) معترف بها من قبل الكنيسة، وأخرى توصف بأنها منحولة، ولكنها كانت منتشرة شعبيا ومؤثرة في صياغة العقائد المسيحية.

أما الأنجيل الرسمية فهي أربعة: إنجيل مرقس، وإنجيل لوقا، وإنجيل متى، وإنجيل يوحنا.

وقد ظهرت هذه الأنجيل باللغة اليونانية التي كانت لغة الثقافة في ذلك العصر، بعد رحيل النبي عيسى (30م أو 33م) بأربعين أو خمسين أو ستين عاما. ويعتبر إنجيل مرقس أقدم الأنجيل، إذ يعتقد أنه دُون نحو عام 70م ولكن قيمته العلمية أقل من بعض الأنجيل الأخرى، وذلك لأن مرقس لم يكن تلميذا لعيسى ولم يرَ ولم يسمع منه، سوى أنه رافق تلميذه بولس وبطرس. وكذلك إنجيل لوقا الذي دونه بعد مرقس بعد حوالي عشر سنين، دون أن يلتقي المسيح. وهو يسرد حياة المسيح ومماته وقيامته.

وأما كاتبا الإنجيلين الآخرين (متى ويوحنا) فهما كانا تلميذين مباشرين للسيد المسيح.

وبالرغم من اعتراف الكنيسة بتلك (الأنجيل) في أواسط القرن الثاني الميلادي، إلا أنها لم تتج من التشكيك بصحة نسبتها الى مؤلفيها أو صحة نسبة ما

ورد فيها الى السيد المسيح، وذلك لأنها لم تكتب فوراً في أيام السيد المسيح، وإنما جمعت بعد عشرات السنين من الأفواه بصورة غير مباشرة.

والى جانب تلك الأناجيل الأربعة (الرسمية) توجد أناجيل أخرى غير مسندة كإنجيل متى (المنحول) الذي يتحدث عن أصل مريم وطفولة المخلص، ولكن لا توجد نسخة أصلية منه، سوى ترجمة لاتينية واحدة عن نسخة يونانية، تعود بتاريخها الى القرن الثامن الميلادي، عن أصل غير معروف بالضبط زمن كتابته. ويعرف هذا الإنجيل أيضا بـ "الإنجيل العبراني" أو "الإنجيل بالعبرانية" أو "الإنجيل بحسب العبرانيين" وهو إنجيل الفرقة "الأبيونية".

وربما كان (إنجيل يعقوب) أقدم من إنجيل مرقس، وأقرب الأناجيل الى عهد المسيح، فهو يعزى الى "يعقوب أخي الرب" ابن يوسف النجار، ويتضمن الأحداث الأولية عن المسيح، منذ حمل مريم العذراء. ولكن الكنيسة لم تعترف بهذا الإنجيل واعتبرته "منحولا" (أبوكريفا).

وهناك أناجيل أخرى أقل شأنا وأكثر ضعفا مثل (إنجيل توما الاسرائيلي) المكتوب في القرن الخامس الميلادي، ولكنه يعتمد على نص سرياني أقدم منه لا يُعرف تاريخه. وكذلك (إنجيل الطفولة العربي) المترجم عن السريانية، الذي يعتمد على إنجيل يعقوب وإنجيل متى المنحول وإنجيل توما الاسرائيلي، مما يحتمل كتابته في زمن متأخر. و(إنجيل ميلاد مريم) الذي كتب أولا باللاتينية حوالي سنة 800م، وان كان البعض يرى أن استخدامه بدأ في القرن السادس، كما كان البعض يظن، ولمدة طويلة، أن كاتبه هو القديس جيروم في القرن الخامس. ويعتمد في رواياته على نفس الأفكار والخطوط الموجودة في الجزء الأول من الكتاب الأبوكريفي المسمى (بإنجيل متى) المنحول. ويوجد نص هذا الكتاب في موقع الأنبا تكلا هيمانوت.

• متى وكيف جمع القرآن الكريم؟

كانت عملية الانتشار الأولى التي مرَّ بها الوحي القرآني، شفوية من فم النبي الى أسماع الأصحاب، الذين كانوا يتناقلون الآيات من واحد الى آخر، قبل أن يكتبها بعضهم أحيانا. وهو ما يؤكد ابن الجزري الذي يقول " إن الاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور، لا على خط المصاحف والكتب".

ومع ذلك فهناك مؤشرات كثيرة على أن النبي اهتم بكتابة القرآن واتخذ له كتابا للوحي . الا انه لم يكن من المتوقع أن يكون الكتاب القلائل الذين يعدون على أصابع اليد الواحدة ملازمين للنبي دائما حتى يكتبوا الوحي أولاً بأول.

وقد مرَّ (القرآن) في طريقه ليصبح (كتابا) برحلة طويلة وعسيرة في ظروف بدائية متخلفة جدا من حيث تقنيات الكتابة، فقد كانت الأمية متفشية في أهل مكة، وكان الذين يحسنون القراءة والكتابة يعدون على الأصابع، وكانت الحروف العربية بدائية بلا نقاط ولا حركات، وكان الورق ووسائل الكتابة الأخرى كالأحبار نادرة وبدائية، وكما يقول زيد بن ثابت (أحد كتاب الوحي في المدينة الذي كتب لأبي بكر وعثمان المصحف): إنهم كانوا يكتبون على مثل الرقاع (وهي جمع رقعة وقد تكون من جلد أو ورق أو كاغد) واللخاف (وهي جمع لخفة أي الحجارة الدقاق أو صفائح الحجارة) والعسب (جمع عسيب وهو جريد النخل أو الطرف العريض بعد كشف الخوص عنه) والأكتاف (جمع كتف وهو عظم البعير أو الشاة) والأقتاب (جمع قتب وهو الخشب الذي يوضع على ظهر البعير ليركب عليه) وقطع الأديم أي (الجلد).

ونظرا لطريقة نزول القرآن منجما خلال 23 سنة، فقد كان من المستحيل أن يجمع القرآن كله في حياة رسول الله في مصحف واحد. وإذا أخذنا بنظر الاعتبار موضوع ترتيب الآيات في السور، وقيام النبي بوضع آيات جديدة في مواضع معينة بين الآيات القديمة، وكما يقول السيوطي فقد كان الرسول يضع الآيات الجديدة بعض الأحيان في وسط آيات أو سور سابقة، حيث كان يقول: "ضعوا آية كذا في موضع كذا". وهكذا كانت تضاف إلى الأجزاء التي كانت مجموعة آنذاك مقاطع أخرى إلى أن تصبح سورة مكتملة.

وقد كان هذا التداخل بين الآيات يضيف صعوبة زائدة على عملية الكتابة وإعادة الكتابة على الورق واللخاف والجلود والعظام، حيث كان من الصعب محو الكتابات السابقة وإعادة كتابتها من جديد لافساح المجال للآيات الجديدة على نفس تلك الصفحات، وربطها بالسابقة واللاحقة. وهذا ما كان

يترك المکتوب عرضة للاختلاف عن المقرء والمحفوف ، ويدعو للاعتماد في حفظ القرآن بصورة رئيسية على الأذهان والصدور. ولا تعني كلمة "ضعوا آية كذا في موضع كذا" بالضرورة وضع الآية الجديدة فعلا بين السطور المكتوبة وإنما قد تعني وضعها في التلاوة والترتيب القرآني. ولهذا قال الزركشي: " وإنما لم يكتب في عهد النبي (ص) مصحف لئلا يفضي الى تغييره في كل وقت، فلهذا تأخرت كتابته الى أن كمل نزول القرآن بموته (ص)". وقد ذكر السيوطي أن القرآن قد كتب كله في عهد النبي، وبقي محافظا عليه بعناية بالغة لكن لم يجمع في موضع واحد قبل موته.

وهناك أمر آخر كان يمنع من كتابة القرآن في مصحف واحد في زمن الرسول، ويعقد عملية الكتابة أيضا، وهو النسخ والتبديل، أو حذف بعض الآيات وإنسائها النبي والمسلمين بالمرّة، كما يقول تعالى: "مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ". (البقرة 106) و"وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ". (النحل 6).

وقد قام الخليفة الثالث عثمان بن عفان، بجمع القرآن، في مصحف واحد أطلق عليه: "المصحف العثماني" وارسل عدة نسخ منه الى العواصم الاسلامية في مكة والكوفة والبصرة واليمن والشام. ولكن ذلك المصحف لم يعرف التنقيط والإعجام والحركات، التي أضيفت في وقت متأخر من القرن الأول الهجري، ولذلك نشأت القراءات السبع، في القرون الثلاثة الأولى، واختلفت المصاحف المتداولة اليوم بين المسلمين فيما بينها حسب القراءات المختلفة.

• تقييم مصادر السيرة النبوية

وإذا كان القرآن قد كتب وسجل عند نزوله، وجمع بعد ذلك في عهد الصحابة، فإن تفاصيل السيرة النبوية والأحاديث النبوية، وأخبار الغزوات، والأحداث المختلفة، لم تكن تسجل في زمن الرسول الأعظم ولم تكتب أيضا في عهد الصحابة، ولم يبدأ الاهتمام بتسجيل التاريخ الاسلامي إلا بعد حين، ومن قبل الجيل الثاني أو بالأحرى من صغار الصحابة كعبد الله بن عباس (68هـ)، وعبد الله بن عمرو بن العاص (65هـ)، و البراء بن عازب (72هـ) الذين كانوا يجمعون الأخبار ويحدثون بها في الكتاتيب أو في المساجد أو في المجالس العلمية. ومن هنا فقد عانت السيرة النبوية من مشكلة التوثيق التي انعكست على تكوين صورة دقيقة عما حدث في تجربة الرسول السياسية والعسكرية والدعوية.

وعندما بدأ بعض التابعين كعروة بن الزبير (92 هـ) وأبان بن عثمان بن عفان (105 هـ) و وهب بن منبه (110 هـ) و شرحبيل بن سعد (123هـ) ومحمد بن مسلم بن شهاب الزهري (124هـ) بكتابة التاريخ الاسلامي اضطروا الى تسجيل ما تيسر لهم وما جمعه من الأقواه بدون القدرة على إسناد أخبارهم بشكل موصول وموثوق.

ورغم أهمية ما كتب عروة بن الزبير وما دونه من أخبار خاصة بحياة الرسول، واهتمامه في غالب الأحيان بالاسناد، وقربه من مصادر الأخبار، حيث كان ينقل كثيرا عن خالته السيدة عائشة، إلا أن علاقته الوثيقة بالحاكم الأموي عبد الملك بن مروان، تلقي ظلالا من الشك على حياد عروة، رغم تلقي المؤرخين اللاحقين كابن اسحاق والواقدي وابن سعد والطبري، لكتاباتة بالقبول، والرواية عنه. وعلى أية حال فقد ضاع أصل كتاب عروة، واعتمد المؤرخون المتأخرون على ما نقل عنه بدون إسناد دقيق.

ولم يصلنا مما كتب المؤرخون الأولون سوى كتاب (المغازي) لموسى بن عقبة (140هـ) وكتاب (المغازي) لمحمد بن إسحاق (151هـ).

وقد أثنى الإمام مالك على كتاب موسى بن عقبة وشجع على الاعتماد عليه قائلاً: "عليكم بمغازي موسى بن عقبة فإنه رجل ثقة طلبها على كبر السن ليقيد من شهد مع رسول الله (ص)، ولم يكثر كما كثر غيره". وقال مرة

وقد سأله أحدهم عن المغازي: "عليك بمغازي الرجل الصالح موسى بن عقبة فإنها أصح المغازي". بينما شكك مالك بكتاب ابن اسحاق وقال عنه: "إنه دجال من الدجاجلة". وقد حاول علماء الرجال اللاحقون الدفاع عن ابن اسحاق وإعادة الاعتبار اليه، وتحليل سبب اتهام مالك له.

وقال محمد بن سيد الناس (734هـ): "لم يكن يقدر فيه مالك من أجل الحديث إنما ينكر عليه تتبعه غزوات النبي من أولاد اليهود الذين أسلموا، وحفظوا قصة خيبر وقريظة والنضير، وما أشبه ذلك من أسلافهم. وكان ابن إسحاق يتتبع ذلك عنهم ليعلم ذلك من غير أن يحتج بهم، وكان مالك لا يرى الرواية إلا عن متقن صدوق". وقد نقل ابن سيد الناس أقوال كثير من العلماء السابقين في توثيق ابن اسحاق وتصحيح أحاديثه، كما نقل أقوال آخرين تضعفه، وقال: "روينا عن يعقوب بن شيبه قال: سمعت محمد بن عبد الله بن نمير، وذكر ابن اسحاق فقال: إذا حدث عن سمع منه من المعروفين فهو حسن الحديث صدوق، وإنما أتى من أنه يحدث عن المجهولين أحاديث باطلة". وأضاف: "قال أبو داود سمعت أحمد بن حنبل ذكره فقال: كان رجلا يشتهي الحديث فيأخذ كتب الناس فيضعها في كتبه". "وقال يحيى القطان: ما تركت حديثه إلا لله، أشهد أنه كذاب".

وإضافة الى ذلك فقد عانى (مغازي) ابن إسحاق من مشكلة السند، حيث أورد بعض الأخبار بأسانيد متصلة، وبعضها بسند منقطع ومنفصل، في حين أورد بعضها بدون إسناد، بهذه الصيغة: "حدثني بعض أهل مكة". أو "حدثني من لا أتهم". وعبر عن شكه أحيانا بصحة الرواية فيما ينقل بقوله: "فيما يذكرون" أو "فيما يزعمون". ولذلك لم يعتبر المحدثون مروياته صحيحة، وإنما اعتبروها حسنة فوق الضعيفة، وربما خطأ أو وهم. وبما أن ابن اسحاق كان يتحدث عن السيرة والتاريخ فلم يتشدد الأئمة في النقل عنه، وذلك لتسامحهم في أدلة السنن.

ومع كل هذه الملاحظات، فقد ضاع أصل كتاب (المغازي) لابن اسحاق، ولم يصل إلينا منه سوى ما اختصره ابن هشام (218هـ) وحذف منه كثيرا من الأسانيد، والأشعار المنتحلة، والروايات الاسرائيلية، وأضاف عليه، وكتبه

تحت عنوان (السيرة النبوية).

ومن المعروف أن ابن هشام لم يلتق بابن اسحاق ولم يأخذ كتابه عنه وإنما أخذه عن تلميذه زياد بن عبد الله البكائي (183 هـ). وزياد هذا مختلف في وثاقته وضبطه، فقد قال عنه أحمد: "ليس به بأس" وقال ابن معين: "ثقة في ابن اسحاق" بينما قال ابن المديني: "لا أروي عنه شيئاً"، وقال صالح جزرة: "هو في نفسه ضعيف في الحديث، لكنه من أثبت الناس في المغازي"، وقال النسائي: "ليس بالقوي"، وقال أبو حاتم: "لا يحتج به"، وقال الترمذي: "كثير المناكير". وهو ما يزيد كتاب (المغازي) لابن اسحاق ضعفاً على ضعف.

وإذا كان كتاب ابن اسحاق (المغازي، الشهير بسيرة ابن هشام) على هذا المستوى من الضعف، فإن كتب السيرة الأخرى المؤلفة في القرن الثاني والثالث الهجري أكثر ضعفاً منه، ومنها كتاب (المغازي) للواقدي محمد بن عمر (ت 207هـ) الذي خالف ابن إسحاق في الابتعاد عن طريقة المحدثين، وعدم الالتزام بالأسانيد، وألفاظ الرواة، وساق المغازي في نسق واحد مترابط الأحداث في أسلوب قصصي واضح العبارة مما ييسر حفظها على عامة الناس، وقد اتبع في كتابته منهجاً يقوم أحياناً على ذكر الأسانيد مجموعة في أول كل غزوة أو سرية، وأحياناً لا يذكرها اعتماداً على ما ذكره في أول الكتاب، ويكتفي بقوله: "قالوا". وقد ذكر الخطيب البغدادي بأن الواقدي يركب الأسانيد. وسئل إبراهيم الحربي عما أنكره أحمد على الواقدي، فقال: إنما أنكر عليه جمعه الأسانيد ومجيئه بالمتن واحداً. ولذلك اتهمه النقاد بالكذب والوضع، وحكموا عليه بأنه متروك. وقال عنه الذهبي: "جمع فأوعى، وخلط الغث بالسمين، والخرز بالورد الثمين، فاطرحوه لذلك، ومع هذا فلا يستغنى عنه في المغازي وأيام الصحابة وأخبارهم... وقد تقرر أن الواقدي ضعيف، يحتاج إليه في الغزوات والتاريخ، ونورد آثاره من غير احتجاج، أما في الفرائض، فلا ينبغي أن يذكر".

وإذا عرفنا حال الواقدي فسوف نعرف حال تلميذه محمد بن سعد (ت

230هـ) صاحب "الطبقات الكبرى" الذي كثيرا ما يروي بدون إسناد، وكذلك تلميذه أحمد بن يحيى البلاذري (ت 279هـ) صاحب "فتوح البلدان" و"أنساب الأشراف" الذي كان يعمل في البلاط العباسي، و ينظر إليه المحدثون إليه نظرة تضيف.

وأما كتاب (تاريخ الرسل والملوك) لأبي جعفر بن جرير الطبري (ت 310هـ) فيعتبر من أهم وأشهر الكتب التي تتحدث عن السيرة النبوية. ومؤلفه يعد من الثقات، ويعول عليه في دراسة تاريخ صدر الإسلام، ولكنه متأخر اعتمد على (مغازي) ابن إسحاق، وبعض مؤرخي السيرة، بما تيسر له من أسانيد. ولم يهتم بنقد الروايات من حيث الصحة والضعف.

ويمكن أن نضيف إليه كتاب الطبري الآخر الذي ألفه في تفسير القرآن، ولكنه احتوى على معلومات تاريخية، وهو (جامع البيان عن تأويل أي القرآن). وهذا الكتاب يعاني أيضا من مشكلة السند في كثير مما نقل من روايات عن الصحابة والتابعين.

ويليه في الضعف كتاب

"مروج الذهب ومعادن الجوهر" لأبي الحسن علي بن الحسين المسعودي (346هـ) الذي اختصر روايات السيرة، ولم يهتم بالاسناد، واعتمد في رواياته أيضا على كتاب ابن إسحاق.

ونخلص من كل ذلك الى أن ما ورد في مصادر السيرة من معلومات وروايات يوجد فيها الصحيح والحسن والضعيف والمكذوب على رسول الله (ص)، وتسوق كثيرا من الروايات بأسانيد مرسلة ومنقطعة، أو تدمج الروايات وتجمع الأسانيد وتسوقها مساقاً واحداً دون تمييز ألفاظ الرواة كما هو الشأن عند علماء الحديث، ولذا فانها تقع بين القبول والرفض، ولا يمكن الاعتماد بصورة مطلقة عليها، الا اذا تضمنت سندا صحيحا متصلا، وهو قليل جدا، بالاضافة الى النظر الى محتوى تلك الأخبار وتحليلها والمقارنة بينها وبين ما ورد في كتب الحديث. علما بأن بعض أخبار السيرة لا تصل في ثبوتها وعدالة روايتها واتصال أسانيدتها إلى درجة الأحاديث النبوية، ولذلك لا يمكن الاعتماد عليها في موضوع العقائد أو التشريع. وقد روي عن

الإمام أحمد بن حنبل أنه قال: "إذا روينا عن رسول الله (ص) في الحلال والحرام والسنن والأحكام تشددنا في الأسانيد، وإذا روينا عن النبي (ص) في فضائل الأعمال وما لا يضع حكماً أو يرفعه تساهلنا في الأسانيد".

هذا ومن الجدير بالذكر أن كتب الحديث كالبخاري ومسلم وكتب الصحاح والسنن تعتمد أيضاً في رواية السيرة النبوية على ابن إسحاق والواقدي وابن سعد وغيرهم لأن كتب المغازي والسير سدت ثغرات كثيرة في التاريخ الإسلامي وخاصة في جانب السيرة النبوية. ولكن كتب الحديث لا تورد تفاصيل المغازي، وأحداث السيرة بل تقتصر على بعض ذلك، مما ينضوي تحت شرط المؤلف أو وقعت له روايته، وربما حذفت بعض التفاصيل التي لم تعجب المحدث أو لم تتفق مع أيديولوجيته.

ويشار إلى أن أهم كتب الحديث التي ذكرت طرفاً من أخبار الرسول وأخبار غزواته، وسراياه وبعوثه، وشمائله هي:

- 1- موطأ الإمام مالك (179هـ).
- 2- صحيح البخاري (256هـ)
- 3- صحيح مسلم (261هـ)
- 4- مسند الإمام أحمد بن حنبل (241هـ)
- 5- سنن أبي داود.
- 6- سنن الترمذي.
- 7- سنن ابن ماجه.
- 8- سنن النسائي.
- 9- سنن الدارمي (ت 255هـ)
- 10- كتب التراجم، والرجال، والأنساب، ودواوين الأدب وغيرها.

• منهج البحث في الكتب التاريخية

هناك منهجان في دراسة ومعرفة الأحداث التاريخية، وهما:

أ- المنهج العلمي الأكاديمي المستقل الذي يبحث ويدقق ويقارن ويعتمد على مصادر موثوقة، ويحاول التأكد من كل رواية، ويميز بين

المتواتر، والمشهور وخبر الآحاد المسند والمرسل أو المقطوع.
ب - المنهج الأيديولوجي الذي يرفض البحث التاريخي أساسا ويشكك بجميع المصادر التاريخية، ويدعي استخدام العقل أو الاعتماد فقط على ما ورد في القرآن الكريم من إشارات تاريخية، ويؤمن بقبول بعض الروايات أو رفضها بناء على النظر العقلي، أو اتفاقها، أو تعارضها مع القرآن الكريم، أو في الحقيقة بناء على فهم خاص لبعض آيات القرآن، وهو ما يعني الالتزام بموقف أيديولوجي مسبق من أحداث التاريخ بعيدا عن النظر والتحقيق. ويتميز هذا المنهج بالاعتراف أو عدم الاعتراف ببعض الحقائق رغم توفر الأدلة التاريخية المتواترة عليها أو ضدها.

وإذا أردنا أن نضرب مثلا على ذلك، من ثانيا السيرة النبوية، فيمكننا أن نأخذ موضوع استرقاق الرجال والنساء والأولاد في الحروب التي حدثت خلال المرحلة المدنية، حيث يعتمد البعض على البحث التاريخي الأكاديمي المستقل فيثبت أو ينفي الموضوع؟ تبعا لتواتر الرواية وصحتها أو ضعفها، بينما يعتمد البعض الآخر المنهج الأيديولوجي المسبق الذي يقوم على أن الاسلام جاء لكي يحرر الناس وبالتالي فمن المستحيل أن يقبل باسترقاق أحد، بناء على فهم بعض الآيات القرآنية، ويرفض البحث أساسا في أية روايات تاريخية مناقضة لما يدور في ذهنه.

وهذا ما يقودنا الى بحث موضوع التواتر وأخبار الآحاد، الذي يخلط فيه كثير من الناس فيرفضون التسليم بالمتواتر بحجة التشكيك بخبر الآحاد، وربما يطلقون اسم خبر الآحاد على المتواتر، أو المتواتر على خبر الآحاد، وذلك بسبب شيوع ادعاء الكثير من المحدثين والأخباريين والمتكلمين إطلاق اسم (المتواتر) على أخبار الآحاد الضعيفة. ولكن ذلك لا يمنع الباحث المحقق من التمييز بين الاثنين بتحرير محل النزاع، والقول بأن المتواتر هو الخبر الذي لا يشك به أحد سواء كان مسلما أو نصرانيا أو يهوديا أو ملحدا، وهو الخبر المتحصل من مصادر متعددة والمقترن بشواهد تمنع اتفاق جماعة مشبوهة على تأليف ذلك الخبر، مما يورث العلم واليقين وارتفاع الشك،

كوجود شخص النبي محمد أو كبار الصحابة، أو مدينة مكة والمدينة، أو حرب بدر وأحد، وما شابه، وأما أخبار الآحاد فهي الأخبار التفصيلية التي قد يشك أحياناً بحدوثها، أو بعض الأقوال المنسوبة للنبي أو لهذا أو ذاك، أو الادعاء بوجود رجال غامضين أو مشكوكين.

وكمثال على ذلك، قد نأخذ موضوع طريقة كتابة القرآن في عهد الرسول الأعظم، على اللخاف والخشب والجلود، ذلك الخبر الذي يتردد في طيات الأحاديث وكتب السيرة، فنصدق الخبر ولا يتطرق إلينا الشك بأن ابن اسحاق مثلاً يكذب هنا أو يحاول التلاعب بالحقيقة، ولكننا نتوقف عندما يخبرنا ابن اسحاق وسائر المؤرخين عن شق الملائكة لصدر النبي وهو طفل صغير يرضع عند حليلة السعدية، وغسل قلبه، فنشك بهذا الخبر ونحتمل أن يكون موضوعاً في وقت متأخر، أو يكون حلماً أو ادعاءً من قبل شخص معين. فنسمي هذا الخبر (خبر آحاد) ونصنفه بأنه خبر صحيح أو حسن أو ضعيف أو موضوع.

وعلى رغم اعترافنا بضعف كتب التاريخ الإسلامية، فإننا يمكن أن نتعرف على بعض الأخبار المتواترة فيها، وكما عرفنا التواتر أنفاً، فإنه الخبر الذي يورث العلم والقطع، ولا يشك فيه مسلم أو مسيحي أو يهودي أو بوذي أو ملحد، كموضوع طريقة الكتابة في عهد الرسول، أو أسماء زوجات النبي، وكون بعضهن سبايا أو إماء، كصفية بنت حيي بن أخطب زعيم اليهود في خيبر، أو مارية القبطية التي أهداها المقوقس المصري رداً على دعوة النبي له للإسلام، وولادتها لإبراهيم ابن النبي. فهناك بعض الأخبار لا يمكن لأي كاتب أو راو مهما كان ضعيفاً أو كذاباً أن يخلقها وينسبها للنبي أو لأحد من الناس، ثم يرويها للناس الذي كانوا يتداولون الحديث عنها بصورة متواترة ويعرفونها حق المعرفة في الوقت الذي لم يمض على تلك الأحداث قرن من الزمان. وفي الحقيقة يمكننا أن نتوقع خطأ المؤرخين في بعض الأمور التفصيلية الجزئية كعمر السيدة عائشة عند الزواج، وهل كان في التاسعة أو العاشرة، نظراً إلى عدم دقة الناس في تلك الأيام بتسجيل تاريخ الولادة والوفاة والأعمار، ولكن لا يمكن الشك بزواج السيدة عائشة من النبي

مثلاً، وكذلك لا يمكن الشك بزواجه من صفية أو مارية أو غيرها من النساء. ان المؤرخين الأولين لم يكونوا يتحدثون للمسلمين العرب عن تاريخ سيرة نبي في الصين أو في الهند أو في أميركا الجنوبية، وإنما عن نبي عاش بينهم، وله أصحاب وتابعون وعشيرة وأهل وذرية، ولم ينكر أحد منهم على المؤرخين فيما ذكروه الا في مواضع معينة، أو روايات أحاد مشبوهة ومتهمة بالاختلاق كرواية الطبري (310هـ) عن سيف بن عمر (200هـ) حول أسطورة ابن سبأ ودوره في الثورة على عثمان، وهي رواية تحاول تبرئة عثمان والقاء اللوم بالثورة على رجل يهودي يماني مسلم، ولكن حقائق التاريخ الأخرى ليست كلها مثل هذه الرواية الفردية المتهمة.

ان بعض القراء المعاصرين للتاريخ الاسلامي، يحاول أن ينسف كتب التاريخ برمتها بحجة احتوائها على روايات ضعيفة أو اسرائيلية، أو غير معقولة، أو تتنافى مع ما يفهمه من القرآن الكريم، ولا يتوقف ليميز بين المتواتر والآحاد، بناء على موقف أيديولوجي مسبق.

وهكذا يمكننا التعرف على بعض الحقائق التاريخية المتواترة والمتناثرة، والتصديق ببعضها حتى لو كانت روايات أحاد، أو مقطوعة السند، أو مروية عن كتاب ضعاف، لاكتنافها بالقطع واليقين، وعدم حصول الشك فيها. في حين لا يجوز رفض بعض الأحداث والأقوال لمجرد تعارضها مع ما نفهم من القرآن. وأساساً لا يمكننا كباحثين محايدين مستقلين (بعيدا عن هويتنا الدينية الاسلامية) أن نقرأ التاريخ الاسلامي والسيرة النبوية بعيون إسلامية قرآنية مثالية، فنقبل مع ما يتفق مع القرآن وما يزكي الرسول الأعظم، ونرفض ما يشير أو ما يفهم منه وجود تناقض بين بعض آيات القرآن أو بين سيرة الرسول والقرآن، ولا ادعي وجود مثل هذا التناقض، وإنما أقول: يجب أن نبحث الأمور بصورة مستقلة قبل أن نستند الى هويتنا الدينية والتزامنا بالقرآن وبمثالية أخلاق النبي، ولا بد ان نلتزم جانب البحث العلمي المستقل قبل أن نرفض أو نقبل أي شيء بناء على التزامنا بعقيدتنا. وهذا ما أطلق عليه "المنهج العلمي" المتميز عن "المنهج الأيديولوجي".

وهذا في نظري منهج مهم في قراءة السيرة النبوية، وشرط للوصول في

البحث الى شاطئ العلم واليقين.

الجزء الأول :

الوحي والنبوة والأنبياء عبر التاريخ

يضم ثلاثة أبواب:

- 1- الوحي والنبوة والأنبياء قبل الإسلام، على ضوء التوراة والتلمود والانجيل والقرآن
- 2- اليهود والنصارى والصابئة والمجوس عشية ظهور الإسلام
- 3- العرب الأحناف والمشركون، عشية الدعوة الإسلامية

الباب الأول:

الوحي والنبوة والأنبياء قبل الإسلام

طبيعة الوحي الى الأنبياء السابقين، في التوراة والتلمود والانجيل والقرآن

يضم عشرة فصول

مقدمة:

أحاطت دعوة النبي الأكرم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) منذ بدايتها شبهات وتشكيكات من قبل المشركين والملحدين وأصحاب الديانات اليهودية والمسيحية وغيرهما، سواء بالنسبة لطبيعة الوحي النازل على النبي، أو مضمون الرسالة الإسلامية، أو بعض المواقف السياسية والتشريعات المختلفة. ولكي نتعرف بصورة جيدة على طبيعة الدعوة النبوية المحمدية، يجدر بنا القاء بعض الضوء على طبيعة الديانات السابقة للإسلام، كديانات الأنبياء القدماء، أو الديانتين اليهودية والمسيحية. ومقارنتها بالإسلام. وهذا ما دعا اليه النبي محمد (ص) نفسه عندما واجه كفار قريش المعارضين له، واتهاماتهم له بتأليف القرآن وإدعاء النبوة، حيث ورد في القرآن الكريم: ”وَإِذَا تُلِيٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ

الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ، أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ، كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ، قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَاٍ مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفَعَّلُ بِي وَلَا بِيَكُم ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ” . (٨-٩ الأحقاف)

وهنا يرجع القرآن المشككين بنبوة النبي محمد (ص) الى النظر في طبيعة الوحي النبوي المحمدي ومقارنته بالوحي للأنبياء السابقين، وهذا ما سنقوم به من خلال استعراض طبيعة الوحي والنبوة للأنبياء السابقين، كما وردت في التوراة والانجيل، والقرآن الكريم، ثم نقارن بينها وبين ما ورد عن نبوة الرسول الأعظم (ص) في القرآن والسيرة النبوية.

تتحدث الكتب الدينية الثلاثة (التوراة والانجيل والقرآن) عن الوحي والنبوة والأنبياء. وفي الوقت الذي تتفق فيما بينها في كثير من الأمور فانها تتضمن اختلافات يسيرة وأخرى عظيمة، وهي تنطوي على سبعة أنماط من النبوة والأنبياء:

الأول: النبوة التي يتحدث الله فيها مباشرة مع النبي ويكلمه تكليما. كما يقول القرآن الكريم: "تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض، منهم من كلم الله". (البقرة، ٢٥٣)

الثاني: النبوة عبر العلاقة الخاصة مع الله، والتأييد بروح القدس، كما يعبر عنها القرآن: "وآتينا عيسى بن مريم البينات، وأيدناه بروح القدس". (البقرة، ٢٥٣)

الثالث: "الانزال" أي انزال النص مكتوبا من الله، وليس للنبي أي دور في صياغته.

الرابع: النبوة التي تتم بواسطة الملائكة.

الخامس: الالهام، الذي يلهم الله النبي بعض المعاني، فيحدث بها بلسانه ويكتبها بقلمه.

السادس: الوحي بانزال المعاني على قلب النبي.

السابع: النبوة التي تتم بالرؤى والأحلام، ويطلق على هذا النوع من الأنبياء: الرائي، أو الحالم.

وقد ينفرد كل نبي بنوع من الوحي، كما قد يجمع بعض الأنبياء عدة أشكال من الوحي كالتكلم المباشر، والالهام، ونزول الملائكة، والرؤيا في الحلم.

وأما النبوة في المسيحية، فهي تختلط في الانجيل مع الاعتقاد بالوهية عيسى، حيث لا مجال لنزول الوحي عليه من الله. وكما هو معرف أيضا فان للإنجيل نسخا عديدة كتبت بعد رحيل النبي عيسى بعقود من الزمن (ما بين ٧٥ و ١٥٠ م)، وقام بكتابتها تلامذته والمؤمنون به، وهي نسخ بعضها رسمية وأخرى شعبية غير معترف بها من قبل الكنيسة، والنسخ الرسمية المعروفة هي اربع (متى ولوقا ومرقص ويوحنا)، واما النسخ الشعبية فهي أكثر من ذلك.

ونحاول فيما يلي تقديم صورة أو صور متعددة، عن مفهوم الوحي والنبوة والأنبياء قبل الإسلام، في الكتب الثلاثة، تمهيدا لبحث صورة الوحي النازل على النبي محمد (ص) وأنواعه، ومضمون رسالته.

الفصل الأول: الوحي الى الانسان الأول أبي الأنبياء آدم (ع)

يبتدئ الوحي الإلهي للإنسان بالوحي لأبي البشر آدم، منذ لحظات خلقه الأولى، بصورة مباشرة، حيث تقول التوراة: "أَخَذَ الرَّبُّ الْإِلَهَ آدَمَ وَوَضَعَهُ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ لِيَعْمَلَهَا وَيَحْفَظَهَا. وَأَوْصَى الرَّبُّ الْإِلَهَ آدَمَ قَائِلًا: "مِنْ جَمِيعِ شَجَرِ الْجَنَّةِ تَأْكُلُ أَكْلًا. وَأَمَّا شَجَرَةُ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فَلَا تَأْكُلْ مِنْهَا لِأَنَّكَ يَوْمَ تَأْكُلُ مِنْهَا مَوْتًا تَمُوتُ. وَجَبَلَ الرَّبُّ الْإِلَهَ مِنَ الْأَرْضِ كُلَّ حَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ وَكُلَّ طُيُورِ السَّمَاءِ فَأَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ لِيَرَى مَاذَا يَدْعُوهَا وَكُلُّ مَا دَعَا بِهِ آدَمُ ذَاتَ نَفْسٍ حَيَّةٍ فَهُوَ اسْمُهَا. فَدَعَا آدَمُ بِأَسْمَاءِ جَمِيعِ الْبَهَائِمِ وَطُيُورِ السَّمَاءِ وَجَمِيعِ حَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ." (التكوين، ٢)

وهذا ما يؤكد القرآن الكريم الذي يتفق فيه مع التوراة بصورة عامة، ولكنه

يضيف الى الموضوع بعدا آخر، حيث يضع مسألة تعليم آدم للأسماء في إطار الجدل مع الملائكة الذين اعترضوا على خلق آدم عندما أخبرهم الله بنيته على فعل ذلك، ومحاولة لإثبات عظمة الانسان، حيث يقول: " وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة، قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك، قال: إني أعلم ما لا تعلمون. وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين، قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا أنك إنك أنت العليم الحكيم، قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم، فلما أنبأهم بأسمائهم، قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون". (البقرة، ٣٠- ٣٣) وبعد نجاح آدم في الامتحان أمام الملائكة، يأتي الأمر من الله: " وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين" (البقرة ٣٤) وهنا يتوجه الله تعالى الى آدم وزوجه بهذا القول: " وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة، وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين، فأضلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه، وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع الى حين، فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه أنه هو التواب الرحيم". (البقرة، ٣٥-٣٧)

ومن الجدير بالذكر ملاحظة الفوارق التالية بين التوراة والقرآن:

- فان القرآن يبدأ الحديث عن خلق الانسان، بحوار جرى بين الله والملائكة " وإذ قال ربك إني جاعل في الأرض خليفة... " وهذا ما لا تتحدث عنه التوراة.
- وفيما تذكر التوراة أن الله وضع آدم في جنة عدن، لا يذكر القرآن اسم الجنة وفيما إذا كانت في السماء أو الأرض.
- وبينما تشرح التوراة طبيعة الشجرة التي نهى الله آدم عن الأكل منها، وهي (شجرة معرفة الخير والشر) يجمل القرآن الحديث عنها في سورة البقرة، ويكتفي بالقول "وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين". (البقرة ٣٥) ولكنه يشرح في سورة طه طبيعة الشجرة فيقول انها: "شجرة الخلد وملك لا يبلى" (طه ١٢٠)
- وبينما يكون الخطاب في التوراة مفردا لآدم، قبل خلق حواء، يكون

الخطاب الإلهي في القرآن مشتركا لآدم وزوجته في نفس الوقت.

• وبينما يتضمن التحذير الإلهي لآدم بعدم الأكل من الشجرة، في التوراة، تهديدا بالموت " وَأَمَّا شَجَرَةٌ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فَلَا تَأْكُلْ مِنْهَا لِأَنَّكَ يَوْمَ تَأْكُلُ مِنْهَا مَوْتًا تَمُوتُ " فان القرآن لا يذكر التهديد بالموت وانما يقول: " فتكونا من الظالمين " .

• وبينما تقول التوراة: ان الرب جبل من الأرض كل حيوانات البرية وطيور السماء، فأحضرها الى آدم ليرى ماذا يدعوها، وأن آدم هو الذي أطلق عليها أسماءها، يعرض القرآن موضوع التسمية ضمن الجدل مع الملائكة الذين اعترضوا على خلق آدم فـ "قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك" ويقول: "وعلم آدم الأسماء كلها" على العكس مما تقول التوراة أن آدم هو الذي أطلق الأسماء عليها.

• وفي حين تشرح التوراة المسميات وهي الحيوانات والطيور، فان القرآن يترك ذلك مجملا، ولا يقول أسماء ماذا؟ بل يشير الى أنها أسماء شخصيات عاقلة " وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم، فلما أنبأهم بأسمائهم " .

• ولا تشير التوراة الى الملائكة والشيطان إبليس، وطلب الله منهم السجود لآدم، كما يذكر القرآن: "وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا إبليس أبى واستكبر، وكان من الكافرين " .

• ويعود القرآن فيذكر أن إبليس هذا هو الذي تأمر ضد آدم وزوجه "فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه" بينما تستبدل التوراة بإبليس الحية التي تقول انها خدعت حواء: "وَكَاثَتِ الْحَيَّةُ أَحِيلَ جَمِيعَ حَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ الَّتِي عَمَلَهَا الرَّبُّ الْإِلَهُ فَقَالَتْ لِلْمَرْأَةِ: "أَحَقَّ قَالَ اللهُ لَا تَأْكُلَا مِنْ كُلِّ شَجَرِ الْجَنَّةِ؟" فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ لِلْحَيَّةِ: "مِنْ ثَمَرِ شَجَرِ الْجَنَّةِ نَأْكُلُ وَأَمَّا ثَمَرُ الشَّجَرَةِ الَّتِي فِي وَسْطِ الْجَنَّةِ فَقَالَ اللهُ: لَا تَأْكُلَا مِنْهُ وَلَا تَمَسَّاهُ لِنَلَّا تَمُوتَا"

فَقَالَتِ الْحَيَّةُ لِلْمَرْأَةِ: "لَنْ تَمُوتَا! بَلِ اللهُ عَالِمٌ أَنَّهُ يَوْمَ تَأْكُلَانِ مِنْهُ تَنْفَتِحُ اعْيُنُكُمْمَا وَتَكُونَانِ كَاللَّهِ عَارِفَيْنِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ" . " فَرَاتِ الْمَرْأَةُ أَنَّ الشَّجَرَةَ جَيِّدَةٌ لِلْأَكْلِ وَأَنَّهَا بَهْجَةٌ لِلْعُيُونِ وَأَنَّ الشَّجَرَةَ شَهِيَّةٌ لِلنَّظَرِ . فَأَخَذَتْ مِنْ ثَمَرِهَا وَآكَلَتْ وَاعْطَتْ رَجُلَهَا أَيْضًا مَعَهَا فَآكَلَ . " (التكوين، ٣)

• وبينما تتحدث التوراة عن خلق حواء في وقت لاحق، وأنه خلقها من ضلع آدم بعد أن أوقع عليه السبات: "فَأَوْقَعَ الرَّبُّ الْإِلَهُ سُبَاتًا عَلَى آدَمَ فَنَامَ فَآخَذَ وَاحِدَةً مِنْ اضْلاَعِهِ وَمَلَأَ مَكَانَهَا لَحْمًا . وَبَنَى الرَّبُّ الْإِلَهُ الضِّلْعَ الَّتِي أَخَذَهَا مِنْ آدَمَ امْرَأَةً وَأَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ . فَقَالَ آدَمُ: "هَذِهِ الْآنَ عَظْمٌ مِنْ عِظَامِي

وَأَحْمٌ مِنْ أَحْمِي. هَذِهِ تُدْعَى امْرَأَةً لِأَنَّهَا مِنْ امْرَأَةٍ اخِذَتْ". لا يعترف القرآن بهذه التفاصيل، وإنما يتحدث في البداية عن آدم بمفرده في عدة آيات (من ٣١ الى ٣٤ البقرة) ثم يبدأ الخطاب المشترك من الآية ٣٥: "وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة... فأزلهما الشيطان فأخرجهما مما كانا فيه".

• وبينما تقول التوراة أن الحية خدعت حواء في البداية ودفعتها للأكل من الشجرة، يقول القرآن في سورة طه: ان الشيطان وسوس لآدم: "فوسوس اليه الشيطان، قال يا آدم على أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى" (طه ١٢٠)

ويتفق القرآن مع التوراة في أن ظهور عورة آدم وزوجته بعد الأكل من تلك الشجرة المحرمة، حيث تقول التوراة: "فَانْفَتَحَتْ اَعْيُنُهُمَا وَعَلِمَا أَنَّهُمَا عُرْيَانَانِ. فَخَاطَبَا اَوْرَاقَ تَيْنٍ وَصَنَعَا لِنَفْسَيْهِمَا مَازِرًا. " (التكوين، ٣) ويقول القرآن: " فلأكلها منها فبذت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة". (طه، ١٢١) وفي سورة أخرى: " فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة". (الأعراف، ٢٢)

• ويضيف القرآن نقاطا مهمة أخرى لا تذكرها التوراة، حول تكبر إبليس على آدم ورفضه الامتثال لأمر الله له بالسجود لآدم، وما حدث بعد ذلك، فيقول ان الله خاطب إبليس قائلا: " ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك، قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين، قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها، فاخرج انك من الصاغرين، قال أنظرنى الى يوم يبعثون، قال إنك من المنظرين، قال فيما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمنهم وعن شمائلهم، ولا تجد أكثرهم شاكرين، قال أخرج منها مذءوما مدحورا، لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين". (الأعراف، ١٢-١٨)

ويمكن أن نفهم من الآية ٣٦ من سورة البقرة: "ولكم في الأرض مستقر ومتاع الى حين" وجود حياة أخرى بعد الموت، بدلالة الآيات التالية: "قلنا اهبطوا منها جميعا، فإما يأتينكم منى هدى، فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون". (٣٨-٣٩) بالرغم من أن هذه الآيات تخلص من الحديث عن الجنة والخلد فيها.

وكما يلاحظ: فان القرآن يتحدث هنا عن مستقبل البشرية والصراع بين الانسان والشيطان، والبعث يوم القيامة، بينما تغيب كل هذه الأمور عن

التوراة.

• ان طبيعة الوحي في التراث اليهودي المسيحي تختلف اختلافا كبيرا عنها في القرآن، نظرا لاختلاف النظرة الى طبيعة الله تعالى، وتصوره، وعلاقته بالإنسان، فهو في القرآن "ليس كمثل شيء" ولكنه في التوراة والانجيل جسم مادي يشبه الانسان، ويمشي على قدمين في الجنة كما يمشي على الأرض، ويتحدث مباشرة مع آدم وحواء. كما جاء في سفر التكوين، الاصحاح الثاني: "16 وَأَوْصَى الرَّبُّ الْإِلَهَ آدَمَ قَائِلًا: «مِنْ جَمِيعِ شَجَرِ الْجَنَّةِ تَأْكُلُ أَكْلًا، 17 وَأَمَّا شَجَرَةُ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فَلَا تَأْكُلُ مِنْهَا، لِأَنَّكَ يَوْمَ تَأْكُلُ مِنْهَا مَوْتًا تَمُوتُ" . والاصحاح الثالث: "8 وَسَمِعَا صَوْتَ الرَّبِّ الْإِلَهِ مَاشِيًا فِي الْجَنَّةِ عِنْدَ هُبُوبِ رِيحِ النَّهَارِ، فَاخْتَبَأَ آدَمُ وَامْرَأَتُهُ مِنْ وَجْهِ الرَّبِّ الْإِلَهِ فِي وَسْطِ شَجَرِ الْجَنَّةِ. 9 فَنَادَى الرَّبُّ الْإِلَهَ آدَمَ وَقَالَ لَهُ: «أَيْنَ أَنْتَ؟ 10 فَقَالَ: «سَمِعْتُ صَوْتَكَ فِي الْجَنَّةِ فَخَشَيْتُ، لِأَنِّي عُرْيَانٌ فَاخْتَبَأْتُ 11 فَقَالَ: «مَنْ أَعْلَمَكَ أَنَّكَ عُرْيَانٌ؟ هَلْ أَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ أَنْ لَا تَأْكُلَ مِنْهَا؟".

ان الرواية القرآنية لحديث الله مع آدم، تتفق مع التوراة في تحدث الله مباشرة مع آدم، ولكنها تختلف في أنها لا تقول بأن الله جسم يشبه الانسان وكان يمشي في الأرض، كما تقول التوراة.

• يعبر القرآن الكريم عن وسيلة الاتصال بين الله و آدم بالتعليم والقول كما في الآيات التالية: " وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة". (البقرة 31) " قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم". (البقرة 33) " وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة" (البقرة 35) " فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه". (البقرة 37) "فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة". (طه 117) ومن المعلوم ان "القول" وسيلة اتصال مباشر أعلى درجة من الوحي الخفي.

وهنا يتفق القرآن مع التوراة في عرض طبيعة الوحي لآدم.

• يشير القرآن الى موضوع الآخرة ويوم القيامة، حيث ينقل خطاب الله لآدم وحواء بعد طردهما من الجنة: " قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدوة، فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى. قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا. قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى". (طه، 123-126)

بينما لا تشير التوراة الى يوم القيامة وعودة الانسان الى الجنة، أو النار.

الفصل الثاني: الوحي الى الأنبياء نوح وهود وصالح وشعيب

وعندما يصل الدور الى النبي نوح، تواصل التوراة تقديم صورة التواصل المباشر بينه وبين الله تعالى، فتقول: (من الاصحاح السادس الى التاسع):

13 فَقَالَ اللهُ لِنُوحٍ: «نِهَآيَةُ كُلِّ بَشَرٍ قَدْ أَتَتْ أَمَامِي، لِأَنَّ الْأَرْضَ امْتَلَأَتْ ظُلْمًا مِنْهُمْ. فَهِيَ أَنَا مُهْلِكُهُمْ مَعَ الْأَرْضِ.

14 اصْنَعْ لِنَفْسِكَ فُلْكًَا مِنْ خَشَبِ جُفْرٍ. تَجْعَلُ الْفُلْكََ مَسَاكِينَ، وَتَطْلِيهِ مِنْ دَاخِلٍ وَمِنْ خَارِجٍ بِالْقَارِ.

17 فَهِيَ أَنَا آتٍ بِطُوفَانِ الْمَاءِ عَلَى الْأَرْضِ لِأَهْلِكَ كُلِّ جَسَدٍ فِيهِ رُوحَ حَيَاةٍ مِنْ تَحْتِ السَّمَاءِ. كُلُّ مَا فِي الْأَرْضِ يَمُوتُ.

18 وَلَكِنْ أَقِيمْ عَهْدِي مَعَكَ، فَتَدْخُلُ الْفُلْكََ أَنْتَ وَبَنُوكَ

19 وَمِنْ كُلِّ حَيٍّ مِنْ كُلِّ ذِي جَسَدٍ، اثْنَيْنِ مِنْ كُلِّ تَدْخُلُ إِلَى الْفُلْكَِ لِاسْتِنْبَاقِهَا مَعَكَ. تَكُونُ ذَكَرًا وَأُنْثَى.

22 فَفَعَلَ نُوحٌ حَسَبَ كُلِّ مَا أَمَرَهُ بِهِ اللهُ. هَكَذَا فَعَلَ.

سفر التكوين 7

1 وَقَالَ الرَّبُّ لِنُوحٍ: «ادْخُلْ أَنْتَ وَجَمِيعُ بَيْتِكَ إِلَى الْفُلْكَِ، لِأَنِّي إِيَّاكَ رَأَيْتُ بَارًّا لَدَيَّ فِي هَذَا الْجِيلِ.

سفر التكوين 8

15 وَكَلَّمَ اللهُ نُوحًا قَائِلًا:

16 «اخْرُجْ مِنَ الْفُلْكَِ أَنْتَ وَامْرَأَتُكَ وَبَنُوكَ وَنِسَاءُ بَيْتِكَ مَعَكَ.

سفر التكوين 9

1 وَبَارَكَ اللهُ نُوحًا وَبَنِيَهُ وَقَالَ لَهُمْ: «أَثْمِرُوا وَاكْثُرُوا وَاَمْلَأُوا الْأَرْضَ.

8 وَكَلَّمَ اللهُ نُوحًا وَبَنِيَهُ مَعَهُ قَائِلًا:

9 «وَهَا أَنَا مُقِيمٌ مِيثَاقِي مَعَكُمْ وَمَعَ نَسْلِكُمْ مِنْ بَعْدِكُمْ،

17 وَقَالَ اللهُ لِنُوحٍ: «هَذِهِ عَلَامَةُ الْمِيثَاقِ الَّذِي أَنَا أَقَمْتُهُ بَيْنِي وَبَيْنَ كُلِّ ذِي حَسَدٍ عَلَى الْأَرْضِ».

وينزل الله - حسب التوراة - الى الأرض ليكلم نوحا، وبنيه وبقية الناس: "وكلم الله نوحا وبنيه معه قائلا: ها أنا مقيم عهدي معكم ومع نسلكم من بعدكم، ومع كل نفس حية معكم".

الوحي الى النبي نوح، في القرآن

أما الآيات القرآنية التي تتحدث عن الوحي الى نوح، فهي تنقسم الى قسمين: أحدهما يتحدث بصورة المبني للمجهول الغامضة، والآخر يتحدث عن حوار مباشر بين الله تعالى ونوح، فبالرغم من أن سورة نوح تبتدئ بهذه الآية "إنا أرسلنا نوحا الى قومه" الا انها لا تشرح كيف كان الارسال والوحي اليه، بينما تتحدث آية رقم ٣٦ من سورة هود عن الوحي بصيغة المبني للمجهول "وأوحى الى نوح أنه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون" (هود ٣٦) وكذلك الآية ٤٨ من نفس السورة "قيل يا نوح اهبط بسلام منا..." حيث لا تشير الأولى الى (من) أوحى وكيف كان الوحي، وكذلك الآية الثانية لا تشير الى (من) قال لنوح وكيف كان القول؟

ولكن الآيتين رقم ٤٥ و ٤٦ تتحدثان عن حوار مباشر بين الله ونبيه نوح، فتقول: "ونادى نوح ربه فقال رب ان ابني من أهلي وان وعدك الحق وانت أحكم الحاكمين. قال يا نوح انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك ان تكون من الجاهلين". (هود ٤٥)

ويلاحظ أن رواية القرآن تختلف كثيرا عن رواية التوراة، فهذه لا تقول ان نوحا دعا الى توحيد الله أو انذر قومه، حتى يؤس منهم، ثم دعا الله أن يببدهم، وانما تقول: "فلما رأى الرب الإله أن بنات الناس كثرت على الأرض، وكل

واحد في قلبه كل وقت الشر مع الأيام، وتأسف الله على آدم إذ خلقه على الأرض، فقال الرب الإله: أتلف البشر الذين خلقت من وجه الأرض: البشر، والبهائم، والدبيب، الى طائر السماء، من أجل أنني قد أسفت إذ خلقتهم، فوجد نوح نعمة قدام الرب الإله". (التكوين، الاصحاح ٦)

بينما تقول رواية القرآن: "إنا أرسلنا نوحا الى قومه: أن أنذر قومك من قبل أن يأتيتهم عذاب أليم، قال يا قوم: إني لكم نذير مبين أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون، يغفر لكم ذنوبكم ويؤخركم الى أجل مسمى... قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزيده ماله وولده الا خسارا، ومكروا مكرا كبيرا، وقللوا لا تدرن ألتهكم ولا تدرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا، وقد أضلوا كثيرا ولا تزد الظالمين الا ضلالا، مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا". (نوح ١- ٢٤)

وكما هو واضح من هذه الآيات، فان نوحا دعا قومه المشركين الى توحيد الله، ونبذ عبادة الأصنام، وان سبب قرار الله بإغراقهم كان بسبب رفضهم ذلك.

ومن ناحية أخرى، وكما يبدو، فان رواية القرآن تتفق مع التوراة، وتتحدث عن حوار مباشر بين الله ونوح، الا انها لا تقول بنزول الله الى الأرض. وفيما تسهب التوراة في تفاصيل بناء السفينة التي أمر الله نوحا ببنائها، يجمل القرآن الحديث عن ذلك ويتفق معها في التأكيد على قصة الطوفان.

وبينما يتحدث القرآن عن ابن عاص لنوح رفض الركوب معه في السفينة " ونادى نوح ابنه، وكان في معزل، يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين، قال: سأوي الى جبل يعصمني من الماء. قال: لا عاصم اليوم من أمر الله، إلا من رحم، وحال بينهما الموح فكان من المغرقين". (هود، ٤٢-٤٣) تتحدث التوراة عن ابن لنوح اسمه (حام وهو أبو كنعان)) رأى عورة أبيه السكران، بعد انتهاء الطوفان، فخرج وأخبر أخويه سام ويافث، اللذين "غطيا عرية ابيهما، ووجهاهما مداران، فاستيقظ نوح من سكره، وعلم بما عمل به ابنه الأصغر، فقال: ملعون كنعان عبدا ومملوكا يكون لأخويه، وقال: مبارك الرب إله سام، ويكون كنعان عبدا له، ويوسع على يافث، ويحل في مساكن سام، ويكون كنعان عبدا له". (التكوين، الاصحاح ٩)

وكما هو واضح فان التوراة تحاول بهذا النص (الأسطورة) تأسيس تفوق بني إسرائيل وسيادتهم على منافسيهم الكنعانيين أبناء حام، في فلسطين، واستعبادهم، وتبرر ذلك بإرادة الله.

ما هي رسالة النبي نوح؟

لا نتحدث التوراة عن وجود رسالة للنبي نوح، أو قيامه بالدعوة الى الله، وانما تكتفي بالتحدث عن حدوث الظلم والفساد في الأرض، وتأسف الله لخلق الانسان، واتخاذة لقرار الإبادة الجماعية للبشر والحيوانات، وطلبه من نوح بناء سفينة للنجاة بنفسه وأهله، كما في الاصحاح السادس من سفر التكوين:

" 4 كَانَ فِي الْأَرْضِ طُغَاءٌ فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ. وَبَعْدَ ذَلِكَ أَيْضًا إِذْ دَخَلَ بَنُو اللَّهِ عَلَى بَنَاتِ النَّاسِ وَوَلَدْنَ لَهُمْ أَوْلَادًا - هَؤُلَاءِ هُمُ الْجَبَابِرَةُ الَّذِينَ مِنْذُ الدَّهْرِ ذُووُ اسْمٍ.

5 وَرَأَى الرَّبُّ أَنَّ شَرَّ الْإِنْسَانِ قَدْ كَثُرَ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ كُلَّ تَصَوُّرِ افْكَارٍ قَلْبِهِ إِنَّمَا هُوَ شَرِيرٌ كُلَّ يَوْمٍ.

6 فَحَزِنَ الرَّبُّ أَنَّهُ عَمِلَ الْإِنْسَانُ فِي الْأَرْضِ وَتَأَسَّفَ فِي قَلْبِهِ.

7 فَقَالَ الرَّبُّ: «أَمْحُو عَنْ وَجْهِ الْأَرْضِ الْإِنْسَانَ الَّذِي خَلَقْتُهُ: الْإِنْسَانَ مَعَ بَهَائِمٍ وَدَبَّابَاتٍ وَطُيُورِ السَّمَاءِ. لِأَنِّي حَزِنْتُ أَنِّي عَمِلْتُهُمْ».

8 وَأَمَّا نُوحٌ فَوَجَدَ نِعْمَةً فِي عَيْنِي الرَّبِّ.

9 هَذِهِ مَوَالِيدُ نُوحٍ: كَانَ نُوحٌ رَجُلًا بَارًا كَامِلًا فِي أَجْيَالِهِ. وَسَارَ نُوحٌ مَعَ

اللَّهُ ..

11 وَفَسَدَتِ الْأَرْضُ أَمَامَ اللَّهِ وَامْتَلَأَتِ الْأَرْضُ ظُلْمًا.

12 وَرَأَى اللَّهُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ قَدْ فَسَدَتْ إِذْ كَانَ كُلُّ بَشَرٍ قَدْ أَفْسَدَ طَرِيقَهُ عَلَى الْأَرْضِ.

13 فَقَالَ اللَّهُ لِنُوحٍ: «نَهَايَةُ كُلِّ بَشَرٍ قَدْ آتَتْ أَمَامِي لِأَنَّ الْأَرْضَ امْتَلَأَتْ ظُلْمًا مِنْهُمْ. فَهَا أَنَا مُهْلِكُهُمْ مَعَ الْأَرْضِ.

14 اصْنَعْ لِنَفْسِكَ فُلْكًَا مِنْ خَشَبِ جُفْرٍ... "

وعندما نقرأ قصة نوح في القرآن الكريم، نجد أن دعوته كانت تدور حول

محور التوحيد، كما في هذه الآيات: "لقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، أفلا تتقون". (المؤمنون، 23) و"لقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم". (الأعراف، 59) و"إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتهم عذاب أليم، قال يا قوم إني لكم نذير مبين: أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون". (نوح، 1-3) و"لقد أرسلنا نوحا الى قومه أني لكم نذير مبين". (هود، 25)

وربما يظهر من القرآن أن رسالة النبي نوح كانت تقتصر على الدعوة للتوحيد، ولم تكن تشتمل على التذكير بالآخرة والحساب والجنة والنار، ولذلك كان النبي نوح يعد المؤمنين في مقابل الايمان بالله وتوحيده بما يلي: "فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا، يرسل السماء عليكم مدرارا، ويمددكم بأموال وبنين، ويجعل لكم أنهارا". (نوح، 10-12)

وعندما وصل عدد المؤمنين الى مستوى معين وبسيط جدا، بعد مئات السنين من الدعوة، أوحى الله اليه: "أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون، واصنع الفلك بأعيننا ووحينا، ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون". (هود، 36-37) وقام نوح بتهديد الكفار من قومه بالغرق، وبدأ "يصنع الفلك، وكلما مروا عليه ملأ من قومه سخروا منه، قال إن تسخروا منا فإننا نسخر منكم كما تسخرون". (هود، 38)

وبالرغم من أن قوم نوح شاهدوه وهو يصنع الفلك للنجاة من الغرق في الطوفان، إلا انهم "قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين". (هود، 32) وكانت نهايتهم كما قال الله تعالى: "وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية، وأعدنا للظالمين عذابا أليما". (الفرقان، 37) "مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا، فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا". (نوح، 25)

وفي هذه الآية الأخيرة يخبرنا الله تعالى أنه أدخل الكافرين الغرقى في النار بعد موتهم، ولكن ذلك لم يرد في خطاب نوح الى قومه، لأنه لم يتحدث

معهم عن الجنة والنار، وانما توجد آية واحدة فقط تتحدث على لسان نوح أنه تحدث بصورة غامضة عن الحياة بعد الموت: "والله أنبتكم من الأرض نباتا، ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا". (نوح، 17-18) والله أعلم.

وإذا استثنينا عقاب الطوفان الذي جاء متأخرا بعد مئات من السنين من دعوة نوح الى الله، فلا توجد آية إشارة في القرآن فضلا عن التوراة، عن تسلح نوح بأية معجزة تثبت نبوته لقومه.

الوحي الى هود وصالح

وهما نبيان قديمان من الجزيرة العربية، خارج إطار أنبياء بني إسرائيل، وقبلهم، ولذلك لم تشر اليهما التوراة مطلقا، وقد بعث النبي هود الى قوم عاد، وهم قوم كانوا يسكنون الأحقاف في جنوب الجزيرة العربية بين اليمن وعمان، والأحقاف تعني: الأرض الرملية. وكان لقوم عاد بساتين وأنعام وينابيع كما يقول القرآن: "وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ، أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ، وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ". (الشعراء، ١٣٢ - ١٣٤) ويخبرنا القرآن أيضا بأن قوم عاد بنوا مدينة عظيمة تسمى إرم ذات قصور شاهقة لها أعمدة ضخمة لا نظير لها في تلك البلاد: "ألم ترى كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد، التي لم يخلق مثلها في البلاد". (الفجر، ٦ - ٨)

وبعث النبي صالح الى قوم ثمود، في الألفية الثالثة قبل الميلاد، وهم أصحاب الحجر الذين يقول عنهم القرآن أنهم "كَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ". (الحجر، ٨٢) والحجر منطقة تقع في شمال غرب الجزيرة العربية. وتسمى: (مدائن صالح) كما تعرف أيضا باسم (فج الناقة) ولا تزال تحتوي على بيوت محفورة في الجبال.

وقد ذكر القرآن النبيين هود وصالح، الا انه لم يتحدث عن طبيعة الوحي اليهما، حيث أجمل القول عنهما في آيتين، فقال عن هود: "قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ". (الأعراف، 67) وقال عن صالح: "وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ". (النمل، ٤٥)

ويلخص القرآن رسالة النبي هود بالدعوة للتوحيد وعبادة الله، دون أن يتحدث عن تذكير قومه عاد بالآخرة أو الجنة والنار، في الآيات التالية:
"وإلى عاد أخاهم هودا، قال: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون". (الأعراف، 65)

"وإلى عاد أخاهم هودا، قال: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، إن أنتم إلا مفترون". (هود، 50)

ثم يتحدث بعد ذلك عن العقوبة التي أنزلها الله بحقهم نتيجة كفرهم:
"وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم". (الذاريات، 41)
"وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية". (الحاقة، 6)
ولا حديث بعد ذلك عن الجنة والنار، فضلا عن الأحكام والشرائع.

وهكذا يتحدث القرآن أيضا عن رسالة النبي صالح الى قومه ثمود، الذين يحدثنا القرآن عنهم بآيات مختصرة كما يلي:

"وإلى ثمود أخاهم صالحا، قال: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، قد جاءتكم بينة من ربكم: هذه ناقة الله لكم فذروها تأكل في أرض الله، ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم". (الأعراف 73)

"وإلى ثمود أخاهم صالحا، قال: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها، فاستغفروه ثم توبوا إليه، إن ربي قريب مجيب". (هود، 61)

"إذ قال لهم أخوهم صالح: ألا تتقون". (الشعراء، 142)

"ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا: أن اعبدوا الله، فإذا هم فريقان يختصمون". (النمل، 45)

"قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا، وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب، قال: يا قوم رأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله إن عصيته فما تريدونني غير تخسير". (هود، 62-63) ولكي يقطع الله شكهم باليقين، زود النبي صالح بمعجزة (آية) هي عبارة عن ناقة غريبة كانت تشرب ماءهم يوما

وتعطيهم لبنا يوما آخر: " وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ". (هود، ٦٤)

ولكنهم لم يؤمنوا بصالح، ولم يعتبروا بالآية (الناقة) بل تحدوه وعصوه: "فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ، وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ، فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ". (الأعراف، 77 - 78)

و"كذبت ثمود بطغواها، إذ انبعث أشقاها، فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها، فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ولا يخاف عقباها". (الشمس، 11 - 15)

ولا يخبرنا القرآن الكريم أكثر من ذلك، فلم يذكر أن النبي صالح قد حذر قومه من نار جهنم أو وعدهم بالجنة، وإنما اكتفى بالحديث عن دعوتهم لتوحيد الله وعبادته، وعندما عصوا أنزل عليهم صاعقة ودمرهم ودمدم عليهم. وكانت نهايتهم كنهاية قوم عاد: "فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود". (فصلت، 13)

النبي شعيب في القرآن

يشبه الحديث عن النبي شعيب، الحديث عن النبيين هود وصالح، حيث يتحدث القرآن عن رسالة النبي شعيب لقومه أصحاب الأيكة: "إذ قلل لهم شعيب ألا تتقون، إني لكم رسول أمين، فاتقوا الله واطيعون... أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين، وزنوا بالقسطاس المستقيم، ولا تبخسوا الناس أشياءهم، ولا تعثوا في الأرض مفسدين... فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة، إنه كان عذاب يوم عظيم". (الشعراء، ١٧٧-١٨٩)

وكما هو ملاحظ لا يوجد في هذه الآيات أي حديث عن الجنة أو النار، ما عدا آية واحدة " والى مدين أخاهم شعيبا، فقال يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ولا تعثوا في الأرض مفسدين". (العنكبوت، ٣٦) كما ان شعيب لم يقدم آية معجزة على نبوته، ولم يطالبه قومه بذلك، وإنما طالبوه فقط بإنزال العذاب عليهم: "فأسقط علينا كسفا من السماء ان كنت من الصادقين". (الشعراء، ١٨٧) وهذا ما حدث في النهاية.

ولكن القرآن يعود فيتحدث عن معرفة قوم نوح وعاد وفرعون وثمود ولوط وأصحاب الأيكة بيوم الحساب: "وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب". (ص، ١٦)

الفصل الثالث: النبي إبراهيم ولوط في التوراة:

يرد ذكر أبرام (إبراهيم) في التوراة كرجل عادي بلا رسالة إلهية، ولا حديث عن شرك قومه ولا دعوته لهم لتوحيد الله، وبالطبع لا حديث عن محاولة إحراقه بالنار من قبل نمرود ملك الكلدانيين في أور (العراق)، ولكن الدعوة لتوحيد الله ونبذ الأصنام وردت في أحد الأسفار غير القانونية، وهو المعروف بكتاب "اليوبيليات" الذي يتحدث أيضا عن إشعال إبراهيم النار في المعبد الوثني، مما أدى الى احتراق أخيه هاران.

وتكتفي التوراة بالحديث عن شجرة نسب إبراهيم فتصل الى أبيه (تارخ) الذي ساق ابنه أبرام وحفيده لوط (ابن ابنه هاران)، وخرج معهم من أرض الكلدانيين ليذهب الى أرض كنعان، فساروا حتى أتوا حران وسكنوا هناك.

وبينما تسكت التوراة عما حدث لإبراهيم من تطور إيماني، عندما كان يراقب النجوم والقمر والشمس، وهو في حران، يذكر كتاب "اليوبيليات" تفاصيل تجربة إبراهيم قبل نزول الوحي عليه: "وذاذ مساء جلس أبرام في حران يراقب النجوم من الغسق الى الفجر، ليستخبرها فيما سوف تأتي به السنة الجديدة من خير ومطر، ولكن قلبه نبض بكلمات، وحدث نفسه قائلاً: إن كل شارات السماء وشارات النجوم والشمس والقمر هي في يد الرب، فما الذي أنا بحث عنه فيها؟ ان شاء الرب جعل الشمس تمطر من الصباح الى المساء، وان شاء أغلقها، لأن كل شيء ملك يديه. ثم قام فصلى قائلاً: أيها الإله العلي، أنت وحدك إلهي، لقد خلقت كل شيء وكل ما في الوجود صنعة يدك. لقد اخترتك واخترت ملكوتك، فانقذني من الأرواح الشريرة التي تسيطر على قلوب البشر، ولا تجعلهم يضلوني عنك... وما أن أنهى صلاته حتى جاءت كلمات الرب: أخرج من أهلك وعشيرتك ومن بيت أبيك الى الأرض التي أريك، فأجعلك أمة عظيمة".

وهو ما تؤكدته التوراة:

"وقال الرب لأبرم: أخرج من أرضك ومن أهلك، ومن بيت أبيك، وتعال الى

الأرض التي أريك إياها، وأجعلك لشعب عظيم، وأباركك وأرفع اسمك، وتكون مباركاً، وأبارك من يباركك، وألعن من يلعنك، وتبارك بك قبائل الأرض، فخرج أبرم كما أمره الرب، وخرج معه لوط، وكان أبرم ابن خمس وسبعين سنة... وخرجوا جائئين إلى أرض كنعان". (التكوين، ١٢)

وعندما اضطر أبرم لهجرة كنعان، إثر مجاعة ضربتها، والذهاب إلى مصر لم يبق بالتبشير بأية دعوة إلهية، بل قال لزوجته سارة: "إني قد علمت أنك امرأة حسنة، فإذا رأك أهل مصر فإنهم سيقولون: هذه امرأته فيقتلونني ويستحيونك، ولكن قولي: إني اخته، حتى يحسنوا إلي وتحمي نفسي من أجلك، فلما دخل أبرم إلى مصر أبصروا المرأة، فرأوها حسنة، ونظر إليها عظماء فرعون فمدحوها له ومضوا بالمرأة إلى بيت فرعون، وأحسنوا إلى أبرم من أجلها، وكان لهم غنم، وبقرة، وحمير، وعبيد، وإماء وأتن، وإبل". (١٢، ١٠، ٢٠)

وهذه القصة الشخصية الغريبة لا يذكرها القرآن، وليست لنا مصادر محايدة تؤكدتها، ولكننا لا نستطيع نفيها أو إثباتها.

طبيعة الوحي إلى إبراهيم، في التوراة:

تقول التوراة (سفر التكوين، الإصحاح الثاني عشر):

"إن يهوه (الله) كان يكلم النبي إبراهيم مباشرة، أحياناً، وقد يأتيه في الحلم أحياناً أخرى: "وقال يهوه لأبرام: اذهب من أرضك وأهلك وبيت أبيك إلى الأرض التي أريك، وأنا أجعلك أمة عظيمة". (التكوين ١٢) وأنه ظهر لأبرام بين الأشجار ثم ارتفع: "فلما انتهى الله من الكلام مع إبراهيم ارتفع عنه. وظهر يهوه له بين الأشجار الكبيرة في ممرا، وهو جالس عند باب الخيمة وقت حر النهار، فرفع عينيه ونظر فإذا ثلاثة رجال واقفون على مسافة منه، فلما أبصرهم ركض للقائهم من باب الخيمة وسجد إلى الأرض وقال: يا يهوه، ان كنت قد نلت حظوة في عينيك... بل ليؤخذ قليل من الماء واغسلوا أرجلكم.. وأعد عجلاً وأكلوا.. فقال: وها إنه تكون لسارة زوجتك ابن... فضحكت سارة في باطنها.. فقال يهوه لابراهيم: لماذا ضحكت سارة قائلة: أحقا ألد وأنا قد شخت؟ هل يستحيل شيء على يهوه؟

وأما يهوه فكان لا يزال واقفاً أمام إبراهيم، فاقترب إبراهيم وقال: أحقا تهلك البار مع الشرير؟... فقال يهوه: ان وجدت في سدوم خمسين باراً في المدينة فاني أعفو عن المكان كله من أجلهم... ثم ذهب يهوه عندما انتهى من الكلام مع

ابراهيم ورجع ابراهيم الى مكانه". (التكوين ١٨)

وتؤكد التوراة أنه " بعد هذه الأمور صار كلام يهوه الى ابرام في رؤيا".
(التكوين ١٥)

1 بَعْدَ هَذِهِ الْأُمُورِ صَارَ كَلَامُ الرَّبِّ إِلَى أَبْرَامَ فِي الرُّؤْيَا قَائِلًا: "لَا تَخَفْ يَا أَبْرَامُ. أَنَا تُرْسٌ لَكَ. أَجْرُكَ كَثِيرٌ جَدًّا".

2 فَقَالَ أَبْرَامُ: "أَيُّهَا السَّيِّدُ الرَّبُّ، مَاذَا تُعْطِينِي وَأَنَا مَاضٍ عَقِيمًا، وَمَالِكٌ بَيْتِي هُوَ أَلْيَعَازُرُ الدَّمَشْقِيُّ؟"

3 وَقَالَ أَبْرَامُ أَيْضًا: "إِنَّكَ لَمْ تُعْطِنِي نَسْلًا، وَهُوَذَا ابْنُ بَيْتِي وَارِثٌ لِي".

4 فَإِذَا كَلَامُ الرَّبِّ إِلَيْهِ قَائِلًا: "لَا يَرْتُكْ هَذَا، بَلِ الَّذِي يَخْرُجُ مِنْ أَحْسَائِكَ هُوَ يَرْتُكُّ".

وتعترف التوراة أن أهم وعد إلهي لإبراهيم تم في الحلم، حيث رأى إبراهيم الرب في رؤية، ووثقه الرب قائلاً: " لنسلك أهب هذه الأرض من نهر مصر الى النهر الكبير نهر الفرات". (تكوين ١٥ / ١٨)

وفي الحالات التي لا يتدخل يهوه مباشرة في الوحي الى ابراهيم، فانه يرسل ملاكه ليوحي - في اليقظة أو المنام - لإبراهيم أو لأمة زوجته (هاجر): "فوجدها ملاك يهوه عند نبع ماء في البرية وقال يا هاجر جارية ساراي من اين جئت والى اين تذهبين... فقال لها ملاك يهوه... وقال لها ملاك يهوه: ها انت حامل وستلدين ابنا وتدعين اسمه اسماعيل". (التكوين ١٦) "ونادى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها:... فأبصرت بئر ماء". (التكوين ٢١)

ولكن يهوه لا يعتمد على الملائكة دائماً، إذ أنه قد يظهر مباشرة: "ولما كان ابرام ابن تسع وتسعين سنة ظهر يهوه لابرام وقال له: أنا الله القادر... فسقط ابرام على وجهه وتكلم الله معه قائلاً... فسقط ابراهيم على وجهه وضحك وقال في قلبه: هل يولد لابن مئة سنة ولد وهل تلد سارة وهي بنت تسعين سنة؟ ثم قال ابراهيم لله: ليت اسماعيل يعيش أمامك، فقال الله: بل سارة زوجتك تلك (تلد) لك ابناً". (التكوين ١٧)

وبعد ان تقول التوراة في الاصحاح الخامس عشر: "بعد هذه الأمور صار كلام الرب الى ابرام في الرؤيا" تعود في الاصحاح السابع عشر لتحكي عن ظهور الله مباشرة له، وتقول:

١ وَلَمَّا كَانَ أَبْرَامُ ابْنُ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ سَنَةً ظَهَرَ الرَّبُّ لِأَبْرَامَ وَقَالَ لَهُ: «أَنَا اللَّهُ الْقَدِيرُ. سِرْ أَمَامِي وَكُنْ كَامِلًا،

2 فَأَجْعَلَ عَهْدِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَأَكْثَرَكَ كَثِيرًا جِدًّا».

3 فَسَقَطَ أَبْرَامُ عَلَى وَجْهِهِ. وَتَكَلَّمَ اللَّهُ مَعَهُ قَائِلًا:

4 «أَمَّا أَنَا فَهَذَا عَهْدِي مَعَكَ، وَتَكُونُ أَبَا لِحُمْهُورٍ مِنَ الْأُمَّمِ،

15 وَقَالَ اللَّهُ لِإِبْرَاهِيمَ: «سَارَايُ امْرَأَتُكَ لَا تَدْعُو اسْمَهَا سَارَايَ، بَلِ اسْمُهَا سَارَةُ.

16 وَأُبَارِكُهَا وَأُعْطِيكَ أَيْضًا مِنْهَا ابْنًا. أُبَارِكُهَا فَتَكُونُ أُمَّمًا، وَمُلُوكٌ شُعُوبٍ مِنْهَا يَكُونُونَ».

17 فَسَقَطَ إِبْرَاهِيمُ عَلَى وَجْهِهِ وَضَحَكَ، وَقَالَ فِي قَلْبِهِ: «هَلْ يُوَلَّدُ لِابْنٍ مِئَةَ سَنَةٍ؟ وَهَلْ تَلِدُ سَارَةُ وَهِيَ بِنْتُ تِسْعِينَ سَنَةً؟».

18 وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ لِلَّهِ: «لَأَيْتَ إِسْمَاعِيلَ يَعْيشُ أَمَامَكَ!».

19 فَقَالَ اللَّهُ: «بَلِ سَارَةُ امْرَأَتُكَ تَلِدُ لَكَ ابْنًا وَتَدْعُو اسْمَهُ إِسْحَاقَ. وَأُقِيمُ عَهْدِي مَعَهُ عَهْدًا أَبَدِيًّا لِنَسْلِهِ مِنْ بَعْدِهِ.

20 وَأَمَّا إِسْمَاعِيلُ فَقَدْ سَمِعْتُ لَكَ فِيهِ. هَا أَنَا أُبَارِكُهُ وَأُثْمِرُهُ وَأَكْثَرُهُ كَثِيرًا جِدًّا. إِنِّي عَشْرَ رَبِيسًا يَلِدُ، وَأَجْعَلُهُ أُمَّةً كَبِيرَةً.

21 وَلَكِنْ عَهْدِي أُقِيمُهُ مَعَ إِسْحَاقَ الَّذِي تَلِدُهُ لَكَ سَارَةُ فِي هَذَا الْوَقْتِ فِي السَّنَةِ الْآتِيَةِ».

22 فَلَمَّا فَرَغَ مِنَ الْكَلَامِ مَعَهُ صَعِدَ اللَّهُ عَنِ إِبْرَاهِيمَ.

وكما أنقذ الله سارة من أبي مالك، فانه أنقذ أيضا ابن ابراهيم من الذبح، ولكن عبر الملاك: "ثم مد ابراهيم يده واخذ السكين ليذبح ابنه، ولكن ملاك يهوه ناداه من السماء...". (التكوين ٢٢)

وكما ظهر يهوه لابراهيم، فقد ظهر للنبي لوط بصحبة ملاك: "فقال لهما لوط: لا، أرجوك يا يهوه...". (التكوين ١٩)

طبيعة الوحي الى النبيين ابراهيم ولوط، في القرآن

تتعدد صور الوحي النازل الى ابراهيم، في القرآن، من الوحي عبر الرؤيا في المنام الى إرسال الملائكة في شكل بشر، الى الحوار المباشر بينه وبين الله، بيد أن القرآن لا يتحدث ابدا عن ظهور الله لابراهيم، كما تقول التوراة. ففي الصورة الأولى نجد الأمر الالهي بذبح ابنه يأتيه في المنام حيث يرى ابراهيم أنه يذبح ابنه فيعلم بأن هذا وحي من الله ويحاول تنفيذ الأمر الالهي "فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ" (الصافات 102) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (103) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (104) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ" (الصافات، 105)

وتتضمن الآية الأخيرة كلمة (وناديناها) وهي مما تحمل معنى الكلام الصوتي المباشر، والذي سيتكرر في مناسبات عديدة أخرى بين الله و ابراهيم، كما في هذه الآية "واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فاتمهن قال إني جاعلك للناس اماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين" (البقرة 124)

وكذلك في هذا الحوار: "واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر، قال ومن كفر فامتنعه قليلا ثم اضطره الى عذاب النار وبئس المصير" (البقرة 126)

وفي الحوار التالي: "واذ قال ابراهيم: رب أرني كيف تحيي الموتى؟ قال: أو لم تؤمن؟ قال: بلى ولكن ليطمئن قلبي، قال: فخذ اربعة من الطير فصرهن اليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيًا واعلم أن الله عزيز حكيم" (البقرة، 260) ومع ذلك فان القرآن لا يصف حديث الله هنا مع النبي ابراهيم بالكلام أو التكليم، كما يصفه عند الحديث عن النبي موسى.

وأما الصورة الثالثة من الوحي الى النبي ابراهيم فهي عبر الملائكة المتمثلين برجال من البشر، والذين لم يعرف النبي حقيقتهم عندما زاروه في بيته ورآهم

أول مرة، قبل أن يتحدثوا معه ومع زوجته العاقر، ويذهبوا كمسافرين الى قرية النبي لوط فيراهم هو وقومه العصاة ويحاولون الاعتداء عليهم جنسيا. وفي الحقيقة لا يصرح القرآن بكون هؤلاء الرسل ملائكة، ولكننا نفهم ذلك من خلال الرسائل الالهية التي بلغوها لإبراهيم وزوجته، واخبارهم لوطا بقرب نزول العذاب على قومه، ومن خلال امتناع "الرجال" عن تناول طعام ابراهيم.

وينقل القرآن الكريم حوارات الرسل (الملائكة أو الرجال) مع ابراهيم ولوط في عدة آيات و عدة سور:

وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (69) فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ (70) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (71) قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (72) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (73) فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (74) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (75) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (هود76)

وتتكرر نفس القصة في سور أخرى من القرآن، كسورة الحجر والذاريات والعنكبوت، حيث جاء في سورة الحجر:

وَنَبِّئُهُمْ عَنِ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (51) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (52) قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (53) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمِ تَبَشِّرُونَ (54) قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ (55) قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (56) قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (57) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (58) إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (59) إِلَّا أَمْرًا تَدْرَأُ إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ (60) فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (61) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنْكَرُونَ (62) قَالُوا بَلْ جِنَّاتِكُ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (63) وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (64) فَأَسْرِبْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (65) وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ (الحجر 66)

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (31) قَالَ أَرَأَيْتُمْ لَوْ طَا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّنَّهُ

وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (32) وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءًا بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُواكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (العنكبوت 33)

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (24) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (25) فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعَجَلٍ سَمِينٍ (26) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (27) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (28) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (29) قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (30) قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (31) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (الذاريات 32)

ويلاحظ في هذه السور الأربع أن الملائكة جاءوا بصورة رجال عاديين، وان النبي ابراهيم ذبح لهم عجلا حنيذا، فلم يأكلوا منه، مما بث الرعب في قلبه، ونكرهم وأوجس منهم خيفة، وأن لوط استاء منهم وضاق بهم ذرعا، وقال لهم: "إنكم قوم منكرون". ومع ذلك فانهم بشروا امرأة ابراهيم العجوز العاقر بإسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب، وكان سبب انزعاج لوط من زيارة الرسل (الرجال) هو تهافت قومه الذين كانوا يعملون السيئات (اللواط) ومحاولتهم التحرش بضيوفه "وجاءه قومه يهرعون اليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات، قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أظهر لكم، فاتقوا الله ولا تخزونني في ضيفي، أليس منكم رجل رشيد، قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد". (هود 78 – 79) وهذا ما يكشف الطبيعة الظاهرية البشرية للرسل بحيث كان يراهم الأنبياء وزوجاتهم والناس العاديون من المؤمنين والفساق.

هل كان للنبي إبراهيم معاجز؟

لا تتحدث التوراة عن أية معجزة للنبي إبراهيم، لأنها أساسا لم تتحدث عن رسالة معينة له، ولكن القرآن يتحدث عن معجزة عدم إحراق النار له، وذلك قبل أن يتحدث القرآن عن نزول الوحي عليه، في وقت لاحق، حيث يقول: "قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين، قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم، وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخرسين، ونجيناه ولوطا الى الأرض التي باركنا فيها للعالمين". (الأنبياء، 68-71) "فما كان جواب قومه الا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه، فأنجاه الله من النار، ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون". (العنكبوت، 24) "قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه في الجحيم، فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين".

(الصفات، ٩٧-٩٨)

وفي الحقيقة ان هذه "المعجزة" تختلف عن المعاجز السابقة واللاحقة التي قام بها بعض الأنبياء، وذلك لأن النبي إبراهيم لم يكن حتى ذلك الوقت يقول لهم: إني رسول من الله، حتى يطالبوه بدليل اعجازي على صحة نبوته، كما طلب قوم صالح مثلا. ومع أن الله قد أنجاه من النار، إلا أن قومه الوثنيين لم يعبئوا بهذه المعجزة واستمروا في عبادتهم للأصنام. كما استمر قوم صالح الذين عقروا "الناقة" المعجزة ولم يؤمنوا بالله. وهذا ما سيساعد النبي محمد (ص) لاحقا، في رفضه الاتيان بمعاجز لإثبات نبوته.

ما هي رسالة النبي إبراهيم، في التوراة؟

تهمل التوراة الحديث عما قام به إبراهيم من الدعوة الى توحيد الله وعبادته، وتحطيم الأصنام، والحوار مع ملك أور الوثني، ولا تعطي أية تفاصيل ولا مبررات لاختيار الله إبراهيم وأمره بالذهاب من أور الكلدانيين الى كنعان، وتكتفي بالقول: "فاستعلن الرب لأبرم، ... وابنتى هناك مذبحا للرب الذي استعلن له... ودعا باسم الرب". (التكوين، ١٢: ٨)

وليس في التوراة أيضا أي حديث عن بناء إبراهيم للكعبة في مكة المكرمة، مع ابنه إسماعيل، ولا تطهير البيت للطائفين والركع السجود. كما سيتحدث عن ذلك القرآن.

وتتحدث التوراة فقط عن وعد الله بإعطاء الأرض (فلسطين وما حولها) الى ذرية إبراهيم من بني إسرائيل. وتقول: "قال الله لأبرم: امض من أرضك ومن مولدك ومن بيت أبيك الى الأرض التي أرشدك لأجعلك شعبا عظيما وأباركك وأعظم اسمك. وتجلي ملاك الله لأبرم وقال له: لنسلك أعطي الأرض هذه، فبنى هناك مذبحا لله المتجلي اليه". (التكوين، الاصحاح الثاني عشر، آية ١).

ويتكرر هذا الوعد بإعطاء الأرض في الاصحاح الثالث عشر آية ١٤: "ارفع عينيك وانظر من الموضع الذي أنت هناك شاما وجنوبا وشرقا وغربا، فان كل الأرض التي أنت ناظر لك أعطيها، ولنسلك الى الأبد، وأجعل نسلك كتراب

الأرض". ويتكرر الوعد مرة ثالثة في الاصحاح الخامس عشر، الآية ١٨: " في ذلك اليوم قطع الله مع أبرم عهدا قائلاً: لنسلك أعطي الأرض هذه من نهر مصر الى النهر الكبير نهر الفرات".

ولا تقول التوراة لماذا قرر الله إعطاء تلك الأرض لإبراهيم، ربما لأنه لم يعده بالجنة في الآخرة، حيث تجعل المثوبة كلها في هذه الدنيا.

وعندما يريد الله أن يجازي إبراهيم ويستجيب دعاءه في ابنه إسماعيل، يقول الله له، حسب التوراة: "وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه، ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيراً جداً، اثني عشر رئيساً يولد، وأجعله أمة كبيرة". (التكوين، ١٧: ٢٠) وهنا مرة أخرى لا حديث عن الثواب والأجر في الجنة، وإنما في الدنيا فقط.

ما هي رسالة النبي إبراهيم، في القرآن؟

تختلف صورة النبي إبراهيم في القرآن عنها في التوراة، كثيراً، فهو ينظر في الكواكب والقمر والشمس، ويتدبر ويفكر ثم يهتدي للإيمان بالله خالق الكون: " فلما جن عليه الليل رءا كوكبا قال هذا ربي، فلما أفل قال: لا أحب الأفلين، فلما رءا القمر بازغا قال هذا ربي، فلما أفل، قال لئن لم يهتدي ربي لأكونن من القوم الضالين، فلما رءا الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني برئ مما تشركون، إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين". (الأنعام، ٧٦-٧٩)

ويمكن أن نفهم من خلال هذه الآية: أن وعي إبراهيم بوجود الخالق الأكبر، ورفضه لعبادة الأصنام أو الكواكب والشمس والقمر، وهو ما كان قومه الكلدانيون يعبدون في أور، لم يكن عن طريق نزول الوحي عليه، وإنما اعتماداً على عقله الذي نظر وتدبر وفكر، ووصل الى عقيدة التوحيد.

وقد دفعه إيمانه الى استنكار عبادة قومه للأصنام: "وإذ قال إبراهيم لأبيه أزر: أتتخذ أصناماً آلهة، إني أراك وقومك في ضلال مبين". (الأنعام، ٧٤)

"إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً... يا أبت لا تعبد الشيطان، إن الشيطان كان للرحمن عصياً، يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً". (مريم، ٤٢-٤٥)

"وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون".
(العنكبوت، 16)

وقام إبراهيم بعد ذلك بخطوة عملية تمثلت بتحطيم الأصنام: "فراغ الى
آلهتهم فقال: ألا تأكلون، ما لكم لا تنطقون، فراغ عليهم ضربا باليمين، فأقبلوا
إليه يزفون، قال أتعبدون ما تنحتون، والله خلقكم وما تعملون، قالوا ابنوا له
بنيانا فألقوه في الجحيم، فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين". (الصفوات،
91 - 98)

وهكذا قرر مقاطعة قومه:

"قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا براء
منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء
أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده...". (المتحنة، 4)

" ألم تر الى الذي حاج إبراهيم في ربه أن أتاه الله الملك، إذ قال إبراهيم
ربي الذي يحيي ويميت، قال أنا أحيي وأميت، قال إبراهيم فان الله يأتي
بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب، فبهت الذي كفر، والله لا يهدي
القوم الظالمين". (البقرة، 258)

" وحلجهم قومه، قل: أتحاجوني في الله وقد هداني ولا أخلف ما تشركون به، إلا
أن يشاء ربي، وسع ربي كل شيء علما، أفلا تتذكرون، وكيف أخاف ما أشركتم
ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا، فأني الفريقين أحق
بالأمن إن كنتم تعلمون". (الأنعام، 80 - 81)

ويمكننا أن نلاحظ أن القرآن لا يحدثنا حتى الآن عن نزول الوحي على
إبراهيم، لا عبر الرؤيا ولا عبر الملائكة، وإنما يتحدث عن تطور وعيه وقيامه
بالدعوة لتوحيد الله ونبذ الأصنام. وهو ما تشير اليه الآية التالية: "ولقد آتينا
إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين". (الأنبياء، 51)

وذلك قبل أن ينتقل الى فلسطين ومرور الملائكة عليه في أواخر عمره، وتبشير
بإسحاق. "فبشرناه بغلام حليم" (الصفوات، 101)

ولا نجد لدى النبي إبراهيم، أية رسالة أخرى سوى الدعوة لتوحيد الله وعبادته، وبناء البيت وتطهيره من الشرك والأصنام:
"وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا واجنبي وبني أن نعبد الأصنام".
(إبراهيم، 35)

"وإذ بوأنا لإبراهيم البيت أن لا تشرك بي شيئا وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود". (الحج، 26)
"وعهدنا الى إبراهيم واسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود". (البقرة، 125)

"ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وأنتم مسلمون". (البقرة، 132)
"أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه: ما تعبدون من بعدي؟ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم واسماعيل واسحاق إلهنا واحدا ونحن له مسلمون". (البقرة، 133)

ولا نعرف بالضبط متى بدأ ينزل عليه الوحي، وكيف؟ وماذا كانت رسالته بالتفصيل؟ وهل كان يبشر باليوم الآخر والجنة والنار؟

ولكن يمكننا أن نفهم أن الله أوحى له بموضوع القيامة بعد الموت، وهو ما تؤكدته الآيات الأربعة الأخيرة من سورة الأعلى: "بل تؤثر الحياة الدنيا، والآخرة خير وأبقى، إن هذا لفي الصحف الأولى، صحف إبراهيم وموسى".
وكذلك الآيات في سورة الشعراء: "والذي يمينتي ثم يميني. والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين... واجعلني من ورثة جنة النعيم... ولا تخزني يوم يبعثون". (الشعراء، ٨١-٨٧)

ومع ذلك فقد سأل إبراهيم ربه: " وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي، قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا، ثم ادعهن يأتينك سعيًا، واعلم أن الله عزيز حكيم". (البقرة، ٢٦٠)

وهذا ما انعكس في دعاء ابراهيم: "وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات، من آمن منهم بالله واليوم الآخر، قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم اضطره الى عذاب النار وبئس المصير". (البقرة، 126) مما يوحي بأن رسالة إبراهيم كانت تتضمن دعوة الناس للإيمان بالآخرة.

ما هي رسالة النبي لوط؟

وعندما نأتي الى النبي لوط، تغيب عنا صورة رسالته الى قومه، ما عدا مكافحته لفاحشة اللواط، ولا يذكر لنا القرآن دعوته لتوحيد الله وعبادته، أو الإيمان بالآخرة والجنة والنار، كما لا يحدثنا عن تحذير لوط لقومه بنزول العذاب عليهم، وانما حدوث ذلك فيما بعد بإرادة الله تعالى كعقوبة لهم، حيث يحدثنا القرآن عنه:

"ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين، إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء، بل أنتم قوم مسرفون". (الأعراف، 81-80)

"ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين". (العنكبوت، 28)

"ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون". (النمل، 54)

"إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون". (الشعراء، 161)

"إنا أرسلنا عليهم حاصبا، إلا آل لوط نجيناهم بسحر". (القمر، 34)

"وأمطرنا عليهم مطرا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين". (الأعراف، 84)

"وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين". (الشعراء، 173)

ويلاحظ أن الآيات الثلاثة الأولى تتضمن انتقاد لوط لقومه لممارسة الفاحشة (اللواط) دون تهديد بنزول العذاب عليهم في الدنيا أو الآخرة. ومن الواضح عدم وجود أية إشارة من النبي لوط الى ذهاب المؤمنين به الى الجنة أو ذهاب المرتكبين للفاحشة الى النار، ما عدا آية واحدة تقول بأن الله سوف يدخل زوجة نوح ولوط الخائنتين في النار: "وقيل ادخلا النار مع الداخلين".

الفصل الرابع: طبيعة الوحي الى النبيين إسحاق ويعقوب، في التوراة

ثم ظهر- يهوه الى اسحاق، وتكلم مع زوجته (رفقة): "وظَهَرَ لَهُ يَهُوَهُ وَقَالَ: "لَا تَنْزِلْ إِلَى مِصْرَ. اَسْكُنْ فِي الْأَرْضِ الَّتِي أُعَيْتُهَا لَكَ" ... فَظَهَرَ لَهُ يَهُوَهُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ وَقَالَ: "أَنَا إِلَهُ إِبْرَاهِيمَ أَبِيكَ". (التكوين ٢٦)

وتواصل التوراة الحديث عن العلاقات المباشرة بين الله واسحاق، فتقول: "وَتَوَسَّلَ إِسْحَاقُ إِلَى يَهُوَهُ خُصُوصًا مِنْ أَجْلِ زَوْجَتِهِ، لِأَنَّهَا كَانَتْ عَاقِرًا، فَاسْتَجَابَ لَهُ يَهُوَهُ، وَحَمَلَتْ رَفْقَةَ زَوْجَتِهِ. وَتَصَارَعَ الْوَلَدَانِ فِي دَاخِلِهَا، فَقَالَتْ: "إِنَّ كَأَن الْأَمْرَ هَكَذَا، فَمَا لِي وَالْحَيَاةُ؟". فَذَهَبَتْ لِتَسْأَلَ يَهُوَهُ. فَقَالَ لَهَا يَهُوَهُ: "فِي بَطْنِكَ أُمَّتَانِ". (التكوين ٢٥)

وكان أحد التوأمين يعقوب، الذي امتاز هو أيضا - حسب التوراة - بعلاقات خاصة مع يهوه، ابتداء من رؤية الله في المنام، الى التحدث معه مباشرة، وكذلك الصراع معه، واطلاق اسم "اسرائيل" عليه: "١٠ فَخَرَجَ يَعْقُوبُ مِنْ بَيْتِ سَبْعَ وَذَهَبَ إِلَى حَارَانَ... ١٢ وَابْتَدَأَ يَحْلُمُ، فَأَذَا سَلَّمَ قَائِمَةً عَلَى الْأَرْضِ وَرَأْسُهَا يَبْلُغُ السَّمَاءَ، وَإِذَا مَلَائِكَةُ اللَّهِ صَاعِدَةٌ وَنَازِلَةٌ عَلَيْهَا، وَهُوَذَا يَهُوَهُ وَاقِفٌ عَلَيْهَا، فَقَالَ: "أَنَا يَهُوَهُ إِلَهُ إِبْرَاهِيمَ أَبِيكَ وَإِلَهُ إِسْحَاقَ. الْأَرْضُ الَّتِي أَنْتَ مُضْطَجِعٌ عَلَيْهَا، لَكَ أُعْطِيهَا وَلِنَسْلِكَ". ثُمَّ اسْتَيْقِظَ يَعْقُوبُ مِنْ نَوْمِهِ وَقَالَ: "حَقًّا، إِنَّ يَهُوَهُ فِي هَذَا الْمَكَانِ وَأَنَا لَمْ أَعْلَمْ". (التكوين ٢٨)

وظل الوحي الى يعقوب يتردد بين الحديث المباشر من الله، وغير المباشر عبر الحلم أو الملاك (التكوين ٣١) وتذهب التوراة بعيدا في الخيال الى درجة الحديث عن حدوث مصارعة بين الله (بصورة انسان) (وفي بعض النسخ: ملاك الله) ويعقوب، طوال ليلة كاملة، وانتهت بغلبة يعقوب لله أو للملاك:

"وَأَمَّا يَعْقُوبُ فَمَضَى فِي طَرِيقِهِ، وَلَاقَتْهُ مَلَائِكَةُ اللَّهِ. ٢ فَقَالَ يَعْقُوبُ لَمَّا رَأَاهُمْ: "هَذَا جَيْشُ اللَّهِ!". فَدَعَا اسْمَ ذَلِكَ الْمَكَانِ مَحْنَايِمَ. ٢٤ فَبَقِيَ يَعْقُوبُ وَحْدَهُ. وَصَارَعَهُ إِنْسَانٌ إِلَى طُلُوعِ الْفَجْرِ. ٢٥ وَلَمَّا رَأَى أَنَّهُ لَمْ يَتَغَلَّبْ عَلَيْهِ، لَمَسَ حُقَّ وَرِكِهِ، فَانْخَلَعَ حُقَّ وَرِكِ يَعْقُوبَ فِي مُصَارَعَتِهِ مَعَهُ. ٢٦ وَقَالَ: "أَطْلِقْنِي، لِأَنَّهُ قَدْ

طَلَعَ الْفَجْرُ". فَقَالَ: "لَا أَطْلُقُكَ إِنْ لَمْ تُبَارِكْنِي أَوْ لَا". ٢٧ فَقَالَ لَهُ: "مَا أَسْمُكَ؟"،
فَقَالَ: "يَعْقُوبُ". ٢٨ فَقَالَ: "لَا يُدْعَى أَسْمُكَ فِي مَا بَعْدُ يَعْقُوبَ بَلْ إِسْرَائِيلَ، لِأَنَّكَ
جَاهَدْتَ مَعَ اللَّهِ وَالنَّاسِ فَأَفْلَحْتَ". ٢٩ وَسَأَلَ يَعْقُوبُ وَقَالَ: "مِنْ فَضْلِكَ، أَخْبِرْنِي
بِأَسْمِكَ". فَقَالَ: "لِمَذَا تَسْأَلُ عَنِّ أَسْمِي؟". وَبَارَكَهُ هُنَاكَ. ٣٠ فَدَعَا يَعْقُوبُ أَسْمَ
الْمَكَانِ فَنِيَّيْلَ، قَائِلًا: "لِأَنِّي قَدْ رَأَيْتُ اللَّهَ وَجْهًا لِي وَجْهًا، وَأَنْقَذْتَنِي نَفْسِي".
(التكوين ٣٢)

٩ " وَظَهَرَ اللَّهُ لِيَعْقُوبَ مَرَّةً أُخْرَى حِينَ جَاءَ مِنْ فَدَّانٍ أَرَامَ وَبَارَكَهُ. ١٠ وَقَالَ
لَهُ اللَّهُ: "إِسْمُكَ يَعْقُوبُ. لَا يُدْعَى بَعْدَ أَسْمِكَ وَلِنَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ أُعْطِيَ الْأَرْضَ".
١٣ ثُمَّ صَعِدَ اللَّهُ عَنْهُ فِي الْمَكَانِ الَّذِي فِيهِ تَكَلَّمَ مَعَهُ. (التكوين ٣٥)

وتواصل التوراة الحديث عن كلام الله مع يعقوب سواء في اليقظة أو المنام:

٢ ثُمَّ كَلَّمَ اللَّهُ إِسْرَائِيلَ فِي رُؤْيٍ اللَّيْلِ وَقَالَ: "يَعْقُوبُ، يَعْقُوبُ!"، فَقَالَ لَهُ:
"هَٰذَا أَنَا!". ٣ فَقَالَ: "أَنَا اللَّهُ، إِلَهُ أَبِيكَ. لَا تَخَفْ أَنْ تَنْزِلَ إِلَى مِصْرَ، لِأَنِّي أَجْعَلُكَ
هُنَاكَ أُمَّةً عَظِيمَةً". (التكوين ٤٦)

ولم يقتصر الوحي على يعقوب، وإنما شمل حموه لابان: "وَأَتَى اللَّهُ إِلَى لَابَانَ
الْأَرَامِيِّ فِي الْحُلُمِ لَيْلًا، وَقَالَ لَهُ: "إِحْتَرِزْ مِنْ أَنْ تُكَلَّمَ يَعْقُوبَ بِخَيْرٍ أَوْ شَرٍّ".
(التكوين 31)

الوحي الى إسحاق ويعقوب، في القرآن:

على عكس التفصيل في كيفية نزول الوحي الى إبراهيم، فإن القرآن يوجز
بالنسبة لابنه اسحاق وحفيده يعقوب، كما توجز التوراة، ويكتفي بذكر الوحي:
"ووهبنا له اسحاق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين وجعلناهم أئمة يهدون
بأمرنا وأوحينا اليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين".
(الأنبياء 72 – 73) وان كان القرآن لا يشير هنا الى الابن الآخر لإبراهيم
(اسماعيل)، فإنه يذكره في اثني عشر موضعا آخر مقرونا بأبيه إبراهيم أو ببقية
الأنبياء، ويؤكد نزول الوحي عليه وأنه كان رسولا نبيا. (مريم 54) الا انه مع
ذلك لم يبين طبيعة الوحي النازل اليه وكيفيته، كما لم يبين طبيعته بالنسبة لإسحاق
ويعقوب.

ويضرب القرآن صفحا عن اللقاء المباشر بين الله ويعقوب، أو المصارعة بينهما (أو بين الملاك ويعقوب)، كما تقول التوراة. وبالرغم من أن القرآن يستخدم كلمة "إسرائيل" اربعا وعشرين مرة، إلا انه لا يشير الى ما تذكره التوراة بأن الله أطلق على يعقوب هذا الاسم بهذه المناسبة. (التكوين ٣٥)

ولم يتحدث القرآن بالطبع عن "ظهور" يهوه الى إسحاق وزوجته (رفقة) (التكوين ٢٦) ولا مصارعة الولدين في بطنها. (التكوين ٢٥)

وعلى العكس من خلو الوحي الى إبراهيم وإسحاق ويعقوب، حسب التوراة، من أية إشارة الى مضمون النبوة كالدعوة الى توحيد الله، أو البعث برسالة معينة، فإن القرآن يتحدث عن ذلك بالتفصيل: "إذ قال له ربه أسلم، قال أسلمت لرب العالمين. ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب: يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون. أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه: ما تعبدون من بعدي؟ قالوا: نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلهنا واحدا ونحن له مسلمون". (البقرة ١٣١-١٣٣)

الوحي الى يوسف والأسباط، في التوراة:

وبعد الحديث عن أولئك الأنبياء الثلاثة (إبراهيم وإسحق ويعقوب) المؤسسين لسلالة بني إسرائيل، تقفز التوراة عن بقية الأنبياء كيوسف واخوته (الأسباط) الذين ربما كانت نبوتهم تقتصر على الرؤيا في الحلم. ولا يتحدث عن مضمون رسالتهم.

الوحي الى يوسف والأسباط في القرآن:

وفي مقابل تجاهل التوراة واليهود لنبوة يوسف، نرى أن القرآن يؤكد بقوة وصراحة نبوته، ويتحدث عن تشكيك قوم فرعون به، فيقول على لسان "مؤمن آل فرعون" في أيام النبي موسى، مخاطبا قومه: "ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم: لن يبعث الله من بعده رسولا، كذلك يضل الله من هو مسرف كذاب". (غافر، ٣٤)

ويتحدث القرآن عن قيام يوسف بالدعوة الى توحيد الله والتذكير بالآخرة عندما كان في السجن مع زميلين له سألاه تفسير حلمهما: " قال لا يأتیکما طعام ترزقانه، إلا نباتکما بتأويله قبل أن يأتیکما، ذلكما مما علمني ربي، إني تركت

ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون، واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس، ولكن أكثر الناس لا يشكرون. يا صاحبي السجن أ أرباب متفرقون خير أم الواحد القهار، ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتوها أنتم وآبؤكم ما أنزل الله بها من سلطان، ان الحكم إلا لله، أمر ألا تعبدوا إلا إياه، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون". (يوسف ٣٧-٤٠) كما يعبر يوسف عن إيمانه بالآخرة في هذه الآية - الدعاء: "رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث، فاطر السماوات والأرض، أنت وليي في الدنيا والآخرة، توفني مسلماً وأحقني بالصالحين". (يوسف، ١٠١)

وربما نجد في الثقافة الإسلامية التي كان يتمتع بها "مؤمن آل فرعون" كإيمانه بالآخرة والحساب والجنة والنار، كما يعرضها القرآن في سورة غافر، دليلاً على بقايا آثار رسالة يوسف في مصر، حيث يخاطب "المؤمن" ملاً فرعون الذين كانوا يخططون لقتل النبي موسى، قائلاً: ".يا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد، يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم، ومن يضل الله فما له من هاد... يا قوم إن هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار... ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة، وتدعونني إلى النار، تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم، وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار، لا جرم أن ما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة، وأن مردنا إلى الله، وإن المسرفين هم أصحاب النار". (غافر، ٣٢-٤٣)

ولكن القرآن لا يوضح طبيعة الوحي النازل على يوسف هل هو عبر الملائكة؟ أم بالأحلام؟ وأما رؤية يوسف لإخوته يسجدون له، في المنام، فهي أقرب إلى الرؤية الصالحة التي يراها أي إنسان، إلا إذا اعتبرنا الرؤية في الحلم نوعاً من النبوة، حسب ما تقول التوراة والتلمود، وأما كلمة "وأوحينا" الواردة في هذه الآية: "وأوحينا إليه لتنبأهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون". (يوسف ١٥) فيمكن أيضاً اعتباره وحياً خفياً متعلقاً بقضية شخصية.

وأما الأسباط، فقد ورد ذكرهم في القرآن بمعنيين: أحدهما: "قبائل بني إسرائيل" كما في هذه الآية: "وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمماً...". (الأعراف ١٦٠) والمعنى الآخر: "الأنبياء". حيث ورد ذكرهم في أربع آيات ضمن عدد من الأنبياء الذين أنزل الله إليهم الوحي، كما في قوله تعالى: "قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون". (البقرة ١٣٦) و آية ١٤٠ من نفس السورة، وكذلك آية ٨٤ من

سورة آل عمران، وآية ١٦٣ من سورة النساء.

وعلى أية حال لا توجد لدينا في القرآن صورة واضحة عن طبيعة الوحي النازل الى الأسباط .

ما هي رسالة الأنبياء إسحق ويعقوب ويوسف والأسباط؟

ومع أن القرآن الكريم يذكر أسماء عدد من الأنبياء الآخرين مثل اسماعيل واسحاق ويعقوب ويوسف، إلا انه لا يذكر أية تفاصيل عن مضمون رسالاتهم، ما عدا الدعوة لتوحيد الله، حتى يأتي على ذكر النبي شعيب، فيتحدث عن دعوته لتوحيد الله وعبادته، واحترام الكيل والميزان، وعدم الفساد في الأرض، ولكن القرآن لا يتحدث عن تضمين حديثه مع قومه شيئاً عن الآخرة والجنة والنار، وإنما يكتفي بذكر العقوبة التي أنزلها الله بالمكذبين وهي الرجفة، فيقول:

"والى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، قد جاءتكم بينة من ربكم، فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها، ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين". (الأعراف، 85) ثم يقول:

"فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في ديارهم جاثمين، الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها، الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين". (الأعراف، 91 – 92)

وبعد أن يتحدث القرآن الكريم في سورة الأعراف، عن مصير أقوام هود وصالح ولوط وشعيب، يشير الى الثواب والعقاب في الدنيا، فيقول: "ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون، أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون، أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون". (الأعراف، 96

(98-

الفصل الخامس: الوحي الى النبي موسى (ع)، في التوراة:

يعتبر النبي موسى أعظم أنبياء بني إسرائيل السابقين واللاحقين، وهو حسب التوراة: قد تراءى له الله بعدة أشكال: بصورة مباشرة وغير مباشرة، مرات عديدة لا تحصى، تكاد تكون شبه يومية، وكانت أول مرة يكلمه الله فيها تكلّما عندما عاد من مديان في طريقه الى مصر:

" وَكَانَ مُوسَى يَرْعَى غَنَمَ يَثْرُونَ حَمِيهِ، كَاهِنَ مِديَانَ. فَسَاقَ الْغَنَمَ إِلَى غَرْبِ الْبَرِّيَّةِ وَجَاءَ إِلَى جَبَلِ اللَّهِ حُورَيْبَ. ٢ فَتَرَاى لَهُ مَلَاكُ يَهُوهَ فِي لَهَبِ نَارٍ وَسَطِ عُثْيَقَةٍ. فَنَظَرَ وَإِذَا الْعُثْيَقَةُ تَتَّقَدُ بِالنَّارِ، وَالْعُثْيَقَةُ لَا تَحْتَرِقُ. ٣ فَقَالَ مُوسَى: "أَمِيلُ الْآنَ لِأَنْظُرَ هَذَا الْمَشْهَدَ الْعَظِيمَ وَلِمَاذَا لَا تَحْتَرِقُ الْعُثْيَقَةُ". ٤ فَلَمَّا رَأَى يَهُوهَ أَنَّهُ مَالٌ لِيَنْظُرَ، نَادَاهُ اللَّهُ مِنْ وَسَطِ الْعُثْيَقَةِ وَقَالَ: "مُوسَى، مُوسَى!"، فَقَالَ: "هَآئِذَا". ٥ فَقَالَ: "لَا تَقْتَرِبْ إِلَى هُنَا. إِخْلَعْ نَعْلَيْكَ مِنْ قَدَمَيْكَ، لِأَنَّ الْمَكَانَ الَّذِي أَنْتَ وَاقِفٌ فِيهِ أَرْضٌ مُقَدَّسَةٌ". ٦ وَقَالَ: "أَنَا إِلَهُ أَبِيكَ، إِلَهُ إِبْرَاهِيمَ وَإِلَهُ إِسْحَاقَ وَإِلَهُ يَعْقُوبَ". فَسَتَرَ مُوسَى وَجْهَهُ لِأَنَّهُ خَافَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى اللَّهِ". (الخروج ٣)

" فَقَالَ يَهُوهَ لِمُوسَى: "الآن ترى ما أفعل بفرعون، لأنه بيدٍ قويّةٍ يُطْلِقُهُمْ، وَبِيَدِ قُوِيَّةٍ يَطْرُدُهُمْ مِنْ أَرْضِهِ".

٢ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى وَقَالَ لَهُ: "أَنَا يَهُوهَ. ٣ وَأَنَا ظَهَرْتُ لِإِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ بِأَنِّي إِلَهُ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَأَمَّا بِأَسْمِي يَهُوهَ فَلَمْ أَعْرِفْ عِنْدَهُمْ...

وَحَدَّثَ يَوْمَ كَلَّمَ يَهُوهَ مُوسَى فِي أَرْضِ مِصْرَ ٢٩ أَنَّ يَهُوهَ خَاطَبَ مُوسَى، قَائِلًا: "أَنَا يَهُوهَ. كَلَّمَ فِرْعَوْنَ مَلِكَ مِصْرَ بِكُلِّ مَا أَقُولُهُ لَكَ". ٣٠ فَقَالَ مُوسَى قُدَّامَ يَهُوهَ: "هَا أَنَا أَغْلُفُ الشَّفَنَيْنِ، فَكَيْفَ يَسْمَعُ لِي فِرْعَوْنُ؟". (الخروج ٦)

ثم تواصل التوراة الحديث عن نزول الله على موسى وبني إسرائيل:

"وَأَنَا أَعْبُرُ فِي أَرْضِ مِصْرَ هَذِهِ اللَّيْلَةَ وَأَضْرِبُ كُلَّ بَكْرٍ فِي أَرْضِ مِصْرَ، مِنْ النَّاسِ إِلَى الْبَهَائِمِ. وَأَنْفِذُ أَحْكَامًا بِكُلِّ إِلَهَةِ مِصْرَ. أَنَا يَهُوهَ... فَحِينَ يَجْتَازُ يَهُوهَ لِيَضْرِبَ الْمِصْرِيِّينَ وَيَرَى الدَّمَ عَلَى الْعَتَبَةِ الْعُلْيَا وَالْقَائِمَتَيْنِ، يَعْبُرُ يَهُوهَ عَنِ الْبَابِ وَلَا يَدْخُلُ الْمَهْلِكُ يَدْخُلُ بُيُوتَكُمْ لِيَضْرِبَكُمْ". (الخروج ١٢)

وتتحدث التوراة عن تطور العلاقة بين الله وموسى لتصبح علاقة ظاهرية

وقوية حتى مع الشعب الاسرائيلي، بعد الخروج من مصر:

"٢١ وَكَانَ يَهُوهَ يَسِيرُ أَمْلَهُمْ نَهَارًا فِي عَمُودِ سَحَابٍ لِيَهْدِيَهُمْ فِي الطَّرِيقِ، وَنَيْلًا فِي عَمُودِ نَارٍ لِيُنِيرَ عَلَيْهِمْ، لِكَيْ يَسِيرُوا نَهَارًا وَنَيْلًا. ٢٢ لَمْ يَبْرَحْ عَمُودُ السَّحَابِ نَهَارًا وَعَمُودُ النَّارِ لَيْلًا مِنْ أَمَامِ الشَّعْبِ". (الخروج ١٣)

ويلاحظ هنا المزج بين الله وملاك يهوه، فمرة تستعمل التوراة تعبير (يهوه =

الله) ومرة أخرى تستعمل (ملاك الله ، أو ملاك يهوه) فتقول:

١٩ فَانْتَقَلَ مَلَائِكَةُ اللَّهِ السَّائِرِينَ أَمَامَ جَيْشِ إِسْرَائِيلَ وَسَارَ وَرَاءَهُمْ، وَانْتَقَلَ عَمُودُ السَّحَابِ مِنْ أَمَامِهِمْ وَوَقَفَ وَرَاءَهُمْ. ٢٠ فَدَخَلَ بَيْنَ جَيْشِ الْمِصْرِيِّينَ وَجَيْشِ إِسْرَائِيلَ. فَكَانَ مِنْ هُنَا سَحَابًا وَظِلَامًا، وَكَانَ مِنْ هُنَاكَ يُنِيرُ اللَّيْلَ. فَلَمْ يَقْتَرِبْ هَذَا الْفَرِيقُ مِنْ ذَلِكَ طَوَالَ اللَّيْلِ. (الخروج ١٤)

" وَصَعِدَ مُوسَى إِلَى اللَّهِ، فَنَادَاهُ يَهُوهُ مِنَ الْجَبَلِ، قَائِلًا: "هَكَذَا تَقُولُ لِبَيْتِ يَعْقُوبَ وَتُخْبِرُ بَنِي إِسْرَائِيلَ...". (الخروج ١٩)

وتنقل التوراة الأحاديث المباشرة بين الله وموسى والشعب الاسرائيلي:
١٠ " فَقَالَ يَهُوهُ لِمُوسَى: "إِذْهَبْ إِلَى الشَّعْبِ وَقَدِّسْهُمْ الْيَوْمَ وَغَدًا، وَليُغْسِلُوا أَرْدِيَّتَهُمْ، ١١ فَيَكُونُوا مُسْتَعِدِّينَ لِلْيَوْمِ الثَّلَاثِ، لِأَنَّهُ فِي الْيَوْمِ الثَّلَاثِ يَنْزِلُ يَهُوهُ أَمَامَ عِيُونِ جَمِيعِ الشَّعْبِ عَلَى جَبَلِ سِينَاءَ... ٢٠ فَنَزَلَ يَهُوهُ عَلَى جَبَلِ سِينَاءَ إِلَى رَأْسِ الْجَبَلِ. وَدَعَا يَهُوهُ مُوسَى إِلَى رَأْسِ الْجَبَلِ، فَصَعِدَ مُوسَى. (الخروج ١٩)
" وَكَانَ جَمِيعُ الشَّعْبِ يَرَوْنَ الرُّعُودَ وَوَمِيزَ الْبُرُوقِ وَصَوْتَ الْقُرْنِ وَالْجَبَلِ يُدْخِنُ. وَلَمَّا رَأَى الشَّعْبُ ذَلِكَ، ارْتَجَفُوا وَوَقَفُوا مِنْ بَعِيدٍ. ١٩ وَقَالُوا لِمُوسَى: "تَكَلَّمْ أَنْتَ مَعَنَا فَنَسْمَعُ، وَلَا يَتَكَلَّمْ مَعَنَا اللَّهُ لِنَلَّا نَمُوتَ". ٢٠ فَقَالَ مُوسَى لِلشَّعْبِ: "لَا تَخَافُوا، لِأَنَّ اللَّهَ قَدْ جَاءَ لِيَمْتَحِنَكُمْ، وَلِتَكُونَ مَخَافَتُهُ أَمَامَ وَجُوهِكُمْ لِنَلَّا تُخْطِئُوا".
٢١ فَوَقَفَ الشَّعْبُ مِنْ بَعِيدٍ، لَكِنَّ مُوسَى اقْتَرَبَ إِلَى الْغَمَامِ الْمُظْلَمِ حَيْثُ كَانَ اللَّهُ.
٢٢ فَقَالَ يَهُوهُ لِمُوسَى: "هَكَذَا تَقُولُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: أَنْتُمْ رَأَيْتُمْ أَنِّي مِنَ السَّمَاءِ تَكَلَّمْتُ مَعَكُمْ". (الخروج ٢٠)

ونظرا لخوف بني اسرائيل من الاقتراب من الله، نزلت تعليمات مخففة:
" وَقَالَ لِمُوسَى: "اصْعَدْ إِلَى يَهُوهَ، أَنْتَ وَهَارُونَ وَنَادَابُ وَأَبِيهُو وَسَبْعُونَ مِنْ شُيُوخِ إِسْرَائِيلَ، وَاسْجُدُوا مِنْ بَعِيدٍ. ٢ وَمُوسَى وَحْدَهُ يَقْتَرِبُ إِلَى يَهُوهَ، وَأَمَّا هُمْ فَلَا يَقْتَرِبُونَ، وَلَا يَصْعَدُ الشَّعْبُ مَعَهُ".

٩ وَصَعِدَ مُوسَى وَهَارُونَ وَنَادَابُ وَأَبِيهُو وَسَبْعُونَ مِنْ شُيُوخِ إِسْرَائِيلَ، ١٠ فَرَأَوْا إِلَهَ إِسْرَائِيلَ، وَتَحَتَ قَدَمَيْهِ شِدْبُهُ صَنْعَةٌ بِلَاطٍ مِنَ الْيَاقُوتِ الْأَزْرَقِ، وَشِدْبُهُ السَّمَاءِ عَيْنَهَا فِي النَّقَاوَةِ. ١١ وَلَمْ يَمُدَّ يَدَهُ عَلَى وَجْهَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَرَأَوْا رُؤْيَا عَنِ اللَّهِ وَأَكَلُوا وَشَرِبُوا. (الخروج ٢٤)
" ١٨ وَلَمَّا أَنْتَهَى مِنَ الْكَلَامِ مَعَ مُوسَى عَلَى جَبَلِ سِينَاءَ، أَعْطَاهُ لَوْحِي الشَّهَادَةِ، لَوْحِي حَجَرٍ مَكْتُوبِينَ بِإِصْبَعِ اللَّهِ. (الخروج ٣١)

الوصايا العشر:

" ثُمَّ تَكَلَّمَ اللَّهُ بِجَمِيعِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ:
"أَنَا الرَّبُّ إِلَهُكَ الَّذِي أَخْرَجَكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ مِنْ بَيْتِ الْعِبُودِيَّةِ. لَا يَكُنْ لَكَ إِلَهَةٌ

أخرى أمامي.
لا تصنع لك تمثالا منحوتا ولا صورة ما مما في السماء من فوق وما في الأرض
من تحت وما في الماء من تحت الأرض.
لا تسجد لهم ولا تعبدهم لأنني أنا الرب اله غيور افتقد ذنوب الآباء في
الإناء في الجيل الثالث والرابع من مبغضي ، واصنع احسانا الى الواف من محبي
وحافظي وصاياي.

لا تنطق باسم الرب الهك باطلا لأن الرب لا يبرئ من نطق باسمه باطلا.
اذكر يوم السبت لثقتسه. ستة ايام تعمل وتصنع جميع عملك ، واما اليوم السابع
ففيه سبت للرب الهك. لا تصنع عملا ما انت وابنتك وابنتك وعبدك وامتك
وبهيمتك ونزيلك الذي داخل ابوابك - لأن في ستة ايام صنع الرب السماء
والارض والبحر وكل ما فيها واستراح في اليوم السابع. لذلك بارك الرب يوم
السبت وقده.

احرم اباك وامك لتطول ايامك على الارض التي يعطيك الرب الهك.
لا تقتل.

لا تزني.

لا تسرق.

لا تشهد على قريبك شهادة زور.

لا تشته بيت قريبك. لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا امته ولا ثوره ولا حماره
ولا شيئا مما لقريبك".

(الخروج، الفصل العشرون)

١٥ ثم انصرف موسى ونزل من الجبل ولوحا الشهادة في يده، لوحان
مكتوبان على كل من جانبيهما. من هذا الجانب ومن ذلك كانا
مكتوبين. ١٦ واللوحان هما صنعة الله، والكتابة هي كتابة الله منقوشة على
اللوحين. " (الخروج ٣٢)

ورغم كل ما سبق من حكايات اللقاء المباشر بين موسى والله، تعود التوراة
لتتحدث عن خطورة الرؤية المباشرة لوجه الله على موسى، وتنقل اقتراح الله
على موسى النظر الى ظهره فقط:

" ١٨ فقال: "ارني مجدك". ١٩ فقال: "امر بكل صلاح امام وجهك، واعلن
اسم يهوه امامك. واتحنن على من اتحنن، وارحم من ارحم". ٢٠ وقل: "لا
تقدر ان ترى وجهي، لانه لا يراني انسان ويعيش". ٢١ وقال يهوه: "هوذا
عندي مكان، فقف على الصخرة. ٢٢ ويكون حين يمر مجدي اني اضحك في
حفرة من الصخرة، واسترك براحة يدي حتى امر. ٢٣ ثم ارفع راحة يدي،
فترى ظهري. واما وجهي فلا يري". (الخروج ٣٣)

وتحكي لنا التوراة آثار لقاء موسى المباشر مع الله، على وجهه:
٢٩" وَكَانَ لَمَّا نَزَلَ مُوسَى مِنْ جَبَلِ سَيْنَاءَ، وَلَوْحًا الشَّهَادَةِ فِي يَدِ مُوسَى عِنْدَ نَزُولِهِ مِنَ الْجَبَلِ، أَنَّ مُوسَى لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ جِلْدَ وَجْهِهِ صَارَ مُشِعًّا مِنْ مَخَاطَبَتِهِ لَهُ.
٣٠ فَرَأَى هَارُونُ وَجَمِيعُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مُوسَى، وَإِذَا جِلْدُ وَجْهِهِ مُشِعٌّ، فَخَافُوا أَنْ يَفْتَرِبُوا مِنْهُ.

٣١ وَدَعَاَهُمْ مُوسَى. فَرَجَعَ إِلَيْهِ هَارُونُ وَجَمِيعُ زُعمَاءِ الْجَمَاعَةِ، فَكَلَّمَهُمْ مُوسَى. ٣٢ وَبَعْدَ ذَلِكَ أَقْتَرَبَ جَمِيعُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْهُ، فَأَوْصَاهُمْ بِكُلِّ مَا كَلَّمَهُ بِهِ يَهُوهُ فِي جَبَلِ سَيْنَاءَ. ٣٣ وَلَمَّا أَنْتَهَى مُوسَى مِنَ الْكَلَامِ مَعَهُمْ، وَضَعَ بُرْقُعًا عَلَى وَجْهِهِ. ٣٤ وَكَانَ مُوسَى، عِنْدَ دُخُولِهِ أَمَامَ يَهُوهَ لِيُكَلِّمَهُ، يَنْزِعُ الْبُرْقُعَ إِلَى أَنْ يَخْرُجَ. ثُمَّ يَخْرُجُ وَيُكَلِّمُ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا يُوصَى. ٣٥ فَكَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَرَوْنَ وَجْهَ مُوسَى، أَنَّ جِلْدَ وَجْهِهِ مُشِعٌّ، فَيَرُدُّ مُوسَى الْبُرْقُعَ عَلَى وَجْهِهِ إِلَى أَنْ يَدْخُلَ لِيُكَلِّمَهُ." (الخروج ٣٤)

وتستمر التوراة في نقل تفاصيل تعليمات الله لموسى والشعب الاسرائيلي، وهو يعيش في وسطه في خيمة الاجتماع:

"١ وَدَعَا يَهُوهُ مُوسَى وَكَلَّمَهُ مِنْ خَيْمَةِ الْأَجْتِمَاعِ، قَائِلًا: ٢ «كَلِّمَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَقُلْ لَهُمْ". (اللاويين ١)

"١ وَكَلَّمَ يَهُوهُ مُوسَى فِي بَرِّيَّةِ سَيْنَاءَ، فِي خَيْمَةِ الْأَجْتِمَاعِ، فِي الْيَوْمِ الْأَوَّلِ مِنَ الشَّهْرِ الثَّانِي فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ لِحُرُوجِهِمْ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ". (العدد ١)

٨٩" وَكَانَ مُوسَى، كُلَّمَا دَخَلَ خَيْمَةَ الْأَجْتِمَاعِ لِيَتَكَلَّمَ مَعَهُ، يَسْمَعُ الصَّوْتَ يُخَاطِبُهُ مِنْ فَوْقِ الْعُطَاءِ الَّذِي عَلَى تَابُوتِ الشَّهَادَةِ، مِنْ بَيْنِ الْكُرُوبِيِّينَ، فَيَتَكَلَّمُ مَعَهُ". (العدد ٧)

٩" وَكَلَّمَ يَهُوهُ مُوسَى فِي بَرِّيَّةِ سَيْنَاءَ فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ لِحُرُوجِهِمْ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ، فِي الشَّهْرِ الْأَوَّلِ". (العدد ٩)

وبعد عدد من اللقاءات الفردية، جاء دور اللقاء العام بين الله وشيوخ بني اسرائيل:

"١٦ فَقَالَ يَهُوهُ لِمُوسَى: "اجْمَعْ لِي سَبْعِينَ رَجُلًا مِنْ شُيُوخِ إِسْرَائِيلَ، الَّذِينَ تَعْرِفُ أَنَّهُمْ شُيُوخُ الشَّعْبِ وَعَرَفَاؤُهُ، وَخُذْهُمْ إِلَى خَيْمَةِ الْأَجْتِمَاعِ، فَيَقِفُوا هُنَاكَ مَعَكَ. ١٧ فَانزِلْ وَأَتَكَلَّمُ مَعَكَ هُنَاكَ، وَأَخِذْ مِنَ الرُّوحِ الَّذِي عَلَيْكَ وَأَضِعْ عَلَيْهِمْ، فَيُعِينُونَكَ فِي حَمْلِ حِمْلِ الشَّعْبِ فَلَا تَحْمِلُهُ أَنْتَ وَحْدَكَ. ... ٢٤ فَخَرَجَ مُوسَى وَكَلَّمَ الشَّعْبَ بِكَلَامِ يَهُوهَ. وَجَمَعَ سَبْعِينَ رَجُلًا مِنْ شُيُوخِ الشَّعْبِ وَأَقَامَهُمْ حَوْلَ الْخَيْمَةِ. ٢٥ ثُمَّ نَزَلَ يَهُوهُ فِي سَحَابَةٍ وَتَكَلَّمَ مَعَهُ، وَأَخِذَ مِنَ الرُّوحِ الَّذِي عَلَيْهِ وَجَعَلَ عَلَى كُلِّ مِنْ الشُّيُوخِ السَّبْعِينَ. وَلَمَّا اسْتَقَرَّ الرُّوحُ عَلَيْهِمْ أَخَذُوا يَفْعَلُونَ فِعْلَ الْأَنْبِيَاءِ، إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ يُكْرَرُوا ذَلِكَ. (العدد ١١)

وبناء على ما جاء في التوراة، يبدو أن هذه العملية (نشر الروح على الشيوخ السبعين) دفعت بعض هؤلاء الى الشعور بالمساواة مع موسى، في النبوة، وهذا ما دفع يهوه للنزول الى الأرض ومخاطبة من فكر بذلك بأن ثمة فارقا بين تحدّثه معهم وتحدّثه مع موسى، الذي كان يمتاز بصورة خاصة هي التحدّث فما لفم وليس التحدّث في الرؤيا، كما هو الحال مع بقية الشيوخ أو الأنبياء، ومنهم هارون ومريم أخو وأخت موسى:

"١٢ وَتَكَلَّمْتُ مَرِيمَ وَهَارُونَ عَلَى مُوسَى ... ٢ وَكَانَا يَقُولَانِ: "أَبْمُوسَى وَحَدَهُ تَكَلَّمَ يَهُوه؟ أَلَمْ يَتَكَلَّمْ بِنَا أَيْضًا؟". وَكَانَ يَهُوه يَسْمَعُ. ٣ أَمَّا الرَّجُلُ مُوسَى فَكَانَ حَلِيمًا جِدًّا أَكْثَرَ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ الَّذِينَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ. فَقَالَ يَهُوه فَجَاءَ لِمُوسَى وَهَارُونَ وَمَرِيمَ: "أَخْرَجُوا ثَلَاثَتَكُمْ إِلَى خَيْمَةِ الْأَجْتِمَاعِ". فَخَرَجُوا ثَلَاثَتُهُمْ. ٥ ثُمَّ نَزَلَ يَهُوه فِي عَمُودِ سَحَابٍ وَوَقَفَ عِنْدَ مَدْخَلِ الْخَيْمَةِ وَنَادَى هَارُونَ وَمَرِيمَ. فَتَقَدَّمَا كِلَاهُمَا. ٦ فَقَالَ: "اسْمَعَا كَلَامِي. إِنْ كَانَ بَيْنَكُمْ نَبِيٌّ لِيَهُوه، فَبِرُؤْيَا أُصِيرُ مَعْرُوفًا عِنْدَهُ. فِي حُلْمٍ أَتَكَلَّمُ مَعَهُ. ٧ أَمَّا خَادِمِي مُوسَى فَلَيْسَ هَكَذَا! فَهُوَ مُؤْتَمَنٌ عَلَى كُلِّ بَيْتِي. ٨ فَمَّا إِلَى فَمِ أَتَكَلَّمُ مَعَهُ، وَبِوَضُوحٍ لَا بِالْأَحَاجِي، وَشِبْهَ يَهُوه يُعَايِنُ. فَلِمَذَا لَمْ تَخَافَا أَنْ تَتَكَلَّمَا عَلَى خَادِمِي مُوسَى". (العدد ١٢)

الوحي الى موسى، في القرآن:

بالرغم من حوار الله المباشر مع نوح وابراهيم، الا ان القرآن لم يطلق عليه عنوان "الكلام" أو "التكليم" واحتفظ بهذه الصفة للنبي موسى فقط، فقال: "وكلم الله موسى تكليما" (النساء 164) وشرح ذلك مفصلا في سورة القصص: "فَلَمَّا أَنهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ". (القصص: 30) وفي سورة طه: "فَلَمَّا أَنهَا نُودِيَ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوًى، وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى، إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (طه ١١-١٤) وأكد ذلك في سورة الأعراف: "وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ" (الأعراف 143) وهو مطابق لما ورد في التوراة عن التكلم المباشر بين الله وموسى. ولكن ليس بتفاصيل التوراة: "فما لفم".

ومما يوضح الكلام المباشر من الله تعالى لموسى، ذلك الحوار المفصل الذي ينقله القرآن في سورة طه: "وَمَا تَلُكُ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ، قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأُشْفٍ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى ، قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى ، فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ، قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ، وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى ، لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ،

أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ، قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ، وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ،
وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ، وَيَفْفَهُوا قَوْلِي ، وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ، هَارُونَ
أَخِي ، أَشَدُّ بِهِ أَزْرِي ، وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ، كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ، وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ،
إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ، قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ... أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي
وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ، أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ، فَقَوْلَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ
يَخْشَى ، قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى ، قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي
مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ، فَأْتِيَاهُ فَقَوْلَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا
تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى ، إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ
الْعَذَابَ عَلَيَّ مَنِ كَذَبَ وَتَوَلَّى (طه 17 - 48)

وهو الحوار الذي يتكرر ذكره ثلاث مرات أخرى في سور الشعراء والنمل
والقصص.

وفي هذا السياق استخدم القرآن كلمة "قلنا" منسوبة الى الله تعالى في جوابه
لموسى: "وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ". (البقرة: 60)

ان القرآن يؤكد تكلم الله مع موسى تكليما، ولكنه ينزه الله عن الظهور والهبوط
والصعود، الوارد في التوراة، ويقول: "إذ قال موسى لأهله إني آنست نارا
سأتىكم منها بخبر أو أتىكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون. فلما جاءها نودي أن
بورك من في النار ومن حولها، سبحان الله رب العالمين. يا موسى إنه أنا الله
العزیز الحكيم". (النمل ٧-٩) ومن الواضح أن القرآن يتحدث عن رؤية موسى
لنار، وسماعه لصوت الله فقط.

وفي الحقيقة لم يقتصر الوحي النازل الى النبي موسى على الكلام المباشر من
الله، وانما امتاز أيضا بنزول الوحي في ألواح مكتوبة، كما يشير الى ذلك القرآن
الكريم في سورة الأنعام: "قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى
لِّلنَّاسِ" (الأنعام 91) وفي سورة هود: "أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد
منه ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة" (هود 17)

وهو ما يؤكد بصراحة في سورة الأعراف: "قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى
النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (144) وَكَتَبْنَا لَهُ فِي
الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا
بِمَا حَسَنَهَا سَازِرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ" (الأعراف 145)

وبالرغم من الكلام والحوار المباشر بين موسى والله عز وجل، فان القرآن
يستعمل أيضا، في أكثر من مناسبة، كلمة "الوحي" بالنسبة لموسى، فهل كانت
تشير الى نوع آخر من الوحي، وهو الوحي الخفي المشابه للإلهام؟ أم كانت تعني
أيضا الكلام المباشر؟ فقد ورد في سورة الأعراف: "وأوحينا الى موسى أن ألق
عصاك فاذا هي تلقف ما يأفكون". (الأعراف ١١٧) وورد في آيات أخرى كلمة

"أوحينا" التي تحتل معنى (سماح الصوت) وأيضا الوحي القلبي الخفي. كما في هذه الآيات: "ولقد أوحينا الى موسى أن أسر بعبادي فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى". (طه ٧٧) و "فأوحينا الى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم". (الشعراء ٦٣)

كما يستعمل القرآن كلمة (القول) التي تحمل معنى (الصوت والكلام) أكثر من الوحي الخفي، كما في قوله تعالى: "ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر الى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وانا أول المؤمنين (الأعراف ١٤٣).

معاجز النبي موسى

يمتاز النبي موسى ، حسب التوراة والقرآن، بمعاجز وآيات كثيرة، لإثبات نبوته وارتباطه بالله تعالى، ويتحدث القرآن عن عصا موسى التي تنقلب حية وتأكل عصي سحرة فرعون وحبالهم، وكذلك عن شق البحر، فضلا عن ارسال الجراد والقمل والضفادع على جيش فرعون، وإغراقه في النهاية.

ما هي رسالة النبي موسى؟

عندما ننظر الى الوصايا العشر الموجودة في التوراة، والتي تشكل جوهر الديانة اليهودية، نجد دعوة واضحة لتوحيد الله: "لا يكن لك آلهة أخرى ألمي، لا تصنع لك تمثالا منحوتا، ولا صورة ما مما في السماء من فوق، وما في الأرض من تحت، وما في الماء من تحت الأرض. لا تسجد لها ولا تخدمها، لأنني أنا يهوه إلهك يتطلب التعبد المطلق". (الخروج، ٢٠: ٣-٥)

ولكن الوصايا العشر التوراتية تخلو من ذكر الآخرة والحساب ويوم القيامة والجنة والنار، وكل ما يرد فيها هو التهديد في العقاب في الدنيا والانتقام من الأبناء والأحفاد: "أنا الرب الهك اله غيور أفتقد ذنوب الأبناء في الجيل الثالث والرابع من مبغضي، واصنع احسانا الى الوفاء من محبي وحافظي وصاياتي". وأما الثواب فيتلخص في منح الأرض وطول العمر: "أكرم أباك وأمك لتطول أيامك على الأرض التي يعطيك الرب إلهك".

وأما التعاليم الأخلاقية التي وردت في تلك الوصايا فقد كانت محدودة ضمن إطار بني إسرائيل، وليست مطلقة في التعامل مع جميع الناس، حيث تقول: لا تشهد على قريبك زور، ولا تشته بيت قريبك، لا تشته امرأة قريبك... " بما يعني جواز

الشهادة بالزور واشتهاء ممتلكات الآخرين ونسائهم. (الخروج، ٢٠: ٦ و٧ و١٢)

وبصورة عامة لا نجد في التوراة العبرانية أية إشارة الى اليوم الآخر، ويتركز العقاب في الدنيا، كما نرى في سفر (تثنية الاشتراع): "والآن يا إسرائيل، اسمع الفرائض والأحكام التي أعلمكم إياها لتعملوا بها، لكي تحيوا وترثوا الأرض التي يعطيكم الرب إله آبائكم إياها. لا تزيدوا كلمة على ما أمركم به ولا تنقصوا منه، حافظين وصايا الرب إلهكم التي أنا أوصيكم بها. إن عيونكم قد رأت ما صنع الرب ببعل فغور، فإن كل من سار وراء بعل فغور أباده الرب من وسطكم. وأما أنتم المتعلقون بالرب إلهكم، فكلكم أحياء اليوم. أنظر: إنني قد علمتكم فرائض وأحكاماً كما أمرني الرب إلهي، لتعملوا بها في وسط الأرض التي أنتم داخلون إليها لترثوها. فأحفظوها وأعملوا بها، فإنها حكمتكم وفهمكم أمام عيون الشعوب التي، إذا سمعت بهذه الفرائض، تقول: لا شك أن هذه الأمة العظيمة هي شعب حكيم فهميم. لأنه أية أمة عظيمة لها آلهة قريبة منها كالرب إلهنا في كل ما ندعوه؟ وأية أمة عظيمة لها فرائض وأحكام بارّة ككل هذه الشريعة التي أضعها اليوم أمامك؟" (تثنية 1: 4-8).

بينما تصرح التوراة السامرية بيوم القيامة، ولكن السامريين يختلفون فيما بينهم هل القيامة بالجسد والروح؟ أم بالروح فقط؟
الا ان العبرانيين يعودون فيصرحون بالنص على يوم القيامة ولكن في أسفار الأنبياء (وليس في التوراة).

ويوجد أيضا هذا النص في التوراة العبرانية: "لي النعمة والجزاء في وقت تزل أقدامهم. ان يوم هلاكهم قريب، والمهيئات لهم مسرعة، لأن الرب يدين شعبه، وعلى عبده يشفق...". (تثنية الاشتراع، الاصحاح الثاني والثلاثون، آية ٣٤-٣٦) كما توجد إشارة في سفر ميخا لدى الحديث عن المسيح القادم: "وهو يدعى ربا وسيدا، ويجلس عن يمين يهوه في آخر الأزمنة ليدين الأمم ويحاكم وينتقم لشعبه". (5:2)

ويفسر السامريون قوله "لي النعمة والجزاء، أو الي يوم الانتقام والمكافأة" بأنه يدل بصراحة ووضوح على قيام الناس من القبور للقاء الله، فيجزئهم على أعمالهم التي عملوها في الحياة الدنيا، وان قوله: "في وقت تزل أقدامهم" يحتمل الجزاء في الدنيا أو في الحياة الآخرة.

ونواجه نفس الصورة تقريبا، في القرآن الكريم، فبالرغم من اسهاب القرآن في

الحديث عن النبي موسى، وذكره في 36 سورة، كما لم يذكر أي نبي آخر، إلا أن معظم الحديث عنه يدور حول استنقاذ بني اسرائيل من فرعون، وعبور البحر، والخروج من مصر والتهيه في سيناء، وما الى ذلك، ولا توجد صورة دقيقة عن رسالته وشريعته، ولا عن اليوم الآخر، ولكننا نعرف ببداية أن النبي موسى كان يدعو الى توحيد الله وعبادته كسائر الأنبياء السابقين كما في هذه الآية: "شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا اليك، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه، كبر على المشركين ما تدعوهم إليه..." (الشورى، ١٣)

ومع ذلك لا يوجد في القرآن حديث من النبي موسى عن الآخرة والجنة والنار، وسوف نورد بعض أهم الآيات التي تنطرق الى ذلك:
"فلما أتاهما نودي من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين". (القصص ٣٠)
"وإذ نادى ربك موسى أن إئت القوم الظالمين قوم فرعون ألا يتقون". (الشعراء، ١٠- ١١)

"قال فمن ربكما يا موسى؟ قال ربنا الذي أعطى كل شئ خلقه ثم هدى". (طه، ٤٩- ٥٠)

"وإذ قال موسى لقومه: يا قوم انكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا الى بارئكم...". (البقرة، ٥٤)

"قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا ان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين". (الأعراف، ١٢٨)

"وقال موسى يا قوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين". (يونس، ٨٤)
"ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات الى النور وذكرهم بأيام الله، إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور". (إبراهيم، ٥) "وأنزلنا عليهم المن والسلوى". (الأعراف ١٦٠)

"قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افتري". (طه ٦١)

"وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني اسرائيل ألا تتخذوا من دوني وكيلا". (الاسراء ٢)

ولا توجد في القرآن إلا آية واحدة تذكر تحدث موسى حول يوم الحساب، وهي:
• "وقال موسى إني عدت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب". (غافر، ٢٧)

وكما هو واضح فانها لا تذكر تفاصيل ما بعد يوم الحساب من جنة ونار. كما

- توجد آية أخرى تذكر الآخرة بشكل مختصر:
- "واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة...". (الأعراف، ١٥٦)

إيمان اليهود بالآخرة والجنة والنار بين الإهمال والاثبات

وبالرغم مما تقول التوراة أو تسكت عنه من أمر الآخرة، فإن اليهود الذين عاصروهم النبي محمد واحتك بهم، كانوا يؤمنون بالآخرة والجنة والنار، كما يظهر من الآيات التالية:

- "وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ". (البقرة، 111)
- "ان الذين آمنوا والذين هادوا والنجاري والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون". (البقرة، ٦٢)
- "ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنجاري من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون". (المائدة، ٦٩)

ولكن اليهود كانوا يعتقدون بأن الجنة خلصة لهم، أو أنهم لا يمكنون في النار الا أياما معدودة، كما يقول القرآن الكريم:

- "وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيتهم، قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين". (البقرة، ١١١)
- "وقالوا لن تمسنا النار الا أياما معدودة، قل اتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عده أم تقولون على الله ما لا تعلمون". (البقرة، ٨٠)
- "ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار الا أياما معدودات، وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون". (آل عمران، ٢٤)

ويبدو ان عقيدة الإيمان بالآخرة والجنة والنار، قد انحسرت عند معظم اليهود، ولم يعد يؤمن بها الا الفريق المتشدد بإيمانه، وهم المعروفون (بالحسيديم). يقول الدكتور جعفر هادي حسن: "لجهنم عند الحسيديم طبيعتان: احدهما ذات طبيعة شديدة البرودة، والأخرى ذات طبيعة شديدة الحرارة، وتطهر الأولى الذنوب التي ارتكبت بسبب الأهمال، أما الثانية فانها تطهر الذنوب التي ارتكبت

عن طريق العاطفة والأحاسيس الأخرى. وهم يقولون: ان عملية التطهير هذه هي فضل يفيضه الله على الانسان. وفي معتقد الحسيديم ان الوقت الذي يقضيه اليهودي في جهنم لا يزيد على اثني عشر شهرا، اذ أن النبي إبراهيم يكون واقفا عند الباب يحرر من جهنم كل مختون (من اليهود) قبل اثني عشر شهرا. ويقول الحسيديم: ان جهنم تخلو من اليهود في يوم السبت، إذ أن اليهودي لا يتحمل عذاب سبعة أيام متوالية. والبعض الآخر منهم يقول إنها تخلو فقط من اليهود الذين أقاموا شعائر يوم السبت. وهم يرون بأن هناك من اليهود من يدخل الجنة مباشرة، ومن هؤلاء اليهودي الذي يموت من أجل دينه، والجندي الإسرائيلي الذي يموت وهو يقاتل العرب. ويذكر التلمود بعض الناس لا يدخلون جهنم ولا يرونها وهم: الفقير، والمريض، وقد اضيف لهذين الرجل الذي يبتلى بزوجة شريرة. (Eruvim, 41b)"

وقد رد القرآن على اليهود دعواهم باحتكار الجنة فقال:

- "قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين، ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم، والله عليم بالظالمين". (البقرة، ٩٥)

وبناء على إيمان اليهود بالآخرة، حذرهم القرآن من التماذي في الكفر، ودعاهم الى الخوف من ذلك اليوم:

- "واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا، ولا يقبل منها شفاعاة ولا يؤخذ منها عدل، ولا هم ينصرون". (البقرة، ٤٨)

وربما نفهم من الآية التالية أن فريقا من اليهود لم يكونوا يؤمنون بالآخرة ولا بالجنة ولا النار، وهم الذين أمر الله المسلمين بقتالهم:

- "قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون". (التوبة، ٢٩)

الفصل السادس: الوحي الى أنبياء التلمود (بعد موسى والتوراة) :

وعندما ننتقل الى أسفار التلمود، نجد طبيعة الوحي فيها تكاد تشابه طبيعته في التوراة، ما عدا الحضور المباشر لله (يهوه) في وسط بني اسرائيل، في أيام النبي موسى، من حيث تحدث الله مباشرة مع بعض الأنبياء في الحلم، أو تحدث ملاكه الى بعض الناس بالإضافة الى الأنبياء، سواء في اليقظة أو المنام، حيث يذكر سفر (يشوع) بأن الله "قال" ليشوع. وهي كلمة توحى بالتحدث المباشر وليس الوحي الخفي:

" ١ وَكَانَ بَعْدَ مَوْتِ مُوسَى خَادِمُ يَهُوَهَ أَنَّ يَهُوَهَ قَالَ لِيَشُوعَ بْنِ نُونَ، خَادِمُ مُوسَى: ٢ "مُوسَى خَادِمِي قَدْ مَاتَ. فَقُمْ الْآنَ وَأَعْبُرِ الْأَرْضَ هَذَا، أَنْتَ وَجَمِيعُ هَذَا الشَّعْبِ، إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَنَا مُعْطِيهَا لَهُمْ، أَي لِبَنِي إِسْرَائِيلَ." (يشوع ١)

" ١٣ وَحَدَّثَ لَمَّا كَانَ يَشُوعُ عِنْدَ أَرِيحَا أَنَّهُ رَفَعَ عَيْنَيْهِ وَنَظَرَ، فَإِذَا بَرَجُلٌ وَقِفَ أَمَامَهُ، وَسَدِيفُهُ مَسْلُوكٌ بِيَدِهِ. فَسَارَ يَشُوعُ إِلَيْهِ وَقَالَ لَهُ: "أَلَنَا أَنْتَ أَمْ لِحُصُونِنَا؟". ١٤ فَقَالَ: "لَا، بَلْ أَنَا جِئْتُ الْآنَ رَبِيسًا لِحُنْدِ يَهُوَهَ". فَسَقَطَ يَشُوعُ عَلَى وَجْهِهِ إِلَى الْأَرْضِ وَسَجَدَ." (يشوع ٥)

ويتحدث سفر (القضاة) عن تمثل ملاك الله بصورة رجل وذهابه لامرأة عادية عاقر، واخبارها بحملها في المستقبل، ولما تعجب زوجها من ذلك الخبر، دعا الله أن يريه ذلك الملاك، وهكذا حصل:

" ٢ وَكَانَ رَجُلٌ مِنْ صُرْعَةَ، مِنْ عَشِيرَةِ الدَّانِيَيْنِ، اسْمُهُ مَنُوحٌ. وَزَوْجَتُهُ عَاقِرٌ لَمْ تَلِدْ. ٣ فَتَرَاءَى مَلَكَ يَهُوَهَ لِلْمَرْأَةِ وَقَالَ لَهَا: "هَذَا أَنْتِ عَاقِرٌ لَمْ تَلِدِي. وَلَكِنَّكَ سَتَحْمَلِينَ وَتَلِدِينَ أَبْنًا. ٥ فَهَا إِنَّكَ تَحْمَلِينَ وَتَلِدِينَ أَبْنًا، ٦ فَجَاءَتِ الْمَرْأَةُ وَقَالَتْ لِزَوْجِهَا: "جَاءَنِي رَجُلٌ إِلَى اللَّهِ، وَمَنْظَرُهُ كَمَنْظَرِ مَلَكَ اللَّهِ، مَخُوفٌ جِدًّا. وَأَنَا لَمْ أَسْأَلْهُ مِنْ أَيْنَ هُوَ، وَلَا هُوَ أَخْبَرَنِي عَنْ اسْمِهِ. ٧ وَقَالَ لِي: هَذَا أَنْتِ تَحْمَلِينَ وَتَلِدِينَ أَبْنًا. ٨ فَتَوَسَّلَ مَنُوحٌ إِلَى يَهُوَهَ وَقَالَ: "أَرْجُوكَ يَا يَهُوَهَ، لِيَعُدَّ إِلَيْنَا رَجُلٌ إِلَى اللَّهِ الَّذِي أَرْسَلْتَهُ، وَيُعَلِّمَنَا مَاذَا نَصْنَعُ لِلصَّبِيِّ الَّذِي يُوَلِّدُ". ٩ فَسَمِعَ اللَّهُ لِصَوْتِ مَنُوحَ، وَجَاءَ مَلَكَ اللَّهِ ثَانِيَةً إِلَى الْمَرْأَةِ وَهِيَ جَالِسَةٌ فِي الْحَقْلِ، وَمَنُوحٌ زَوْجُهَا لَيْسَ مَعَهَا. ١٠ فَاسْرَعَتِ الْمَرْأَةُ وَرَكَضَتْ وَأَخْبَرَتْ زَوْجَهَا وَقَالَتْ لَهُ: "هُوَذَا قَدْ تَرَاءَى لِي الرَّجُلُ الَّذِي جَاءَ إِلَيَّ ذَلِكَ الْيَوْمَ". ١١ فَقَامَ مَنُوحٌ وَرَافَقَ زَوْجَتَهُ وَجَاءَ إِلَى الرَّجُلِ وَقَالَ لَهُ: "أَنْتِ الرَّجُلُ الَّذِي تَكَلَّمْتَ إِلَى الْمَرْأَةِ؟"، فَقَالَ: "أَنَا هُوَ". فَقَالَ مَنُوحٌ: "فَلْيَتِمَّ الْآنَ كَلَامُكَ. وَلَكِنْ كَيْفَ تَكُونُ حَيَاةً."

١٩ فَأَخَذَ مَنُوحٌ جَدِي الْمَعزَى وَفَرِيَانَ الْحُبُوبِ وَقَرَّبَهُمَا عَلَى الصَّخْرَةِ لِيَهُوَهَ. فَعَمِلَ عَمَلًا عَجِيبًا، وَمَنُوحٌ وَزَوْجَتُهُ يَنْظُرَانِ. ٢٠ فَكَانَ عِنْدَ صُعُودِ اللَّهَبِ عَنِ الْمَذْبَحِ نَحْوَ السَّمَاءِ، أَنَّ مَلَكَ يَهُوَهَ صَعِدَ فِي لَهَبِ الْمَذْبَحِ، وَمَنُوحٌ وَزَوْجَتُهُ يَنْظُرَانِ. فَسَقَطَا عَلَى وَجْهِهِمَا إِلَى الْأَرْضِ. ٢١ وَلَمْ يَعُدَّ مَلَكَ يَهُوَهَ يَتَرَاءَى لِمَنُوحَ وَزَوْجَتِهِ بَعْدَ. فَعَلِمَ مَنُوحٌ حِينَئِذٍ أَنَّهُ مَلَكَ يَهُوَهَ.

٢٤ وَوَلَدَتِ الْمَرْأَةُ أَبْنَاءَ وَدَعَتِ اسْمَهُ شَمْشُونَ. (القضاة ١٣)

الوحي الى النبي سليمان، في التلمود

ويتحدث سفر (الملوك الأول، الاصحاح الثالث) عن ترائي (يهوه) لسليمان في الحلم:

" ٥ وَفِي جِبْعُونَ تَرَاءَى يَهُوهُ لِسُلَيْمَانَ فِي حُلْمٍ لَيْلًا، وَقَالَ اللَّهُ: "أَطْلُبْ مَاذَا أُعْطِيكَ".

١٠ فَحَسُنَ الْأَمْرُ فِي عَيْنِي يَهُوهَ، لِأَنَّ سُلَيْمَانَ طَلَبَ هَذَا الْأَمْرَ. ١١ فَقَالَ لَهُ اللَّهُ: "مَنْ أَجَلَ أَنْكَ قَدْ طَلَبْتَ هَذَا الْأَمْرَ، وَلَمْ تَطْلُبْ لَكَ أَيَّامًا كَثِيرَةً، وَلَا طَلَبْتَ لَكَ غَنِيًّا، وَلَا طَلَبْتَ نَفْسَ أَعْدَائِكَ، بَلْ طَلَبْتَ لَكَ الْفَهْمَ لِتَسْمَعَ قَضَايَا الْقَضَاءِ، ١٢ فَهَذَا أَنَا أَفْعَلُ حَسَبَ كَلَامِكَ. هَذَا أَنِّي أُعْطِيكَ قَلْبًا حَكِيمًا وَفَهِيمًا...

١٥ فَاسْتَيْقِظْ سُلَيْمَانُ، وَإِذَا هُوَ حُلْمٌ. "

الوحي الى داود وسليمان، في القرآن

بالنسبة للنبي داود، يذكر القرآن اجراء حوار مباشر بينه وبين الله، حيث يخاطبه قائلا:

• "يا داوود انا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب". (ص: ٢٦)

كما يصرح بإعطائه "الزبور":

• "وآتينا داوود زبوراً". (الاسراء ٥٥)

ويشير القرآن الى منح الله داود الحكمة وفصل الخطاب:

• "وشددنا ملكه وآتينا الحكمة وفصل الخطاب". (ص: 20)

تتضمن صورة العلاقة بين الله تعالى وبين سليمان، في القرآن عدة معان هي: الوحي والتفهيم والتعليم والتمكين من استخدام الريح والسيطرة على الجن والشياطين وتعليمه منطق الطير والحشرات، ونلاحظ ذلك جليا في الآيات العديدة التالية:

• "ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما". (الأنبياء 79)

• "وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون".

(الأنبياء 80)

• " ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالوا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين". (النمل 15)

• "وورث سليمان داود وقال: يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء، ان هذا لهُو الفضل المبين". (النمل 16)

وكل ذلك يكشف عن علاقة وثيقة مع الله تتضمن الوحي الخفي والالهام والكلام. ولكن القرآن لم يوضح طبيعة الوحي النازل الى سليمان هل كان قلبيا؟ أم عبر الملائكة؟

التلمود: الله أوحى لقورش

ويبدو من خلال قصص الوحي التي يذكرها التلمود (سفر أخبار الأيام الثاني) أن الوحي الالهي المباشر لم يكن يقتصر على أنبياء بني اسرائيل، وانما كان ينزل أيضا على أناس عاديين رجالا ونساء، كما أنزل مثلا على كورش ملك فارس الذي أنقذ اليهود من الأسر البابلي:

" ٢٢ وفي السنة الأولى لكورش ملك فارس، لكي تتم كلمة يهوه بفم إرميا، نبه يهوه روح كورش ملك فارس فأطلق نداء في مملكته كلها، وبالكتابه أيضا، قائلا: ٢٣ "هذا ما قاله كورش ملك فارس: قد أعطاني يهوه إله السموات جميع ممالك الأرض، وهو فوض إلي أن أبني له بيتا في أورشليم التي في يهوذا. فمن كان منكم من كل شعبه، فليكن يهوه إلهه معه، وليصعد". (أخبار الأيام الثاني ٣٦)

وتتكرر نفس الرواية في سفر عزرا:

" ١ وفي السنة الأولى لكورش ملك فارس، لكي تتم كلمة يهوه بفم إرميا، نبه يهوه روح كورش ملك فارس فأطلق نداء في مملكته كلها، وبالكتابه أيضا، قائلا: ٢ "هذا ما قاله كورش ملك فارس: قد أعطاني يهوه إله السموات جميع ممالك الأرض، وهو فوض إلي أن أبني له بيتا في أورشليم التي في يهوذا". (عزرا ١)

ولا نعرف بالضبط هل قال كورش أن الله أوحى له فعلا، أم أن اليهود نسبوا ذلك اليه، من باب رد الجميل، وإغرائه بفتح الممالك الأخرى ولا سيما بابل، وتحرير الأسرى اليهود منها. ومما يهون الخطب هنا أن يهوه لم يتراءى بنفسه

لكورش وانما اكتفى بتنبيه روحه فقط.

الوحي الى اشعيا

ولكن إذا ما جئنا الى النبي اشعيا فانه يصور طريقة الوحي اليه برؤية الله مباشرة وسماع صوته ومخاطبته له، ولم يوضح فيما إذا كانت الرؤية في اليقظة أو المنام:

"٦ فِي السَّنَةِ الَّتِي مَاتَ فِيهَا الْمَلِكُ عَزِيَّا، رَأَيْتُ يَهُوَهَ جَالِسًا عَلَى عَرْشِ عَالٍ رَفِيعٍ، وَأَذْيَالُهُ تَمَلَأُ الْهَيْكَلَ. ٢ كَانَ السَّرَافِيمُ وَقِفِينَ فَوْقَهُ. كُلُّ وَاحِدٍ لَهُ سِتَّةُ أَجْنِحَةٍ، بَاتْنَيْنِ يُغَطِّي وَجْهَهُ وَبَاتْنَيْنِ يُغَطِّي رِجْلَيْهِ وَبَاتْنَيْنِ يَطِيرُ. ٣ وَكَانَ هَذَا يُنَادِي ذَاكَ وَيَقُولُ: "قُدُّوسٌ، قُدُّوسٌ، قُدُّوسٌ يَهُوَهَ الْجُنُودِ. مَجْدُهُ مِلءُ كُلِّ الْأَرْضِ". ٤ فَاهْتَزَّتِ الصَّوَائِرُ فِي الْعُتَبَاتِ مِنْ صَوْتِ الْمُنَادِي، وَأَمْتَلَأَ الْبَيْتُ دُخَانًا. ٥ فَقُلْتُ: "وَيْلٌ لِي! قَدْ هَلَكْتُ، لِأَنِّي إِنْسَانٌ نَجِسٌ الشَّفَتَيْنِ، وَأَنَا سَاكِنٌ بَيْنَ شَعْبٍ نَجِسٍ الشَّفَتَيْنِ، لِأَنَّ عَيْنِي قَدْ رَأَتْ أَمْلَاكَ، يَهُوَهَ الْجُنُودِ". ٦ فَطَارَ إِلَيَّ وَاحِدٌ مِنْ السَّرَافِيمِ، وَبِيَدِهِ جَمْرَةٌ مُتَوَهَّجَةٌ أَخَذَهَا بِمَلْفَظٍ مِنْ عَلَى الْمَذْبَحِ. ٧ وَمَسَّ بِهَا فَمِي وَقَالَ: "هَذَا إِنَّ هَذِهِ قَدْ مَسَّتْ شَفَتَيْكَ، فَازِيلَ ذَنْبَكَ وَكُفْرَ عَنِ خَطِيئَتِكَ". ٨ وَسَمِعْتُ صَوْتَ يَهُوَهَ قَائِلًا: "مَنْ أُرْسِلُ، وَمَنْ يَذْهَبُ مِنْ أَجْلِنَا؟". فَقُلْتُ: "هَازِنًا أُرْسِلْنِي". ٩ فَقَالَ: "إِذْهَبْ وَقُلْ لِهَذَا الشَّعْبِ: اسْمَعُوا سَمْعًا وَلَا تَفْهَمُوا، وَأَبْصِرُوا أَبْصَارًا وَلَا تَعْرِفُوا". (اشعيا ٦)

وينقل سفر إرميا حوار هذا النبي مع الله عند إرساله الى الناس وهو صبي:

"١ كَلَامُ إِرْمِيَا بْنِ حَلْفِيَّا، مِنْ الْكَهَنَةِ الَّذِينَ فِي عَنَاثُوثَ فِي أَرْضِ بَنِيَامِينَ، ٢ الَّذِي كَانَتْ إِلَيْهِ كَلِمَةٌ يَهُوَهَ... ٤ كَلَّمَنِي يَهُوَهَ قَائِلًا: ٥ "قَبْلَ أَنْ أَصَوِّرَكَ فِي الْبَطْنِ عَرَفْتُكَ، وَقَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الرَّحِمِ قَدَسْتُكَ. جَعَلْتُكَ نَبِيًّا لِلْأُمَّمِ". ٦ فَقُلْتُ: "أَهْ أَيُّهَا السَّيِّدُ الرَّبُّ يَهُوَهَ! هَا أَنِّي لَا أَعْرِفُ أَنْ أَتَكَلَّمَ، لِأَنِّي صَبِيٌّ". ٧ فَقَالَ يَهُوَهَ لِي: "لَا تَقُلْ: (إِنِّي صَبِيٌّ). بَلْ تَذْهَبُ إِلَيَّ كُلُّ مَنْ أُرْسِلُكَ إِلَيْهِمْ، وَتَتَكَلَّمُ بِكُلِّ مَا أَمُرُكَ بِهِ. ٨ لَا تَخَفْ مِنْ وُجُوهِهِمْ، (لِأَنِّي أَنَا مَعَكَ لِأَنْقِذَكَ)، يَقُولُ يَهُوَهَ". (إرميا ١)

ويقول النبي عاموس حول كيفية رؤية الله وقصة نبوته:

"٩ رَأَيْتُ يَهُوَهَ وَقِيفًا فَوْقَ الْمَذْبَحِ، فَقَالَ: "اضْرِبْ رَأْسَ الْعَمُودِ، حَتَّى تَهْتَزَّ الْأَعْتَابُ، وَكَسِّرْهَا عَلَى رُؤُوسِهِمْ جَمِيعًا. وَسَأَقْتُلُ آخِرَهُمْ بِالسَّيْفِ. فَلَا يَنْجَحُ مِنْهُمْ هَارِبٌ فِي الْهَرَبِ، وَلَا يُفْلِتُ مِنْهُمْ نَاجٍ". (عاموس ٩).

ويقول النبي ميخا بن يملة: "رأيت الرب جالسا على عرشه وجميع ملائكة السماء وقوف لديه، على يمينه وشماله، وسمعه يتحدث الى روح" (ملوك الأول ٢٢: ١٩-٢٣) ويبدو من هذا النص أن النبي ميخا يقول انه رأى الله في المنام وسمع حواراه مع الملائكة.

ولا يرد في القرآن أي ذكر- للنبي إرميا أو أشعيا، أو علموس، أو ميخا، فضلا عن الإشارة الى طبيعة الوحي النازل عليهم.

الوحي الى الأنبياء يونس وزكريا ويحيى، في التلمود:

وهكذا نجد طبيعة الوحي الالهي الى النبي يونس أنها بتحدث الله معه مباشرة:
" ١ كَانَتْ كَلِمَةٌ يَهُوهَ إِلَى يُونَانَ بْنِ أَمْتَايَ، قَائِلًا: ٢ "قُمْ أَذْهَبْ إِلَى نِينَوَى الْمَدِينَةِ الْعَظِيمَةِ، وَنَادِ عَلَيْهَا بِأَنَّ شَرَّهُمْ قَدْ صَعِدَ أَمَامِي". ٣ فَقَامَ يُونَانُ وَأَنْطَلَقَ هَارِبًا إِلَى تَرْشِيشَ مِنْ أَمَامِ يَهُوهَ، فَنَزَلَ إِلَى يَافَا وَوَجَدَ سَفِينَةً ذَاهِبَةً إِلَى تَرْشِيشَ. فَدَفَعَ أَجْرَتَهَا وَنَزَلَ فِيهَا لِيَذْهَبَ مَعَهُمْ إِلَى تَرْشِيشَ مِنْ أَمَامِ يَهُوهَ". (يونان ١)
" ٣ وَكَانَتْ كَلِمَةٌ يَهُوهَ إِلَى يُونَانَ ثَانِيَةً، قَائِلًا: ٢ "قُمْ أَذْهَبْ إِلَى نِينَوَى الْمَدِينَةِ الْعَظِيمَةِ، وَنَادِ لَهَا الْمُنَادَاةَ الَّتِي أَكَلَمَكَ بِهَا". (يونان ٣)

ونأتي أخيرا الى قصة النبي زكريا مع الوحي، وتكلم الله معه، ورؤيته للملائكة:

" ١ فِي الشَّهْرِ الثَّامِنِ فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ لِدَارِ يُوسَى، كَانَتْ كَلِمَةٌ يَهُوهَ إِلَى زَكَرِيَّا بْنِ بَرَخِيَا بْنِ عَدُوِّ النَّبِيِّ قَائِلًا: ٢ "قَدْ أَعْتَظْتُ يَهُوهَ جِدًّا عَلَى آبَائِكُمْ".
٧ ... كَانَتْ كَلِمَةٌ يَهُوهَ إِلَى زَكَرِيَّا بْنِ بَرَخِيَا بْنِ عَدُوِّ النَّبِيِّ قَائِلًا: ٨ "رَأَيْتُ فِي اللَّيْلِ وَإِذَا بَرَجُلٌ رَاكِبٌ عَلَى فَرَسٍ أَحْمَرَ، وَهُوَ وَاقِفٌ بَيْنَ شَجَرِ الْأَسِّ الَّذِي فِي الْهُوَّةِ، وَوَرَاءَهُ خَيْلٌ حُمْرٌ وَشَفْرٌ وَبَيْضٌ". ٩ فَقُلْتُ: "مَنْ هُوَ لَاءِ يَا سَيِّدِي؟". فَقَالَ لِي الْمَلَكُ الَّذِي كَانَ يُكَلِّمُنِي: "أَنَا أَرِيكَ مَنْ هُوَ لَاءِ". ١٠ فَاجَابَ الرَّجُلُ الْوَاقِفُ بَيْنَ شَجَرِ الْأَسِّ وَقَالَ: "هُوَ لَاءِ هُمْ الَّذِينَ أُرْسَلَهُمْ يَهُوهَ لِيَجُولُوا فِي الْأَرْضِ".
١١ فَاجَابُوا مَلَكَ يَهُوهَ الْوَاقِفِ بَيْنَ شَجَرِ الْأَسِّ وَقَالُوا: "قَدْ جُئْنَا فِي الْأَرْضِ، وَإِذَا بِالْأَرْضِ كُلِّهَا سَاكِنَةٌ مُطْمَئِنَّةٌ". ١٢ فَاجَابَ مَلَكَ يَهُوهَ وَقَالَ: "يَا يَهُوهَ الْجُنُودِ، إِلَى مَتَى لَا تَرْحَمُ أورشليمَ وَمُدُنَ يَهُودَا، الَّتِي دَنَّتْهَا هَذِهِ السَّبْعِينَ سَنَةً؟". ١٣ فَاجَابَ يَهُوهَ الْمَلَكُ الَّذِي كَانَ يُكَلِّمُنِي بِكَلَامٍ طَيِّبٍ وَكَلَامٍ مُعَزِّ. ١٤ فَقَالَ لِي الْمَلَكُ الَّذِي كَانَ يُكَلِّمُنِي: "نَادِ قَائِلًا: (هُكَذَا قَالَ يَهُوهَ الْجُنُودِ: "قَدْ غَرَّتْ عَلَى أورشليمَ وَعَلَى صِهْيُونََ غَيْرَةٌ عَظِيمَةٌ. ١٥ وَقَدْ أَعْتَظْتُ غَيْظًا عَظِيمًا عَلَى الْأُمَّمِ الْمُطْمَئِنَّةِ، لِأَنِّي أَعْتَظْتُ قَلِيلًا وَهُمْ سَاعَدُوا عَلَى الْبَلِيَّةِ)".
١٦ لِذَلِكَ هَكَذَا قَالَ يَهُوهَ: "أَرْجِعْ إِلَى أورشليمَ بِالْمَرَا حِم. فَيُبْنَى بَيْتِي فِيهَا"، يَقُولُ يَهُوهَ الْجُنُودِ، "وَيَمْدُ حَيْطُ الْقِيَاسِ عَلَى أورشليمَ". (زكريا ١)
" وَرَفَعْتُ عَيْنِي وَنَظَرْتُ، فَإِذَا بَرَجُلٌ وَفِي يَدِهِ حَبْلٌ قِيَاسٍ. ٢ فَقُلْتُ: "إِلَى أَيْنَ أَتَيْتُ ذَاهِبٌ؟". فَقَالَ: "لِلْقِيَاسِ أورشليمَ وَارَى كَمْ عَرَضَهَا وَكَمْ طُولَهَا". ٣ فَإِذَا

بِالْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ كَانُوا يَكَلِّمُنِي قَدْ خَرَجْتُ، وَخَرَجَ مَلَائِكَةُ آخَرُ لِقَائِهِ. ٤ فَقَالَ لَهُ: "ارْكُضْ وَكَلِّمِ الشَّابَّ هُنَاكَ قَائِلًا: "كَمَدِينَةٍ بِلَا أَسْوَارٍ تُسْكَنُ أُورُشَلِيمُ مِنْ كَثْرَةِ النَّاسِ وَالْبَهَائِمِ فِيهَا". (زكريا ٢)

٤ "فَرَجَعَ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ كَانُوا يَكَلِّمُنِي وَأَيَّقَنِي، كَرَجُلٍ يُوقِظُ مِنْ نَوْمِهِ. ٢ فَقَالَ لِي: "مَاذَا تَرَى؟". فَقُلْتُ: "قَدْ نَظَرْتُ، فَإِذَا بِمَنَارَةٍ كُلُّهَا ذَهَبٌ، وَطَاسٌ عَلَى رَأْسِهَا. وَسُرُجُهَا السَّبْعَةُ عَلَيْهَا، وَسَبْعَةُ أَنْبِيَاءٍ لِلسُّرُجِ الَّتِي عَلَى رَأْسِهَا. ٣ وَإِلَى جَانِبِهَا شَجَرَتَا زَيْتُونٍ، وَاحِدَةٌ عَنْ يَمِينِ الطَّاسِ وَالْآخَرَى عَنْ يَسَارِهِ". ٤ ثُمَّ أَجَبْتُ وَقُلْتُ لِلْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ يَكَلِّمُنِي: "مَا هَذِهِ يَا سَيِّدِي؟". ٥ فَأَجَابَ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ يَكَلِّمُنِي وَقَالَ لِي: "أَلَا تَعْلَمُ مَا هَذِهِ؟". فَقُلْتُ: "لَا يَا سَيِّدِي". ٦ فَأَجَابَ وَقَالَ لِي: "هَذِهِ كَلِمَةُ يَهُوَهَ إِلَى زَرْبَابِيلَ قَائِلًا: "لَا بِجَيْشٍ وَلَا بِقُوَّةٍ، بَلْ بِرُوحِي"، قَالَ يَهُوَهَ الْجُنُودِ. ٧ مَنْ أَنْتَ أَيُّهَا الْجَبَلُ الْعَظِيمُ؟ أَمَامَ زَرْبَابِيلَ تَصِيرُ أَرْضًا مُسْتَوِيَةً. وَسِيَخْرُجُ الْحَجَرُ الرَّأْسِ، فَيَهْتَفُ لَهُ: "يَا لِحُسْنِهِ! يَا لِحُسْنِهِ!". (زكريا ٤)

" فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، يَنْفَتِحُ يَنْبُوعٌ لِبَيْتِ دَاوُدَ وَسُكَّانِ أُورُشَلِيمَ لِعَسَلِهِمْ مِنَ الْخَطِيئَةِ وَالْأَشْيَاءِ الْمَقْبُوتَةِ.

٢ وَيَكُونُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ"، يَقُولُ يَهُوَهَ الْجُنُودِ، "أَنِّي أَقَطَعُ أَسْمَاءَ الْأَصْنَامِ مِنَ الْأَرْضِ، فَلَا تُذَكَّرُ مِنْ بَعْدِ، وَأَزِيلُ الْأَنْبِيَاءَ أَيْضًا وَرُوحَ النَّجَاسَةِ مِنَ الْأَرْضِ. ٣ وَيَكُونُ إِذَا تَنَبَّأَ رَجُلٌ فِي مَا بَعْدَ أَنْ أَبَاهُ وَأُمَّهُ اللَّذِينَ وَلَدَاهُ يَقُولَانِ لَهُ: (لَا تَحْيَا لِأَنَّكَ تَكَلَّمْتَ بِالْكَذِبِ بِاسْمِ يَهُوَهَ). فَيَطْعَنُهُ أَبُوهُ وَأُمُّهُ اللَّذَانِ وَلَدَاهُ لِأَنَّهُ تَنَبَّأَ. ٤ "وَيَكُونُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ يَخْجَلُونَ، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ رُؤْيَاهُ حِينَ يَتَنَبَّأُ، وَلَا يَلْبَسُونَ رِدَاءَ الشَّعْرِ الرَّسْمِيِّ لِخِدَاعِ النَّاسِ. ٥ إِنَّمَا يَقُولُ: (أَنَا لَسْتُ نَبِيًّا. أَنَا رَجُلٌ يَفْلِحُ الْأَرْضَ، لِأَنَّ إِنْسَانًا أَفْتَنَانِي مُنْذُ صِبَايَ)". (زكريا ١٣)

الوحي الى الأنبياء أيوب وزكريا ويحيى، في القرآن

يذكر القرآن عدة حوارات مباشرة جرت بين النبي أيوب مع الله عز وجل، كما في هذه الآية: "واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب، اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب" (ص 41 - 42) " وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنت". (ص 44) و"أيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين، فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر...". (الأنبياء، ٨٣-٨٤)

مما يبدو وكأنه كلام مباشر من الله تعالى الى أيوب. تمتزج صورة الوحي النازل الى زكريا بين الكلام المباشر من الله والوحي

المنقول عنه بواسطة الملائكة، ولعل الوحي الى زكريا انحصر بواسطة الملائكة ولكن القرآن عبر عنه بكلام الله باعتباره صادرا عن الله تعالى: "هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ، فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ، قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ". (آل عمران 38-41)

ولا توضح هذه الآيات مشاهدة زكريا للملائكة، أو ظهورهم له كرجال مثل الرسل الذين ذهبوا الى ابراهيم ولوط، أو الملاك الذي ظهر لمريم بنت عمران، ولكنها تعبر عن الوحي اليه بالنداء منهم، وهو ما يشير الى الصوت المرتفع، وليس الوحي الخفي أو الإلهام.

وبينما تشير آيات سورة آل عمران الى حديث الملائكة مع زكريا، فان آيات سورة مريم تنقل الحوار وكأنه حوار مباشر بين الله وزكريا: "ذكر رحمة ربك عبده زكريا، إذ نادى ربه نداء خفيا: قال رب اني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا...يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى، لم نجعل له من قبل سميا. قال: رب أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا؟ قال: كذلك قال ربك هو علي هين، وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا، قال: رب اجعل لي آية، قال: آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا". (مريم 2-10)

اذن فنحن أمام صورة للحوار المباشر بين الله وزكريا، ولكن اذا جمعنا بين سورة آل عمران وسورة مريم، يتضح لنا ان الحوار ربما كان عبر الملائكة وليس بصورة مباشرة.

وهكذا يمكن القول بالنسبة للوحي النازل الى يحيى بصورة خطاب مباشر من الله: "يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا". (مريم 12) فقد يكون حوارا مباشرا ونداء من الله وقد يكون وحيا عبر الملائكة أو حتى وحيا خفيا.

الفصل السابع: الأنبياء الكذبة

التوراة: هارون يصنع العجل في غياب موسى

ورغم كل اللقاءات المباشرة وشبه المباشرة بين يهوه (= الله) وبين شيوخ بني إسرائيل، فان التوراة تتحدث عن ردتهم أثناء ذهاب موسى الى ميقات ربه في

الجبل، وقيامهم بعبادة العجل الذي تقول التوراة أن هارون هو الذي صنعه لهم وليس (السامري) كما يقول القرآن، كما في سفر الخروج الاصحاح الثاني والثلاثون:

32: 1 و لما رأى الشعب ان موسى ابطا في النزول من الجبل اجتمع الشعب على هرون وقالوا له قم اصنع لنا الهة تسير امامنا لان هذا موسى الرجل الذي اصعدنا من ارض مصر لا نعلم ماذا اصابه

32: 2 فقال لهم هرون انزعوا اقراط الذهب التي في اذان نسائكم و بنيكم و بناتكم و اتوني بها

32: 3 فنزع كل الشعب اقراط الذهب التي في اذانهم و اتوا بها الى هرون

32: 4 فاخذ ذلك من ايديهم و صوره بالازميل و صنعه عجلا مسبوكا فقالوا هذه الهتك يا اسرائيل التي اصعدتك من ارض مصر

32: 5 فلما نظر هرون بنى مذبحا امامه و نادى هرون و قال غدا عيد للرب

32: 6 فبكروا في الغد و اصعدوا محرقات و قدموا ذبائح سلامة و جلس الشعب للاكل و الشرب ثم قاموا للعب

32: 7 فقال الرب لموسى اذهب انزل لانه قد فسد شعبك الذي اصعدته من ارض مصر

32: 8 زاغوا سريعا عن الطريق الذي اوصيتهم به صنعوا لهم عجلا مسبوكا و سجدوا له و ذبحوا له و قالوا هذه الهتك يا اسرائيل التي اصعدتك من ارض مصر..

32: 15 فانصرف موسى و نزل من الجبل و لوحا الشهادة في يده لوحان مكتوبان ...

32: 19 و كان عندما اقترب الى المحلة انه ابصر العجل و الرقص فحمي غضب موسى و طرح اللوحين من يديه و كسرهما في اسفل الجبل

32: 20 ثم اخذ العجل الذي صنعوا و احرقه بالنار و طحنه حتى صار ناعما و ذراه على وجه الماء و سقى بني اسرائيل

32: 21 و قال موسى لهرون ماذا صنع بك هذا الشعب حتى جلبت عليه خطية عظيمة

32: 22 فقال هرون لا يحم غضب سيدي انت تعرف الشعب انه في شر

32: 23 فقالوا لي اصنع لنا الهة تسير امامنا لان هذا موسى الرجل الذي اصعدنا من ارض مصر لا نعلم ماذا اصابه

32: 24 فقلت لهم من له ذهب فلينزعه و يعطيني فطرحته في النار فخرج هذا العجل.

هذا ما جاء في التوراة، ولكن القرآن ينزه هارون عن ارتكاب تلك الخطيئة

العظيمة، ويحمل المسؤولية لرجل يطلق عليه اسم (السامري) مع توجيهه اللوم في البداية الى هارون الذي نفى مسؤوليته ودافع عن نفسه أمام موسى: " قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي " (طه ٩٤) ثم يتوجه موسى الى السامري: " قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ، قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّاتُ لِي نَفْسِي، قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنْهَرِقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا" . (طه ٩٥-٩٧)

خطايا داود

يتحدث سفر صموئيل الثاني (الاصحاح الحادي عشر) عن خيانة النبي داود بعد أن اصبح ملكا، للأمانة، حيث اشتهى بثشبع بنت اليعام زوجة أحد قادته العسكريين هو أوريا الحثي، بعدما رآها تستحم عارية، فدعاها في غيبة زوجها ليزني بها، وتحمل منه، ولم يكتف بذلك بل أعطى أوامره لقائد الجيش يوآب: "اجعلوا أوريا في وجه الحرب الشديدة، وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت " وعندما تم ذلك، قام داود بالزواج من زوجة أوريا.

ويكمل الاصحاح الثاني عشر بقية القصة فيقول: أرسل الرب ناثان الى داود ليوظ ضميره، فروى له قصة الرجل الغني الذي اغتصب نعجة الفقير الوحيدة، فحكم داود عليه قائلاً: "حي هو الرب أن يقتل الرجل الفاعل ذلك، ويرد النعجة أربعة أضعاف، لأنه فعل هذا الأمر ولأنه لم يشفق" فأجابه النبي ناثان: "أنت هو الرجل". ونقل اليه قول الله: "والآن لا يفارق السيف بيتك الى الأبد، لأنك احتقرتني وأخذت امرأة أوريا الحثي لتكون لك امرأة. هكذا قال الرب. ها أنا ذا أقيم عليك الشر من بيتك وأخذ نساءك أمام عينيك وأعطيهن لقريبك فيضطجع مع نساءك في عين الشمس. لأنك فعلت بالسر وأنا أفعل هذا الأمر قدام جميع إسرائيل وقدام الشمس". (١٠-١٢)

ويشير القرآن الى هذه الجريمة المزعومة دون أن يتحدث عنها بتفصيل، فلا يذكر ما فعل داود من الزنا بزوجة أوريا الحثي، ولا التآمر لقتله في الجبهة، وإنما يكتفي بالمقطع الثاني من القصة فيقول: "وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب، إذ دخلوا على داود ففرع منهم قالوا لا تخف، خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا الى سواء الصراط، إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة، ولي نعجة واحدة، فقال أكفنيها وعزني في الخطاب، قال لقد

ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه، وان كثيرا من الخلطاء ليبيغي بعضهم على بعض، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم. وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب. فغفرنا له ذلك، وان له عندنا لزلفى وحسن مآب. يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله، ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب". (سورة ص، ٢١ - ٢٦)

ومع أن جريمة داود انطوت على الزنا بامرأة محصنة، وخيانة الأمانة بالغدر بزوجها وقتله، الا انها لم ترق الى ما تذكره الأسفار التلمودية الى ما فعله ابنه سليمان من الارتداد عن التوحيد، وعبادة الأصنام.

ارتداد سليمان

وبالرغم من أن التلمود يتحدث عن ترائي الله بنفسه لسليمان الا انه يتحدث عن ارتداد سليمان وانحرافه عن عبادة الله الى عبادة آلهة أخرى، مما أدى الى غضب الله عليه وانتزاع الملك منه، كما جاء في (الملوك الأول): "وأحب الملك سليمان نساءً غريبة كثيرة مع بنت فرعون، مؤابيات وعمونيات وأدوميات وصيدونيات وحثيات، من الأمم الذين قال الربّ عنهم لبني إسرائيل لا تدخلوا إليهم وهم لا يدخلون إليكم، لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم... وكان في زمن شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى، ولم يكن قلبه كاملاً مع الربّ إلهه كقلب داود أبيه. فذهب سليمان وراء عشتورث إلهة الصيدونيين، وملكوم رجس العمونيين، وعمل سليمان الشر في عيني الربّ... فقال الربّ لسليمان: من أجل أن ذلك عندك، ولم تحفظ عهدي وفرائضي التي أوصيتك بها،

فإني أمزق المملكة عنك تمزيقاً. " (الملوك الأول 1: 11-11)
" ٩ وَأَشَدَّ غَضَبُ يَهُوَهَ عَلَى سُلَيْمَانَ، لِأَنَّ قَلْبَهُ مَالَ عَنِ يَهُوَهَ إِلَهِ إِسْرَائِيلَ، الَّذِي تَرَاءَى لَهُ مَرَّتَيْنِ. ١٠ وَأَوْصَاهُ مِنْ جِهَةِ هَذَا الْأَمْرِ أَلَّا يَذْهَبَ وَرَاءَ إِلَهَةٍ أُخْرَى، فَلَمْ يَحْفَظْ مَا أَوْصَى بِهِ يَهُوَهَ. ١١ فَقَالَ يَهُوَهَ لِسُلَيْمَانَ: "مَنْ أَجَلٌ أَنْ هَذَا قَدْ حَدَثَ مَعَكَ وَلَمْ تَحْفَظْ عَهْدِي وَسُنِّي الَّتِي أَوْصَيْتُكَ بِهَا، فَإِنِّي سَأَنْتَزِعُ الْمَمْلَكَةَ مِنْكَ وَأَعْطِيهَا لِخَادِمِكَ." (ملوك الأول ١١)

ويقول: " وكان في زمن شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى، ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلهه كقلب داود أبيه، فذهب سليمان وراء عشتورث إلهة الصيدونيين وملكوم رجس العمونيين، وعمل سليمان الشر في عيني الرب،

ولم يتبع الرب تماما كداود أبيه، حينئذ بنى سليمان مرتفعة لكموش رجس المؤابيين على الجبل الذي تجاه أوشليم، ولمولك رجس بن يعمون، وهكذا فعل لجميع نساؤه الغربيات اللواتي كن يوقدن ويذبحن لآلهتهن". (سفر الملوك الأول ١١ / ٤-٨)

"فقال الرب لسليمان: من أجل أن ذلك عندك، ولم تحفظ عهدي وفرائضي التي أوصيتك بها، فاني أمزق المملكة عنك تمزيقا، واعطيها لعبدك، الا اني لا أفعل ذلك في أيامك، م أجل داود أبيك، بل من يد ابنك أمزقها، على أني لا أمزق منك المملكة كلها، بل أعطي سبطا واحدا لابنك، لأجل عبدي داود، ولأجل أورشليم التي اخترتها". (سفر الملوك الأول ١١ / ١١-١٣)

ولكن القرآن لا يتحدث عما تذكره الأسفار اليهودية، من الردة والكفر، بل ينفي ذلك قائلا: "وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر...". (البقرة ١٠٢) الا انه يشير إشارة خاطفة لبعض ما حدث لسليمان، في هذه الآيات: "ووهبنا لداود سليمان نعم العبد انه أواب، إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد، فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب، ردها علي فطفق مسحاً بالسوق والأعناق، ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب، قال رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب". (سورة ص، ٣٠ - ٣٥)

ارتداد بلعام بن باعوراء

ولئن كان القرآن يرفض حكاية ارتداد النبي هارون عن دعوة التوحيد، وقيامه بصناعة العجل لبني إسرائيل من أجل عبادته، ويلقي بمسؤوليتها على (السامري) ويرفض حكاية كفر سليمان، فان التوراة والتلمود والقرآن يتفقون بصورة عامة على ارتداد بعض الأنبياء، كما في قصة (بلعم بن باعوراء) التي يشير اليها القرآن بقوله: "واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان، فكان من الغاوين، ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا، فاقصص القصص لعلهم يحذرون". (الأعراف ١٧٥-١٧٦)

وهو ما تتحدث عنه التوراة (سفر العدد) بالتفصيل عند حديثها عن (بلعم بن باعوراء) وتنسيقه مع شيوخ مؤاب ومديان، واستعداده للدعاء على بني إسرائيل، ونهي الله له عن ذلك، ثم إرسال ملاك مع سيف، ليقف في طريقه ويمنعه من الدعاء على بني إسرائيل، فنقول:

٧ فَمَضَى شُبُوخُ مُوَابَ وَشُبُوخُ مِذْيَانَ، وَفِي أَيْدِيهِمْ أُجْرُ الْعِرَافَةِ، وَذَهَبُوا إِلَى بَلْعَامَ وَكَلَّمُوهُ بِكَلَامِ بَالِاقَ. ٨ فَقَالَ لَهُمْ: "بِئْسُوا هُنَا اللَّيْلَةَ، فَأَرَدْتُ عَلَيْكُمْ جَوَابًا كَمَا يُكَلِّمُنِي يَهُوهُ". فَمَكَثَ رُؤَسَاءُ مُوَابَ عِنْدَ بَلْعَامَ. ٩ فَأَتَى اللَّهُ إِلَى بَلْعَامَ وَقَالَ: "مَنْ هُمْ هَؤُلَاءِ الرِّجَالُ الَّذِينَ عِنْدَكَ؟". ١٠ فَقَالَ بَلْعَامُ لِلَّهِ: "إِنَّ بَالِاقَ بَنَ صِفُورَ، مَلِكَ مُوَابَ، أَرْسَلَ إِلَيَّ قَائِلًا: ١١ "هُوَذَا الشَّعْبُ الْخَارِجُ مِنْ مِصْرَ قَدْ غَطَى وَجْهَ الْأَرْضِ. فَالآنَ تَعَالَ وَالْعَنَةُ لِي. لَعَلِّي أَسْتَطِيعُ أَنْ أَحَارِبَهُ وَأَطْرُدَهُ". ١٢ فَقَالَ اللَّهُ لِبَلْعَامَ: "لَا تَذْهَبْ مَعَهُمْ. لَا تَلْعَنَ الشَّعْبَ، لِأَنَّهُ مُبَارَكٌ".

١٣ فَقَامَ بَلْعَامُ فِي الصَّبَاحِ وَقَالَ لِرُؤَسَاءِ بَالِاقَ: "إِذْهَبُوا إِلَى أَرْضِكُمْ، لِأَنَّ يَهُوهَ أَبِي أَنْ يَدْعِنِي أَذْهَبُ مَعَكُمْ". ١٤ فَقَامَ رُؤَسَاءُ مُوَابَ وَأَتُوا إِلَى بَالِاقَ وَقَالُوا: "أَبِي بَلْعَامُ أَنْ يَأْتِيَ مَعَنَا".

٢٢ فَأَحْتَدَمَ غَضَبُ اللَّهِ لِأَنَّهُ ذَاهِبٌ، وَوَقَفَ مَلَاكُ يَهُوهَ فِي الطَّرِيقِ لِيَقَاومَهُ، وَهُوَ رَاكِبٌ عَلَى أَتَانِهِ وَمَعَهُ أَتَانَانِ مِنْ غِلْمَانِهِ. ٢٣ فَرَأَتْ الْأَتَانُ مَلَاكَ يَهُوهَ وَاقِفًا فِي الطَّرِيقِ، وَسَدِيفُهُ مَسْدُولٌ بِيَدِهِ، فَمَالَتْ الْأَتَانُ عَنِ الطَّرِيقِ وَسَارَتْ فِي الْحَقْلِ، فَضْرَبَ بَلْعَامُ الْأَتَانَ لِيَرُدَّهَا إِلَى الطَّرِيقِ. ٢٤ وَبَقِيَ مَلَاكُ يَهُوهَ وَاقِفًا فِي الْمَمَرِ الضَّيِّقِ بَيْنَ الْكُرُومِ، وَكَانَ جِدَارٌ مِنْ هُنَا وَجِدَارٌ مِنْ هُنَاكَ. ٢٥ وَكَانَتِ الْأَتَانُ تَرَى مَلَاكَ يَهُوهَ فَزَحَمَتِ الْحَائِطَ وَضَغَطَتْ قَدَمَ بَلْعَامَ بِالْحَائِطِ، فَزَادَ فِي ضَرْبِهَا.

٢٦ ثُمَّ تَقَدَّمَ مَلَاكُ يَهُوهَ أَيْضًا وَوَقَفَ فِي مَكَانٍ ضَيِّقٍ، حَيْثُ لَا طَّرِيقَ لِلتَّحَوُّلِ يَمِينًا أَوْ يَسَارًا. ٢٧ فَلَمَّا رَأَتْ الْأَتَانُ مَلَاكَ يَهُوهَ، رَبَّضَتْ تَحْتَ بَلْعَامَ. فَأَحْتَدَمَ غَضَبُ بَلْعَامَ وَضْرَبَ الْأَتَانَ بِعُكَّازِهِ. ٢٨ فَفَتَحَ يَهُوهَ فَمَ الْأَتَانُ وَقَالَتْ لِبَلْعَامَ: "مَاذَا فَعَلْتَ لَكَ حَتَّى ضَرَبْتَنِي هَذِهِ الثَّلَاثَ مَرَّاتٍ؟". ٢٩ فَقَالَ بَلْعَامُ لِلْأَتَانِ: "لِأَنَّكَ لَمْ تَرْفُقِي بِي. لَوْ كَانَتْ فِي يَدِي سَدِيفٌ لَكُنْتُ الْآنَ قَدْ قَتَلْتُكَ!". ٣٠ فَقَالَتْ الْأَتَانُ لِبَلْعَامَ: "أَلَسْتُ أَنَا أَتَانُكَ الَّتِي رَكِبْتَ عَلَيْهَا طَوَالَ حَيَاتِكَ إِلَى هَذَا الْيَوْمِ؟ هَلْ تَعَوَّدْتَ أَنْ أَفْعَلَ بِكَ هَكَذَا؟". فَقَالَ: "لَا!". ٣١ فَكَشَفَ يَهُوهَ عَنْ عَيْنَيْ بَلْعَامَ، فَرَأَى مَلَاكَ يَهُوهَ وَاقِفًا فِي الطَّرِيقِ، وَسَدِيفُهُ مَسْدُولٌ بِيَدِهِ. فَخَرَّ وَسَجَدَ عَلَى وَجْهِهِ.

٣٢ فَقَالَ لَهُ مَلَاكُ يَهُوهَ: "لِمَاذَا ضَرَبْتِ أَتَانُكَ هَذِهِ الثَّلَاثَ مَرَّاتٍ؟ هَا أَنَا قَدْ خَرَجْتُ لِلْمُقَاوَمَةِ، لِأَنَّ طَرِيقَكَ مُتَهَوَّرَةٌ وَتُخَالِفُ مَشِيئَتِي. ٣٣ فَرَأْتَنِي الْأَتَانُ وَمَالَتْ مِنْ أَمَامِي هَذِهِ الثَّلَاثَ مَرَّاتٍ. وَمَاذَا لَوْ لَمْ تَمَلْ مِنْ أَمَامِي؟! فَإِنِّي كُنْتُ الْآنَ قَدْ قَتَلْتُكَ وَأَسْتَحْيِيئُهَا". ٣٤ عِنْدَئِذٍ قَالَ بَلْعَامُ لِمَلَاكِ يَهُوهَ: "قَدْ أَخْطَأْتُ، لِأَنِّي لَمْ أَعْلَمْ أَنَّكَ وَاقِفٌ فِي الطَّرِيقِ لِمُلَاقَاتِي. وَالْآنَ إِنْ سَاءَ فِي عَيْنَيْكَ، فَدَعْنِي أَعُودُ أَدْرَاجِي". ٣٥ فَقَالَ مَلَاكُ يَهُوهَ لِبَلْعَامَ: "إِذْهَبْ مَعَ الرِّجَالِ، وَلَا تَنْفَوْهُ إِلَّا بِالْكَلَامِ الَّذِي أَكَلَّمُكَ بِهِ". فَذَهَبَ بَلْعَامُ مَعَ رُؤَسَاءِ بَالِاقَ. (العدد ٢٢)

ويلاحظ أن التوراة تستعمل كلمة (قال الله له) دون أن تفصح كيف كان الوحي الالهي له مباشرة أو في الحلم، ومن خلال تحدث الله معه مباشرة أو بواسطة الملائكة. إذ ليس من الواضح تماما هنا هل ان ملاك يهوه هو نفس يهوه؟ أو

ملاك من ملائكته؟ حيث يندمج خطاب بلعام مع الملاك وكأنه مع يهوه. في حين يهمل الحوار المفصل الذي جرى بينه وبين الله أو الملاك، ويعبر بكلمة غامضة عن الوحي هي "آتيناه آياتنا".

ولما كان الوحي ينزل عادة في أنبياء بني اسرائيل بالحلم، فقد كان من السهل الادعاء من كل أحد بنزول الملاك عليه، ولم يتخرج بعض أنبياء بني اسرائيل بالكذب بعضهم على بعض، كما في هذه القصة التي يرويها سفر (الملوك الأول):

" وَإِذَا بَرَجُلٌ إِلَهُ قَدْ أَتَى مِنْ يَهُودَا بِكَلِمَةٍ يَهُوهَ إِلَى بَيْتِ إِيلَ، وَيَرُبَعَامُ وَقِفْتُ عِنْدَ الْمَذْبَحِ لِيُوقِدَ... "

١١ وَكَانَ نَبِيُّ شَيْخٍ سَاكِنًا فِي بَيْتِ إِيلَ، فَأَتَى بَنُوهُ وَأَخْبَرُوهُ بِكُلِّ الْعَمَلِ الَّذِي عَمَلَهُ رَجُلٌ إِلَهُ (أَي ذَلِكَ النَّبِيِّ) ذَلِكَ الْيَوْمَ فِي بَيْتِ إِيلَ، وَأَخْبَرُوا أَبَاهُمْ بِالْكَلامِ الَّذِي كَلَّمَ بِهِ الْمَلِكَ. ١٢ فَقَالَ لَهُمْ أَبُوهُمْ: "فِي أَيِّ طَرِيقٍ ذَهَبَ؟". فَأَرَاهُ بَنُوهُ الطَّرِيقَ الَّذِي ذَهَبَ فِيهِ رَجُلٌ إِلَهُ الَّذِي جَاءَ مِنْ يَهُودَا. ١٣ فَقَالَ لِبَنِيهِ: "أَسْرَجُوا لِي الْحِمَارَ". فَأَسْرَجُوا الْحِمَارَ لَهُ، فَرَكِبَ عَلَيْهِ. ١٤ وَتَبَعَ رَجُلٌ إِلَهُ فَوَجَدَهُ جَالِسًا تَحْتَ الشَّجَرَةِ الْكَبِيرَةِ. فَقَالَ لَهُ: "أَأَنْتَ رَجُلٌ إِلَهُ الَّذِي جَاءَ مِنْ يَهُودَا؟". فَقَالَ: "أَنَا هُوَ".

١٨ فَقَالَ لَهُ: "أَنَا أَيْضًا نَبِيُّ مِثْلِكَ، وَقَدْ كَلَّمَنِي مَلَاكٌ بِكَلِمَةٍ يَهُوهَ، قَائِلًا: "أَرْجِعْهُ مَعَكَ إِلَى بَيْتِكَ حَتَّى يَأْكَلَ خُبْزًا وَيَشْرَبَ مَاءً". (فَخَدَعَهُ). ١٩ فَرَجَعَ مَعَهُ وَأَكَلَ خُبْزًا فِي بَيْتِهِ وَشَرِبَ مَاءً. (ملوك الأول ١٣)

ويتحدث النبي ميخا بن يملة عن تقدير الله أو تخطيطه لغواية الملك اليهودي (أخاب) ودفعه لحرب فاشلة، عن طريق بعض الأنبياء الكذبة، فيقول: " رأيت الرب جالساً على عرشه وجميع ملائكة السماء وقوف لديه، على يمينه وشماله، فسألهم الرب: من يغوي أخاب بالصعود للحرب، فيموت في راموث جلعاد، فأجاب هذا بشئ، وذاك بشئ. وأخيراً خرج روح ووقف أمام الرب وقال أنا أغويه. فسأله الرب: بماذا؟ فأجاب: أجعل جميع أنبيائه ينطقون الكذب. فقال له الرب: أنت تقدر أن تغويه، فافعل هكذا. ثم قال ميخا للملك: الرب قصد الشر لك، لكنه جعل روح الكذب في أفواه أنبيائك هؤلاء، فما نطقوا بالصدق " (ملوك الأول ٢٢: ١٩-٢٣).

الدعوة لقتل الأنبياء الكذبة والمرتدين

وبعد أن نتحدث التوراة عن إمكانية ارتداد الأنبياء بصورة عامة، فإنها تدعو لعدم

السمع منهم وقتلهم، فقد جاء في الاصحاح الثالث عشر من (سفر تثنية
الاشتراع) ما يلي:

"إذ يقوم في جملتك نبي أو حالم حلما، وأظهر لك آية أو معجزا، وجاء بالآية أو
بلمعجز- التي كلمك عنها قلئلا: لنذهب تبع آلهة أخرى لم تعرفها لنعبدها، فلا
تسمع من كلام ذلك المتنبي أو من حالم ذلك الحلم، إذ ممتحن الله إياكم ليعلم
هل كنتم محبين الله إلهكم بكل قلوبكم وبكل نفوسكم... ذلك المتنبي أو حالم ذلك
الحلم يقتل إذا ادعى زيفا عن الله إلهك المخرجك من أرض مصر".

وجاء في (الاصحاح الثامن عشر من سفر التثنية)، قال موسى: "قال لي الرب:
قد احسنوا فيما تكلموا. أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك. واجعل كلامي في
فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به، ويكون ان الانسان الذي لا يسمع لكلامي الذي
يتكلم به باسمي، أنا اطالبه. وأما النبي الذي يطغى، فيتكلم باسمي كلاما لم أوصه
أن يتكلم به، أو الذي يتكلم باسم آلهة أخرى، فيموت ذلك النبي. وان قلت في
قلبك: كيف نعرف الكلام الذي لم يتكلم به الرب؟ فما تكلم به النبي باسم الرب ولم
يحدث ولم يصر، فهو الكلام الذي لم يتكلم به الرب، بل بطغيان تكلم به النبي فلا
تخف منه". (تثنية ١٨ : ١٨-٢٢)

وقد كان هذا السؤال حول كيفية التعرف على الأنبياء الكذبة، محور آية في
الانجيل، حيث ورد في انجل متى تحذير للمسيح: "احترزوا من الأنبياء الكذبة
الذين يأتونكم بثياب الحملان ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة. من ثمارهم تعرفونهم.
هل يجتنون من الشوك عنبا أو من الحسك تينا. هكذا، كل شجرة جيّدة تصنع أثماراً
جيدة. وأما الشجرة الرديّة فتصنع أثماراً رديّة. لا تقدر شجرة جيدة أن تصنع
أثماراً رديّة ولا شجرة رديّة أن تصنع أثماراً جيّدة. كل شجرة لا تصنع ثماراً جيّداً
تقطع وتلقى في النار. فإذا من ثمارهم تعرفونهم. ليس كل من يقول لي: يا رب يا
رب، يدخل ملكوت السموات، بل الذي يفعل إرادة أبي الذي في السموات.
كثيرون سيقولون لي في ذلك اليوم: يا رب يا رب، أليس باسمك تنبأنا وباسمك
أخرجنا شياطين، وباسمك صنعنا قوات كثيرة؟ فحينئذ أصرح لهم: إني لم أعرفكم
قط. اذهبوا عني يا فاعلي الإثم". (متى ٧ : ١٥-١٨)

كيف كان الأنبياء الصادقون يثبتون نبوتهم للناس؟

فيما عدا النبي موسى، ومعاجزه التسع، فان التلمود لا يتحدث عن معاجز
الأنبياء الصادقين ما عدا معجزتين للنبي إيليا، عندما أحيا ابن الأرملة التي
أضافته (ملوك الأول ١٦/٢٠) واحراق النار لقربانه في مقابل عدم احراق
قرايين الأنبياء الكذبة: "فنزلت نار الرب والتهمت المحرقة والحطب والتراب

وحتى الماء الذي في الخندق". (ملوك الأول ١٨/٣٨) وذلك يعني أن المعاجز لم تكن وسيلة متوفرة لجميع الأنبياء. وان كان القرآن يتحدث عن معاجز بعض الأنبياء فإن التوراة تغفل الحديث عن ذلك في أحيان كثيرة، ولا سيما بالنسبة للأنبياء (الحالمين) الذين يعتمدون على الرؤى والأحلام، وهو ما كان يدعو الناس الى التشكيك بنبوتهم، كما يتحدث القرآن:

• "...قالوا: إن أنتم إلا بشر مثلنا، تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا، فأتونا بسطان مبين. قالت لهم رسلهم: إن نحن إلا بشر مثلكم، ولكن الله يمن على من يشاء من عباده، وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله...". (إبراهيم، ١٠ - ١١)

ولا يذكر القرآن أو التوراة أية معجزة للنبي نوح، خلال مئات السنين من الدعوة الى الله، قبل حدوث الطوفان الذي تنبأ به نوح من قبل، كما لا يذكر القرآن أية معجزة للنبي هود، قبل نزول العذاب على قومه، ولكنه يتحدث عن معجزة ناقة صالح، ويتحدث أيضا عن معجزة عدم إحراق النار التي أججها نمرود لإبراهيم، وهو ما لم تشر اليه التوراة.

الفصل الثامن: طبيعة الوحي الى النبي عيسى، في الأناجيل

كما في التوراة والتلمود، فان مروحة الوحي واسعة في الأناجيل المسيحية، وهي لا تقتصر على الأنبياء وأمهاتهم وآبائهم، وانما تمتد لتشمل الناس العاديين، وحتى من المجوس. وأما النبي عيسى فلا ذكر لنزول الوحي عليه أو تحدث الملائكة معه، ما عدا هبوط الروح عليه، والذي تشكل بشكل حمامة، وذلك لأن عيسى (يسوع) حسب العقيدة المسيحية يمثل (كلمة الله) أو الابن، أو الإله المتجسد في الناسوت، وبالتالي فلم يكن بحاجة الى نزول الوحي عليه، وانما هو المعبر عنه والناطق باسم الإله.

وسوف أقوم باستعراض صور الوحي المختلفة في الأناجيل، وأبدأ بإنجيل متى الذي يبدأ في صفحاته الأولى بقص حكاية حمل السيدة مريم قبل دخول خطيبها يوسف النجار عليها، واستغرابه من ذلك، ثم نزول الوحي عليه في المنام (الحلم) واخبار الملائكة له بأن حمل خطيبته مريم كان من الروح القدس:

"١٨ أمّا ولادة يسوع المسيح فكانت هكذا: لما كانت مريم أمه مخطوبة ليوسف، وجدت قبل أن يجتمعا حاملاً من روح قدس. ١٩ وإذ كان يوسف زوجها باراً ولم يرد أن يشهرها، نوى أن يطلقها سراً. ٢٠ ولكن فيما كان يفكر ملياً في هذه الأمور، إذا ملاك يهوه قد تراءى له في حلم قائلاً: "يا يوسف ابن داود، لا تخف أن تأخذ مريم زوجتك إلى بيتك، لأن الذي حبل به فيها هو من

رُوح قُدُس. ٢١ وَسَتَلِدُ أَبْنَاءَ، فَادْعُ اسْمَهُ يَسُوعَ، لِأَنَّهُ يُخَالِصُ شَعْبَهُ مِنْ خَطَايَاهُمْ". ٢٢ وَهَذَا كُلُّهُ حَدَّثَ لِيَتِمَّ مَا قِيلَ مِنْ يَهُوَهَ بِنَبِيِّهِ أَلْقَائِلِ: ٢٣ "هَا إِنَّ الْعُذْرَاءَ تَحْمِلُ وَتَلِدُ أَبْنَاءَ، وَيَدْعُونَ اسْمَهُ عَمَّانُوئِيلَ"، الَّذِي يَعْنِي عِنْدَ تَرْجَمَتِهِ: "اللَّهُ مَعَنَا". ٢٤ فَاسْتَيْقِظَ يُوسُفُ مِنْ نَوْمِهِ وَفَعَلَ كَمَا أَمَرَهُ مَلَاكُ يَهُوَهَ، وَأَخَذَ زَوْجَتَهُ إِلَى بَيْتِهِ. ٢٥ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ عَلاَقَةٌ زَوْجِيَّةٌ بِهَا إِلَى أَنْ وَلَدَتْ أَبْنَاءَ، وَدَعَا اسْمَهُ يَسُوعَ. (متى ١)

وكما يلاحظ فان انجيل متى لا يتحدث عن نزول ملاك بصورة مباشرة على مريم، على العكس مما يتحدث انجيل لوقا، ولا عن شعورها بكيفية الحمل بعيسى.

ولكن انجيل متى يواصل الحديث عن قدوم المنجمين المجوس الى اورشليم، من المشرق عند ولادة يسوع، وسؤالهم عنه، في أيام الملك هيرودوس، لكي يسجدوا له، وبعدهما وجدوه " ١٢ أعطوا تحذيراً إلهياً في حلمٍ لئلا يعودوا إلى هيرودس. (متى ١)

ثم يعود متى لكي يتحدث عن ترائي ملاك يهوه ليوسف النجار في الحلم، عدة مرات:

" ١٣ وَلَمَّا أَنْصَرَفُوا، إِذَا بِمَلَاكِ يَهُوَهَ قَدْ تَرَاعَى لِيُوسُفَ فِي حُلْمٍ قَائِلًا: "قُمْ وَخُذِ الصَّغِيرَ وَأُمَّهَ وَأَهْرُبْ إِلَى مِصْرَ، وَأَبْقَ هُنَاكَ حَتَّى أَقُولَ لَكَ، لِأَنَّ هِيرُودُسَ سَيَبْحَثُ عَنِ الصَّغِيرِ لِيُهْلِكَهُ". (متى ١)

" ١٩ وَلَمَّا مَاتَ هِيرُودُسُ، إِذَا بِمَلَاكِ يَهُوَهَ قَدْ تَرَاعَى لِيُوسُفَ فِي حُلْمٍ فِي مِصْرَ. ٢٠ وَقَالَ: "قُمْ وَخُذِ الصَّغِيرَ وَأُمَّهَ وَأَذْهَبْ إِلَى أَرْضِ إِسْرَائِيلَ، لِأَنَّهُ قَدْ مَاتَ الَّذِينَ كَانُوا يَطْلُبُونَ نَفْسَ الصَّغِيرِ". ٢١ فَقَامَ وَأَخَذَ الصَّغِيرَ وَأُمَّهَ وَدَخَلَ أَرْضَ إِسْرَائِيلَ. ٢٢ لَكِنَّهُ سَمِعَ أَنَّ أَرْخِيْلَاوُسَ يَمْلِكُ عَلَى الْيَهُودِيَّةِ عَوَضًا عَنْ أَبِيهِ هِيرُودُسَ، فَخَافَ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى هُنَاكَ. وَإِذْ أُعْطِيَ تَحْذِيرًا إلهياً فِي حُلْمٍ، أَنْصَرَفَ إِلَى مِقَاطَعَةِ الْجَلِيلِ، ٢٣ وَأَتَى وَسَكَنَ فِي مَدِينَةِ اسْمُهَا النَّاصِرَةُ" (متى ١)

ثم يتحدث متى عن نزول روح الله مثل حمامة على يسوع عند تعميده: " ١٦ فَلَمَّا اعْتَمَدَ يَسُوعُ صَعِدَ فِي الْحَالِ مِنَ الْمَاءِ، وَإِذَا السَّمَوَاتُ قَدْ انْفَتَحَتْ، فَرَأَى يُوحَنَّا رُوحَ اللَّهِ نَازِلًا مِثْلَ حَمَامَةٍ وَآتِيًا عَلَى يَسُوعَ. ١٧ وَإِذَا صَوْتُ مِنَ السَّمَوَاتِ يَقُولُ: "هَذَا هُوَ ابْنِي الْحَبِيبُ الَّذِي عَنْهُ رَضِيتُ". (متى 3)

ويمكن أن نفهم من هذه الآية: أن ذلك الصوت كان صوت الله وقد سمعه من كان حاضرا هناك، وهو ما يؤكد متى في الفصل الثاني عشر، في مناسبة أخرى، حيث يقول: "وبينما هو يتكلم جاءت سحابة نيرة، فأظلت عليهم وسمعوا من السحابة صوتا يقول: هذا ابني الحبيب الذي سررت به، فأطيعوه".

وينتقل متى بعد ذلك ليتحدث عن نزول ملاك يهوه الى مدفن عيسى بعد الصلب، ١٥ هبة الحارس، ما به المحذلة، اما أة أخا، له، ه تحدثه معهما.

" ٢٨ وَبَعْدَ السَّبْتِ، عِنْدَ بُرُوعِ نُورِ الْيَوْمِ الْأَوَّلِ مِنَ الْأَسْبُوعِ، أَتَتْ مَرْيَمُ الْمَجْدَلِيَّةُ وَمَرْيَمُ الْأُخْرَى لِيَنْتَظِرَا الْمَدْفِينَ. ٢ وَإِذَا زَلْزَالَ عَظِيمٌ قَدْ حَدَثَ، لِأَنَّ مَلَكَ يَهُوهَ كَانَ قَدْ نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ وَأَقْتَرَبَ وَدَحْرَجَ الْحَجَرَ وَجَلَسَ عَلَيْهِ. ٣ وَكَانَ مَظْهَرُهُ كَالْبَرْقِ، وَلِبَاسُهُ أَبْيَضَ كَالنَّجْمِ. ٤ فَأَرْتَعَدَ الْحُرَّاسُ خَوْفًا مِنْهُ، وَصَارُوا كَالْأَمْوَاتِ. ٥ فَأَجَابَ الْمَلَكَ وَقَالَ لِلْمَرَأَتَيْنِ: "لَا تَخَافَا، فَإِنَّا أَعْلَمُ أَنَّكُمْ تَطْلُبَانِ يَسُوعَ الَّذِي عُلِقَ عَلَى خَشَبَةٍ. ٦ لَيْسَ هُوَ هُنَا، لِأَنَّهُ أُقِيمَ كَمَا قَالَ. تَعَالِيَا وَانظُرَا الْمَكَانَ الَّذِي كَانَ مُضَجَعًا فِيهِ. ٧ وَأَذْهَبَا سَرِيعًا وَقُولَا لِتِلَامِيذِهِ إِنَّهُ أُقِيمَ مِنَ الْأَمْوَاتِ، وَهِيَ هِيَ هُوَ يَسْبِقُكُمْ إِلَى الْجَلِيلِ. هُنَاكَ تَرَوْنَهُ. هِيَ أَنَا قَدْ قُلْتُ لَكُمْ". (متى ٢٨)

وأما مرقس فلا يتحدث في انجيله لا عن كيفية حمل مريم، ولا ما رافقها من ترائي ملاك الرب ليوسف في الحلم، ولا إحياءات الآلهة للمنجمين المجوس، ولا نزول الملاك بعد دفن يسوع، وإنما يذكر فقط قصة نزول الروح على عيسى عند التعميد: "٩ وَفِي تِلْكَ الْأَيَّامِ جَاءَ يَسُوعُ مِنْ نَاصِرَةِ الْجَلِيلِ وَأَعْتَمَدَ مِنْ يُوْحَنَّا فِي الْأَرْضِ. ١٠ وَفِي الْحَالِ عِنْدَ صُعودِهِ مِنَ الْمَاءِ رَأَى السَّمَوَاتِ تَنْشَقُّ، وَالرُّوحَ مِثْلَ حَمَامَةٍ نَازِلًا عَلَيْهِ، ١١ وَأَتَى صَوْتُ مِنَ السَّمَوَاتِ: "أَنْتَ ابْنِي الْحَبِيبُ، عِنْدَكَ رَضِيْتُ". ١٢ وَفِي الْحَالِ دَفَعَهُ الرُّوحُ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى الْبَرِّيَّةِ. ١٣ فَبَقِيَ فِي الْبَرِّيَّةِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا يُجَرِّبُهُ الشَّيْطَانُ، وَكَانَ مَعَ الْوُحُوشِ، لَكِنَّ الْمَلَائِكَةَ كَانَتْ تَخْدُمُهُ. (مرقس ١)

ويؤكد كذلك قصة السحابة والصوت الآتي من السماء:

" ٧ وَتَشَكَّلَتْ سَحَابَةٌ ظَلَّتْهُمْ، وَأَتَى صَوْتُ مِنَ السَّحَابَةِ قَائِلًا: "هَذَا هُوَ ابْنِي الْحَبِيبُ، لَهُ أَسْمَعُوا". ٨ وَفَجْأَةً نَظَرُوا حَوْلَهُمْ فَلَمْ يَرَوْا أَحَدًا مَعَهُمْ، سِوَى يَسُوعَ وَحْدَهُ". (مرقس ٩)

وهكذا يثبت متى ومرقس نبوة عيسى لعامة الناس بتحدث الله معهم وأمرهم بطاعته والسماع له.

وأما لوقا فيعود في انجيله إلى البداية ويحكي قصة حمل مريم بالتفصيل، وذلك بنزول الملاك جبرائيل من الله " ٢٧ إِلَى عَذْرَاءَ مَخْطُوبَةٍ لِرَجُلٍ أَسْمُهُ يُوسُفُ مِنْ بَيْتِ دَاوُدَ، وَأَسْمُ الْعَذْرَاءِ مَرْيَمُ. ٢٨ فَلَمَّا دَخَلَ إِلَيْهَا قَالَ: "طَابَ يَوْمُكَ، أَيُّهَا الْمُنْعَمُ عَلَيْهَا، يَهُوهَ مَعَكَ". ٢٩ فَأَضْطَرَبَتْ بِشِدَّةٍ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ وَأَخَذَتْ تَفْتَكِرُ مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ هَذَا السَّلَامُ. ٣٠ فَقَالَ لَهَا الْمَلَكَ: "لَا تَخَافِي يَا مَرْيَمُ، فَإِنَّكَ قَدْ نَلَيْتِ حُظْوَةً عِنْدَ اللَّهِ. ٣١ وَهِيَ أَنْتِ سَتَحْبِلِينَ وَتَلِدِينَ ابْنًا، فَتَدْعِينَ أَسْمَهُ يَسُوعَ. ٣٢ هَذَا يَكُونُ عَظِيمًا وَيُدْعَى ابْنُ الْعَلِيِّ، وَيُعْطِيهِ يَهُوهُ اللَّهُ عَرْشَ دَاوُدَ أَبِيهِ، ٣٣ وَيَمْلِكُ عَلَى بَيْتِ يَعْقُوبَ إِلَى الْأَبَدِ، وَلَا يَكُونُ لِمَمْلَكَتِهِ نِهَآيَةٌ". ٣٤ فَقَالَتْ مَرْيَمُ لِلْمَلَكَ: "كَيْفَ يَكُونُ هَذَا، وَإِنَّا لَيْسَ لِي عِلَاقَةٌ زَوْجِيَّةً بِرَجُلٍ؟". ٣٥ فَأَجَابَ

الْمَلَائِكَةُ وَقَالَ لَهَا: "رُوحٌ قُدُسٌ يَأْتِي عَلَيْكَ، وَقَدْرَةُ الْعَلِيِّ تَظَلُّكَ. لِذَلِكَ أَيْضًا يُدْعَى الْمَوْلُودُ قُدُوسًا، ابْنُ اللَّهِ. ٣٨ فَقَالَتْ مَرْيَمُ: «هُوَذَا أَمَةٌ يَهُوَهَ! لِيَكُنْ لِي كَمَا أَعْلَنْتَ". فَانصَرَفَ عَنْهَا الْمَلَائِكَةُ". (لوقا ١)

وبعد أن يقدم لوقا هذه الصورة الواضحة جدا لنزول حبرائيل على مريم، واخبارها بالحمل بعيسى، لا يحتاج لذكر الجهل والشك بكيفية حملها، الذي اعترى خطيبها يوسف النجار، كما ذكر متى ومرقس، فضلا عن ترائي الملاك له في الحلم وطمأنته حول الحمل والجنين بأنه من روح الله.

وينتقل بسرعة الى ساعة الولادة، فيتحدث عن ظهور ملاك يهوه على مجموعة من الرعاة في الليل، واخبارهم بالولادة ومكان المولود في الغار:

" ٨ وَكَانَ فِي تِلْكَ الْكُورَةِ عَيْنَهَا رُعَاةٌ يَعِيشُونَ فِي الْعَرَاءِ وَيَسْهَرُونَ فِي هُزْعِ اللَّيْلِ عَلَى رِعْيَتِهِمْ. ٩ وَإِذَا مَلَائِكُ يَهُوَهَ وَقَفَ بِهِمْ، وَمَجْدُ يَهُوَهَ أَضَاءَ حَوْلَهُمْ، فَخَافُوا خَوْفًا جَدًّا. ١٠ فَقَالَ لَهُمُ الْمَلَائِكُ: "لَا تَخَافُوا، فَهَا أَنَا أَبَشِّرُكُمْ بِفَرَحٍ عَظِيمٍ يَكُونُ لِجَمِيعِ الشَّعْبِ، ١١ لِأَنَّهُ وُلِدَ لَكُمْ الْيَوْمَ مُخَلَّصٌ، هُوَ الْمَسِيحُ الرَّبُّ، فِي مَدِينَةِ دَاوُدَ. ١٢ وَهَذِهِ عَلامَةٌ لَكُمْ: تَجِدُونَ طِفْلاً مَقْمَطًا وَمُضَجَّعًا فِي مَدْوَدٍ". ١٣ وَأَنْضَمَّ فَجَاءَةً إِلَى الْمَلَائِكِ جُمُهورٌ مِنَ الْجُنْدِ السَّمَاوِيِّ، يُسَبِّحُونَ اللَّهَ وَيَقُولُونَ: ١٤ "الْمَجْدُ لِلَّهِ فِي الْأَعَالِي، وَعَلَى الْأَرْضِ السَّلَامُ بَيْنَ أَنْاسِ الرَّضَى".

١٥ فَلَمَّا انصَرَفت عَنْهُمْ الْمَلَائِكَةُ إِلَى السَّمَاءِ، قَالَ الرَّعَاةُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: "لِنَذْهَبِ الْآنَ إِلَى بَيْتِ لَحْمٍ وَنَنْظُرَ هَذَا الْأَمْرَ الَّذِي حَدَثَ، وَقَدْ أَعْلَمْنَا بِهِ يَهُوَهَ". ١٦ فَجَاءُوا مُسْرِعِينَ وَوَجَدُوا مَرْيَمَ وَيُوسُفَ، وَالطِّفْلَ مُضَجَّعًا فِي الْمَدْوَدِ. ١٧ وَلَمَّا رَأَوْهُ أَخْبَرُوا بِالْكَلَامِ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ عَنْ هَذَا الصَّغِيرِ. ١٨ وَجَمِيعُ الَّذِينَ سَمِعُوا تَعَجَّبُوا مِمَّا قَالَهُ لَهُمُ الرَّعَاةُ". (لوقا ٢)

ولا يتحدث لوقا أيضا عن الوحي الالهي الى يوسف النجار بضرورة الهروب الى مصر والعودة منها، وانما ينتقل الى يوم تعميد يسوع ونزول الروح القدس عليه بهيئة حمامة:

" ٢١ وَلَمَّا اعْتَمَدَ جَمِيعُ الشَّعْبِ، اعْتَمَدَ يَسُوعُ أَيْضًا. وَإِذْ كَانَ يُصَلِّي، انْفَتَحَتْ السَّمَاءُ ٢٢ وَنَزَلَ عَلَيْهِ الرُّوحُ الْقُدُسُ بِهَيْئَةِ جَسْمِيَّةٍ مِثْلِ حَمَامَةٍ، وَأَتَى صَوْتُ مِنَ السَّمَاءِ: "أَنْتَ ابْنِي الْحَبِيبُ، عَنْكَ رَضِيْتُ". (لوقا ٣)

وهذا ما ذكره سابقا متى ومرقس في انجيليهما، كدليل على إثبات الله لنبوة عيسى، بصوته مباشرة الى الناس، قبل أن يقوم عيسى بالدعوة الى الله.

ويختلف لوقا عن متى في هوية الذي دحرج الحجر عن قبر يسوع، ففيما يصفه متى بأنه ملاك يهوه، يقول لوقا بأنهما رجلان، وليس ملاكا أو ملاكين:

" ٢ - فَوَجَدْنِ الْحَجَرَ مُدْحَرَجًا عَنِ الْقَبْرِ، ٣ - وَلَمَّا دَخَلْنَ لَمْ يَجِدْنَ جَسَدَ الرَّبِّ
٤ - وَفِيهَا هُنَّ فِي حَيْرَةٍ مِنْ ذَلِكَ، إِذَا رَجُلَانِ بِلِبَاسِ بَرَّاقٍ قَدْ وَقَفَا بِجَانِبَيْهِنَّ". (لوقا
(24)

إن جميع هذه العلامات الاعجازية وقصص نزول الوحي على مريم أو يوسف أو عيسى، قبل تعميده، لا يعترف بها انجيل متى، إذ أنه لا يهملها فحسب، وانما ينقل عن النبي يحيى قريب عيسى، الذي قام بتعميده، وشهد له بنزول الحمامة (روح القدس) عليه أثناء التعميد، أنه لم يعرفه من قبل:

" ٣٢ وَشَهِدَ يُوحَنَّا قَائِلًا: "رَأَيْتُ الرُّوحَ نَازِلًا مِثْلَ حَمَامَةٍ مِنَ السَّمَاءِ، وَاسْتَقَرَّ

عَلَيْهِ. ٣٣ حَتَّى أَنَا لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُهُ، لَكِنَّ الَّذِي أَرْسَلَنِي لِأَعْمَدَ بِمَاءٍ هُوَ قَالَ لِي: (مَنْ تَرَى الرُّوحَ نَازِلًا وَمُسْتَقَرًّا عَلَيْهِ، فَهَذَا هُوَ الَّذِي يُعَمِّدُ بِرُوحٍ قُدُسٍ).

٣٤ - وَأَنَا رَأَيْتُ ذَلِكَ، وَشَهِدْتُ أَنَّ هَذَا هُوَ ابْنُ اللَّهِ". (يوحنا ١)

واخبر يحيى اليهود بأنهم سيستطيعون مشاهدة الملائكة وهم ينزلون على يسوع:

" ٥١ - وَقَالَ لَهُ أَيْضًا: "الْحَقُّ أَلْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ: سَتَرَوْنَ السَّمَاءَ مَفْتُوحَةً وَمَلَائِكَةَ اللَّهِ يَصْعَدُونَ وَيَنْزِلُونَ إِلَى ابْنِ الْإِنْسَانِ". (يوحنا ١)

وان لم تذكر الأناجيل المختلفة قصصا عن رؤية عامة الناس للملائكة وهم يصعدون وينزلون على يسوع في حياته، فان تلك الأناجيل أو بعضها على الأقل ومنها انجيل يوحنا، ذكرت رؤية مريم المجدلية ملكين في داخل القبر، أثناء قيامة المسيح منه.

" ١١ - أَمَّا مَرْيَمُ فَظَلَّتْ وَاقِفَةً فِي الْخَارِجِ قُرْبَ الْقَبْرِ تَبْكِي. وَفِيهَا هِيَ تَبْكِي، انْحَنَّتْ

لِنَتَظَرَ إِلَى دَاخِلِ الْقَبْرِ ١٢ - فَشَاهَدَتْ مَلَائِكَيْنِ بِلِبَاسٍ أَبْيَضٍ جَالِسَيْنِ وَاحِدًا عِنْدَ

الرَّأْسِ وَوَاحِدًا عِنْدَ الْقَدَمَيْنِ حَيْثُ كَانَ جَسَدُ يَسُوعَ قَدْ وُضِعَ. ١٣ - فَقَالَا لَهَا: "يَا امْرَأَةً، لِمَاذَا تَبْكِينَ؟". قَالَتْ لَهُمَا: "أَخَذُوا رَبِّي، وَلَا أَعْرِفُ أَيْنَ وَضَعُوهُ".

(يوحنا ٢٠)

الوحي الى مريم بنت عمران وابنها عيسى المسيح، في القرآن

الوحي الى مريم

تمتاز صورة الوحي النازل الى مريم بنت عمران بين الكلام المباشر من الله وبين الكلام بواسطة الملائكة، والمعبر عن كلام الله، كما في هذه الآيات: "وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ... إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ". (آل عمران، ٤٢-٤٧)

ويلاحظ أن مريم كانت تخاطب الله مباشرة بعد أن تستمع لكلام الروح أو الملائكة، فيأتيها الجواب من الله عبرهم: "واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا، فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا، قالت: إني أعوذ بالرحمن إن كنت تقيا، قال: إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا، قالت: أنى يكون لي غلام ولم يمسنني بشر ولم أك بغيا؟ قال: كذلك قال ربك هو علي هين، ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا". (مريم ١٦-٢١)

وتكتمل صورة الوحي الى مريم بالكلام معها على لسان ابنها الوليد النبي عيسى "فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحت سريا، وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا، فكلي واشربي وقري عينا، فإما ترين من البشر أحدا فقولي: إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا". (مريم، ٢٤-٢٦)

الوحي الى النبي عيسى (ع) في القرآن

تختلف طبيعة الوحي النازل الى النبي عيسى عن سائر الوحي النازل على الأنبياء السابقين واللاحقين، لاختلاف طبيعته أو عملية خلقه، فهو لم يكن انسانا عاديا يخلق من اب وأم عن طريق النكاح، وانما خلق من أم فقط وكان كلمة الله وروحه، كما يقول القرآن الكريم: "انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته القاها الى مريم وروح منه". (النساء، ١٧١) "اذ قالت الملائكة يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها في الدنيا والآخره ومن المقربين". (آل عمران، ٤٥) "ومريم ابنت عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين". (التحريم، ١٢)

ومن هنا فقد كان النبي عيسى مؤيدا بروح القدس: " اذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك اذ ايدتك بروح القدس". (المائدة، ١١٠) " واتينا عيسى ابن مريم البيئات وايدناه بروح القدس". (البقرة، ٨٢) "تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات واتينا عيسى ابن مريم البيئات وايدناه بروح القدس". (البقرة، ٢٥٣)

ويبدو ان التأيد بروح القدس للنبي عيسى كان نوعا من التفضيل لم يحض به أي نبي آخر حتى النبي محمد، بغض النظر عن هوية الروح القدس سواء كان ملكا مستقلا أم كان جبرئيل، وان علاقته بعيسى لم تكن كعلاقته مع سائر الأنبياء يلقي اليهم بالوحي ويذهب عنهم بعيدا، وانما كان يرافقه دائما ويعطيه قوة خارقة عظيمة بإذن الله، لم تتوفر لأي نبي آخر، وهو ما تتكفل الآية التالية بشرحه: "إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك اذ ايدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلا واذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل واذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذني فتنفخ فيها فتكون طيرا باذني وتبرئ الاكمه والابرص باذني واذ تخرج الموتى باذني". (المائدة، ١١٠)

وقد تمثل تفضيل عيسى على سائر الأنبياء بالاستجابة له بإنزال مائدة من السماء، كما تقول هذه الآية: " قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا انزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وانت خير الرازقين، قال الله إني منزلها عليكم...". (المائدة، ١١٤) وكانت خاتمة عيسى مختلفة أيضا عن خواتم الأنبياء، كما يقول القرآن: " اذ قال الله يا عيسى اني متوفيك ورافعك الي ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة ثم الي مرجعكم فاحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون". (آل عمران، ٥٥)

وبعد كل هذا القرب من الله (ومن المقربين) يغدو الحديث عن طبيعة الوحي النازل الى النبي عيسى أمرا ثانويا بسيطا، حيث كان هو كلمة الله وروحه وواسطته في إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وشفاء المرضى. ولذلك غلا فيه النصرى وقالوا انه ابن الله، وقد جاء القرآن ليخفف من غلوهم قائلا: " يا اهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله الا الحق انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته القاها الى مريم وروح منه فامنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم انما الله اله واحد سبحانه ان يكون له ولد له ما في السموات وما في الارض وكفى بالله وكيفا". (النساء، ١٧١)

وأما الكتاب الذي جاء به عيسى فقد كان الانجيل، وهو لم يكن على شكل ألواح من السماء، كتوراة موسى، وإنما كان كلاما يتلوه عيسى على الناس، إلا أن القرآن يستخدم كلمة "آتيناه الانجيل" في أكثر من آية، مثل: "وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين". (المائدة، ٤٦)

وإذا ألقينا نظرة شاملة على قصص الأنبياء السابقين التي ذكرها القرآن الكريم فسوف نجد أن الوحي الإلهي بكل أنواعه اقتصر على كلام الله، ولم يكن يشمل كلام الأنبياء أنفسهم مع الله أو الملائكة والرسل، وقد نقل القرآن أيضا أقوالا لبعض الأنبياء بعيدا عن الوحي، مثل قول موسى: "وقال موسى إني عدت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب". (غافر، ٢٧) فهل يعتبر هذا القول وحيا من الله لموسى؟ أم انه سيعتبر لاحقا جزءا من الوحي الإلهي النازل على النبي محمد؟.

وإذا لم نعتبر أقوال الأنبياء السابقين ودعاءهم لله جزءا من الوحي، فهل نعتبر الأدعية والخطابات الموجودة في القرآن على لسان النبي محمد، كسورة الفاتحة، وحيا إلهيا ابتدائيا؟ أم وحيا متأخرا بعدما اعتبره الله جزءا من القرآن؟ وكما هو معروف فإن كاتب الوحي الأول عبد الله بن مسعود لم يكن يعتبر الفاتحة جزءا من القرآن. وهذا ما يدعونا للتساؤل حول حقيقة الأدعية الكثيرة الموجودة في القرآن، والصاعدة من الأرض الى السماء، فهل كانت تعتبر في البداية جزءا من الوحي النازل من السماء الى النبي محمد؟ أم اعتبرت فيما بعد، كتعليم من الله للناس كيفية مخاطبته؟

ما هي رسالة النبي عيسى؟

يرد ذكر النبي عيسى في خمس وعشرين آية في إحدى عشرة سورة، وهي تتحدث بصورة عامة حول ولادته وأمه ومعجزه ونفي مقتله وصلبه، وعلاقته بالحواريين وطلبهم نزول المائدة من السماء، وما الى ذلك، وتطالب المسلمين بالإيمان به وبما نزل عليه من الله كما أنزل على الأنبياء السابقين، مما يؤكد أن رسالته كانت تتضمن الدعوة لتوحيد الله وعبادته، كما جاء في هذه الآيات:

"إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم". (الزخرف، ٦٤)

"ما قلت لهم إلا ما أمرتني به، أن اعبدوا الله ربكم، وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم، وأنت على كل شيء شهيد". (المائدة

وبالطبع فان ذلك يستدعي الإقرار بمكافأة الله للمؤمنين ومعاقبة الكافرين، وهو ما تصرح به الآيات التالية التي يخاطب الله فيها عيسى:
"إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة، ثم إلي مرجعكم، فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون. فأما الذين كفروا فأعذبهم عذابا شديدا في الدنيا والآخرة، وما لهم من ناصرين. وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم والله لا يحب الظالمين". (آل عمران، ٥٥-٥٧) وكذلك في الآيات التالية:
"وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته، ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا".
(النساء، ١٥٩)

"فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله، وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا أليما ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا". (النساء، ١٧٣)

"إن تعذبهم فإنهم عبادك، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم، قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم، لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا، رضي الله عنهم ورضوا عنه، ذلك الفوز العظيم". (المائدة ١١٨-١١٩)
"والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا". (مريم، ٣٣)

وكما يلاحظ فان هذه الآيات تتحدث عن يوم القيامة والرجوع الى الله وتعذيب الكافرين ومكافأة المؤمنين بالجنة والخلود. وبالرغم من عدم وجود تصريح في القرآن بتضمين النبي عيسى تلك المفاهيم في خطابه لقومه في الدنيا، الا أنا نفترض انعكاس كلام الله إليه في رسالته للناس. وهو ما يؤكد إنجيل متى نقلا عن السيد المسيح: "ليس كل من يقول لي: يا رب يا رب، يدخل ملكوت السموات، بل الذي يفعل إرادة أبي الذي في السموات. كثيرون سيقولون لي في ذلك اليوم: يا رب يا رب، أليس باسمك تنبأنا وباسمك أخرجنا شياطين، وباسمك صنعنا قوات كثيرة؟ فحينئذ أصرح لهم: إني لم أعرفكم قط. اذهبوا عني يا فاعلي الإثم". (متى ٧: ١٨)

ويشير متى الى نار جهنم في مقطع آخر، فينقل عن النبي عيسى قوله: "قد سمعتم أنه قيل للقديس: لا تقتل ومن قتل يكون مستوجب الحكم.. وأما أنا فأقول لكم: إن كل من يغضب على أخيه باطلا يكون مستوجب الحكم ومن قال لأخيه: رقا يكون مستوجب المجمع ومن قال: يا أحمق يكون مستوجب نار جهنم". (متى 5: 21-22)

بينما يتكرر الحديث عن "اليوم الآخر" في القرآن 26 مرة في إحدى عشرة سورة، بينما يتكرر ذكر "الجنة" 56 مرة، في 32 سورة، وكذلك يتكرر ذكر "جنان" 68 مرة، بينما يتردد ذكر "النار" 102 مرة، وذكر "جهنم" 87 مرة بالإضافة إلى المشتقات الأخرى. وهو ما يؤكد احتلال موضوع الإيمان بالآخرة والجنة والنار موقعا رئيسيا في العقيدة الإسلامية إلى جانب الإيمان بالله.

في سورة (المدر) وهي من أوائل السور، ورد الحديث عن سقر (المدر، ٢٦) والنار (المدر، ٣١) والجنة (المدر، ٤٠) ويوم الدين. (المدر، ٤٦)

وتتوعد سورة (المسد) المكية أبا لهب وزوجته بنار ذات لهب. (المسد، ٣-٥) أما سورة (التكوير) فتدور بصورة رئيسية حول يوم القيامة (التكوير، ١-٦) والجحيم. (التكوير، ١٢) والجنة. (التكوير، ١٣)

وكذلك تتحدث سورة (الأعلى) عن الحياة الآخرة والنار الكبرى. (الأعلى، ١٢) وهكذا تتحدث سورة (الليل) عن الآخرة والأولى والنار التي تتلظى. (الليل، ١٤) وأما سورة (الفجر) فتتحدث عن يوم القيامة وجهنم والجنة. (الفجر، ٢٢-٣٠) وتؤكد سورة (الضحى) أن الآخرة خير من الأولى. (الضحى، ٤) والسؤال الآن: لماذا ورد ذكر الآخرة والجنة والنار في القرآن الكريم، كما لم يرد في رسالات الأنبياء السابقين؟ أو ان الله تعالى لم يحدثنا عن ذلك؟ أو أن موضوع الإيمان بالآخرة والجنة والنار كان أكبر مما يتحمله العقل البشري في طفولته الأولى، قبل أن ينضج مع رسالة خاتم النبيين؟

الفصل التاسع: العقائد النصرانية، عشية ظهور الإسلام

سوف نبحث في هذا الفصل العقائد النصرانية "المسيحية" المختلفة حول ولادة النبي عيسى بن مريم، وكيفية حمل أمه به، وطبيعة شخصيته، ونبوته، والمعجز التي قام بها، ثم عملية صلبه وقيامه من بين الأموات، وارتفاعه نحو السماء، ثم عودته إلى الأرض قبل اليوم الآخر. وسوف نستعرض أيضا الفرق المسيحية المختلفة وتطورها، وذلك من خلال الأناجيل المختلفة الرسمية

(القانونية الأربعة) والمنحولة أو الشعبية غير المعترف بها، وكذلك من خلال المجامع الكنسية التي صنعت اللاهوت المسيحي وأقرت العقائد النصرانية.

المسيح ابن عذراء

من الواضح أن جوهر ومنشأ العقيدة المسيحية يتركز حول الإيمان بولادة يسوع من أم عذراء (هي مريم) بدون أب، وذلك بعد نزول الملاك جبرئيل عليها وبشارتها بالمولود الإلهي "المعجز" المخلوق بكلمة من الله وروح منه. تحقيقاً لنبوة يهودية قديمة من سبعمائة عام حسب (أشعيا 7:14): "ها العذراء تحبل وتلد ابناً وتدعو اسمه "عما نوئيل" وهو يدعى ربا وسيدا، ويجلس عن يمين يهوه في آخر الأزمنة ليدين الأمم ويحاكم وينتقم لشعبه. (ميخا 5:2)

ولكن هذه العقيدة المسيحية الجوهرية يلفها الشك والغموض تاريخياً، حيث يهمل مرقس ويوحنا في (إنجيليهما) الحديث عن ميلاد يسوع من عذراء. ويكتفي متى بالقول باختصار: "بأن مريم كانت مخطوبة ليوسف قبل أن يجتمعا ووجدت حبلى من الروح القدس" ولكنه يرفع نسب يسوع إلى إبراهيم عبر يوسف النجار "رجل مريم التي ولد منها يسوع الذي يدعى المسيح" ويقول: لما كان مريم مخطوبة ليوسف قبل أن يجتمعا ووجدت حبلى من الروح القدس، فيوسف رجلها إذ كان باراً ولم يشأ أن يشهرها أراد تخليتها سرا. ولكن فيما هو متفكر في هذه الأمور إذا ملاك الرب قد ظهر له في حلم قائلاً: يا يوسف ابن داود لا تخف أن تأخذ مريم امرأتك لأن الذي حبل به فيها هو من الروح القدس" (متى 1:18-21). ويلاحظ أن هذه الرواية لا تتحدث عن البشارة من جبرئيل إلى مريم، ولكنها تتحدث عن حلم رآه خطيبها يوسف في وقت متأخر، لكي يفسر له الملاك حقيقة الحمل الغريب المشكوك فيه.

إن الإنجيل الرسمي الوحيد الذي يتحدث بتفصيل عن البشارة والحمل العذري هو إنجيل الطبيب لوقا، الذي دونه بعد حوالي خمسين سنة من صلب المسيح (أي بعد ثمانين عاماً من ولادته)، دون أن يلتقيه في حياته، ودون أن ينقل لنا مصدره، وإنما اعتماداً على الروايات الشعبية المتداولة. وربما اعتماداً على الأناجيل المنحولة غير المعترف بها كإنجيل يعقوب والولادة، وهو يقول:

- " ... أرسل جبرائيل الملاك من الله إلى مدينة من الجليل اسمها ناصرة، إلى عذراء مخطوبة لرجل من بيت داود اسمه يوسف، وإسم العذراء مريم، فدخل إليها الملاك وقال: سلام لك أيتها المنعم

عليها! الرب معك. مباركة أنت في النساء. فلما رأته اضطربت من كلامه وفكرت ما عسى أن تكون هذه التحية. فقال لها الملاك: لا تخافي يا مريم لأنك قد وجدت نعمة عند الله، وها أنت ستحبلين وتلدين ابنا وتسمينه يسوع، هذا يكون عظيما وابن العلي يدعى، ويعطيه الرب الإله كرسي داود أبيه، ويملك على بيت يعقوب الى الأبد ولا يكون لملكه نهاية. فقالت مريم للملاك: كيف يكون هذا وأنا لست أعرف رجلا، فأجاب الملاك: الروح القدس يحل عليك وقوة العلي تظلك، فلذلك أيضا القدوس المولود منك يدعى ابن الله... فقالت مريم: هوذا أنا أمة الرب، ليكن لي كقولك". (لوقا 1:26-38)

ولئن كانت هذه الرواية تتفق مع روايات الأنجيل غير الرسمية في بعض النقاط، فإنها تختلف معها في نقاط أخرى، ولا تذكر رد فعل خطيب مريم يوسف النجار عندما رآها حاملا قبل أن يقربها، وانهياره بالبكاء، وسؤالها عن كيفية الحمل وبكائها وقولها بأنها لا تعرف ذلك وأنها بريئة وظاهرة. واتهام الكهنة لمريم وخطيبتها بالزنا والتحقيق معها.

وحسبما يحدثنا يعقوب الرسول بن يوسف النجار في (إنجيله) الخاص:

• " أن مريم عندما بلغت سن السادسة عشرة، شاهد يوسف عليها علامات الحمل، وهي في الشهر السادس من حملها، فاستغرب لأنه لم يقربها، وإن مريم نفسها لم تكن تعرف كيف حملت؟ ولذلك شك يوسف في مريم بسبب حملها الغريب. فأنطرح أرضا، وخفض رأسه، واستسلم لحزن عميق، قائلاً: "كيف أبرر نفسي أمام الله؟ كيف أصلى من أجل هذه البتول؟ لقد استلمتها عذراء من هيكل الرب الإله، ولم أحفظها. مَنْ هو الذي ارتكب هذا الفعل الرديء في بيتي ومَنْ أغوى العذراء؟... ونهض يوسف من فوق الكيس الذي أنطرح عليه، وقال لمريم: "أنت التي كنت صاحبة قيمة فائقة في عيني الرب، لماذا تصرفت على هذا النحو؟ ولماذا نسيت الرب إلهك؟ لقد تربيت في قدس الأقداس، وأكنت تتلقين الطعام من يد الملائكة، لماذا تخليت عن واجباتك؟" وكانت مريم تبكي بمرارة شديدة، وأجابت: "أنا طاهرة، ولم أعرف رجلاً". فقال لها يوسف: "ومن إذا فكيف حملت؟" فأجابت مريم: "حي هو الرب إلهي؛ أنني أشهده على أنني لا أعلم كيف صار الأمر هكذا". وقال يوسف في نفسه، وهو مذهول: "ماذا أفعل بها؟" وقال: "إذا أخفيت خطيئتها، فسوف أعتبر مذنباً بحسب شريعة الرب؛ وإذا اتهمت علانية أمام

بني إسرائيل، فأخشى أن يكون ما فيها من ملاك، وأن أسلم الدم البريء لحكم الموت؟ ماذا أفعل بها إذا؟ أتركها سرًا".

• ويضيف يعقوب: فمكثت (مريم) ثلاثة أشهر عند (خالتها) أليصابات. وكانت بطنها تكبر يومًا فيومًا، ومن خوفها انزوت مريم في منزلها واختبأت عن أنظار بني إسرائيل. وعندما حان موعد ولادة مريم شكت المرأة التي شهدت ولادتها في الغار، وهي سالومة (قريبة مريم) في بتوليتها وعذريتها. وذكر أيضا:

• "أن كهنة بني إسرائيل اتهموا يوسف النجار الذي أكلوا إليه مهمة رعاية وحفظ مريم بتدنيستها والتزوج منها سرًا، فاقتادوه ومريم لمحاكمتهما، وقال رئيس الكهنة: "يا مريم، كيف تصرفت هكذا؟ ولم خسرت نفسك؟ أنت التي رُبيت في قدس الأقداس، وتلقيت الطعام من يد الملائكة، وسمعت أسرار الرب واغتبطت في حضرته؟" وكانت تبكى بمرارة كبيرة، وأجابت: "حي هو الرب إلهي، إنني طاهرة في حضرة الرب، ولم أعرف رجلاً". فقال رئيس الكهنة ليوسف: "لماذا تصرفت هكذا؟" فقال يوسف: "حي هو الرب الإله وحي هو مسيحه؛ أنني أشهدا على أنني طاهر من كل علاقة بها". وأجاب رئيس الكهنة: "لا تدل بشهادة زور، بل قل الحقيقة؛ لقد تزوجتها سرًا وأخفيتا عن أبناء إسرائيل، ولم تحن رأسك تحت يد العلي القدير، ليكون نسلك مباركًا". وقال: "سوف أسقيك ماء إدانة الرب، وسوف تظهر خطيئتك أمام عينيك".

ويبني يعقوب بن يوسف النجار، موضوع طهارة مريم وبتوليتها، على رؤية شاهدها أبوه، فيقول: "إن الملاك أخبر يوسف بحقيقة حبل مريم، بينما كان منشغلًا خلال الليل: ماذا يفعل بمريم؟ وإذا بملاك الرب يظهر له أثناء نومه، ويقول له: لا تخف الاحتفاظ بهذه البتول؛ لأن الذي فيها هو من الروح القدس، فستلد أبنًا وتسميه أنت يسوع؛ لأنه يخلص شعبه من خطاياهم". فنهض يوسف من النوم ومجد إله إسرائيل الذي أغدق نعمته عليه وحافظ عليها. ويعزز يعقوب نظرية طهارة مريم وعذريتها، بمعجزة حدثت أثناء ولادتها، وذلك عندما شكت سالومة بعذرية مريم أثناء الولادة وبعدها، فعاقبها الله بنار محرقة آكلة كلدت تسقط يدها وتفصلها عن ذراعها، فتابت إلى الله واستغفرت لذنوبها. ولا

يذكر يعقوب ما يتحدث عنه القرآن من تكلم الوليد في المهد كدليل على شخصيته الفريدة. (بينما يوجد ذلك في إنجيل ميلاد مريم المنحول) ويؤكد يعقوب رأيه هذا بذكر نتيجة الاختبار الذي قام به كهنة بني إسرائيل لكل من يوسف ومريم، بواسطة سقيهما (ماء إدانة الرب) فيقول: وأخذ رئيس الكهنة الماء وسقى منه يوسف، ثم أرسله إلى الأماكن العالية، فعاد يوسف منها في صحة تامة. وشربت مريم منه أيضاً، ومضت إلى الجبال، وعادت من دون أن تعاني أي ألم. وصُعق الشعب كله دهشة من عدم ظهور خطيئة فيهما. وقال رئيس الكهنة: "إن الله لم يُظهر خطيئتكما، وأنا لن أدينكما". وصرفهما مغفوراً لهما.

ويلاحظ أن (إنجيل يعقوب) هذا، غير الرسمي، لا يتحدث عن نزول ملك (روح القدس) على مريم وإحداث الحمل في رحمها بالنفخ، وإنما يكتفي بالقول بظهور الحمل عليها، دون أن تعرف هي كيف حملت. وهذا ما دفع خطيبها يوسف للشك فيها، والتأكيد أمام الكهنة بأنه لم يمسه. ولكن بعض الأناجيل (القانونية) كإنجيل متى وإنجيل لوقا يذكران حصول الحمل لمريم بواسطة الروح القدس، أو الملاك جبرئيل، حيث يقول متى باقتضاب: "وكانت مريم مخطوبة ليوسف، وقبل أن يجتمعا معا وجدت حبلها من الروح القدس". (متى 1/18). ويتوسع لوقا بذكر حادثة البشارة والأحداث السابقة للميلاد. فيقول: "بأن جبرئيل قد ظهر لمريم مرسلًا من قبل الله وأخبرها أنها ستحبل بقوة الروح القدس بطفل وتسميه (يسوع). (لوقا 1/32) وإن ملاك الرب جبرئيل ظهر إلى عذراء مخطوبة لرجل اسمه يوسف من بيت داود، واسم العذراء مريم، فدخل الملاك وقال لها: سلام لك يا مريم، أيتها المنعم عليها، الرب معك مباركة أنت بين النساء. (لوقا 1/27)... لا تخافي يا مريم، فقد نلت حظوة من عند الله، فستحبلين وتلدن إبنا تسميه يسوع، سيكون عظيماً و"ابن العلي" يدعى، ويوليه الرب الإله عرش داود أبيه، ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد، ولن يكون ملكه نهاية". (لوقا 1/30) فاستفسرت مريم من الملاك: كيف يحدث هذا وأنا لست أعرف رجلاً؟ فأجابها الملاك: "الروح القدس يحل عليك وقدرة العلي تظلك، لذلك يكون المولود منك قدوساً، و"ابن الله العلي" يدعى. (لوقا 1/35). إذ ذاك قالت مريم: ها أنا أمة الرب فليكن

لي حسب قولك". (لوقا 1/39)

ويبدو من خلال هذه الرواية الشعبية التي لم يعترف بها مؤلفو الأناجيل الرسمية الأربعة أو تجاهلوها عمدا لأنها تشوه سمعة مريم ولا ترفع عنها الشكوك والاتهامات ، أن مريم حملت بصورة غامضة، ولم تقل أن الملاك نزل عليها وبشرها بالحمل، بل قالت: "لا أعرف من أين" جوابا عن سؤال خطيبها يوسف النجار، الذي تفاجأ بحملها وانهار باكيا وسقط على الأرض من هول المفاجعة، وأن يوسف ابتعد عنها وراح يفكر فيما عساه أن يفعل بها، ولم يهدأ حتى حل الليل، وظهر له ملاك في الحلم وقال له: "لا تخف من الفتاة لأن الذي بداخلها هو من الروح القدس". ولكن الحلم لا يحل مشكلة ولا يثبت دعوى، ولذلك لم يقدمه يوسف في الدفاع عن نفسه أمام محكمة الكهنة، ولم يقبلوا منه، وأصرروا على اتهامه بالزنا وارتكاب خطيئة عظيمة. فبقي يوسف صامتا، وبكى بكاء شديدا. ولم تجد هذه الرواية ما يثبت طهارة يوسف ومريم ورفع التهمة عنهما إلا بحكاية تجربة "ماء امتحان الرب" الذي سقاه الكاهن ليوسف ومريم، وعدم موتهما أو ظهور أية آثار تؤكد التهمة الموجهة لهما، مما أدى الى توقف الكاهن عن إدانتهم.

ويقول المؤرخون المسيحيون بأن العذراء واجهت الكثير من الهزء والافتراء بسبب حملها، وأن يوسف أراد الانفصال عنها، إلا أنه غير خطته، عندما ظهر له ملاك الرب في الحلم (متى 1/20) ويعد أن تأكد أن مريم كانت أمينة ومخلصة له فأطاع الله وتم إجراءات الزواج كما كان ينوي، وقبل انفضاح أمر الحمل. وحسبما يقول القديس إمبروسيوس أحد آباء الكنيسة: لكي لا يُظن أنها زانية.

وتواصل الرواية الشعبية المتهاكة تقديم العناصر المتناقضة التي تعزز الشكوك ولا ترفعها، فتقول:

- "عندما حانت ولادتها، قال يوسف لها: الى أين آخذك واستر عارك والمكان هنا مقفر، ووجد مغارة فأدخلها اليها... ثم ذهب يبحث عن قابلة عبرانية في محيط بيت لحم، فوجد واحدة وسألته: من تلك التي

تلد في المغارة؟ فقال لها: هي التي اعطيت لي خطيبة (ولم يقل إنها زوجته)...إنها مريم التي ترعرعت في الهيكل ووقعت علي القرعة لتكون زوجتي، ولكنها ليست زوجتي، وقد حملت من الروح القدس. فقالت القابلة: هل تقول لي الحق؟... ثم ولد يسوع، وندت عن القابلة صيحة عالية (بعد أن اقتربت من مريم وفحصتها) وقالت: "هذا يوم عظيم لأنني رأيت رؤية عجيبة". ثم خرجت القابلة فلقبت سالومي فقالت لها: سالومي أريد أن أروي لك أمرا عجبا. لقد وضعت عذراء مولودها دون أن تفقد عذريتها، فقالت سالومي: لن أصدق ذلك حتى أفحصها بنفسي... وسمعت سالومي صوتا يقول لها: سالومي، لا تخبري أحدا بالعجائب التي رأيت قبل أن يدخل الصبي الى أورشليم".

وقد اختصرنا هذه الرواية التي يقول يوسف في بدايتها لمريم: "إلى أين آخذك وأستر عارك" ثم يتحدث عن سكون الهواء والطيور في السماء، وجمود الناس والخراف والرعاة، واستقرار غمامة مضيئة فوق المغارة، وظهور نور باهر قبل ولادة يسوع فيها. وبقاء أمه مريم عذراء حتى بعد ولادتها، وشك سالومي بما أخبرتها به القابلة، وسقوط يدها في النار (شللها) ثم شفاؤها بفضل بركة الوليد. وكل هذه الأمور قصص "إعجازية" تحاول إضفاء مسحة غيبية على ولادة يسوع، ولكن لم يمكن إثباتها لأحد لأنها مشاهدات أو دعاوى فردية. ولا يوجد أية إشارة لها في الأناجيل الرسمية، ولا إلى القابلة وسالومي المرأتين اللتين جاء ذكرهما في (إنجيل يعقوب) كشاهدتين على الولادة العذراء، وإنما يذكر لوقا بدلا من ذلك مجيء بعض الرعاة مسرعين الى الغار، ومشاهدتهم لمريم ويوسف والطفل مضطجعا في مذود. (لوقا 2/16)

وسوف نعرض عن تلك الرواية بعد إعراض المسيحيين والأناجيل الأربعة المعتبرة عنها.

وإذا عدنا الى التاريخ الرسمي والمشهور عن طفولة يسوع ونسبه فسوف نجد يوحنا الذي أغفل قصة الميلاد جملة وتفصيلا، يصف يسوع في مطلع إنجيله بأنه "ابن يوسف". (يوحنا 1: 45) وأما لوقا ومتى فيحدثانا عن تعجب الحاضرين من أهل الناصرة من سلطان كلمات يسوع وقولهم: "أليس هذا

إبن يوسف؟" (لوقا 4:16-22) "أليس هذا ابن النجار؟ أليست أمه تدعى مريم وإخوته يعقوب ويوسي وسمعان ويهوذا؟ أو ليست أخواته جميعهن عندنا؟ فمن أين لهذا هذه كلها؟" (متى 13: 55-56) وبناء على ذلك عزى (إنجيل لوقا) نسب المسيح الى يوسف النجار، وناثان بن داود ثم إلى يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم. وأما (إنجيل متى) فقد مرر سلسلة آباء المسيح بسليمان بن داود.

وكما يقول الباحث فراس السواح، فإن بولس أيضا لم يشر بكلمة واحدة الى السيدة مريم العذراء، ولا الى ميلاد يسوع الاعجازي. وهو ما يدل على اشتهار يسوع بأنه ابن يوسف النجار، قبل المعموديته، وعدم معرفة عامة الناس بأمر الولادة العذرية المعجزة. وأن روايات يعقوب ولوقا، حول مشاهدة يوسف النجار للملاك في المنام وإخباره بطهارة مريم، أو حملها بواسطة الروح القدس، لم تقنع عامة اليهود، حتى بعض الذين آمنوا بوعيسى كالتائفة "الأبيونية" (المساكين) الذين قالوا بولادة عيسى بصورة طبيعية من مريم وزوجها يوسف النجار، وليس بصورة إعجازية من دون أب، أي بواسطة الروح القدس.

دعاوى المعاجز

وفي محاولة لإضفاء مسحة نبوية أو إلهية على يسوع، تتحدث الأناجيل الرسمية والشعبية (المنحولة) عن حصول معاجز غير طبيعية في مراحل مختلفة من حياة يسوع، سواء في أثناء ولادته أو في طفولته أو بعد تصديه للنبوة.

وقد استعرضنا قبل قليل المعاجز التي نقلها (إنجيل الطفولة) عن يوسف النجار قبيل ولادة مريم ليسوع، والتي أعرضت عنها الأناجيل الرسمية، وربما كانت المعجزة الكبرى التي تحدثت عنها تلك الأناجيل أيضا هي معجزة تحدث الوليد إلى أمه التي كان يعتصرها الألم بما سيقول عنها بنو إسرائيل، حيث يرد في (إنجيل الطفولة العربي) أن يسوع تكلم في المهد

قائلا لمريم: "أنا الذي أنجبته، أنا يسوع ابن الله، الكلمة، كما بشرك بذلك الملك جبرائيل، وأبي أرسلني لخلص العالم". ولكن هذه المعجزة لم ينقلها كتاب الأناجيل الشعبية الآخرون، فضلا عن كتاب الأناجيل الرسمية، وهي بالطبع لم تحدث أمام حشد من الناس حتى يتواتر نقلها، وإنما كان حوارا خاصا بين يسوع الوليد وأمه.

وأما قصة النخلة والرطب ونبع الماء، التي يتحدث عنها القرآن الكريم عند ولادة يسوع، فإن (منحول متى) يذكرها ولكن ليس عند الولادة، وإنما يقول إنها حدثت عندما كان يسوع في السنة الثانية من عمره، أثناء السفر الى مصر، وإنها حدثت ضمن "معجزات" أخرى كمرافقة أسود وفهود وذئاب لهم في الطريق، وسجودها أمام يسوع، وهو ما لم يشر إليه القرآن.

وتقول الحكاية كما يرويها متى (المنحول): إن مريم رأت شجرة نخيل وأحبت أن تستريح تحتها، وعندما اتكأت في ظلها رفعت عينيها ورأت ثمارها، فقالت ليوسف: إنها تشتهي لو تذوق من رطبها. وإن يوسف تذرع بارتفاع الشجرة وقال لها: إن ما يشغل باله حقا هو قلة الماء لديهم. وهنا أمر يسوع الجالس في حضن أمه الشجرة أن تدني رطبها من أمه، فانحنى الشجرة حتى وصلت أقدام مريم فقطفت منها وأكلت، ثم أمر يسوع النخلة أن ترتفع ففعلت ذلك. وبعد ذلك أمرها أن تفتح مجرى للماء المخزون عند جذورها، فتدفق من تحتها نبعاً صافياً شربوا منه وسقوا حيواناتهم. ثم وعد يسوع النخلة بأن يزرع أحد أغصانها في الجنة، فهبط ملاك من السماء وأخذ الغصن وطار به.

ويتحدث انجيل توما الاسرائيلي عن "معجزة" صنع يسوع للطيور عندما كان في سن الخامسة، فيقول: "أما يسوع فقد جبل من الطين إثني عشر عصفورا، وكان ذلك يوم السبت، فجاء أحد الأطفال الى يوسف وقال له: ان ابنك يلعب عند مجرى الماء، وقد صنع من الطين عصافير، وهذا لا يحل في يوم السبت، فجاء يوسف الى حيث كان يسوع وقال له: لماذا تفعل مثل هذه

الأمور وتدنس السبت؟ لكن يسوع لم يجبه بل التفت الى العصافير وقال لها: هيا طيري، واذكريني في حياتك. فطارت العصافير وحلقت في الجو".

وينقل هذا الانجيل الشعبي (المنحول) قصصا إعجازية أخرى، فيقول: "بعد عدة أيام كان يسوع مارا في وسط البلدة عندما رماه أحد الأولاد بحجر أصابه في كتفه، فالتفت اليه يسوع وقال: لن تكمل طريقك. فسقط الولد لتوه ميتا. فدهش الحاضرون". فأخذه يوسف النجار الى معلم، فقال له: "سأعلمه أن يبارك الناس لا أن يلعنهم"، فلما سمع يسوع ذلك ضحك وقال: "إنكم تتحدثون عما تعرفون، ولكن عندي من العلم ما يفوق علمكم، لأنني قبل العالم، وأعرف متى ولد آباء آبائكم، وأعرف عدد سنوات حياتكم". فذهل الحاضرون لما سمعوا ولكن يسوع تابع قائلاً: "هل تعجبون مما قلت: الحق أقول لكم أيضا بأنني أعرف متى خلق العالم. انكم الآن لا تصدقونني، ولكن متى ترون صليبي تعرفون أنني أقول الحق".

ويضيف: "كان يسوع يلعب مع الأولاد على سطح بيت مؤلف من طابقين، عندما دفع أحدهم رفيقه فسقط من الأعلى على الأرض ومات، فلما رأى الصبية ذلك هربوا جميعا وبقي يسوع وحده واقفا على السطح. ولما عرف والدا الصبي بما حدث لابنه جاءا يندبان، وشاهدا جثة ولدهما على الأرض ويسوع واقفا في الأعلى، فاعتقدا أن يسوع هو الذي دفعه وراحا يشتمانه. فلما رأى يسوع ذلك قفز من أعلى السطح ووقف عند رأس الميت وقال له: "زينو، أحقا أنا الذي دفعك؟ قم واخبرنا"، فقام الصبي وسجد ليسوع قائلاً: أنت لم تدفعني، ولكنني كنت ميتا فأحييتني.

وقد ردد (إنجيل الطفولة العربي) بعض هذه المعاجز، كحديث يسوع وهو في المهد، وصنعة الطيور من الطين. وأضاف عليها (في الفقرة السادسة والثلاثين) بأنه " كان يأمرها فتطير ثم يأمرها بالتوقف فتتوقف. وكان يقدم لها شرابا وطعاما وكانت تأكل وتشرب، وعندما عاد الأولاد الى بيوتهم رروا لأهلهم ما رأوا من أفعال يسوع، فقالوا لهم: ابتعدوا من الآن فصاعدا عن

صحبته واللعب معه لأنه ساحر".

ولكن هذه القصة "المعجزة" و"المعاجز" الأخرى لم تثبت في التاريخ المسيحي، ولم ترد في الأناجيل الرسمية، لأنها أساسا لم تتحدث كثيرا عن طفولة المسيح، ولا عن معاجزه في مرحلة ما قبل النبوة والتعميد، كما يوجد سؤال حول الهدف منها؟ ولماذا لم تنتشر في تلك المرحلة بحيث تعطي للمسيح ميزة خاصة تسلط الضوء عليه منذ طفولته؟ مما يرجح الظن بأنها قصص اختلقت فيما بعد لإضفاء بعد إلهي عليه، أو تبرئة أمه مريم من تهمة الحمل الغامض.

وفي مقابل تلك "المعاجز" التي ترويها الأناجيل المنحولة عن فترة ما قبل النبوة، تذكر الأناجيل الرسمية عدة معاجز كشفاء الأبرص والأكمه (أي الاعمى منذ الولادة) (يوحنا 1:9-7) وشفائه لرجل مقعد بكلمة من فمه، عندما قال له "قم، إحمل سريرك وامش" (يوحنا 5:8) وإطعام خمسة آلاف شخص من خمسة أرغفة وسمكتين (يوحنا 16:1-13) والسير على الماء (يوحنا 16:6-21) وتحويل الماء الى خمر في عرس قانا.

وهذه المعاجز عبارة عن قصص فردية، بعضها سري وبعضها يشك بحدوثه. وقد اختلفت الأناجيل الرسمية في ذكر تفاصيلها، وبعضها استقل بذكر قسم منها، بينما لم يشر بعض آخر إليها. فقد أغفل يوحنا ذكر معظم معجزات يسوع الشفائية. ولم يذكر سوى قصة شفائه لخادم موظف روماني، وشفائه لرجل مقعد بكلمة من فمه، عندما قال له "قم، احمل سريرك وامش" (يوحنا 5:8) وشفائه لأعمى منذ الولادة عندما طلى عينيه بعجينة من تراب الأرض الممزوج بلعابه (يوحنا 1:9-7) وتحدث عن إحياء الشاب لعازر بعد موته بأربعة أيام (يوحنا 11:1-45) وانفرد بمعجزة تحويل الماء الى خمر في عرس قانا. (يوحنا 1:2-11) بينما تحدثت الأناجيل الرسمية الأخرى عن أعمال يسوع الشفائية، وطرده للشياطين من أجساد المسوسين. وإنزال

المائدة من السماء.

التعميد والنبوة: هل أعلن المسيح نبوته؟

تحكي الأناجيل قصة إعلان نبوة يسوع عندما كان يبلغ الثلاثين من العمر، بينما كان يوحنا المعمدان يعمده بالماء، وذلك بهبوط حمامة على رأسه: "شهد يوحنا: إني قد رأيت الروح نازلا مثل حمامة من السماء فاستقر عليه، وأنا لم أكن أعرفه لكن الذي أرسلني لأعمد بالماء ذاك قال لي: الذي ترى الروح نازلا ومستقرا عليه فهذا هو الذي يعمد بالروح القدس، وأنا قد رأيت وشهدت أن هذا هو ابن الله". (يوحنا 1: 19-34)

ومع ذلك تحكي أيضا عن تردد يسوع بإعلان نبوته: "وهذه شهادة يوحنا حين أرسل اليهود من أورشليم كهنة ولاويين ليسألوه: من أنت؟ فاعترف ولم ينكر وأقر: أنني لست أنا المسيح. فسألوه: إذا ماذا؟ إيليا أنت؟ فقال: لست أنا. النبي أنت؟ فأجاب: لا، فقالوا له: من أنت لنعطي جوابا للذين أرسلونا؟ ماذا تقول عن نفسك؟ قال: أنا صوت صارخ في البرية".

وهو ما يؤكد إنجيل لوقا: "يوحنا أرسل تلميذين من لدنه وهو في السجن بعد أن سمع بأعمال ومعجزات يسوع، ليسألاه عما إذا كان هو المسيح".

وبالرغم من المعاجز التي يحكيها المسيحيون عن اجتراح يسوع لها، فإن الأناجيل تحكي عن تشكيك إخوة المسيح وأهله فضلا عن عامة اليهود به، كما يقول يوحنا: إن "إخوته لم يكونوا يؤمنون به". (يوحنا 2: 7-5) وقد حاول أقرباؤه القبض عليه لأنهم اعتبروه مخبولا، حسبما يقول إنجيل مرقس. "ولما سمع أقرباؤه خرجوا ليمسكوه لأنهم قالوا: إنه مختل". (مرقس 3: 21)

ولكن إخوة يسوع آمنوا به على ما يبدو بعد صلبه وقيامته. وأصبح أكبرهم يعقوب رئيسا للكنيسة، وحمل لقب "أخي الرب".

هل صلب المسيح؟ ولماذا؟

سأحاول في هذا المبحث أن استعرض قصة صلب يسوع المسيح من خلال

الروايات المسيحية، وأنظر في مدى قوة الرواية من وجهة نظر مسيحية وتاريخية، وأحاول أن ألاحظ مدى ارتباط فكرة الصلب بالموروث اليهودي (العهد القديم)، وموقع هذه الفكرة من العقيدة المسيحية.

لقد لاحظنا في المبحث السابق أن فكرة ولادة يسوع من عذراء، لم تكن متماسكة بما فيه الكفاية، في الرواية المسيحية، بل كانت متناقضة وضعيفة، حيث كانت بعض الروايات تقول بأن الملاك نزل عليها وأخبرها بالحمل، بينما كانت روايات أخرى تتجاهل قصة الملاك، وتقول بأن مريم لم تعرف كيف حملت، وأن خطيبها يوسف النجار شك في أمرها وأراد تسريحها وتركها، وأنه رأى حلما يخبره بأن حملها تم بواسطة الملاك، ومع ذلك فقد شك كهنة إسرائيل بروايتها. وقد دعمت الرواية المسيحية عن عذرية مريم بنص يهودي قديم من أشعيا يقول (بأن المسيح يولد من عذراء)، بينما رفض الكهنة المصادقة على ولادة يسوع من عذراء واتهموا أمه مريم بالزنا. وبالطبع لم يعترفوا بعد ذلك بأن يسوع هو المسيح.

وبالرغم من احتواء التراث اليهودي على نبوءات أخرى حول فكرة المخلص وصلبه وقيامه من بين الأموات وارتفاعه الى السماء وهو ما شكل العمود الفقري للعقيدة المسيحية، إلا أن اليهود رفضوا تطبيق تلك النبوءات على يسوع، بل سعوا بأنفسهم لإعدامه باعتباره مسيحا كاذبا أو دجالا.

هل صلب المسيح فعلا؟

هناك من يشكك بأساس وجود يسوع المسيح في التاريخ، مثل الباحث الأكاديمي الاسترالي رفائيل لاتيستر، استاذ الدراسات الدينية في جامعة سدني الاسترالية، وذلك - كما يقول- بسبب غياب المصادر الأولية. وتألّف تلك المصادر بعد عقود على الحوادث المفترضة، وإنها من نسج كتّاب مسيحيين متلهفين على إشاعة المسيحية.

وإذا تجاوزنا هذا الشك البعيد عن الاحتمال، فإن ظللا من الشك في الواقع تحيط بكثير من تفاصيل حياة السيد المسيح، كما رأينا في قضية الحمل به من عذراء، أو المعاجز المنقولة، أو مسألة رفعه الى السماء التي لا يمكن توثيقها بصورة تاريخية بعيدا عن الإيمان بها بالغيب. ولكن موضوع صلب يسوع يحتل قمة الأحداث من حيث التوثيق التاريخي، بغض النظر عن

فلسفة الصلب والفداء التي تؤمن بها الكنيسة المسيحية.

ولا أريد هنا أن أؤكد أو أنفي موضوع الصلب من ناحية إيمانية، ولكن أحاول استعراض التاريخ المسيحي الذي يحكي عداً اليهود للمسيح والسعي للوشاية به الى السلطات الرومانية، ثم الحض على إعدامه صلباً. في محاولة منهم لتفنيد الدعوى المنسوبة إليه أنه "ابن الله".

يتأرجح المسيحيون في تحديد تاريخ الصلب بين عامي 30م و33م، علماً بأنهم يقولون بأن المسيح قد تنبأ أو تعمد وهو بعمر 30 سنة، أي لم تمض على معموديته وكرازته (وعظه) سنة أو ثلاث سنوات. فاعتقله الحاكم الروماني للقدس بيلاطس البنطي وحاكمه وحكم عليه بالجلد والصلب.

وقد ورد ذكر صلب المسيح في الأناجيل الأربعة (مرقس ولوقا ومتى ويوحنا) وكذلك في الأناجيل الشعبية (المنحولة) ويشار الى الحدث في التقاليد المسيحية باسم (الآلام) ومعاناة يسوع وموته الفدائي على الصليب، كقضية أساسية في اللاهوت المسيحي.

ويؤمن المسيحيون بأن موضوع الصلب يحتل "رتبة عالية جداً من اليقين الذي يكاد يكون من المستحيل الشك فيه أو نفيه" وأن حادثة صلب يسوع حقيقة لا جدال فيها. ويعززون أقوالهم بنبوءات يهودية سابقة من أشعيا (سفر أشعيا، الاصحاح الثالث والخمسون): " أن المسيح عندما يأتي سيلاقي الآماً جمّة".

وربما يأتي الشك بقتل المسيح على الصليب، من عدة أمور:

- موت (أو انتحار) تلميذه الخائن يهوذا الاسخريوطي شنقاً في نفس الوقت. (متى 27: 3 - 10)
- تردد حاكم أورشليم بيلاطس في إعدامه. (يوحنا 19: 1 - 11)
- 3- قدرة المسيح الذي كان يصنع المعجزات على تحرير نفسه من الصليب..

- عدم استعداد المسيح للموت على الصليب ومناداة الله: "إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟" وتناقض ذلك مع بنوته لله وعقيدة الفداء..
- 4- عدم وجود أثر لجثة المسيح في القبر (لوقا 24: 1 - 12) بعد ثلاثة أيام.
- رؤيته سالما بعد ذلك في مناطق عدة (لوقا 24: 13 - 35) فقد ورد في نص "أعمال يوحنا" أن التلميذ يوحنا الحبيب لجأ الى جبل الزيتون بعد أن أسلم يسوع الى الصليب، وهناك ظهر له يسوع وقال له: "بالنسبة لهم هناك في الأسفل، أنا مصلوب في اورشليم، وأتجرع الخل والمرار وأطعن بالحرايب... ولكني لست ذلك المعلق على الصليب، ولم أعان أيا من تلك الآلام".
- ولكن المسيحيين يفسرون مشاهدة المسيح بعد عملية الصلب الافتراضية، بالقيامة بعد الموت بصورة إعجازية، إلا أن الباحث المحايد قد يتخذ ذلك دليلا على عدم صلب المسيح أساسا، واستبداله بيهوذا.
- نفي فرقة من المسيحيين هم (الغنوصيون) موت المسيح على الصليب، وإيمانهم بالقاء شبه يسوع على شخص آخر صلب في مكانه. وقولهم: "إن موته قد شبه للناس الذين ظنوا أنهم يرون المسيح مصلوبا وما هو المصلوب". و"إن موت المسيح قد تراءى للناس وما هو بالحقيقة الفعلية".
- وقد ورد في أحد نصوص نجع حمادي المعروف بعنوان "أطروحة شيت الكبير" على لسان يسوع: "فاعلم اذاً أنني لم أسلم الى أيديهم كما ظنوا، ولم أتألم أبدا... لم أمت في الحقيقة، وانما في المظهر فقط... لم أتجرع الخل والمرار كما رأوني أفعل، بل هو شخص آخر. لم أكن من ضربوه بالعصي، بل هو شخص آخر. لم أكن من وضعوا إكليل الشوك على رأسه، بل هو شخص آخر. ولقد سخرت في الأعلى من جهلهم ومن تبجحهم".

ارتباط عقيدة الفداء بالصلب

لم يكن الجدل حول حقيقة الصلب يهم كثيرا لو كان الأمر يقتصر عليه، فقد قتل أنبياء كثيرون من قبل، ولكن موضوع الصلب اتخذ في العقيدة المسيحية قاعدة أساسية لعقيدة الفداء التي تشكل العمود الفقري للدين المسيحي، ووسيلة لتكريس فكرة "المسيح المنتظر" وتجسيدها في شخص

يسوع، تطبيقاً لما ورد في العهد القديم، وإذا لم يثبت موضوع صلب يسوع فان عقيدة الفداء تتلاشى كما تنقشع عنه صفة "المسيح". ومن هنا فان المسيحيين يؤكدون بقوة على موضوع الصلب استناداً إلى أيديولوجية توراتية قديمة، بغض النظر عن الشكوك التي تحيط بالموضوع، وتفسير الثغرات التي أحاطت برواية الصلب، بشكل معاكس، بما يعزز فكرة الفداء والقيام من الموت والارتفاع الى السماء، ثم العودة الى الأرض في آخر الزمان. وهذا ما يجعل المسيح شخصية "إلهية" محورية فوق جميع الأنبياء السابقين واللاحقين. فهو ليس نبيا عاديا وانما هو "الفادي" "ابن الله" و "كلمته" و "روح منه".

لقد أعطى كتاب الأنجيل الأربعة اهتماماً كبيراً لهذه القضية، وقالوا بأن المسيح قبل صلبه تحدث مع تلاميذه في عدة مناسبات عن موته نيابة عن البشر على الصليب وقيامته من بين الأموات. (يوحنا 2 : 18-22)

وقد ربطوا بين صلب المسيح وخطيئة آدم وحواء بمخالفة أوامر الله وأكل الشجرة التي نهاهم عنها، وتعلق تلك الخطيئة برقبة ذرية آدم إلى يوم القيامة، وإرسال الله المسيح لكي يضحى به على الصليب، حتى يغفر الله للإنسان. كما ورد في رسالة رومية: "الجميع أخطئوا ويعوزهم مجد الله". (رومية 3 : 23) و "من أجل ذلك ، كأنما بإنسان واحد دخلت الخطية إلى العالم وبالخطية الموت ، وهكذا اجتاز الموت الى جميع الناس اذ أخطأ الجميع ". (رومية 5 : 12) وكما يقول يوحنا عن المسيح: " هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم " (يوحنا 1 : 29)

يصر يوحنا على اعتبار موت المسيح كان بقصد خلاص الجنس البشري من الخطيئة، فيقول أيضا: "الذي حمل هو نفسه خطايانا في جسده على الخشبة ، لكي نموت عن الخطايا فنحيا للبر ؛ الذي بجلدته شفيتم " ويتحدث بالنيابة عن الله فيقول: "لأنه هكذا أحب الله العالم ؛ حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به ؛ بل تكون له الحياة الأبدية ". (يوحنا 3: 16) وبناء على ذلك يعتقد المسيحيون بأن "علينا أن ندرك أنه في عملية صلب المسيح التي كانت بترتيب الله ؛ تمت المصالحة بين الله القدوس والإنسان الخاطيء". وذلك استناداً الى ما ورد في رسالة كولوسي (1 : 20): بأن موت المسيح كان ضروريا لمصلحة الإنسان مع الله، إذ يقول بأن الله في الصليب صالح الكل لنفسه ؛ عاملا الصلح بدم صليبه بواسطته. ولهذا السبب كان من الضروري أن يموت المسيح على

الصليب من أجل الخطاة . وقد أطاع المسيح ترتيب الله حتى الموت... لذلك رفعه الله أيضا وأعطاه إسما فوق كل اسم ؛ لكي تجثو باسم يسوع كل ركبة ممن في السماء ومن الأرض ومن تحت الأرض ويعترف كل إنسان أن يسوع المسيح هو رب لمجد الله الأب ". (فيلبي 2 : 5 - 11)

ويتحدث لوقا عن ظهور المسيح لتلاميذه بعد موته المفترض: "ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: "عِنْدَمَا كُنْتُ بَعْدُ مَعَكُمْ قُلْتُ لَكُمْ: لَا بُدَّ أَنْ يَتِمَّ لِي كُلُّ مَا جَاءَ عَنِّي فِي شَرِيعَةِ مُوسَى وَكُتُبِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمَزَامِيرِ". ثُمَّ فَتَحَ أَذْهَانَهُمْ لِيَفْهَمُوا الْكُتُبَ الْمُقَدَّسَةَ، وَقَالَ لَهُمْ: "هَذَا مَا جَاءَ فِيهَا، وَهُوَ أَنَّ الْمَسِيحَ يَتَأَلَّمُ وَيَقُومُ مِنْ بَيْنِ الْأَمْوَاتِ فِي الْيَوْمِ الثَّلَاثِ، وَتُعْلَنُ بِأَسْمِهِ بَشَارَةُ التَّوْبَةِ لُغْفَرَانِ الْخَطَايَا إِلَى جَمِيعِ الشُّعُوبِ، ابْتِدَاءً مِنْ أُورُشَلِيمَ. وَأَنْتُمْ شُهَدَاؤُ عَلَى ذَلِكَ. وَسَأُرْسِلُ إِلَيْكُمْ مَا وَعَدَ بِهِ أَبِي. فَأَقِيمُوا فِي مَدِينَةِ أُورُشَلِيمَ إِلَى أَنْ تَحُلَّ عَلَيْكُمْ الْقُوَّةُ مِنَ الْعُلَى". (لوقا 24: 36 - 49)

صعود المسيح الى السماء

وتكتمل صورة المسيح في (العهد الجديد) بقيامته من بين الأموات، وصعوده الى السماء، ثم عودته الى الأرض في نهاية الدنيا، ويقوم الإيمان بكل ذلك بناء على سيناريو مسبق، وأقوال توراتية قديمة أو منسوبة للمسيح، دون شواهد تاريخية قوية عليها، أو إمكان أثباتها بصورة مستقلة وبعبدة عن الإيمان المسيحي، حيث ينسب يوحنا الى المسيح قوله قبل الصلب: "وأنا إن ارتفعت عن الأرض أجدب الي الجميع" (يوحنا 12:32) ويضيف لوقا: "ثُمَّ خَرَجَ بِهِمْ إِلَى بَيْتِ عَنِيَا، وَرَفَعَ يَدَيْهِ وَبَارَكَهُمْ. وَبَيْنَمَا هُوَ يُبَارِكُهُمْ، أَنْفَصَلَ عَنْهُمْ وَرُفِعَ إِلَى السَّمَاءِ، فَسَجَدُوا لَهُ، وَرَجَعُوا إِلَى أُورُشَلِيمَ وَهُمْ فِي فَرَحٍ عَظِيمٍ. وَكَانُوا كُلَّ حِينٍ فِي الْهَيْكَلِ يُبَارِكُونَ اللَّهَ. (لوقا 24:50-53) " منذ الآن يكون ابن الانسان جالسا عن يمين قوة الله". (لوقا 22:69)

عودة المسيح الى الأرض

كما قلنا في الصفحات السابقة، يعتقد المسيحيون في (عيسى المسيح) أنه يتميز عن سائر الأنبياء وأنه الذي سيحاسب الخلق يوم القيامة عند عودته الى الأرض ، كما يقول متى: "وحيثُ تظهِرُ علامة ابن الانسان في السماء، وحيثُ تنوح جميع قبائل الأرض ويبصرون ابن الانسان آتيا على سحاب بقوة ومجد كثير، فيرسل ملائكته ببوق عظيم الصوت فيجمعون مختاريه من

الأربع الرياح من أقصاء السماوات الى أقصائها". (متى 24: 30-31) وكما يقول يوحنا: " ليس أحد صعد الى السماء الا الذي نزل من السماء ابن الانسان الذي هو في السماء ". (يوحنا 3: 13-17)

هل بشر عيسى بالنبي محمد؟

حسب العقيدة المسيحية بمركزية يسوع في الكون والتاريخ وتمثيله للسماء، لا مكان لنبي آخر بعده، ومع ذلك فقد وردت في إنجيل يوحنا عدة أقوال ليسوع تبشر المؤمنين بشخصية ترسل من قبله وتتابع عمله وتمكث مع

تلاميذه وأتباعه، وتدعى بـ"البارقليط" (Paraqletos): " ٧ غَيْرَ أَنِّي أَقُولُ لَكُمْ الْحَقَّ: إِنَّهُ لِمَنْفَعَتِكُمْ أَنْ أَذْهَبَ. فَإِنْ لَمْ أَذْهَبْ فَلَنْ يَأْتِيَكُمْ الْمُعِينُ الْبَتَّةَ، وَلَكِنْ إِنْ ذَهَبْتُ أُرْسِلُهُ إِلَيْكُمْ. ٨ وَمَتَى جَاءَ ذَلِكَ، يُقَدِّمُ لِلْعَالَمِ دَلِيلًا مُفْنِعًا عَلَيَّ الْخَطِيئَةَ وَعَلَى الْبَرِّ وَعَلَى الدَّيْنُونَةِ. ... ٣١٢ "عِنْدِي بَعْدُ أُمُورٌ كَثِيرَةٌ أَقُولُهَا لَكُمْ، وَلَكِنَّكُمْ لَا تَسْتَطِيعُونَ أَنْ تَحْتَمِلُوهَا أَلَانَ. ١٣ وَلَكِنْ مَتَى جَاءَ ذَلِكَ، رُوحُ الْحَقِّ، فَهُوَ يُرْسِدُكُمْ إِلَى الْحَقِّ كُلِّهِ، لِأَنَّهُ لَنْ يَتَكَلَّمَ مِنْ تِلْقَاءِ ذَاتِهِ، بَلْ يَتَكَلَّمُ بِمَا يَسْمَعُ، وَيُعَلِّنُ لَكُمْ الْأُمُورَ لِآتِيَةٍ. ١٤ ذَلِكَ سَيَمَجِّدُنِي، لِأَنَّهُ سَيَأْخُذُ مِمَّا لِي وَيُعَلِّنُهُ لَكُمْ.

١٥ جَمِيعُ مَا لِلآبِ هُوَ لِي. لِذَلِكَ قُلْتُ إِنَّهُ يَأْخُذُ مِمَّا لِي وَيُعَلِّنُهُ لَكُمْ". (يوحنا ١٦)

وقد ترجمت هذه الكلمة اليونانية (Paraqletos) باعتبارها تعني "المؤيد" أو "المحامي" أو "المعزي". أو "المعين" ولكن الباحث فراس السواح يقول: "هنالك من الباحثين من يعتقد أن كاتب الانجيل يوحنا لم يستعمل في الأصل كلمة (Paraqletos) وانما استعمل كلمة بيرقليط (Periqlytos) المشتقة في اللغة اليونانية القديمة من جذر يفيد معنى التمجيد والحمد والثناء، وأن الخلط بين الكلمتين قد جرى فيما بعد على أيدي النساخ، فاذا كان الأمر كذلك فان الكلمتين الانجيلية والقرآنية (ورسول يأتي من بعدي اسمه أحمد) تتفقان في المعنى".

ولكن التأمل في الدور النبوي الكبير الذي يعطيه المسيح للمعين الذي يأتي من بعده، يفيد بأنه أكبر من دور المحامي أو المعزي أو المؤيد أو المعين،

وانما هو أقرب الى دور (النبي الذي يقدم للعالم دليلا على الخطيئة والبر والدينونة، روح الحق الذي يرشد الى الحق والذي لن يتكلم من تلقاء ذاته، بل يتكلم بما يسمع)

وهناك آية في التوراة يبشر النبي موسى فيها بنبي يأتي من بعده، وهي:

• "يقيم الرب إلهكم نبيا من بينكم من إخوتكم بني قومكم مثلي، فاسمعوا له". (تثنية، ١٥: ١٨)

وقد أولها اليهود بالنبي (إيليا) بينما أولها المسيحيون بالنبي عيسى، وأولها المسلمون بالنبي محمد (ص).

الفصل العاشر: الصراع الفكري بين الفرق المسيحية

بناء على الاختلاف حول كيفية ولادة النبي عيسى، بصورة طبيعية أو غير طبيعية، اختلف المسيحيون فيما بعد، فقال عامة المسيحيين بولادة عيسى من مريم العذراء، ثم اختلفوا حول كيفية حمل أمه به، فقال فريق منهم – كما رأينا – بأن الملاك جبرئيل ظهر لها، وقال لها: إنها ستحمل بقوة الروح القدس، أو أن الإله حل بها، وأن عيسى روح الله وكلمته.

يسوع الكلمة روح الله

وتبنى يوحنا في إنجيله فكرة الأصل السماوي ليسوع باعتباره تجسيدا للكلمة، والقول بعقيدة "الابن" الذي كان عند الله منذ الأزل: "في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله... والكلمة صار جسدا وحل بيننا ورأينا مجده مجدا كما لوحيده من الأب مملوء نعمة وحقا". (يوحنا 3:

17-13)

وأطلق يوحنا على يسوع لقب "الابن" وأضفى عليه مسحة إلهية غير بشرية، ونسب إليه القول: "أنتم من أسفل أما أنا فمن فوق، أنتم من هذا

العالم أما أنا فلست من هذا العالم" (يوحنا 8:23).

ولكن "الأبيونيين" (وهم فرقة مسيحية قديمة عرفت بالمساكين) قالوا بأن عيسى نبي عظيم من الأنبياء، جاءه الوحي بعد معموديته على يد يوحنا المعمدان، بعد أن بلغ الثلاثين، وأنكروا القول بألوهيته، أو بنوته لله، ورفضوا أن يعتبروه "كلمة الله" (اللوغوس) وقالوا: بأن "المسيح المبدأ الأزلي" دخل يسوع يوم عماده، وفارقه يوم استشهاده. وتبنى آراء هذه الفرقة معظم رهبان قمران، بعد خراب هيكل أورشليم، فهاجروا الى الحجاز، وانتمى اليهم بعض القبائل العربية.

ثنائية الناسوت واللاهوت

ثم ابتدع بطرك أنطاكيا بولس فكرة ثنائية اللاهوت والناسوت في شخصية النبي عيسى، فقال: "إن سيدنا المسيح خلق من اللاهوت، إنسانا كواحد منا في جوهره، وإن ابتداء الابن من مريم، وإنه اصطفى ليكون مخلصا للجوهر الإنسي، صحبته النعمة الإلهية، فحلت فيه المحبة والمشيئة، ولذلك سمي ابن الله".؟؟؟؟

ثم انتشرت أفكار إلهية المسيح وعبادته، في القرون اللاحقة، بناء على تأويل كلمة "الأب" و"الابن" الواردة في بعض الأناجيل: "باسم الأب والابن والروح القدس" فتصدى لها أريوس أسقف كنيسة بوكاليس في الاسكندرية (250-336) وقال بقوة وصراحة: "القديم هو الله، والمسيح مخلوق، والأب وحده الله الفرد الصمد، والابن مخلوق مصنوع، وقد كان الأب إذ لم يكن الابن". ونقل الشهرستاني عن أريوس قوله: "أن الله واحد سماه آبا وإن المسيح كلمة الله وابنه على طريق الاصطفاء وهو مخلوق قبل خلق العالم".

ولكن ذلك لم يعجب البابا الكسندروس بابا الاسكندرية وأسقف قرطبة الأنبا أوسوريوس فطلبا من الملك قسطنطين الكبير أن يعقد "مجمعا مسكونيا" أي عالميا، للرد على آراء أريوس، فوافق الملك وأرسل منشورا الى جميع الأساقفة في المملكة ليستدعيهم للاجتماع في مدينة (نيقية) التي تقع في

ولاية (بيثينية) فذهب 318 أسقفاً من كل أنحاء العالم المسيحي. وحضر أريوس وأتباعه، فعقدوا اجتماعاً في سنة 325 بحضور الملك، ودارت المناقشات فيما بينهم. ووقف أريوس شارحاً رأيه: "إن الإبن ليس مساوياً للأب في الأزلية، وليس من جوهره، وإن الأب كان في الأصل وحيداً فأخرج الإبن من العدم بإرادته، وإن الأب لا يرى ولا يكشف حتى للإبن، لأن الذي له بداية لا يعرف الأزلي، وإن الإبن إله لحصوله على لاهوت مكتسب" أي على صفة إلهية. فحدث ضجيج بين القساوسة، وصادق الأغلبية على قرار حرم أريوس وأتباعه، وأمر الملك بنفيه وحرق كتبه وإعدام من يتستر عليها.

وأصدر المجمع البيان التالي:

- "نؤمن بالله الواحد الأب مالك كل شيء... وبالابن الواحد يسوع المسيح ابن الله الواحد بكر الخلائق كلها، الذي ولد من أبيه قبل العوالم كلها، وليس بمصنوع، إله حق من إله حق، من جوهر أبيه الذي بيده اتقنت العوالم وخلق كل شيء من أجلنا، ومن أجل معشر الناس، ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد من روح القدس، وصار إنساناً، وحبل به وولد من مريم البتول، وقتل وصلب أيام فيلاطوس، ودفن، ثم قام في اليوم الثالث، وصعد إلى السماء، وجلس عن يمين أبيه، وهو مستعد للمجيء تارة أخرى بين الأموات والأحياء. ونؤمن بروح القدس الواحد روح الحق الذي يخرج من أبيه، وبعمودية واحدة لغفران الخطايا".
- وقال البابا بطرس أسقف الإسكندرية (311 م): "إن الله الكلمة (اللوغوس) صار جسداً، وولد من رحم العذراء".

وكان البابا أثناسيوس الرسولي (373 م) يستخدم تكراراً وبدون تردد تعبير "والدة الإله" ويقول: "حيث أن الجسد وُلد من (حاملة) والدة الإله، لذلك فإننا نقول أنه (أي اللوغوس) كان هو نفسه مولوداً من مريم". وهكذا قال أسقف روما البابا يوليوس (337م): "لا يوجد إبنين، واحد حقيقى لبس إنساناً وآخر لبسه الله، ولكن إله وحيد الجنس في السماء، وإله وحيد الجنس على الأرض".

"النساطرة"

وهذا ما أثار امتعاض بطريرك القسطنطينية نسطور (451 م)، الذي رفض ذلك البيان والاعتراف بعقيدة (ثنائية الطبيعة) التي أقرها مجمع أفسس، سنة 431 م وقال: "بأن يسوع المسيح مكوّن من طبيعتين أو جوهرين منفصلين،

وهما : جوهر إلهي وهو الكلمة، وجوهر إنساني أو بشري وهو يسوع، ولكن لا يوجد اتحاد بين الطبيعتين الإلهية والبشرية في شخص يسوع، كما يقول "الملكانيون" ، بل هناك مجرد صلة بين الإنسان والإلوهة، وبالتالي لا يجوز إطلاق اسم "والدة الإله" على مريم العذراء، التي لم تلد إلها بل إنسانا فقط، حلت عليه كلمة الله أثناء العماد وفارقتة عند الصليب. وفضل استعمال عبارة "والدة المسيح". وقام نسطور بتفسير الأناجيل تفسيراً جديداً أقرب إلى التوحيد، فقال: إن الله تعالى واحد ذو أقانيم ثلاثة: الوجود والعلم والحياة، وهذه الأقانيم ليست زائدة على الذات، ولا هي هو، واتحدت الكلمة بجسد عيسى لا على طريق الامتزاج ، ولا على طريق الظهور به ، ولكن كإشراق الشمس في كوة على بلورة، وكظهور النقش في الشمع إذا طبع بالخاتم. وقال: إن القتل وقع على المسيح من جهة ناسوته لا من جهة لاهوته، لأن الإله لا تحله الآلام".

وأضاف نسطور: "إن اتحاد يسوع بالإله هو في الحقيقة اقتران أو مصاحبة أو ازدواج ، وإذا كان يمكن أن يسمى اتحاداً فهو اتحاد أدبي أو أخلاقي أو بالأحرى هو اتحاد خارجي، وليس اتحاد حقيقياً ثابتاً، وإنما هو اتحاد أقرب ما يكون إلى نوع من التآلف بين كائنين مميزين في طبيعتهما وجوهرهما. ورفض نسطور فكرة أن الإله صار إنساناً ، وأن الإله تنازل ليولد كإنسان. وقال بأن المسيح هو في الحقيقة "إنسان لابس الإله" أو " إنسان ملتحق بالله ". وهو في هذه الحالة : إنسان أولاً ، ثم نال نعمة خاصة من الإله "فسرَّ الإله به " وسكن فيه ، فهو إنسان الإله فيه ، وبكلمة أخرى إن المسيح إنسان محمول بالإله أو ملهم بالإله. فالمسيح ليس هو الإله المتأنس، وإنما هو إنسان ملتحق بالإله، وهو والحالة هذه لا يكاد يفترق كثيراً عن إنسان تقى أو قديس. وليس هو الإله عينه".

وأدى ذلك الاختلاف في تعريف المسيح إلى انشقاق الكنيسة المسيحية إلى فرقتين مغالية ومعتدلة:

الأولى: كنيسة روما (بزعامة بابا روما وبابا الاسكندرية كيرلس) وأورشليم وأفريقيا وآسيا الصغرى.

الثانية : كنيسة أنطاكية التي انحازت إلى نسطور.

ونتيجة لكل هذه الخلافات قرر الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني (450م) عقد مجمع مسكوني آخر في مدينة أفسس يوم عيد العنصرة عام 434 م ، وأمر بإرسال الدعوة لجميع أساقفة المسكونة (العالم) في ذلك الوقت لحضور ذلك

المجمع، بمن فيهم أسقف الإسكندرية كيرلس (444م).
وحضر المجمع حوالي 200 أسقف، من الفريق المخالف لنسطور، وصدر الحكم ضده، حيث اتهموه بالنفاق ونشر عقائد لا توافق "الإيمان الصحيح"، وقرروا باسم "يسوع المسيح الذي جدف عليه" فصله من الأسقفية ومن كل شركة كهنوتية، وحرمانه. وأطلقوا عليه لقب "يهوذا الثاني أو الجديد" كناية عن يهوذا الذي غدر بيسوع.

وبناء على ذلك قرر الأمبراطور تحديد إقامة نسطور في ديريه الذي ترهبين فيه في أنطاكية، وعندما واصل بث آرائه بين رهبان ذلك الدير، قام الامبراطور بنفيه إلى البتراء (الأردن) على حافة شبه الجزيرة العربية، ثم نفاه إلى بتوليمائيس ptolemais التي كان يرسل إليها المجرمين. ثم قرر الإمبراطور نفيه إلى إخميم بصعيد مصر عام 435 م. ثم نفاه أخيرا إلى الواحات المصرية المنعزلة تماما عن العالم الخارجي. وأصدر الأمبراطور قانونا قضى بتحريم تعاليم نسطور وحرق كتبه وكل مؤلفاته.

وبعد صراعات ونقاشات حادة بين القساوسة، أصدر الامبراطور "مركيان" عام 451م قرارا بعقد مجمع عام في (خلقيدونية) القريبة من القسطنطينية، حيث أعلن القساوسة القرار القاضي بثنائية طبيعة المسيح، أي أن المسيح ذو طبيعة مزدوجة إلهية وأخرى إنسانية. فأطلق عليهم إسم "الملكانية" أو "الملكيين" نسبة الى الملك "مركيان" الذي رعى الاجتماع. وكما يقول الشهرستاني فان هؤلاء يعتقدون: أن "الكلمة" اتحدت بجسد المسيح وتدرعت بناسوته، ويعنون بالكلمة: أقنوم العلم، ويعنون بروح القدس: أقنوم الحياة. ويقولون: إن المسيح ناسوت كلي لا جزئي وهو قديم أزلي من قديم أزلي، وقد ولدت مريم إلها أزليا، والقتل والصلب وقع على الناسوت واللاهوت معا، وأطلقوا لفظ الأبوة والبنوة على الله والمسيح.

ورغم المحاربة الملكية لأفكار نسطور، وحرمانه ونفيه، إلا أن "النسطورية" لم تمت، إذ انتشرت في مدرسة شهيرة اسمها إديسا Edessa في "الرها"، حيث تبنى معلموها وتلامذتها تعاليم نسطور ونشطوا في نشرها. وقد أغلق الأمبراطور زينو هذه المدرسة اللاهوتية المشهورة في سنة 489 م فهرب تلامذتها إلى مدينة نصيبين (شمال شرق سوريا) ومعهم بعض الكهنة، وهناك

شيدوا لهم مقراً وعينوا رئيساً عليهم أطلقوا عليه لقب كاثوليکوس "جاثليق".
ونال "النساطرة" مساندة ملك الفرس، لأنهم كانوا من المغضوب عليهم من
أباطرة بيزنطة. فانتشرت مدارسهم وإرسالياتهم انتشاراً سريعاً فى بلاد الفرس
ووصل تبشيرهم إلى الهند وامتدوا حتى الصين.

"اليعاقبة"

وبالرغم من أن القول بثنائية الطبيعة كان ينطوي على غلو في المسيح، إلا
أن فريقاً آخر لم يعجبه ذلك وتطرف في غلوه أكثر، فرفض الإيمان بـ
"طبيعتين" للمسيح وأصر على "الطبيعة الواحدة للإله الكلمة المتجسد". كما
فعل المطران السرياني يعقوب البرادعي (-578) الذي أسس الكنيسة
"اليعقوبية" الشرقية، التي انتشرت في الشام ومصر والحبشة ونجران في
جنوب الجزيرة العربية. وعرف أتباعه "باليعاقبة". وحسبما يقول
الشهرستاني في (الملل والنحل) فإن أصحاب يعقوب قالوا بالأقانيم الثلاثة،
وقالوا: بأن الكلمة انقلبت لحما ودما فصار الإله هو المسيح، وهو الظاهر
بجسده، بل هو هو.

المسيحية في الجزيرة العربية عند ظهور الاسلام

وعندما ظهر الاسلام كانت المذاهب النصرانية المختلفة (الملكانية،
والنسطورية واليعقوبية) تنتشر في شمال الجزيرة العربية وجنوبها، وحتى
في مكة والمدينة. وقد التقى النبي محمد في رحلته الى الشام مع عمه أبي
طالب، عندما كان بعمر الثانية عشرة، بالراهب النسطوري المعروف (بحيرى)
في بصرى الشام.

وحسبما يقول اليعقوبي في تاريخه: فقد تنصر قوم من قريش من بني
أسد. ومن أبرز هؤلاء كان ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي
(ابن عم خديجة بنت خويلد، زوجة النبي محمد) وهو - كما يقول ابن
إسحاق- كان على دين موسى ثم صار على دين عيسى. وكان ورقة أحد من
اعتزل عبادة الأوثان في الجاهلية، وطلب الدين، وقرأ الكتب، وامتنع عن أكل

الميتة، وما يذبح للأوثان. وهذه محرّمات حرمت في مجمع أورشليم الرسولي المعقود عام 49 م. وكان إذا قضى جواره من شهره ذلك، كان أول ما يبدأ به إذا انصرف قبل أن يدخل بيته، الكعبة، فيطوف بها سبعا ثم يرجع الى بيته، كما هو حال النصارى، بعد صيامهم الأربعين، يحتفلون بعيد الشعانين، ويطوفون حول كنائسهم سبع مرات. ولا تذكر المصادر التاريخية أي مذهب نصراني كان ورقة بن نوفل يتبنى، وماذا كان يعتقد بدقة حول النبي عيسى ومولده وطبيعته وصلبه وقيامته، ولكننا يمكننا التكهن بانتمائه الى الفرقة "الأبيونية" التي كانت تنكر ألوهية المسيح وبنوته لله، وترفض قيامته وصلبه رفضا قاطعا، وتؤمن برسالة يسوع القائمة على التعليم والتبشير دون الفداء والخلص، وذلك من خلال الروايات التي تقول بأن ورقة "كان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب".

و"الانجيل العبراني" أو "الانجيل بالعبرانية" أو "الانجيل بحسب العبرانيين" هو إنجيل الفرقة "الأبيونية" أي "إنجيل متى الأرامي" مع بعض الاختلاف، وهو الإنجيل الذي لا يعترف به آباء الكنيسة التقليديون ويعتبرونه "منحولا". ويبدو أن هذا هو الانجيل الذي كان بحوزة ورقة، والذي كان يقوم بتعريبه، مما يرجح انتماء ورقة الى نفس الفرقة. وبناء على ذلك يقول الأب (موسى الحريري) مؤلف كتاب "قس ونبي" بأن "ورقة" كان رئيس كنيسة الأبيونيين في مكة. وإن الإنجيل الذي كان بين يديه هو (الانجيل العبراني) الخاص بالشعبة الأبيونية.

وهذه الفرقة – كما يقول القس يوسف درة الحداد-: عُرِفَت في علم الكلام والسيرة باسم "الفرقة الاسرائيلية" مقابل الفرق المسيحية الأخرى (الملكانية واليعقوبية والنسطورية). وإنها تختلف عن اليهود والمسيحيين بأنها تؤمن بالمسيح ولا تغلو فيه، على العكس من اليهودية التي تكفر بعيسى المسيح، والمسيحية التي تغلو في أمره، فهي أمة وسط بين اليهودية والمسيحية، وهي تقيم التوراة والانجيل معا، بخلاف المسيحيين الذين يكتفون بأحكام الإنجيل

وحدها، بناء على قرار مؤتمر الرسل عام 49 م الذي تخلى فيه المسيحيون عن التعاليم اليهودية كالاتزام بالسبت والختان وتحريم الخنزير. ويقول الحداد: بأن هذه الفرقة هي "الطائفة النصرانية الاسرائيلية" التي يمدحها القرآن بقوله: "ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون" (الأعراف 158).

الباب الثاني: الصابئة والمجوس، عشية ظهور الاسلام

الفصل الأول: الصابئة

يشترك اسم "الصابئة" من اللغة الآرامية، ويعني: التعميد والارتماس بالماء.

وحسبما نقرأ في كتبهم وكتب المسلمين عنهم فإنهم يؤمنون بالله وأنه واحد لا تلحقه صفة، ويؤمنون بالأنبياء ويوم القيامة والحساب والجنة والنار والصراف والميزان. والملائكة، ويتوضؤون (ويسمون الوضوء: رشامة) ويصلون ثلاث صلوات، ويتجهون في صلاتهم نحو القطب الشمالي، ويصومون، ويزكون، ويغتسلون من الجنابة والحيض ومس الميت، ويحرمون أكل الخنزير وينهون عن السكر في الشراب وعن الاختتان. ويذكرون الله عند الذبح.

وكما قال الشهرستاني في (الملل والنحل) فإن مذهب الصابئة الحرائين يقوم على أساس أن للعالم صانعا مقدسا أزليا لا يمكن التوصل الى جلاله وإدراك ماهيته، وإنما يتقرب اليه من خلال الروحانيين المقدسين جوهرًا وفعالًا وحالة. ويتطلب هذا تطهير الأنفس عن دنيات الشهوات والتضرع والابتهاال بالدعوات وإقامة الصلوات وبذلك الزكوات. والقوى النورانية تستمد القوة من الإله الأعلى وتفيضها على الموجودات السفلى.

و"يرون في "الشمال" البقعة الأقرب الى عالم النور، وفي هذه البقعة بالذات جبل مقدس يأتي منه الوحي، ومنه ينبع وينحدر الماء الحي، وبعيدا في الجنوب تقع مملكة الظلام".

وينسب الصابئة (المندائيون) تأليف كتابهم "الكنزا" الى آدم. ويقولون: نحن ورثة آدم. ولديهم كتب أخرى أهمها: "دراشة ديهيا" و "كتاب الطقوس الدينية".

وينزلون النبي شيت ابن آدم (ويدعونه شيتل) منزلة خاصة، ويصفه أدبهم بصفات رفيعة، وطبقا لما جاء في "الكنزا" فإن (شيت) تحول الى كائن أثيري (روحاني) وأحد الثلاثة الذين يشفعون للمندائيين. ولذلك يذكرونه أثناء التعميد مع هيبيل وأنش كحراس للمعبد. ويجاهرون بتسمية أنفسهم بأتباع شيتل أو شيت، حتى أن المؤرخ والجغرافي الاسلامي ياقوت الحموي (1179-1229) كتب في (معجم البلدان) عن سكان مدينة الطيب أنهم لا يكفون عن الافصاح أنهم على دين شيت .

وذكر ابن النديم في الفهرست: انه اطلع على مخطوطة قديمة تقول ان الصابئة آمنوا بإبراهيم وحملوا عنه الصحف التي أنزلها الله عليه.

وللنبي يحيى بن زكريا مقام كبير لديهم، حتى حسبهم الناس أنهم أتباع دين يحيى، فان من كتبهم المقدسة: كتاب يحيى (دراشا ديهيا) ويضم مجموعة التراتيل والنصوص التي تتحدث عن يحيى ونشأته وهجرة (الناصرانيين) من فلسطين الى الفرات. وهو يتضمن 37 قطعة تدور حول حياة يحيى المعمدان وتعاليمه. وتتحدث الرسالة 18 عن ميلاد يحيى بصورة إعجازية، بعد أن بلغت والدته اليصابات (انشباي) الثامنة والثمانين (كما يذكر القرآن الكريم). والصابئة يعتقدون أن يحيى بالذات هو الذي حدد الصلوات بثلاث يوميا بعد أن كانت خمسا من قبل. وقد ألف أحد الصابئة في بداية العهد الاسلامي الأول "ديوان حران كويته" واستعرض فيه تاريخ

الصابئة (المندائية) منذ أيام يحيى.

ورغم تعظيم الصابئة ليحيى وذكر اسمه في الصلوات والتضرعات اليومية (البراخة) أسوة بأسماء الملائكة والأسماء المقدسة الأخرى لديهم.. وقولهم: (السلام والنزاهة لك أيها الملك يهيا يهانا) إلا أنهم – كما يقول الكاتب الصابئي عزيز سباهي: " لا يزعمون بأن دينهم أو شعائرهم قد جاء بها يوحنا، بل ان كل ما نسب اليه أنه كان معلما عظيما رسولا "شليبه" جاء لينفذ مهمة خاصة باسم الرب".

وإذا اعتبرنا إيمان الصابئة بآدم وشيت وإبراهيم كأنبيا سابقين، طبيعيا فإن إيمانهم بالنبي يحيى وتعظيمهم له يعتبر ثورة على التراث اليهودي، إذ يحملون اليهود مسؤولية قتل يحيى، ويعتقدون أن تدمير اورشليم وتشتيت اليهود على أيدي الرومان إثر ثورة اليهود الأولى عام 66 م جاء انتقاما من الله على قتلهم يحيى الانسان الطيب الورع.

وفي حين لا نجد في تراث الصابئة أية اشارة إيجابية الى أنبياء بني اسرائيل منذ موسى، فإنهم أيضا لا يكونون أي ود للنبي عيسى ولا يعترفون به، ويشكك الأدب الصابئي (المندائي) بوصف يسوع بالمسيح، بل يرى فيه مسيحا دجالا. ويعتقدون بأن يحيى هو المسيح. وهذا الخلاف يعود الى تلك الفترة الأولى التي حدث فيها الخلاف بين أتباع يحيى وعيسى.

طائفة غنوصية منطوية.. افكار سرية

ورغم كل هذه المعلومات التي حصل عليها المسلمون وغيرهم عن الصابئة، إلا ان الغموض لم يزل ولا يزال يلف عقيدتهم، ولا سيما بعد ادعاء الحرثانيين أنهم صابئة، وذلك عندما مر الخليفة العباسي المأمون على حران في طريقه لحرب الروم، فسألهم من أنتم؟ هل يهود؟ أو نصارى؟ ما هو كتابكم، فاتهمهم بالزندقة وعبادة الأوثان، حسب رواية ابن النديم في الفهرست عن يوسف القطيعي النصراني. وتوعدهم بالاستئصال والقتل عند عودته من الحرب، أو

إعلانهم الاسلام، ورفض أخذ الجزية منهم، فأسلم بعضهم وتنصر بعضهم وأعلن بعض آخر أنهم صابئة.

وبما أن الحرنانيين كانوا يقيمون نصبا وتمثيل للكواكب، فقد اتهم الصابئة بصورة عامة بعبادة الكواكب والنجوم، واتهموا بأنهم وثنيون، كما يقول الشهرستاني: " إنهم تحدثوا عن الكواكب والأفلاك ونسبوا إدارتها والإشراف عليها الى القوى النورانية، وان الانفعالات في الطبايع والعناصر تنجم عن حركة هذه الأفلاك".

ولا شك أنهم كانوا ولا يزالون يتبرأون من هذه التهمة، بيد أن قولهم بالإله الأعلى، ونسبة الخلق إلى آلهة أدنى يلقي بظلال من الشك على عقيدتهم التي يحرصون على تغليفها بالسرية والغموض.

يقول الباحث الصابئي (المندائي) العراقي عزيز سباهي: "ان المندائية، كطائفة غنوصية، تلجأ في كتاباتها الى لغة الرمز والتأويل، فالمندائيون في سردهم للميثولوجيا التي يؤمنون بها يلجأون الى المقولات والصفات العامة والمعاني المجردة تارة والى تشخيصاتها تارة أخرى". ويضيف: "ان المندائيين شديدا الانطواء على أنفسهم، وهم عدا عن كونهم أصبحوا في عهد ما لا يبشرون بدينهم، كانوا لا يسمحون باطلاع غيرهم على كتبهم الدينية، بل وان رجال الدين منهم كانوا يحولون دون اطلاع حتى عامتهم على بعض كتبهم الدينية، ويقصرون تداولها على رجال الدين وحدهم، ولديهم أسرار دينية لا يجيزون إفشاءها إلا للمستويات العليا من كهنتهم، وتشدد كتب الطقوس في تعليماتها لرجال الدين على تلاوة بعض النصوص بصوت خافت حتى لا يسمعها من يمارس الطقس الديني له.

وبما أن الحرنانيين كانوا يقيمون نصبا وتمثيل للكواكب، فقد اتهم الصابئة بصورة عامة بعبادة الكواكب والنجوم، واتهموا بأنهم وثنيون، كما يقول الشهرستاني: " إنهم تحدثوا عن الكواكب والأفلاك ونسبوا إدارتها والإشراف عليها الى القوى النورانية، وان الانفعالات في الطبايع والعناصر تنجم عن

ويكشف عزيز سباهي عن التأثيرات البابلية على الصابئة فيقول: "لا شك أن الفلك البابلي وما دار حوله من معتقدات ظل حيا في الأذهان لفترة طويلة، وحافظ الناس على الاعتقاد بتسلكات الأفراد وأمزجتهم. وظلت حران بالذات أحد أهم المراكز في أبحاث الفلك ومعارفه... لذلك من غير المؤلف أن لا تتأثر معتقدات المندائيين بمخلفات المعتقدات البابلية بشأن الكواكب والبروج والفلك عامة. ان المندائيين بفكرهم الغنوصي الذي يحمل كثيرا من البصمات البابلية، وبأساطيرهم التي تقارب الأساطير البابلية.. ما كانوا ليجدوا غضاضة في معتقداتهم بشأن الكواكب والبروج... إن أدبهم الديني ملئ بالاشارة الى "السبعة" و"الاثني عشر" وما يرتبط بها من شرور، فأدبهم الديني يصف الكواكب والشمس والقمر كأجرام سماوية تركز اليها أرواح شريرة والى جانبها أرواح نورانية موكول لها أن تراقب سلوك الأرواح الشريرة وتتدخل في النهاية لفرض إرادة ملك عالم النور "ملكه د نهورا" "الحي" الأعلى، إله الكون".

ويقول: إن "رجال الدين حتى اليوم يسعون الى استطلاع ما يحمله الغيب في كل عام في واحد من أعيادهم السنوية، استنادا الى حسابات "فلكية" أوردها كتابهم "أسفر ملواشه".

الفصل الثاني: المجوس أو الزرادشتية

"المجوس" أو "الزرادشتية" هم أتباع نبي يقال له (زرادشت) ولد في أذربايجان، أو صحراء توركمان، بين 1200 و 1400 ق.م، وتبلور دينه حوالي القرن السادس قبل الميلاد، وله كتاب يسمى "أوستا" (أو أفستا Avesta) أي القانون، أو الأساس. وقد أحرق الاسكندر المقدوني عند غزوه لبلاد فارس هذا الكتاب، ثم جمع المجوس أجزاءه ثانية في العهد البارثي والساساني. ولكنهم فقدوه مرة أخرى بعد الفتح الاسلامي، ولا توجد منه اليوم سوى أربعة أجزاء

فقط من أصل واحد وعشرين جزءا.

وكانت المجوسية الدين الرسمي للإمبراطوريات الأخمينية والبارثية والساسانية. ويعتبرها البعض أقدم ديانة توحيدية تدعو الى عبادة إله واحد هو (أهورا مزدا) أي الحكمة المضيئة، وهي تؤمن بالآخرة والجنة والنار، وتعتبر النار أداة من أدوات طقوس الطهارة الروحية. وكما يقول الشهرستاني فان "المجوس إنما يعظمون النار لمعان فيها، منها أنها جوهر شريف علوي، ومنها أنها ما أحرقت الخليل ابراهيم عليه السلام، ومنها ظنهم أن التعظيم لها ينجيهم في المعاد من عذاب النار. وبالجملة هي قبلة لهم، ووسيلة وإشارة، والله أعلم".

وربما يتهم بعض فرق المجوس بعبادة النار أو القول بالثنوية (إله النور وإله الظلام) وذلك بعد تشعب الدين المجوسي ووقوع بعض مذاهبه في الشرك بعيداً عن النصوص الأولى.

ويتحدث المجوس عن إلقاء أحد الملوك نبينهم (زرادشت) في النار، تماما كما حدث للنبي إبراهيم الخليل، وعدم إحراق النار له. وقد ذهب المستشرق توماس هايد (1700م) في كتابه (تاريخ أديان الفرس والبارثيين والميديين) الى أن زرادشت دعا الى الوجدانية المطلقة، وهو رسول مرسل من قبل الإله الأعظم، لينقل الى الإيرانيين القدماء وصايا إبراهيم الخليل، ولكن اليونانيين شوهاوا تعاليمه وعرضوها كأنها تدعو الى الاعتقاد بألهة متعددة. ويقول الشهرستاني: عندما بلغ زرادشت ثلاثين سنة بعثه الله تعالى نبيا رسولا الى الخلق. فدعا (كشتاسب) الملك فأجابه الى دينه، وكان دينه: عبادة الله، والكفر بالشيطان، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واجتناب الخبائث.

وتكاد صلاة المجوس تشابه صلاة المسلمين في أوقاتها فهم يصلون باليوم خمس مرات: عند شروق الشمس، وعند الظهر، وعند المغرب، ومنتصف الليل (كصلاة العشاء) والفجر، ويصلون وقوفا، وهم يربطون زنارا مقدسا حول وسطهم، وتسبق الصلاة طهارة، وهي عندهم سلاح ضد الشر، لأن مصدر التلوث هو "أنكرا مينو" كما يقولون.

ويعتقد المجوس بظهور رجل في آخر الزمان يقال له (أشيزريكا) أي (الرجل العالم) الذي يملأ العالم قسطا وعدلا، ويقضي على الجور ويغير السنن المغيرة الى أوضاعها الأولى، وتنقاد له الملوك، وتيسر له الأمور وينصر الدين والحق، ويحصل في زمانه الأمن والدعة، وسكون الفتن وزوال المحن. وهي

عقيدة تشبه عقيدة المسلمين في المهدي المنتظر.

وكانت هذه الديانة (المجوسية) تنتشر، عند مجئ الإسلام، في بلاد فارس والعراق وشرق الجزيرة العربية والبحرين واليمن.

ملاحظة: لا بد من الحديث عن الكهانة والعرافة قبيل الاسلام عند العرب ومفهوم النبوة عندهم

الباب الثالث: المجتمع العربي عشية النبوة: الأحناف والمشركون

الفصل الأول: أساطير المشركين الأوائل

الفصل الثاني: الأحناف

الحنيفية بقية دين إبراهيم؟

الأحناف ورفض عبادة الأصنام

الفصل الثالث: المشركون عشية ظهور الإسلام

الحنيفية بقية دين إبراهيم؟

تقول الرواية التوراتية: إن النبي إبراهيم تأخر في الإنجاب من زوجته سارة، التي قدمت له بعد بلوغها سن اليأس، جاريتها هاجر فأنجب منها ابنه البكر إسماعيل، فطلبت منه أن يذهب به وبأمه بعيدا عنها، فأخذ إبراهيم هاجر وابنها الى بئر السبع في جنوب فلسطين وتركهما مع الأعراب في البرية. بينما تغفل الرواية القرآنية هذه التفاصيل، وتكتفي بالإشارة إلى أن إبراهيم ترك ذريته بواد غير ذي زرع: "ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم، ربنا ليقيموا الصلاة، فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون". (إبراهيم، 37) وتعود لتؤكد موضوع الذبح والفداء في سورة (الصافات 99-112) ثم تتحدث عن موضوع بناء البيت (الكعبة): "وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم" (البقرة، 127)

وفيما يتفق القرآن مع الرواية اليهودية بتسلسل النبوة والأنبياء في ذرية إسحاق بن إبراهيم من سارة، ونشوء الدينين اليهودي والمسيحي في تلك الذرية، يغفل القرآن والتراث اليهودي أي ذكر لوجود أي نبي في ذرية إسماعيل. بل يؤكد

القرآن عدم إرسال أي نبي للعرب. ومع ذلك فقد ظلت الكعبة رمزا وشاهدا على دين إبراهيم التوحيدي، طوال أكثر من ثلاثة آلاف عام، حتى ظهور النبي محمد. وبالرغم من عدم تبلور دين واضح متكامل أو استمراره في ذرية إسماعيل وقومه من العرب، كتبلور الدين اليهودي، فإن الدين الإبراهيمي – الإسماعيلي حافظ على مبدأ التوحيد، أكثر مما حافظ عليه اليهود الذين لوثوا رسالة الأنبياء التوحيدية بكثير من عقائد الوثنيين حتى أنهم ادعوا قيام بعض الأنبياء كسليمان بالميل لعبادة الأوثان.

ولا نعرف بالضبط متى تعرض التوحيد الإبراهيمي العربي الإسماعيلي الى الاختراق الوثني، ولكن المؤرخ هشام الكلبي (204هـ) ينقل لنا حكاية قديمة متناقلة شفويا بين العرب عن القرون الأولى، حيث يقول: "حدثنا أبي وغيره: أن إسماعيل بن إبراهيم (صلى الله عليهما) لما سكن مكة وولد له بها أولاد كثير حتى ملأوا مكة ونفوا من كان بها من العماليق، ضاقت عليه مكة ووقعت بينهم الحروب والعداوات وأخرج بعضهم بعضا، فففسحوا في البلاد والتماس المعاش. وكان الذي سلخ بهم الى عبادة الأوثان والحجارة أنه كان لا يظعن من مكة (ضاعن) إلا احتمل معه حجرا من حجارة الحرم، تعظيما للحرم وصبابة بمكة. فحيثما حلوا، وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة، تيمنا منهم بها وصبابة بالحرم وحبا له. وهم بعد يعظمون الكعبة ومكة، ويحجون ويعتصرون، على إرث إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام). ثم سلخ ذلك بهم الى أن عبدوا ما استحبوا، ونسوا ما كانوا عليه، واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره، فعبدوا الأوثان، وصاروا الى ما كانت عليه الأمم من قبلهم، وانتجثوا (أي استخرجوا) ما كان يعبد قوم نوح (عليه السلام) منها، على إرث ما بقي فيهم من ذكرها. وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم وإسماعيل يتنسكون بها: من تعظيم البيت والطواف به، والحج، والعمرة، والوقوف على عرفة، ومزدلفة، وإهداء البدن، والإهلال بالحج والعمرة، مع ادخالهم فيه ما ليس منه.

كما ينقل لنا الكلبي قصة أخرى عن تسرب الوثنية الى أهل مكة أنفسهم، في حياة سادن الكعبة عمرو بن لحي الخزاعي، الذي يقال إنه سافر الى الشام واستورد بعض الأصنام ووضعها في الكعبة، ثم انتشرت عبادة الأوثان في الحجاز. فيقول: "كان أول من غير دين إسماعيل عليه السلام، فنصب الأوثان... عمرو بن ربيعة وهو لحي بن حارثة ابن عمرو بن عامر الأزدي، وهو أبو خزاعة... وكان الحارث هو الذي يلي أمر الكعبة. فلما بلغ عمرو بن لحي، نازعه في الولاية، وقاتل جرهما ببني إسماعيل، فظفر بهم وأجلاهم عن الكعبة. ونفاهم من بلاد مكة، وتولى حجابة البيت بعدهم. ثم انه مرض مرضا شديدا فقيل له: إن

باللقاء من الشام حمة إن أتيتها برأت، فأثاها فاستحم بها ، فبرأ، ووجد أهلها يعبدون الأصنام، فقال: ما هذه؟ فقالوا نستسقي بها المطر ونستنصر بها على العدو. فسألهم أن يعطوه منها، ففعلوا، فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة". فلما صنع هذا عمرو بن لحي، دانت العرب للأصنام وعبودها واتخذوها. فكان أقدمها "مناة" ثم اتخذوا "اللات" في الطائف. ثم اتخذوا "العزى". وكان لأهل كل دار من مكة صنم في دارهم يعبدونه". وكانت لقريش أصنام في جوف الكعبة وحولها. وكان أعظمها عندهم هبل.

ومع ذلك ظل العرب في مكة والطائف، يعتقدون أنهم على دين إبراهيم، ولكنهم كانوا بصورة عامة يشركون بالله في عبادة الأصنام التي كانوا يعتقدون أنها تقربهم الى الله زلفى، فكانوا يحجون الى بيت الله الحرام ، ويسمون (باسمك اللهم) ويختتنون نساء ورجالا ويغتسلون غسل الجنابة، إلا أنهم لم يكونوا يؤمنون بالآخرة والجنة والنار. وكانوا يقدمون النذور ويذبحون على النصب تقربا الى الله، حتى ينتصروا على أعدائهم، أو يحصلون على العافية والمال والبنين.

الاحناف ورفض عبادة الأصنام

ورغم سيادة عبادة الأوثان بين العرب فقد برز قبيل ظهور النبي محمد، رجال عرفوا بالاحناف انتفضوا ضد عبادة الأصنام، وآمنوا بالله وحده لا شريك له. قال ابن إسحاق : اجتمعت قريش يوما في عيد لهم عند صنم من أصنامهم، كانوا يعظمونه وينحرون له، ويعكفون عنده، ويديرون به، وكان ذلك عيدا لهم في كل سنة، فخلص منهم أربعة نفر نجيا، ثم قال بعضهم لبعض: تصادقوا وليكنم بعضكم على بعض؛ قالوا : أجل، وهم: ورقة بن نوفل، وعبيد الله بن جحش، وعثمان بن الحويرث، وزيد بن عمرو بن نفيل، فقال بعضهم لبعض: "تعلمون والله! ما قومكم على شئ. لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم، ما حجر- نطيف به؛ لا يسمع ولا يبصر، ولا يضر ولا ينفع؟! التمسوا لأنفسكم (دينا)؛ فأنكم والله! ما أنتم على شئ". فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية، دين إبراهيم. فأما ورقة بن نوفل فاستحکم في النصرانية، وكذلك فعل عثمان بن الحويرث، وفارق زيد دين قومه واعتزل الأوثان وما يذبح على النصب والميتة والدم، وقال: إني أعبد رب إبراهيم، وعاب على قومه ما هم فيه، وكان يقول: " اللهم لو أني أعلم أي الوجوه أحب اليك عبدتك، ولكني لا أعلمه" ثم يسجد على راحلته، وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه حتى أسلم، ثم هاجر مع المسلمين الى الحبشة...

وروى البخاري عن أسماء بنت أبي بكر، قالت: رأيت زيد بن عمرو بن نفيل، قائما مسندا ظهره الى الكعبة يقول: يا معاشر قريش.. والله ما منكم على دين إبراهيم غيري.

ويؤكد الكلبي ذلك بقوله: كان زيد بن عمرو بن نفيل، قد تأله في الجاهلية وترك عبادتها، وعبادة غيرها من الأصنام، وقال: "تركت اللات والعزى جميعا كذلك يفعل الجلد الصبور، فلا العزى أدين ولا ابنتيها ولا صنمي بني غم أزور، ولا هبلا أزور وكان ربا لنا في الدهر إذ حلمي صغير".

وربما كانت بعض الأخبار التي ينقلها ابن سعد وغيره تبالغ في تعظيم زيد، وتبدو عليها علامات الوضع والتطعيم أو الإضافة، كالرواية التي تقول "إنه كان يطلب الدين وقدم الشام فسأل اليهود والنصارى عن العلم والدين فلم يعجبه دينهم، فقال له رجل من النصارى: أنت تلتمس دين إبراهيم، فقال زيد: وما دين إبراهيم؟ قال: كان حنيفا لا يعبد إلا الله وحده لا شريك له، وكان يعادي من عبد من دون الله شيئا، ولا يأكل ما ذبح على الأصنام، فقال زيد بن عمرو: وهذا الذي أعرف وأنا على هذا الدين، فأما عبادة حجر أو خشبة أنحتها بيدي فهذا ليس بشيء. فرجع زيد إلى مكة وهو على دين إبراهيم".

أو رواية عامر بن ربيعة التي يقول فيها: "كان زيد بن عمرو بن نفيل يطلب الدين وكره النصرانية واليهودية وعبادة الأوثان والحجارة، وأظهر خلاف قومه واعتزال آلهتهم وما كان يعبد أبائهم ولا يأكل ذبائحهم، فقال لي: يا عامر إني خالفت قومي واتبعت ملة إبراهيم وما كان يعبد وإسماعيل من بعده، وكانوا يصلون إلى هذه القبلة، فأنا أنتظر نبيا من ولد إسماعيل يبعث ولا أراني أدركه، وأنا أومن به وأصدقه وأشهد أنه نبي، فإن طالت بك مدة فرأيته فأقرئه مني السلام. فلما تنبأ رسول الله، (ص)، أسلمت وأخبرته بقول زيد بن عمرو وأقرأته منه السلام فرد عليه رسول الله، (ص)، ورحم عليه وقال: قد رأيت في الجنة يسحب ذبولا".

وما يروى عن حجير بن أبي إهاب قال: رأيت زيد بن عمرو وأنا عند صنم بوانة بعدما رجع من الشام وهو يراقب الشمس فإذا زالت استقبل الكعبة فصلى ركعة وسجدتين ثم يقول: هذه قبلة إبراهيم وإسماعيل، لا أعبد حجرا ولا أصلي له ولا أذبح له ولا أكل ما ذبح له ولا أستقسم بالأزلام ولا أصلي إلا إلى هذا البيت حتى أموت. وكان يحج فيقف بعرفة، وكان يلبي يقول: لبيك لا شريك لك ولا ند لك، ثم يدفع عن عرفة ماشيا وهو يقول: لبيك متعبدا لك مرقوقا.

فمن هو ذلك الرجل النصراني الذي أرشده الى دين إبراهيم؟ ولماذا لم يتحول هو إليه إذا كان يعتقد به؟ ولماذا كره زيد اليهودية والنصرانية؟ وكيف عرف زيد ملة إبراهيم وإسماعيل في حين لم يعرف بنو هاشم (وهم بنو إسماعيل) والنبي محمد قبل بعثته تلك الملة؟ وعلى أي أساس كانت ينتظر نبيا من ولد إسماعيل؟ وكيف كان يصلي للكعبة، والنبي محمد بدأ بالصلاة باتجاه البيت المقدس؟

في الحقيقة لا يمكننا التحقق من تلك التفاصيل، مع تسليمنا بإمكانية التفكير العقلي الحر الذي يقود أي إنسان الى رفض عبادة الأصنام، ولا سيما في منطقة كمكة والكعبة التي تحتوي على عبق التوحيد الإبراهيمي وتراث إسماعيل، فمن الواضح أن الروايات التي ينقلها الأخباريون هي مرسله بلا سند ويرويها رجال بعد عقود طويلة من الزمن. ويمكننا جمع بعض الروايات الى بعضها لكي نستنتج فكرة قريبة مما حدث، فمثلا يروي ابن سعد (المتوفي سنة 230هـ) بلا سند عن عبد الله بن عمر (المتوفي سنة 73هـ) عن رسول الله أنه لقي زيد بن عمرو بن نفيل بأسفل (بلدح) وذلك قبل أن ينزل على رسول الله الوحي، فقدم إليه رسول الله سفرة فيها لحم فأبى أن يأكل منها ثم قال: إني لا آكل مما تذبحون على أنصابكم ولا آكل مما لم يذكر اسم الله عليه. وكان زيد بن عمرو يعيب على قريش ذبائحهم و يقول: الشاة خلقها الله وأنزل من السماء ماء وأنبت لها الأرض ثم يذبحونها على غير اسم الله - إنكارا لذلك وإعظاما له- لا آكل مما لم يذكر اسم الله عليه.

وهنا نتساءل : هل كان رسول الله يأكل مما لم يذكر اسم الله عليه؟ وهل كان يذبح على النصب؟ بالطبع لا نستطيع أن نثبت ولا أن ننفي ذلك، ولكننا يمكن أيضا أن نستأنس برواية قريبة منها يرويها الكلبي (المتوفي سنة 204هـ) والتي ينقلها أيضا بلا أي سند، ويقول فيها: "قد بلغنا أن رسول الله (ص) ذكرها يوما فقال: لقد أهديت للعزى شاة عفراء، وأنا على دين قومي". وربما يؤيدها أيضا قوله تعالى: "ووجدك ضالا فهدى". (الضحى، 7)

ويذكر المؤرخون اسم أمية بن أبي الصلت شاعر ثقيف، أنه كان أيضا من الحنفاء الذين ثاروا على عبادة الأصنام وآمنوا بالله الواحد واليوم الآخر، وتطلعوا إلى نبي يُبعث من بين العرب، بل إنه هو بالذات كان يرجو أن يكون ذلك النبي. وكذلك خالد بن سنان، الذي يروي أن النبي محمد قال عنه: "إنه نبي ضيعه قومه" وذلك عندما قدم ثلاثة نفر من بني عبس على رسول الله (ص) فسألهم عن خالد بن سنان، فقالوا: لا عقب له، فقال: نبي ضيعه قومه؛ ثم أنشأ يحدث أصحابه حديث خالد ابن سنان.

وإذا كان أمثال زيد وأمّية وخالد موحدّين وحنفاء، فإنهم في الحقيقة لم يكونوا يشكّلون ظاهرة عامّة وإنّما كانوا أفراداً معدودين، في حين كان أهل مكة وقريش

وحتى بني هاشم بصورة عامّة يخلطون إيمانهم بالله ودين إبراهيم بالشرك. وكما يقول الواحدي (468هـ) في (أسباب النزول) فإن النبي محمد عرض الإسلام على عمه أبي طالب عند احتضاره، فأجابه: إنه على دين أشياخه، أو على ملة عبد المطلب (جد النبي). ولم يتلفظ بشهادة التوحيد. يقول: "لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، فوجد عنده: أبا جهل، وعبد الله بن أبي أمّية، فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): يا عم، قل: لا إله إلا الله كلمة أحاجّ لك بها عند الله سبحانه وتعالى. فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمّية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يعرضها عليه ويعاودانه بتلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم به: أنا على ملة عبد المطلب، وأبي أن يقول لا إله إلا الله، فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك، فأنزل الله عز وجل: " مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلِيَا قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ " وأنزل في أبي طالب: " إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ .. "

ويروي الكلبي أن أبا طالب كان يحلف بالصنمين إساف ونائلة، وذلك في أبيات له حين تحالفت قريش على بني هاشم في أمر النبي.

الجزء الثاني:

الباب الأول: استراتيجية النبي محمد في الدعوة للإسلام

مدخل: كيف أصبح محمد (ص) نبياً؟ ما هي طبيعة الوحي النازل إليه؟

نقلنا في فصل سابق صور الوحي المختلفة إلى الأنبياء السابقين، المذكورة في التوراة والتلمود والإنجيل والقرآن، وقد رأينا أن بعضها كان عبارة عن رؤية في المنام، وبعضها كان عبارة عن إلهام خفي، وبعضها مكاملة من قبل الملائكة، وبعضها كان كلاماً مباشراً من قبل الله تعالى للنبي، فكيف كانت طبيعة الوحي النازل إلى النبي محمد (ص)؟ وهل كانت وحياً خفياً؟ أو إلهاماً؟ أو مشافهة من قبل الملك جبرئيل؟

هناك آيات عديدة في القرآن الكريم تخاطب النبي بصورة مباشرة من الله (عز وجل) مثل: "وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان..". ، "نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن، وإن كنت من قبله لمن الغافلين". (يوسف 3) "كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذي أوحينا إليك". (الرعد 30) "فأوحى إلى عبده ما أوحى". (النجم 53) "والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصدقا لما بين يديه". (فاطر 31) "وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها". (الشورى 7)

وهناك آيات أخرى تتحدث عن دور جبرئيل في إنزال الوحي على قلب النبي محمد، كما في الآيات التالية: "وانه لتنزيل رب العالمين، نزل به الروح الأمين، على قلبك لتكون من المنذرين، بلسان عربي مبين". (الشعراء 192 – 195) "قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله...". (البقرة 97) "قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين". (النحل 102)

وإذا فتشنا في القرآن الكريم عن رؤية النبي للملاك جبريل فلا نعثر إلا على آية أو آيتين غامضتين، الأولى: "ولقد رآه في الأفق المبين" (التكوير 23) وقد جاءت بعد عدة آيات يبدو أنها تتحدث عن جبرئيل وهي "إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ، ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ، مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ، وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ" (التكوير 19-22). أما الآية الثانية فهي تتحدث عن رؤية النبي له مرة أخرى "ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى" (النجم 13 – 14) ولكن هذه الآية غامضة وتحتمل تأويلين إذ لا تصرح بالمشاهد هل هو جبرئيل؟ أم الله تعالى؟ ولا بكيفية المشاهدة، بالعين أو الفؤاد. وقد اختلفت الروايات في تفسيرها، فابن عباس يقول:

ان النبي رأى ربه، وأنه رآه بفؤاده مرتين. على عكس السيدة عائشة التي ترفض هذا التأويل وتؤكد أن النبي رأى جبرئيل. وتقول: مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ أَعْظَمَ الْفَرِيَةَ عَلَى اللَّهِ، وَلَكِنْ قَدْ رَأَى جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ، وَخَلْقَهُ سَادًّا مَّا بَيْنَ الْأُفُقِ (متفق عليه) والله يقول: "لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار. وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب". (الشورى، ٥١) إنما هو جبريل رآه مرة على خلقه وصورته التي خلق عليها ، وراه مرة أخرى حين هبط من السماء إلى الأرض سادا عظم خلقه ما بين السماء والأرض ، قالت : أنا أول من سأل النبي (ص) عن هذه الآية ، قال: " هو جبريل عليه السلام". (متفق عليه)

ولكن القرآن لم يحدد في هاتين الآيتين السابقتين مشافهة الملك للنبي وجها لوجه وتكلمه معه بالصوت والصورة في أثناء القاء الوحي أو نص القرآن، وإنما يكتفي بالإخبار بتنزيل الروح الأمين للوحي على قلب النبي، كما لم يذكر القرآن تمثل جبريل بصورة انسان عادي وتحديثه مع النبي، وهو ما تحكيه بعض الروايات التي سنذكرها لاحقا.

ولكن قد يفهم من آية "لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ" أن النبي كان يستمع الى صوت الملك جبريل، وهو ما تحكيه بصراحة رواية ابن عباس، قال: كان رسول الله (ص) يشتد عليه حفظ التنزيل وكان إذا نزل عليه الوحي يحرك لسانه وشفثيه قبل فراغ جبريل مخافة أن لا يحفظ، فأنزل تعالى: (لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ) أي بالوحي والتنزيل والقرآن، وإنما جاز هذا الإضمار وإن لم يجر له ذكر لدلالة الحال عليه، كما أضمر في قوله: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

ويروى عن ابن عباس أيضا: أن جبريل كان يلقي النبي في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن. (متفق عليه).

ويمكن اعتبار الكلمة الأولى التي انزلت الى النبي محمد وهي "اقرأ باسم ربك الذي خلق" دليلا على صدورها من الله بواسطة الملك الذي خاطب النبي ودعاه الى القراءة. ولكن لا يوجد دليل قرآني على مشاهدة النبي في أول البعثة للملك، وفيما اذا كانت المشاهدة في اليقظة أو المنام، كما في بعض الروايات.

أ - الرؤيا الصادقة أولى مراحل النبوة وأشكالها

وقبل أن ندخل في موضوع مشافهة الملك للنبي محمد، لا بد أن نتحدث عن الشكل الأول من الوحي النازل الى النبي محمد، وهو كما تحدثنا الروايات التاريخية (في ظل عدم وجود أية اشارة قرآنية الى ذلك) كان يتم عبر الرؤى في المنام. وهو ما كان يحدث للنبي قبل البعثة بشهور أو سنوات.

يحدثنا محمد ابن اسحاق في (السيرة النبوية) عن تدرج الوحي النازل الى النبي في مراحل متعددة ابتدأت من الرؤيا الصادقة، الى سماع الصوت، الى رؤية الملك، ويقول تحت عنوان: (أول ما بدئ به الرسول صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصادقة): "فذكر الزهري عن عروة بن الزبير، عن عائشة رضي الله عنها أنها حدثته أن أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من النبوة حين أراد الله كرامته ورحمة العباد به الرؤيا الصادقة لا يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤيا في نومه إلا جاءت كفلق الصبح".

ب - سماع الصوت

ثم ينتقل ابن اسحاق الى المرحلة الثانية ، فيقول تحت عنوان:(تسليم الحجارة والشجر عليه صلى الله عليه وسلم) : وحدثني عبد الملك بن عبيد الله بن أبي سفيان بن العلاء بن جارية الثقفي ، وكان واعية عن أهل العلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أراده الله بكرامته وابتدأه بالنبوة كان إذا خرج لحاجته أبعد حتى تحسر عنه البيوت ويفضي إلى شعاب مكة وبطون أوديتها ، فلا يمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجر ولا شجر إلا قال السلام عليك يا رسول الله . قال فيلتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم حوله وعن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى إلا الشجر والحجارة . فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك يرى ويسمع ما شاء الله أن يمكث".

وهذه الرواية مقطوعة بلا سند، وفيها تأويل متعسف لمصدر الصوت والسلام أنه الشجر والحجر، وهو ما تشكك به نفس الرواية حيث تقول " فيلتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم حوله وعن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى إلا الشجر والحجارة" وهناك رواية أخرى تشير الى أن النبي اعتقد في البداية أن السلام عليه يصدر من الجن.

ج - نزول الملك وبدء الوحي

ثم يكمل ابن اسحاق روايته حول نزول الوحي على النبي، ويقول ان الكلمات الأولى من الوحي أي أوائل سورة العلق نزلت في المنام، وليس في عالم اليقظة، فيروي تحت عنوان (ابتداء نزول جبريل عليه السلام) : وحدثني وهب بن كيسان مولى آل الزبير . قال سمعت عبد الله بن الزبير وهو يقول لعبيد بن عمير بن قتادة الليثي حدثنا يا عبيد ، كيف كان بدء ما ابتدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من النبوة حين جاءه جبريل عليه السلام ؟ قال فقال عبيد - وأنا حاضر يحدث عبد الله بن الزبير ومن عنده من الناس - : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجاور في حراء من كل سنة شهرا ...

قال ابن إسحاق : وحدثني وهب بن كيسان قال قال عبيد : ... حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله تعالى به فيه ما أراد من كرامته من السنة التي بعث الله تعالى فيها ; وذلك الشهر (شهر) رمضان خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حراء ، كما كان يخرج لجواره ومعه أهله حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها برسالاته ورحم العباد بها ، جاءه جبريل عليه السلام بأمر الله تعالى . قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءني جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال: اقرأ، قال قلت: ما أقرأ؟ قال فغطني به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال: اقرأ، قال قلت: ما أقرأ؟ قال فغطني به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قال قلت: ماذا أقرأ؟ قال فغطني به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني، فقال اقرأ قال فقلت: ماذا أقرأ؟ ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لي بمثل ما صنع بي، فقال: "اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم" قال فقرأتها ثم انتهى فانصرف عني وهببت من نومي، فكأنما كتبت في قلبي كتاباً. قال فخرجت حتى إذا كنت في وسط من الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل قال فرفعت رأسي إلى السماء أنظر فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء يقول يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل. قال فوقفت أنظر إليه فما أتقدم وما أتأخر وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء قال فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيتته كذلك فما زلت واقفاً ما أتقدم أمامي وما أرجع ورائي حتى بعثت خديجة رسلاً في طلبي، فبلغوا أعلى مكة ورجعوا إليها وأنا واقف في مكاني ذلك ثم انصرف عني".

هذا ما ينقله ابن اسحق في أواسط القرن الثاني الهجري عن وهب بن كيسان مولى آل الزبير عن عبيد بن عمير بن قتادة الليثي، عن رسول الله، وهو يختلف عن رواية البخاري عن عائشة، وخاصة في المقطع الثاني من الرواية، أي رؤية النبي للملك جبريل بعد استيقاظه من النوم، حيث تقول رواية البخاري أن النبي رأى جبريل في اليقظة، وليس في المنام.

وتتفق رواية البخاري مع ابن اسحاق في التحدث عن المرحلة الأولى من الوحي وهي (الرؤيا الصادقة)، ولكنها لا تتحدث عن المرحلة الثانية (سماح الصوت). ثم تتحدث عن المرحلة الثالثة وهي حوار الملك مع النبي في غار حراء، حيث قال له: اقرأ. "اقرأ باسم ربك الذي خلق - حتى بلغ - ما لم يعلم". (العلق 1 - 5)

ويكمل البخاري روايته عما حدث للنبي بعد ذلك، فيروي عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله (ص): "بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً في السماء فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض فرعبت منه فرجعت فقلت: زملوني. فأنزل الله - تبارك وتعالى -: "يا أيها المدثر قم فأندر". (المدثر: 1-5) وفي بعض الروايات أنه رأى جبريل جالساً على عرش بين السماء والأرض فسدَّ الأفق.

الرعب والشك

ويواصل ابن اسحق روايته لما حدث بعد نزول النبي من غار حراء، فيقول تحت عنوان (رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص على خديجة ما كان من أمر جبريل معه) على لسان النبي: "وانصرفت راجعا إلى أهلي حتى أتيت خديجة فجلست إلى فخذها : فقالت يا أبا القاسم أين كنت ؟ فوالله لقد بعثت رسلي في طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا لي ، ثم حدثتها بالذي رأيت فقالت أبشر يا ابن عم واثبت فوالذي نفس خديجة بيده إنني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة".

وهو ما يوحي بأن النبي محمد لم يكن قد اطمأن بعد الى ما رأى في المنام أو اليقظة، وأنه قد اعتراه نوع من الشك والريبة ، ولم يعرف أنه قد أرسل.

ثم يحكي ابن اسحق الفصل التالي من الرواية، فيقول تحت عنوان (خديجة بين يدي ورقة تحدثه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم): ثم قامت فجمعت عليها ثيابها ، ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي ، وهو ابن عمها ، وكان ورقة قد تنصر وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والإنجيل ، فأخبرته بما أخبرها به رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى وسمع فقال ورقة بن نوفل : قدوس قدوس والذي نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى ، وإنه لنبي هذه الأمة فقولي له فليثبت . فرجعت خديجة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته بقول ورقة بن نوفل ، فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم جواره وانصرف صنع كما كان يصنع بدأ بالكعبة فطاف بها ، فلقية ورقة بن نوفل وهو يطوف بالكعبة فقال يا ابن أخي أخبرني بما رأيت وسمعت فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له ورقة والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى ولتكذبه ولتؤذينه ولتخرجه ولتقاتلنه ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصرًا يعلمه ثم أدنى رأسه منه فقبل يافوخه ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى منزله .

ويحدثنا القرآن عن حالة الشك التي أصابت النبي في البداية، واحتماله أن يكون المتحدث معه من الجن أو الشياطين، وأمر الله له بمراجعة أهل الكتاب وسؤالهم عن صحة نبوته: "فان كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين". (يونس ٩٤).

ويضيف ابن اسحاق الى هذه الرواية محاولة السيدة خديجة للتأكد من حقيقة ما يرى النبي هل هو ملك أم شيطان، وقيامها بـ (امتحان برهان الوحي) فيقول: وحدثني إسماعيل بن أبي حكيم مولى آل الزبير : أنه حدث عن خديجة رضي الله

عنها أنها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أي ابن عم أستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الذي يأتيك إذا جاءك؟ قال: نعم. قالت فإذا جاءك فأخبرني به. فجاءه جبريل عليه السلام كما كان يصنع فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لخديجة يا خديجة هذا جبريل قد جاءني، قالت: قم يا ابن عم فاجلس على فخذي اليسرى؛ قال فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس عليها، قالت هل تراه؟ قال نعم قالت فتحول فاجلس على فخذي اليمنى؛ قالت فتحول رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس على فخذهما اليمنى، فقالت هل تراه؟ قال نعم. قالت فتحول فاجلس في حجري، قالت فتحول رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس في حجرها. قالت هل تراه؟ قال نعم قال فتحسرت وألقت خمارها ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في حجرها، ثم قالت له هل تراه؟ قال لا، قالت يا ابن عم اثبت وأبشر فوالله إنه لملك وما هذا بشيطان.

قال ابن إسحاق: وقد حدثت عبد الله بن حسن هذا الحديث فقال قد سمعت أمي فاطمة بنت حسين تحدث بهذا الحديث عن خديجة إلا أنني سمعتها تقول أدخلت رسول الله صلى الله عليه وسلم بينها وبين درعها، فذهب عند ذلك جبريل فقالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن هذا لملك وما هو بشيطان.

ومن الواضح ان الرواية الأولى عن اسماعيل بن حكيم مقطوعة ولا سند لها، وكذلك رواية فاطمة بنت الحسين، عن جدة أبيها خديجة، الا ان الروايتين قد تعضد إحداهما الأخرى، واحتمال شيوعها في الأوساط القريبة من أهل البيت.

وتتفق رواية البخاري مع رواية ابن اسحاق في حكاية عوارض الشك والصدمة والرعب التي أصابت النبي، حيث تقول: "فرجع رسول الله يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد فقال: زملوني زملوندي، فزملوه حتى ذهب عنه الروح، فقال لخديجة: ما لي؟ فأخبرها الخبر، وأضاف: لقد خشيت على نفسي، فقالت خديجة: كلا، والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق". وتتفق رواية البخاري مع ابن اسحاق في بقية القصة عن انطلاق خديجة بالنبي الى ابن عمها المتنصر ورقة بن نوفل، وطمأنته للنبي أنه يرى الناموس الذي نزله الله على موسى.

وتختلف رواية البخاري عن ابن اسحاق، في موضوع رؤية النبي للملك وهو يقول له: "يا محمد، أنت رسول الله حقا" وتاريخ هذا المقطع، فبينما يقول ابن اسحاق أنه كان مباشرة بعد استيقاظ النبي من النوم، تقول رواية البخاري أنه تم في أثناء انقطاع الوحي بعد وفاة ورقة خلال السنوات الأولى.

كما تختلف رواية ابن اسحاق في رؤية الملك على شكل رجل صاف قدميه على

الأفق، وبين روايات أخرى تقول ان الملك كان يغطي المشرق والمغرب.؟؟؟؟؟

وما يهمننا من هذه الروايات هو كيفية نزول الوحي على النبي عبر الملك في اليقظة بالصوت والصورة؟ أم في المنام على القلب كما تقول رواية ابن اسحق والتي تتفق مع القرآن الكريم.

ان تحدث الروايات المختلفة عن حالة الشك التي اصابته النبي محمد، في البداية، تقودنا الى استبعاد ان يكون النبي قد رأى جبريل بنفسه في البداية والا لما كان يمكن أن يشك بنزول الوحي عليه، ولما كان بحاجة الى سؤال ورقة بن نوفل ليؤكد له أن نبي وأن ما رآه هو الناموس الذي نزله الله على موسى. وهو ما يؤكد سماع النبي للصوت فقط؟ أو رؤية الملك في المنام وليس في اليقظة.

وحسبما نعرف من القرآن فان أحدا من الأنبياء لم يرتعب من سماع كلام الله أو رؤية الملائكة أو يشك بالوحي النازل اليه، ما عدا ابراهيم ولوط اللذين لم يعرفا الرسل الذين جاءوا لمعاقبة قوم لوط، وأنكرهم في البداية لعدم تناولهم الطعام. فلماذا يرتعب النبي محمد من رؤية الملك أو سماع الصوت؟ أو يشك بحقيقة ما يرى ويسمع الا أن يكون بطريقة خفية.

ومما يؤكد أن الوحي في البداية لم يكن واضح المصدر أو بالصوت والصورة من الملك، رواية علقشة التي تقول إن رسول الله كلن يسمع من يسلم عليه، ولا يرى الا الشجر والحجارة. وأن الوحي كان ينقطع عنه فيصاب بالإحباط والحزن الشديدين، بحيث كان يفكر في الانتحار بإلقاء نفسه من فوق قمم الجبال، فكان يتبدى له جبريل ويقول له: "يا محمد، إنك رسول الله حقا" فيهدأ ويتراجع، ثم يعاود الكرة مرة أخرى. وهو ما يتفق مع آيات قرآنية تخاطب النبي وتحاول أن تؤكد له أنه نبي وليس بمجنون: " ما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون". (القلم 2) و: "وَإِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ، وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ " (الشعراء 192-196) ولكن لا يمكن التأكد من خلال رواية البخاري عن ابن عباس وغيره: من رؤية النبي للملك أثناء محاولته الانتحار، وسماع صوته، وأنه كان يقول له: (يا محمد أنت رسول الله حقا وأنا جبريل).

د - الصور المختلفة للوحي النازل الى النبي محمد

وتفصل الأحاديث في طريقة تحدث الملك مع النبي بالقاء الوحي على القلب او بصورة مباشرة، كما في حديث النبي للحارث بن هشام عندما سأله: " يا

رسول الله كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله: أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده علي ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال ، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول " (متفق عليه) . وتصديقا لذلك تقول عائشة:" ولقد رأيته ينزل عليه في اليوم الشتوي الشديد البرد فينقصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا" (صحيح ابن حبان) وتنقل عن النبي قوله : "إن روح القدس نفث في روعي لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب". وعن زرارة عن أبي جعفر الباقر قال: الأنبياء على خمسة أنواع منهم من يسمع الصوت مثل صوت السلسلة فيعلم ما عنى به ومنهم من ينبأ في منامه مثل يوسف وإبراهيم ومنهم من يعاين ومنهم من ينكت في قلبه ويوقر في أذنه. وعنه أيضا، قال: سألت أبا جعفر عن قول الله عز وجل: وكان رسولا نبيا. ما الرسول؟ وما النبي؟ قال: النبي الذي يرى في منامه ويسمع الصوت ولا يعاين الملك، والرسول الذي يسمع الصوت ويرى في المنام ويعاين الملك.

وفي رواية أخرى عن عمر بن الخطاب أن جبرئيل كان يتمثل أحيانا للنبي بصورة انسان ظاهر يراه الآخرون (غير النبي)، ويخاطبه بالوحي، أي كما حدث مع النبيين إبراهيم ولوط، قال عمر: بينما نحن عند رسول الله (ص) ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي (ص) فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال يا محمد أخبرني عن الإسلام؟ فقال رسول الله (ص): الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا. قال صدقت. قال فعجبنا له يسأله ويصدقه قال فأخبرني عن الإيمان قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره قال صدقت قال فأخبرني عن الإحسان قال أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك قال فأخبرني عن الساعة قال ما المسؤول عنها بأعلم من السائل قال فأخبرني عن أمارتها قال أن تلد الأمة ربثها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان قال ثم انطلق فلبثت مليا ثم قال لي يا عمر أتدري من السائل؟ قلت الله ورسوله أعلم قال فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم" . (رواه مسلم)

ويقال أيضا ان الملك كان يتمثل بشخصية الصحابي دحية الكلبي وهو صحابي كان يضرب به المثل في حسن الهيئة وجمال الصورة وقد أسلم في العام الثالث للهجرة قبل معركة أحد، ويراه النبي والصحابة، كما عن عبد بن عمر عن أنس أن النبي كان يقول: "يأتيني جبريل في صورة دحية". وعن عائشة:" أن رسول الله (ص) كان عندها فسلم علينا رجل ونحن في

البيت فقام رسول الله (ص) فزعا وقمت في أثره فإذا بدحية الكلبى فقال هذا جبريل أمرني أن أذهب إلى بني قريظة وقال قد وضعتم السلاح لكننا لم نضع طلبنا المشركين حتى بلغنا حمراء الأسد وذلك حين رجع رسول الله (ص) من الخندق فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فزعا وقال لأصحابه عزمت عليكم أن لا تصلوا صلاة العصر حتى تأتوا بني قريظة ... وخرج رسول الله (ص) فمر بمجالس بينه وبين بني قريظة فقال هل مر بكم أحد فقالوا مر علينا دحية الكلبى على بغلة شهباء تحته قطيفة ديباج فقال: ذلك جبريل أرسل إلى بني قريظة ليزلزلهم ويقذف في قلوبهم الرعب".

وقالت عائشة: رأيت رسول الله (ص) واضعا يده على معرفة فرس وهو يكلم رجلا، قلت: رأيتك واضعا يدك على معرفة فرس دحية الكلبى وأنت تكلمه، قال: ورأيتيه؟ قالت: نعم، قال: ذاك جبريل عليه السلام وهو يقرئك السلام.

وكما في رواية أم سلمة فيما نقله البخاري في باب علامات النبوة: " عن أبي عثمان قال: أنبئت أن جبريل (ع) أتى النبي (ص) وعنده أم سلمة ، فجعل يحدث ، ثم قام فقال النبي (ص) لأم سلمة : من هذا ؟! أو كما قال، قال : قالت : هذا دحية ، قالت أم سلمة: أيم الله ما حسبته إلا إياه ، حتى سمعت خطبة نبي الله يخبر جبريل أو كما قال ، قال: فقلت لأبي عثمان : ممن سمعت هذا ؟ قال : من أسامة بن زيد "

وما رواه البخاري أيضا في كتاب الايمان باب سؤال جبريل النبي عن الايمان والاسلام والاحسان، عن أبي هريرة قال: " كان النبي (ص) بارزا يوما للناس، فأتاه جبريل فقال : ما الإيمان ؟ ... ثم أدبر ، فقال: ردوه ، فلم يروا شيئا ، فقال : هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم "

وهناك روايات أخرى تتحدث عن رؤية النبي للجن والشياطين، واستماعه الى أحاديثهم، كما يروي الامام أحمد بن حنبل عن رسول الله أنه قال: " ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن " قللوا: وإيلك يا رسول الله؟ قل: " وإيلي إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير".

ولكن هذه أخبار آحاد لا يمكن ان تفيدنا علما، وما ورد في القرآن عن نزول الملائكة لا يتحدث عن رؤية النبي ولا احد من المسلمين للملائكة.

نستخلص من كل ما سبق أن الوحي الذي كان ينزل على النبي محمد أنه كان ينزل على قلبه، دون أن يرى الملك.

الباب الأول: إستراتيجية النبي محمد في الدعوة للإسلام في مكة يضم ستة فصول

الفصل الأول: إستراتيجية النبي محمد في دعوة الحنفاء الموحدين للإسلام

كيف أسلم المسلمون الأوائل في مكة؟

جاء الإسلام في حقيقته، ثورة على عبادة الأصنام، وعودة إلى دين إبراهيم. فقد سأل أبو طالب النبي محمد قائلاً: يا بن أخي، ما هذا الدين الذي أراك تدين به؟ قال: أي عم، هذا دين الله ودين ملائكته ودين رسله، ودين أبينا إبراهيم، بعثني الله به رسولاً إلى العباد. وهو ما عبر عنه القرآن الكريم في آيات عديدة:

- "ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن، واتبع ملة إبراهيم حنيفاً".
(النساء، 125)

- "قل إني هادي ربي إلى صراط مستقيم، ديناً قيماً، ملة إبراهيم حنيفاً، وما كان من المشركين". (الأنعام، 161)

- "إن إبراهيم كان أمةً قانتاً لله، حنيفاً، ولم يك من المشركين". (النحل، 121)

- "ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً، وما كان من المشركين". (النحل، 123)

- "قل صدق الله، فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً، وما كان من المشركين". (آل عمران، 95)

ولذلك فإن رسالة الإسلام لم تكن بعيدة عن أجواء أهل مكة، ولا سيما الأحناف الموحدين منهم.

وقد اتضح من خلال الروايات السابقة أن خديجة زوجة النبي كانت أول الناس إسلاماً، فهي التي أكدت له في مرحلة الشك أن ما ينزل عليه وحي وأنه نبي، وكذلك ورقة بن نوفل الذي أكد للنبي أن ما يسمعه من الوحي هو نبوة، ولئن كانت خديجة قد وقفت إلى جانبه حتى وفاتها، فإن المؤرخين لا يذكرون موقف ورقة النهائي وإسلامه، وما آل إليه. وهناك روايات متناقضة حول زمن وفاته.

وكان من الطبيعي بعد ذلك أن يسلم صبي كان في حجر النبي هو ابن عمه على بن أبي طالب الذي كان يبلغ من العمر عشر سنين، ومولاه زيد بن حارثة.

ولا يفترض أن نتوقع، منهما، القيام بالتحقيق والسؤال عن أدلة نبوته، ولنا أن نفترض أن إيمانها كان بسبب التأثير الشخصي والاتباع.

ويقال إن أول من أسلم من الرجال أبو بكر، وقد كان أبو بكر صديقاً للنبي قبل البعثة، بل كان من أخص أصحابه، عارفاً به وبأخلاقه وصدقه وأمانته ما يمنعه من الكذب على الخلق، فكيف يكذب على الله؟ وإضافة إلى ذلك فإن دعوة التوحيد المحمدية ورفض عبادة الأصنام، والدعوة للخير وتجنب الشر كانت تشكل جوهر رسالة النبي، وتدعو كل عاقل للإيمان بها. ولذلك فقد سارع أبو بكر إلى تصديق النبي والإيمان به بمجرد ما ذكر له النبي أن الله أرسله للناس. وقد روى ابن إسحاق أن رسول الله قال: "ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت عنده كربة وتردد ونظر، إلا أبا بكر ما عكّم (تباطأ) عنه حين دعوته، ولا تردد فيه". وهو ما يدل على عامل الثقة الشخصية في إيمان أبي بكر، ولا يبدو أنه سأل عن دليل أو معجز. ثم دعى أبو بكر خمسة من أصدقائه وهم عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، وهم من مختلف بطون قريش، فأسلموا.

يقول ابن سعد: انطلق عثمان بن مظعون وعبيدة بن الحارث بن المطلب وعبد الرحمن بن عوف وأبو سلمة بن عبد الأسد وأبو عبيدة بن الجراح حتى أتوا رسول الله، (ص)، فعرض عليهم الإسلام وأنبأهم بشرائعه فأسلموا جميعاً في ساعة واحدة وذلك قبل دخول رسول الله، دار الأرقم، وقبل أن يدعو فيها.

وبما أن الإسلام كان قريباً جداً من الأحناف، فقد بادر سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل (أشهر الأحناف) إلى الإسلام من تلقاء نفسه، تأثراً، فيما يبدو، بموقف أبيه (زيد) الحنيف والمنتظر للنبي.

أما أبو ذر الغفاري فقد كان مستعداً قبل الإسلام لتقبل الدعوة الجديدة، فقد كان يأبى بفطرته عبادة الأصنام، وينكر على من يشرك بالله، وقد رأى ذات يوم ثعلباً يبول على صنم فقال: "أربُّ يبول الثعلبان برأسه؟ لقد ذل من بالته عليه الثعلاب، فلو كان رباً كان يمنع نفسه، فلا خير في رب نأته المطالب، برئت من الأصنام في الأرض كلها، وأمنت بالله الذي هو غالب". ولذلك لما سمع بأمر النبي أرسل أخاه، ليستعلم له ويسمع من قول النبي ثم يأتيه، فانطلق الأخ حتى أتى رسول الله وسمع من قوله، ثم رجع إلى أبي ذر فقال له: "رأيتك يأمر بمكارم الأخلاق، وكلاماً ما هو بالشعر"، فقال أبو ذر: ما شفيتني مما أردت، وعزم على الذهاب بنفسه لرسول الله.

ويروي لنا البخاري بقية القصة فيقول إنه ذهب إلى مكة وتلطف حتى دخل

على النبي فقال له: إعرض عليّ الإسلام، فعرضه فأسلمت مكاني ، فقال لي : يا أبا ذر ، أكتم هذا الأمر ، وارجع إلى بلدك ، فإذا بلغك ظهورنا فأقبل، فقلت: والذي بعثك بالحق ، لأصرخن بها بين أظهرهم. فجاء إلى المسجد وقريش فيه، فقال : يا معشر قريش، إني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله. فقالوا : قوموا إلى هذا الصابئ ، فقاموا فضربوه حتى كاد يموت. ثم عاد أبو ذر إلى قبيلته غفار فدعا أخاه وأهله وقبيلته للدخول في الإسلام فأسلموا جميعا ، أو نصفهم كما يقول مسلم ، وأسلم النصف الباقي عندما هاجر النبي إلى المدينة. وجاءت قبيلة أسلم فقالوا: يا رسول الله، إخواننا، نسلم على الذي أسلموا عليه، فأسلموا، فقال رسول الله: " غفار غفر الله لها، وأسلم سالمها الله".

ولا يوجد في قصة إسلام أبي ذر وأخيه وقبيلته وقبيلة "أسلم" أي تحقيق أو نقاش أو حتى سؤال عن أدلة إثبات نبوة النبي محمد، وذلك لمضمون الدعوة الإسلامية التوحيدية الفطري، وبساطة الإنسان البدوي، علما بأن أبا ذر يعتبر رابع مسلم بعد أبي بكر، أي انه أسلم في وقت مبكر قبل أن ينزل القرآن وتتشكل معجزته البلاغية التي قدمها الرسول للناس كبديل عن المعجز. ولذلك أسلم في مكانه عندما سمع كلام رسول الله.

وأما قصة إسلام بلال الحبشي فهي تشبه قصة أبي ذر كثيرا، فقد كان عبداً يرعى الغنم خارج مكة ، فمر على النبي وهو معتزل في غار فقال له: يا راعي هل من لبن ؟ ثم قال : يا غلام هل لك في الإسلام؟ فإني رسول الله ، فأسلم بلال فوراً. ولا نعرف أكثر من ذلك عن تفاصيل اللقاء والحديث الذي جرى بينهما.

وأما عمار بن ياسر فقد ولد في مكة لأب يماني وجارية مكية إسمها "سمية" مولاة بني مخزوم، وعندما سمع بخبر الإسلام واجتماع المسلمين الأوائل في دار ابن أبي الأرقم، سارع إلى الدار ليلقى النبي ويعلم إسلامه ، وفي هذا يقول عمار : لقيت صهيب بن سنان على باب دار الأرقم ورسول الله، (ص) فيها فقلت: ما تريد؟ فقال لي: ما تريد أنت؟ فقلت: أردت أن أدخل على محمد فأسمع كلامه، قال: وأنا أريد ذلك. قال فدخلنا عليه فعرض علينا الإسلام فأسلمنا، ثم مكثنا يوماً على ذلك حتى أمسينا، ثم خرجنا ونحن مستخفون، فكان إسلام عمار

وصهيب بعد بضعة وثلاثين رجلاً.

ثم ذهب عمار إلى والده ياسر وأمه سمية يدعوهما إلى الإسلام، فاستجابا له بسرعة وبساطة. وكان إسلامهم عميقاً بحيث دفعهم لتحمل أقصى أنواع العذاب من قبل قريش (بني مخزوم) ودفع ياسر وزوجته سمية حياتهما ثمناً للإسلام ولم يتراجعا عنه. وأما عمار فقد اضطر أن يذكر ألتهم بخير ويذكر محمداً بسوء

حتى يرفع عنه العذاب، فأنزل الله فيه قرآنا "من كفر بالله من بعد إيمانه، إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان، ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم". (النحل، 106)

وحسبما يقول ابن سعد، فإن إسلام طلحة بن عبيد الله كان بتأثير من راهب بصرى (بحيرا) الذي كان يعلم باسم النبي محمد ووقت ظهوره، وذلك في رواية عن طلحة يقول فيها: حضرت سوق بصرى فإذا راهب في صومعته يقول: سلوا أهل هذا الموسم أفيعهم أحد من أهل الحرم؟ قال طلحة: فقلت نعم أنا، فقال: هل ظهر أحمد بعد؟ قال قلت: ومن أحمد؟ قال: بن عبد الله بن عبد المطلب، هذا شهره الذي يخرج فيه وهو آخر الأنبياء ومخرجه من الحرم ومهاجره إلى نخل وحره وسباح، فإياك أن تُسبق إليه، قال طلحة: فوقع في قلبي ما قال: فخرجت سريعا حتى قدمت مكة فقلت: هل كان من حدث؟ قالوا: نعم محمد بن عبد الله الأمين تنبأ وقد تبعه بن أبي قحافة، قال فخرجت حتى دخلت على أبي بكر فقلت: أتبع هذا الرجل؟ قال: نعم فانطلق إليه فادخل عليه فاتبعه فإنه يدعو إلى الحق. فأخبره طلحة بما قال الراهب فخرج أبو بكر بطلحة فدخل به على رسول الله، (ص) فأسلم طلحة وأخبر رسول الله بما قال الراهب فسر رسول الله، بذلك وبالطبع لا نستطيع التحقق من تفاصيل هذه القصة، إلا أنه من المؤكد إسلام طلحة في وقت مبكر.

ويخبرنا عثمان بن عفان عن قصة له مشابهة لقصة طلحة في سبب إسلامه، فيقول: إنه أسلم مع طلحة في وقت واحد، ثم قال: يا رسول الله قدمت حديثا من الشام فلما كنا بين معان والزرقاء فنحن كالنيام إذا مناد ينادينا أيها النيام هبوا فإن أحمد قد خرج بمكة، فقدمنا فسمعنا بك.

وهذه قصة أغرب من قصة بحيرا وطلحة، وهي بلا سند موصول، ويحتمل تأليفها في وقت متأخر.

ومهما يكن من أمر فلا شك بأن شخصية الرسول (الصادق الأمين) لعبت دورا كبيرا في إقناع الناس بصدقه وهدايتهم للإسلام، فقد قام النبي محمد، بدعوة قريش، دعوة عامة، بعد ثلاث سنين من الدعوة السرية، امتثالا لأمر الله تعالى " فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ". (النحل 94) " وأنذر عشيرتک الأقربين ". (الشعراء، 214) فصعد رسول الله الصفا، فقال: يا صباحاه! فاجتمعت إليه قريش، فقالوا: مالك؟ قال: رأيت إن أخبرتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم، أما كنتم تصدقونني! قالوا: بلى؛ ما جربنا عليك إلا صدقا، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فقال أبو لهب: تبأ لك، ما جمعتنا إلا لهذا.

وقد كان للعصبية القبلية دور في إسلام البعض ، كما حدث في إعلان حمزة عم النبي للإسلام. فقد سب أبو جهل ذات يوم النبي وهو يطوف حول الكعبة، فأذاه وشتمه، ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه والتضعيف له، فلم يكلمه رسول الله ، فاحتلم حمزة الغضب، فخرج سريعاً متنكباً قوسه، فلما دخل المسجد نظر إلى أبي جهل جالساً في القوم، فأقبل نحوه؛ حتى إذا قام على رأسه، رفع القوس فضربه بها ضربة فشجه بها شجةً منكراً، وقال: أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول! فرُدَّ ذلك علي إن استطعت!. وتم حمزة على إسلامه.

وهناك قصة مشابهة لهذه بطلها أبو طالب، ولكنها لم تنته بإعلان إسلامه كما فعل حمزة، حيث خرج النبي يوماً إلى الكعبة وأراد أن يصلي، فلما دخل في الصلاة قال أبو جهل من يقوم إلى هذا الرجل فيفسد عليه صلاته، فقام عبد الله ابن الزبير فأخذ فرثاً ودما فلطخ به وجه النبي ، فانفتل النبي من صلاته، ثم أتى أبا طالب عمه فقال: يا عم ألا ترى ما فعل بي؟ فقام أبو طالب ووضع سيفه على عاتقه ومشى معه حتى أتى القوم، فلما رأوا أبا طالب قد أقبل جعل القوم ينهضون فقال أبو طالب: والله لئن قام رجل لجللته بسيفي، ففعدوا حتى دنا إليهم، فقال: يا بني من الفاعل بك هذا؟ فقال: عبد الله بن الزبير. فأخذ أبو طالب فرثاً ودما فلطخ به وجوههم ولحاهم وثيابهم وأساء لهم القول، فنزل قول الله تعالى: "وهم ينهون عنه وينأون عنه". (الأنعام 26)

فقال النبي: يا عم نزلت فيك آية، قال وما هي؟ قال: تمنع قريشا أن تؤذيني وتأبى أن تؤمن بي؟

فأنشد أبو طالب شعراً:

والله لن يصلوا اليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفينا
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة وابشر بذاك وقرّ منك عيوننا
ودعوتني وزعمت أنك ناصحي فلقد صدقت وكنّت قبلُ أمينا
وعرضت ديننا قد عرفت بأنه من خير أديان البرية ديننا
لولا الملامة أو حذار مسبة لوجدتني سمحا بذاك يقينا.

ورغم اعترافه بصدق النبي وشهادته لدينه بأنه خير الأديان، إلا أن أبا طالب لم يعلن الإسلام.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله لعمه (عند احتضاره): "قل لا إله الا الله، أشهد لك يوم القيامة". فقال: لولا تعيرني قريش يقولون: إنما

حملة على ذلك الجزع لأقررت بها عينيك. فلم يزل رسول الله يعرضها عليه ويعاوده بتلك المقالة، حتى قال: أبو طالب: أنا على ملة عبد المطلب. وأبى أن يقول: "لا إله إلا الله" فقال رسول الله: "والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك، فأنزل الله عز وجل: " ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين، ولو كانوا أولي قربى، من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم، وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه..". (التوبة، 113-114) وأنزل فيه أيضاً: "إنك لا تهدي من أحببت، ولكن الله يهدي من يشاء" (القصص، 56)

وبعد ذلك، أسلم طليب بن عمير (ابن عمّة النبي أروى) في دار الأرقم، ثم خرج فدخل على أمه، فقال: تبعت محمداً وأسلمت لله، فقالت أمه: إن أحق من أوزرت وعضدت ابن خالك، والله لو كنا نقدر على ما يقدر عليه الرجال لمنعناه وذبنا عنه، فقلت: يا أمه فما يمنعك أن تسلمي وتتبعيه، فقد أسلم أخوك حمزة؟، فقالت: أنظر ما يصنع أخواتي ثم أكون إحداهن، قلل فقلت: فإني أسألك بالله إلا أتيتك فسلمت عليه وصدقته وشهدت أن لا إله إلا الله، فقالت: فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، ثم كانت بعد تعضد النبي (ص) بلسانها وتحض ابنها على نصرته والقيام بأمره.

عمر والقرآن

وتحكي قصة إسلام عمر بن الخطاب عن دور القرآن نفسه كمعجزة بلاغية، في إقناع الناس بالاسلام، وهو ما كان يؤكد عليه الرسول دائماً "أفلا يتدبرون القرآن؟ أم على قلوب أقفالها؟". (محمد، 24) " أفلا يتدبرون القرآن، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً". (النساء، 82) وتقول القصة: إن عمراً عزم يوماً على قتل الرسول، عندما كان مشركاً، وفي الطريق وجد صحابياً يكتب إيمانه فقال لعمر: قبل أن تذهب إلى محمد لتقتله فابدأ بآل بيتك أولاً. فقال عمر: من؟ قال له الصحابي: أختك فاطمة وزوجها اتبعوا محمداً، فقال عمر: أو قد فعلت؟ فقال الصحابي: نعم، فأنطلق عمر مسرعاً غاضباً إلى دار سعيد بن زيد زوج أخته فاطمة، فطرق الباب، وعندما فتح سعيد الباب أمسكه عمر وقال له: أراك صبأت؟ فقال سعيد: يا عمر: أرايت إن كان الحق في غير دينك؟ فضربه عمر، وأمسك أخته فقال لها: أراك صبأت؟ فقالت يا عمر: أرايت إن كان الحق في غير دينك؟ فضربها ضربة شقت وجهها، فسقطت من يدها صحيفة فيها قرآن، فقال لها: ناوليني هذه الصحيفة. وكان فيها "طه، مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى إِلَّا تَذِكْرَةً لِّمَنْ يَخْشَى، تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى، الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى، لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا

بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى". (طه، 1-6) فاهتز عمر، وقال ما هذا بكلام بشر، ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. وقال دلونى على محمد. فذهبوا به الى دار ابن الأرقم، حيث أعلن إسلامه أمام الرسول.

وينقل ابن سعد قصة عن كيفية إسلام عبد الله بن مسعود ، مشابهة تقريبا لقصة بلال، ولكن مع إضافة معجزة إليها، يقول أن النبي قام بها ، حيث يقول: كنت غلاما يافعا أرعى غنما لعقبة بن أبي معيط فجاء النبي، (ص) وأبو بكر وقد فرا من المشركين فقالا: يا غلام هل عندك من لبن تسقيننا؟ فقلت: إني مؤتمن ولست ساقيكما، فقال النبي، (ص): هل عندك من جذعة لم ينزُ عليها الفحل؟ قلت: نعم، فأتيتهما بها فاعتقلها النبي، (ص)، ومسح الضرع ودعا فحفل الضرع ثم أتاه أبو بكر بصخرة متقعرة فاحتلب فيها فشرب أبو بكر، ثم شربت ثم قال للضرع اقلص فقلص، قال: فأتيته بعد ذلك فقلت: علمني من هذا القول، قال: إنك غلام معلم، فأخذت من فيه سبعين سورة لا يناز عني فيها أحد.

ولنا أن نشك بحدوث المعجزة لأنها تنافي استراتيجية النبي الأولى في الدعوة للإسلام، واحتمال إضافتها من قبل الرواة، ولكن يمكن التصديق بقصة إسلام الغلام اليافع عبد الله دون تردد.

وإذا لاحظنا طبيعة عامة من أسلم في مكة في العهد الأول للرسالة، وهم كما يقول المؤرخون: "أحداث الرجال وضعفاء الناس " لاتضح لنا الدافع الأكبر لإسلام هذه الشريحة الاجتماعية، وهو مضمون الرسالة الاسلامية وهدفها في إقامة العدل ومساعدة الفقراء.

وهو ما تعبر عنه قصة المهاجرين مع ملك الحبشة النجاشي الذي سألهم: لماذا اختاروا الدين الاسلامي؟ فقالوا له: "أيها الملك.. كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام ونسئ الى الجار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله الينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا الى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبده نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان. وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهانا أن نعبد الله وحده وبالصلاة والزكاة والصيام. فصدقناه وأمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله، فعدا علينا قومنا، فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا الى عبادة الأوثان. فلما قهرونا وضيعوا علينا خرجنا الى بلادك، ورجونا الى جوارك، ورجونا ألا نظلم عندك".

ومع ذلك فان عامة أهل مكة رفضوا الاسلام، ما عدا قلة قليلة منهم.

إسلام الأنصار

بعد محاولات عديدة لاكتساب القبائل العربية التي تؤم مكة للحج أو العمرة، نجح النبي محمد في التأثير على مجموعة من الخزرج، من أهل يثرب، وكان إسلامهم سلسا جدا، بعكس عامة أهل مكة الذين كانوا يجادلونه كثيرا ويسألونه الإتيان بالمعجز لإثبات نبوته، والذين اتخذوا منه ومن أتباعه موقفا معاديا حتى اضطروا بعضهم للهجرة إلى الحبشة، فان أهل يثرب أسلموا بمجرد سماعهم للقرآن، وقاموا بنشر الإسلام في قبائلهم بصورة عامة، حتى قبل أن يقدم النبي للمدينة، ومهدوا بذلك لنقلة تاريخية في حياة الاسلام، وسوف نقوم بقراءة الرواية التاريخية المثيرة لعملية انتشار الاسلام في يثرب انتشارا سريعا، كما رواها الطبري، باختصار مع حذف الاسناد والتفاصيل غير الضرورية، ونحاول التوقف عند بعض المواقف المهمة في عملية الاسلام أو الامتناع منه.

يورد الطبري عن ابن إسحاق قصة إسلام سويد بن صامت الشاعر اليثربي المثقف الذي كان يسميه قومه (الكامل)، وذلك عندما جاء إلى مكة حاجا أو معتمرا، فتصدى له رسول الله حين سمع به. فدعاه إلى الله وإلى الإسلام، فقال له سويد: فلعل الذي معك مثل الذي معي! فقال له رسول الله: وما الذي معك؟ قال: مجلة لقمان - يعني كتاب حكمة لقمان - فقال له رسول الله: إعرضها علي، فعرضها عليه، فقال: إن هذا لكلام حسن، معي أفضل من هذا، قرآن أنزله الله علي، هدى ونور. قال: فتلا عليه رسول الله القرآن، ودعاه إلى الإسلام، فلم يبعد منه، وقال: إن هذا لقول حسن. ثم انصرف عنه، وقدم المدينة، فلم يلبث أن قتله الخزرج؛ فإن كان قومه ليقولون: قد قتل وهو مسلم، وكان قتله قبل "بُعَاث".

وهناك قصة أخرى عن إسلام الأنصاري رفاعه بن رافع الزرقي، تحكي سلاسة الاسلام وانسجامه مع الفطرة، ولكنها تضيف لمحة إعجازية أشبه بالاستخارة، حيث يقول رفاعه: إنه خرج مع ابن خالته معاذ بن عفراء حتى قدما مكة (قبل خروج السنة من الأنصار) فأتيا النبي (ص) قال، فقلت: إعرض علي الاسلام، فعرضه، وقال: من خلق السماوات والأرض والجبال؟ قلنا: الله، قال: فمن خلقكم؟ قلنا: الله، قال: فمن عمل هذه الأصنام التي تعبدون؟ قلنا: نحن، قال: فالخالق أحق بالعبادة؟ أم المخلوق؟ فأنتم أحق أن يعبدوكم وأنتم عملتوها، والله أحق أن تعبدوه من شئ عملتموه. وأنا أدعوكم إلى عبادة الله وإلى شهادة أن لا إله الا الله وأني رسول الله، وصلة الرحم وترك العدوان وبغض الناس. قلنا: لو كان الذي تدعوننا إليه باطلا لكان من معالي الأمور ومحاسن الأخلاق... فطفت وأخرجت سبعة أقداح (سهام) فجعلت له منها قدحا، فاستقبلت البيت فضربت بها،

وقلت: اللهم إن كان ما يدعو إليه محمد حقاً فأخرج قدحه سبع مرات. قال: فضربت، فخرج سبع مرات، فصحت: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فاجتمع الناس علي، وقالوا: مجنون رجل صباباً. قلت: بل رجل مؤمن. ثم جئت إلى أعلى مكة، فلما رأني معاذ قال: لقد جاء رافع بوجه ما ذهب بمثله، فجئت وأمنت... ثم رجعنا إلى المدينة.

وهكذا عندما ندرس طريقة النبي محمد (ص) في الدعوة إلى الإسلام، وكيفية استجابة الناس لها، نجد أنها كانت بسيطة وفطرية وعفوية، وتعتمد على موضوع التوحيد ونبذ الشرك، والدعوة إلى الأخلاق الحسنة، فكانت تلقى ترحيباً من عامة الناس إلا إذا كانت المصالح السياسية والعصبيات القبلية تحول دونها. ذات مرة جاء فتية من الأوس إلى مكة يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج، فسمع بهم رسول الله، فأتاهم فجلس إليهم، فقال لهم: هل لكم إلى خير مما جئتم له؟ قالوا: وما ذلك؟ قال: "أنا رسول الله، بعثني إلى العباد، أدعوهم إلى الله أن يعبدوا الله، ولا يشركوا به شيئاً، وأنزل علي الكتاب". ثم ذكر لهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن. فقال أحد شبابهم (إياس بن معاذ): أي قوم، هذا والله خير مما جئتم له. ثم لم يلبث إياس أن هلك، وهو يهلل الله ويكبره، ويحمده ويسبحه؛ حتى مات. فما كانوا يشكون أن قد مات مسلماً، لقد كان استشعر الإسلام في ذلك المجلس حين سمع من رسول الله ما سمع.

وينقل عبد الرحمن السهيلي في "الروض الأنف" في شرح سيرة ابن اسحاق، قصة عن دعوة النبي بعض عرب العراق إلى الإسلام، فيقول: فيما روي عن بني ذهل بن ثعلبة "...دفعنا إلى مجلس، عليهم السكينة والوقار، فتقدم أبو بكر، فقال: ممن القوم، فقالوا: من بني شيبان بن ثعلبة، فالتفت أبو بكر إلى رسول الله فقال: بأبي أنت وأمي هؤلاء غرر في قومهم وفيهم مفروق بن عمرو وهانئ بن قبيصة ومثنى بن حارثة والنعمان بن شريك (رجال منهم) وكان مفروق بن عمرو أدنى القوم مجلساً من أبي بكر

فقال له أبو بكر: كيف العدد فيكم؟

قال له مفروق: أنا لنزيد على الألف، ولن تغلب ألف من قلة.

فقال أبو بكر: أوقد بلغكم أنه رسول الله فما هو ذا

فقال مفروق: قد بلغنا أنه يذكر ذلك يا أبا قريش

فتقدم رسول الله فقال: أدعو إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده، لا شريك له وأناي رسول الله، والى أن تؤووني وتنصروني، فان قريشاً قد ظهرت على أمر الله

تعالى، وكذبت رسوله واستغنت بالباطل عن الحق، والله هو الغني الحميد

فقال مفروق: والامّ تدعو يا أبا قريش؟

فتلا رسول الله قوله تعالى "قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق ونحن نرزقكم وإياهم، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون" (الأنعام، 151)

قال مفروق: وإلامّ تدعو أيضاً؟

فتلا رسول الله "إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى، يعظكم لعلكم تذكرون". (النحل، 90)

فقال مفروق: دعوت والله يا أبا قريش الى مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، والله لقد أفك قوم كذبوك، وظاهروا عليك، وهذا هانىء بن قبيصة شيخنا، وصاحب ديننا.

فقال هانىء: قد سمعت مقاتلك وإني أرى إن تركنا ديننا، واتبعناك على دينك، لمجلس جلسته إلينا، زلة في الرأي، وقلة نظر في العاقبة، وإنما الزلة تكون مع العجلة، ومن ورائنا قوم نكره أن نعقد عليهم عقدا... ولكن نرجع، وترجع، وننظر وتتنظر... وهذا المثني بن حارثة شيخنا وصاحب حربنا.

فقال المثني: قد سمعت مقاتلك يا أبا قريش، والجواب هو جواب هانىء في تركنا ديننا واتباعنا إياك لمجلس جلسته إلينا، ليس له أول ولا آخر، وإنما بين صريان اليمامة وسماوة.

فقال رسول الله: ما هذان الصريان؟

فقال المثني: أنهار كسرى ومياه العرب، فأما ما كان من أنهار كسرى فذنب صاحبه غير مغفور، وعذره غير مقبول، وأما ما كان من مياه العرب فذنبه مغفور، وعذره مقبول، وإنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى أنا لا نحدث حدثاً، ولا نؤي محدثاً، وإني أرى هذا الأمر الذي تدعوننا إليه هو مما تكرهه الملوك، فإن أحببت أن نؤويك وننصرك مما يلي مياه العرب فعلنا.

فقال رسول الله: ما أسأتم في الرد، إذ أفصحتم بالصدق، وإن دين الله تعالى لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه، أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلاً، حتى يورثكم الله أرضهم وأموالهم، ويفرشكم نساءهم، أتسبحون الله تعالى وتقدسونه؟

فقال النعمان بن شريك من كبرائهم: الله لك ذا.

فتلا رسول الله: "إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا".

ويقول الطبري: لما أراد الله عز وجل إظهار دينه وإعزاز نبيه، وإنجاز مواعده له، خرج رسول الله في الموسم الذي لقي فيه النفر من الأنصار، فعرض نفسه علي قبائل العرب؛ كما كان يصنع في كل موسم؛ فبينما هو عند العقبة إذ لقي رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً. فقال لهم: من أنتم؟ قالوا: نفرٌ من الخزرج، قال: أفلا تجلسون حتى أكلمكم؟ قالوا: بلى، قال: فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن.

ويشير ابن اسحاق هنا إلى دور يهود يثرب في دفع الأوس والخزرج إلى الإسلام، بصورة غير مباشرة، وذلك لأنهم كانوا إذا كان بينهم وبين المشركين شيء قالوا لهم: إن نبياً الآن مبعوثٌ قد أظل زمانه، نتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم. فلما كلم رسول الله أولئك النفر، ودعاهم إلى الله، قال بعضهم لبعض: تعلمن والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود، فلا يسبقنكم إليه. فأجابوه فيما دعاهم إليه، بأن صدقوه، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا له: إنا قد تركنا قومنا. ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم؛ وعسى الله أن يجمعهم بك، وسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليه، فلا رجل أعز منك. ثم انصرفوا عن رسول الله راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا.

وقد روى ابن اسحاق عن قتادة الانصاري عن أشياخ منهم، قال: قالوا فينا وفيهم يعني في الأنصار وفي اليهود الذين كانوا جيرانهم نزلت هذه القصة.. قالوا: كنا قد علوناهم دهرا في الجاهلية، ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب، فكانوا يقولون: إن نبيا من الأنبياء يبعث الآن نتبعه، قد أظل زمانه، نقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به.

وقال ابو العالية: كانت اليهود تستنصر بمحمد (ص) على مشركي العرب، يقولون: اللهم ابعث هذا النبي الذي نجده مكتوبا عندنا حتى نعذب المشركين ونقتلهم. فلما بعث الله محمدا ورأوا أنه من غيرهم، كفروا به حسدا للعرب وهم يعلمون أنه رسول الله.

وقال الامام أحمد: حدثنا يعقوب، عن محمود بن لبيد، أخي بني عبد الاشهل، عن سلمة بن سلامة بن وقش، وكان من أهل بدر، قال: كان لنا جار يهودي في

بني عبد الأشهل، قال فخرج علينا يوماً من بيته قبل مبعث رسول الله بيسير، حتى وقف على مجلس بني عبد الأشهل. قال سلمة: وأنا يومئذ أحدث من فيهم سناً، على بردة مضطجعا فيها بفناء أهلي. فذكر البعث والقيامة والحسنات والميزان والجنة والنار. قال ذلك لأهل شرك أصحاب أوثان، لا يرون بعثاً كائناً بعد الموت، فقالوا: ويحك يا فلان، ترى هذا كائناً أن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار يجزون فيها بأعمالهم؟ فقال: نعم، والذي يحلف به، لو أن له بحظه من تلك النار أعظم تنور في الدنيا يحمونه ثم يدخلونه إياه فيطبق به عليه، وأن ينجو من تلك النار غداً، قالوا له: ويحك وما آية ذلك؟ قال: نبي يبعث من نحو هذه البلاد، وأشار بيده نحو مكة واليمن، قالوا: ومتى نراه؟ قال: فنظر إلي وأنا من أحدثهم سناً، فقال: إن يستنقد هذا الغلام عمره يدركه. قال سلمة: فوالله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله رسوله (ص) وهو بين أظهرنا، فأما به وكفر به بغيا وحسداً. فقلنا: ويلك يا فلان، ألسنت بالذي قلت لنا؟ قال: بلى وليس به.

وحكى القرطبي وغيره عن ابن عباس: أن يهود خيبر اقتتلوا في زمان الجاهلية مع غطفان فهزمتهم غطفان، فدعا اليهود عند ذلك، فقالوا: اللهم نسألك بحق النبي الأمي الذي وعدتنا بإخراجه في آخر الزمان، إلا نصرتنا عليهم، قال: فنصروا عليهم. قال: وكذلك كانوا يصنعون يدعون الله فينصرون على أعدائهم ومن نازلهم.

وهذه الرواية تتضمن الإشارة إلى كونه من العرب " اللهم نسألك بحق النبي الأمي " (والأميون هم غير اليهود، أي من الأمم الأخرى) بينما تنفي ذلك الرواية التالية، وهو ما يدفع على الاحتمال كون كلمة " الأمي " مضافة إليها.

قال ابن عباس: إن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله قبل مبعثه، فلما بعثه الله من العرب كفروا به، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه. فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور، أخو بني سلمة: يا معشر يهود اتقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ونحن أهل شرك، وتخبروننا بأنه مبعوث، وتصفون لنا بصفته. فقال سلام بن مشكم أخو بني النضير: ما جاءنا بشئ نعرفه، وما هو بالذي كنا نذكر لكم، فأنزل الله في ذلك من قولهم "ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين". (البقرة، 89)

فلما قدم طلائع الأنصار، المدينة على قومهم، ذكروا لهم رسول الله، ودعواهم إلى الإسلام؛ حتى فشا فيهم فلم تبق دارٌ من دور الأنصار إلا وفيها ذكرٌ من رسول الله، حتى إذا كان العام المقبل، وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر

رجلاً، فلقوه بالعقبة، وهي العقبة الأولى، فبايعوا رسول الله على بيعه النساء؛ على ألا يشركوا بالله شيئاً، ولا يسرقون ولا يزنون، ولا يقتلون أولادهم، ولا يأتون ببهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم، ولا يعصونه في معروف. فلما انصرف عنه القوم بعث معهم رسول الله مصعب بن عمير، وأمره أن يقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين؛ فكان يسمى مصعب بالمدينة: المقرئ، وكان منزله على أسعد بن زرارة.

وأسلم على يديه زعيمان من زعماء الخزرج هما أسيد بن حضير وسعد بن معاذ، بمجرد استماعهما للقرآن، وعاد سعد إلى قومه فقال: يا بني عبد الأشهل؛ كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأياً، وأيمننا نقيبةً، قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم علي حرامٌ حتى تؤمنوا بالله ورسوله. فوالله ما أمسى في دار عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً أو مسلمة.

قصة صنم عمرو بن الجموح

وكان عمرو بن الجموح سيداً من سادات بني سلمة، وشريفاً من أشرفهم، وكان قد اتخذ في داره صنماً من خشب، يقال له (مناة) كما كانت الأشراف يصنعون، تتخذها إلهة تعظمه وتطهره، فلما أسلم فتیان بني سلمة: معاذ بن جبل، وابنه معاذ بن عمرو في فتیان منهم ممن أسلم وشهد العقبة، كانوا يدلجون بالليل على صنم عمرو ذلك، فيحملونه فيطرحونه في بعض حفر بني سلمة، وفيها عذر الناس، منكسا على رأسه، فإذا أصبح عمرو، قال: ويلكم من عدا على آلهتنا هذه الليلة؟ قال: ثم يغدو يلتسمه، حتى إذا وجده غسله وطهره وطيبه، ثم قال: أما والله لو أعلم من فعل هذا بك لأخزينه. فإذا أمسى ونام عمرو، عدوا عليه، ففعلوا به مثل ذلك، فيغدو فيجده في مثل ما كان فيه من الأذى، فيغسله ويطهره: ويطيبه، ثم يعدون عليه إذا أمسى، فيفعلون به مثل ذلك. فلما أكثروا عليه، استخرجه من حيث ألقوه يوماً، فغسله وطهره وطيبه، ثم جاء بسيفه فعلقه عليه، ثم قال: إني والله ما أعلم من يصنع بك ما ترى، فإن كان فيك خير فامتنع، فهذا السيف معك. فلما أمسى ونام عمرو، عدوا عليه فأخذوا السيف من عنقه، ثم أخذوا كلباً ميتاً فقرنوه به بحبل، ثم ألقوه في بئر من آبار بني سلمة، فيها عذر من عذر الناس، ثم غدا عمرو بن الجموح فلم يجده في مكانه الذي كان به، فخرج يتبعه حتى وجده في تلك البئر منكسا مقرونا بكلب ميت، فلما رآه وأبصر شأنه، وكلمه من أسلم من (رجال) قومه، فأسلم برحمة الله، وحسن إسلامه. فقال حين أسلم وعرف من الله ما عرف، وهو يذكر صنمه ذلك وما أبصر من أمره، ويشكر الله تعالى الذي أنقذه مما كان فيه من العمى والضلالة:

والله لو كنت إليها لم تكن أنت وكلب وسط بئر في قرن
أف لملاقك إليها مستدن
الآن فتشناك عن سوء الغيبن الحمد لله العلي ذي المنن
الواهب الرزاق ديان الدين هو الذي أنقذني من قبل أن
أكون في ظلمة قبر مرتهن بأحمد المهدي النبي المرتهن

وأخذ مصعب يدعو الناس إلى الإسلام حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون إلا ما كان من دار بني أمية بن زيد وخطمة ووائل وواقف؛ وتلك أوس الله؛ وهم من أوس بن حارثة؛ وذلك أنه كان فيهم أبو قيس بن الأسلت (ابن أبي أنس)، وكان شاعرا لهم، وقائدا يسمعون منه، ويطيعونه، فوقف بهم عن الإسلام؛ فلم يزل على ذلك حتى هاجر رسول الله إلى المدينة؛ ومضى بدر وأحد والخندق.

يقول ابن إسحاق: إنه "كان رجلا قد ترهب في الجاهلية، ولبس المسوح، وفارق الأوثان، واغتسل من الجنابة، وتظهر من الحائض من النساء، وهم بالنصرانية، ثم أمسك عنها ودخل بيتا له، فاتخذة مسجدا لا تدخله عليه فيه طامث ولا جنب، وقال: أعبد رب إبراهيم، حين فارق الأوثان وكرهها، حتى قدم رسول الله ... المدينة، فأسلم وحسن إسلامه، وهو شيخ كبير".

وتقدم قصة إسلام قبيلة "سعد بن بكر" في رجب من السنة الخامسة للهجرة، نموذجا عن بساطة الإسلام، فقد أرسلت هذه القبيلة وفدا إلى المدينة، هو ضمام بن ثعلبة، فأقبل حتى وقف على رسول الله، فسأله فأغظ في المسألة، سأله عن أرسله وبما أرسله، وسأله عن شرائع الإسلام، فأجابته رسول الله، في ذلك كله، فرجع إلى قومه مسلما قد خلع الأنداد وأخبرهم بما أمرهم به ونهاهم عنه، فما أمسى في ذلك اليوم في حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلما، وبنوا المساجد وأذنوا بالصلوات.

الفصل الثاني: استراتيجية النبي محمد في دعوة المشركين للإسلام، في مكة

لماذا رفض المشركون الإيمان بمحمد؟

ولماذا رفض النبي الاستدلال على نبوته بالآيات (المعاجز)؟

رغم بساطة الإسلام وانسجامه مع الفطرة، ومسارة كثير من أهل مكة ولا سيما الأحناف، إلى تلبية نداء الإسلام، فإن الغالبية العظمى من أهل مكة

المشركين، ولا سيما الزعماء منهم، رفضوا الاستجابة لنداء الاسلام وأخذوا يشككون بصدق النبي محمد (ص) أو صحة الوحي النازل اليه من السماء.

وسنقوم الآن بجولة تاريخية في السور المكية، وملاحظة تطور الجدل بين المشركين والنبي محمد (ص) كما سوف نستأنس بما ورد من أحاديث، وروايات تاريخية، وآثار حول شأن النزول، وإن لم نعتمد عليها اعتمادا كلياً أساسياً لضعف سندها أو عدم دقتها، وذلك من أجل أن نقدم صورة تقريبية لموقف المشركين العام من النبي الأكرم والدعوة الإسلامية، والجدل الطويل الذي دار بين النبي والمشركين حول أدلة نبوته.

يقول ابن عباس: لما نزلت " وأنذر عشيرتک الأقربين " سعد النبي (ص) على الصفا، فجعل ينادي: " يا بني فھر!.. يا بني عدي!.. " لبطون قريش، حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو؟ فجاء أبو لهب وقريش، فقال: " أرأيتم لو أخبرتمكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقي؟ " قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقا، قال: " فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد.. يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني كعب أنقذوا أنفسكم من النار.. فإني والله لا أملك لكم من الله شيئاً، إلا أن لكم رحماً سأبلها ببلالها". فقال أبو لهب: تبا لك سائر اليوم، ألهذا جمعنتا؟ فنزلت "تبت يدا أبي لهب".

وهناك رواية أخرى يرويها ابن اسحاق والطبري عن ابن عباس عن علي بن أبي طالب تقول إن النبي طلب من علي أن يدعو بني عبد المطلب (عشيرته الأقربين) وكانوا حوالي أربعين رجلاً، ويعمل لهم طعاماً، حتى يكلمهم، فصنع صاعاً من طعام، وجعل عليه رجل شاة، وملاً عساً من لبن؛ فلما اجتمعوا إليه دعا بالطعام الذي صنعه لهم، فتناول رسول الله حذيةً من اللحم، فشققها بأسنانه، ثم ألقاها في نواحي الصفحة. ثم قال: خذوا بسم الله، فأكل القوم حتى ما لهم بشيء حاجة، وإن كان الرجل الواحد منهم ليأكل ما قدمت لجميعهم. ثم قال: اسق القوم، فجاءهم بذلك العس، فشربوا منه حتى رويوا منه جميعاً، وإن كان الرجل الواحد منهم ليشرب مثله، فلما أراد رسول الله أن يكلمهم بדרه أبو لهب إلى الكلام، فقال: سحركم صاحبكم! فتفرق القوم ولم يكلمهم رسول الله، فعمل لهم علي طعاماً وشراباً ودعاهم يوماً آخر، فأكلوا وشربوا، ثم تكلم رسول الله، فقال: يا بني عبد المطلب؛ إني والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفضل مما قد جئتمكم به؛ إني قد جئتمكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله تعالى أن أدعوكم إليه، فأيكم يؤازرنني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيي وخلفتي فيكم؟ قال: فأحجم القوم عنها جميعاً، وقال علي: أنا يا نبي الله، أكون وزيرك عليه. فأخذ برقبتي، ثم قال: إن هذا أخي ووصي وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا. قال: فقام القوم

يضحكون، ويقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع.

وبالرغم من وجود شك بصحة هذه القصة، لتضمنها إعجازا يشبه السحر، كان يأنف منه النبي، وطرحا لموضوع الخلافة على قوم لم يسلموا بعد، وهو أمر غريب، فإن هذه القصة والقصة السابقة (دعوة النبي العامة لقريش على الصفا) لا تخبرنا عن إسلام أحد من قريش أو بني عبد المطلب في ذلك اليوم، رغم اعترافهم بصدق النبي. وإنما تخبرنا عن رفضهم للدعوة الإسلامية واستهزائهم بالنبي، واتهامه بالسحر والجنون، وهو ما تحكيه لنا الآيات التالية:

- "ن، والقلم وما يسطرون ، ما أنت بنعمة ربك بمجنون". (القلم، 1-2)
- "قالوا إنما أنت من المسحرين، وما أنت الا بشر مثلنا، وإن نظنك لمن الكاذبين". (الشعراء 185 – 186)

• "ص والقرآن ذي الذكر، بل الذين كفروا في عزة وشقاق... وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون: هذا ساحر كذاب، أجعل الآلهة إليها واحدا إن هذا لشيء عجاب، وانطلق الملائمة منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم ان هذا لشيء يراد، ما سمعنا بهذا في- الملة الآخرة إن هذا الا اختلاق، أنزل الذكر عليه من بيننا، بل هم في شك من ذكري بل لما يذوقوا عذاب، أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب". (سورة ص 1-9)..

ولكن تهمة الجنون السخيفة سرعان ما توارت، فبدأ المشركون يهاجمون النبي ويبثون الإشاعات المختلفة والتحليلات الوهمية والأسئلة المختلفة والاشكالات التافهة. وقد جمعت قسطا منها سورة (الفرقان) وهي كالتالي:

- وقال الذين كفروا: "إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون، فقد جاءوا ظلما وزورا. (آية رقم 4)
- وقالوا: أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا. (5) قل: أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض، إنه كان غفورا رحيمًا. (6)
- وقالوا: ما بال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق؟
- لولا أنزل عليه ملك فيكون معه نذيرا. (7)
- أو يلقى إليه كنز،

- أو تكون له جنة يأكل منها،
- وقال الظالمون: إن تتبعون الا رجلا مسحورا". (8)
- "ومنهم من يستمع اليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاؤوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الاولين". (الانعام، 25)
- ويواصل القرآن (في سورة الفرقان) الحديث مع الرسول:
- "انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا، فلا يستطيعون سبيلا. (9) تبارك الذي إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا، بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا. (11) ... وما أرسلنا من قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق وجعلنا بعضكم لبعض فتنة، أفتصبرون، وكان ربك بصيرا". (20) ثم يعود القرآن ليستعرض شبهات المشركين:
- "وقال الذين لا يرجون لقاءنا: لولا أنزل علينا الملائكة،
- أو نرى ربنا، لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا". (21)
- "وقال الذين كفروا: لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة، كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا". (32)
- وإذا رأوك إن يتخذونك الا هزوا: أهذا الذي بعث الله رسولا، إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها، وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا". (42)
- ويعود القرآن في سورة (الإسراء) الى عرض إشاعات كفار قريش المضادة للنبي، وأسئلتهم التقليدية، ويرد عليها: "نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون اليك وإذ هم نجوى إذ يقول الظالمون:
- إن تتبعون الا رجلا مسحورا. انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا.
- وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا.
- أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا،
- أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا، أو تأتي بالله والملائكة

قبيلًا.

- أو يكون لك بيت من زخرف،
- أو ترقى في السماء،
- ولن نؤمن لرقبك حتى تنزل علينا كتابا نقرأه، قل سبحان ربي هل كنت الا بشرا رسولا. وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى الا أن قالوا:
- أبعث الله بشرا رسولا؟! قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا. قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم، إنه كان بعباده خبيرا بصيرا". (الإسراء، 47-96)
- وكما يلاحظ فان معظم هذه الأسئلة والاشكالات سبق وأن استعرضها القرآن في سورة الفرقان، وسوف يستعرضها مرة أخرى في سورة الأنعام.

وظل المشركون يرددون اتهاماتهم الساخرة الأولى للنبي بالشعر والجنون، الى وقت متأخر في مكة، وهو ما تكشف عنه سورة (الصافات) ذات الرقم التسلسلي المكي: (55)

- "ويقولون: أإننا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون". (آية 36) وتستكمل سورة (الأحقاف) استعراض الأسئلة الثانوية السخيفة التي كان يثيرها المشركون، اعتراضا على النبي، مثل قولهم:

- "مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق؟". (7) وقد أجابهم الله عن هذا السؤال بقوله:
- "وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، وجعلنا لبعضكم لبعض فتنة، أ تصبرون، وكان ربك بصيرا". (20)
- "وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا اليه، وإذ لم يهتدوا فسيقولون: هذا إفك قديم". (11) ثم يوجه القرآن خطابه للنبي ويأمره بالصبر على اتهامات المشركين: "فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم، كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار، بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون". (الأحقاف، 35)

وتواصل سورة (النحل) عرض الحوار التاريخي الذي جرى بين النبي

- ومشركي قريش، فتستعرض مقولاتهم، وترد عليها:
 "وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم؟ قالوا أساطير الأولين. ليحملوا
 أوزارهم كاملة يوم القيامة، ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم،
 ألا ساء ما يزرعون". (24-25)

ومن الجدير بالذكر هنا أن القرآن يتصف بصفة مميزة، فهو ينقل بأمانة وجهات نظر المخالفين والرافضين له وشبهاتهم، ويكررها دائماً، ومع أنه لا يذكر التفاصيل وأسماء القائلين عادة، إلا أنه يسجلها بعد حدوثها، أو كلما حدث جدل أو حوار بين النبي محمد والمشركين أو أهل الكتاب، ولذلك نشاهد وجود آيات عديدة بعشرات المرات، تتحدث عن مقولات الكفار وأسئلتهم واشكالاتهم، مثل ما سيرد في سورة 72 (الأنبياء)

- " ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون. لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا: هل هذا إلا بشر مثلكم، أفتأتون السحر وأنتم تبصرون. قال ربي يعلم القول في السماء والأرض وهو السميع العليم. بل قالوا: أضغاث أحلام، بل افتراه، بل هو شاعر، فليأتنا بآية كما أرسل الأولون". (2-5)

وظل كفار قريش، حتى وقت متأخر من وجود النبي محمد في مكة، يرددون نفس اتهاماتهم له بالافتراء والتقول والتزوير، حيث تقول سورة (السجدة):

- " ألم. تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين. أم يقولون افتراه، بل هو الحق من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون". (السجدة، 2-3)

وتقول سورة (الطور):

- "فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون، أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون؟، قل تربصوا فإنني معكم من المتربصين، أم تأمرهم أحلامهم بهذا؟ أم هم قوم طاغون؟ أم يقولون تقوله؟، بل لا يؤمنون، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين". (الطور، 29 – 35)

النبي يرفض الاتيان بمعجزة، ويتحدث عن معاجز الأنبياء السابقين

ويلاحظ أن القرآن بدأ يتحدث عن آيات (معاجز) الأنبياء السابقين، منذ سورة الشمس، وسورة القمر، وأولها (ناقة صالح) والعقاب الذي أنزله الله بالمكذابين، وهذا ما سيشكل مادة ساخنة للجدل في المستقبل بين النبي والمشركين الذين كانوا يطالبون بنزول الآيات.

وذلك خلافا للمتوقع من النبي محمد الأعزل من المعاجز، والذي لم يكن بحاجة لكي يذكر قومه بآيات الأنبياء السابقين، وربما غير المعروفة تاريخيا للكثير من المشركين وعامة الناس، ولكن النبي اتخذ موقفا جريئا يجمع بين التأكيد على تمتع الأنبياء السابقين بالمعاجز والآيات التي تثبت نبوتهم، وفي نفس الوقت رفض الاتيان شخصيا بأية معجزة، وتفسير ذلك بأن معاجز الأنبياء السابقين لم تغير مواقف المشككين بهم، ولم تمنعهم من عصيان الله، أو تدفعهم للإيمان.

تتوقف سورة الأعراف طويلا عند قصة موسى وفرعون، وتحكي عن الحوار الذي جرى بينهما، وطلب فرعون من موسى الإتيان بدليل على دعواه النبوة:

• " وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين... قال إن كنت جئت ببينة فأت بها إن كنت من الصادقين. فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين، ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين، قال الملاً من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم... وأوحينا الى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون... وألقى السحرة ساجدين، قالوا آمنا برب العالمين". (104-121)

وجاءت سورة 44 (طه) لتؤكد قدرة الله على منح أنبيائه الآيات المعجزات، فتحدثت مرة أخرى عن عصا موسى:

• "وما تلك بيمينك يا موسى؟ قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى، قال ألقها يا موسى، فألقها فإذا هي حية تسعى، قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى، واضمم يديك الى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى، لنريك من آياتنا الكبرى. ... والقف ما في يمينك تلقف ما صنعوا انما صنعوا كيد ساحر. ولا يفلح الساحر حيث أتى، فألقى السحرة سجدا قالوا آمنا برب هارون وموسى". (23 و70) وتكررت نفس القصة في السورة التالية رقم 46 (الشعراء):

• " قال لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين، قال أولو جنتك بشيء مبين، قال فأت به إن كنت من الصادقين، فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين، ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين، قال للملاً حوله: إن هذا لساحر عليم... فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون، فألقى السحرة ساجدين، قالوا آمنا برب موسى وهارون". (29 – 48)

ورغم تلك الآية العظيمة فإن آل فرعون لم يؤمنوا بموسى، واعتبروا ما قام به سحرا:

- "وقالوا مهما تأتانا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين. فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين. ... فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين". (132-136)

وحاولت سورة 47 (النمل) بصورة غير مباشرة، تفسير سبب امتناع النبي محمد عن الإتيان بالمعجز، وذلك لقول فرعون وقومه بأنها نوع من السحر، وهو ما يبطل الفائدة منها:

- "يا موسى إني أنا الله العزيز الحكيم، وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب... وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء في تسع آيات إلى فرعون وقومه، إنهم كانوا قوما فاسقين، فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين. وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين". (10 و 13 و 14)

ولم يجد النبي محمد (ص) مانعاً من التحدث عن معجز النبي سليمان:

- "ولقد فتننا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب. قال رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب، فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب، والشياطين كل بناء وغواص وآخرين مقرنين في الأصفاد". (34-38)

كما لم يجد مانعاً من التحدث مرة أخرى عن (ناقة صالح):

- "قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم". (73) ويذكر بالعذاب الذي نزل عليهم بعد عقر الناقة، وما نزل على قوم لوط، ومدين قوم شعيب الذين "أخذتهم الرجفة فأصبحوا في ديارهم جاثمين". (89)

ويعود القرآن في سورة 48 (القصص) إلى الحديث عن عصا موسى الإعجازية وسائر الآيات الأخرى، للمرة الرابعة:

- "وأن ألق عصاك، فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب، يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الأمنين. اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء، واضمم اليك جناحك من الريب فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملأه أنهم كانوا قوما فاسقين". (31-32)

ويبادر القرآن في هذه السورة إلى الإجابة عن السؤال المتوقع: (لماذا لا يأتي

النبي محمد بالمعجز المشابهة لمعجز موسى؟) فيقول:

• " ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين، فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى، أو لم يكفروا بما أوتي موسى من قبل، قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون". (القصص، 47-48)

ويبدو من خلال سورة (الأعراف) أن الحديث عن عصا موسى، وملك سليمان، قد دفع المشركين لمطالبة النبي محمد مرة أخرى، بالإتيان لهم بمعجز وآيات، وهذا ما تعالجه الآية التالية:

• "وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها، قل إنما أتبع ما يوحى إليّ من ربي". (الأعراف، 203)

وكان من المتوقع أن يثير الحديث عن معجز الأنبياء السابقين، السؤال لدى مشركي مكة والطلب من النبي إثبات نبوته بالمعجز والآيات، كما فعل موسى:

• "وقالوا: لولا يأتينا بآية من ربه – فجاء الجواب -: أو لم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى، ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا: لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى". (طه، 133-134)

حوار المشركين مع النبي الأكرم

وكما يروي الطبري في (تاريخه) عن ابن عباس ، فإن زعماء قريش (عتبة وشيبة ابني ربيعة ، وأبا سفيان بن حرب ، وأبا البختري ، والأسود بن المطلب بن أسد ، وزمعة بن الأسود ، والوليد بن المغيرة ، وأبا جهل الحكم بن هشام وعبد الله بن أبي أمية، وأمّية بن خلف ، والعاص بن وائل ، ونبيهة ومنبهة ابني الحجاج السهميين)، اجتمعوا ذات يوم، في بداية الدعوة الإسلامية، عند ظهر الكعبة ، فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلّموه وخاصّموه حتى تعذروا فيه، فبعثوا إليه : أن أشرف قومك قد اجتمعوا لك ليكلّموك . فجاءهم رسول الله (ص) سريعا وهو يظن أنه قد بدا لهم في أمره بداء، وكان عليهم حريصا، يحب رشدهم، ويعز عليه عنّتهم، حتى جلس إليهم، فقالوا:

- يا محمد، إنا قد بعثنا إليك لنعذر فيك، وإنا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك! لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وسفّحت الأحلام، وشتمت الآلهة، وفرقت الجماعة، فما بقي من أمر قبيح إلا وقد جنّته فيما بيننا وبينك! فإن كنت إنما جنّت بهذا الحديث تطلب به مالاّ جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاّ، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا، سودناك علينا، وإن كنت تريد

ملكا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك بما يأتيك رثيا تراه قد غلب عليك - وكانوا يسمون التابع من الجن: الرئي - فربما كان ذلك، بذلنا أموالنا في طلب الطب، حتى نبرئك منه، أو نعذر فيك .
فقال رسول الله (ص):

- " ما بهي ما تقولون، ما جئتم بما جئتم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن بعثني (الله) إليكم رسولا وأنزل علي كتابا ، وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا ، فبلغتكم رسالة ربي ، ونصحت لكم ، فإن تقبلوا مني ما جئتمكم به ، فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله ، حتى يحكم الله بيني وبينكم " .
فقالوا:

- يا محمد، فإن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك، فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيح منا بلادا، ولا أقل مالا ولا أشد عيشا منا، فاسأل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به ، فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا ، ولييسط لنا بلادنا ، وليفجر فيها أنهارا كأنهار الشام والعراق ، وليبعث لنا من مضي من آبائنا ، وليكن فيمن يبعث لنا قصي بن كلاب ، فإنه كان شيخا صدوقا ، فنسألهم عما تقول حق هو أم باطل؟ فإن صنعت ما سألناك وصدقوك، صدقناك ، وعرفنا منزلتك عند الله، وأنه بعثك رسولا كما تقول!
فقال لهم رسول الله:

- " ما بهذا بعثت، إنما جئتم من عند الله بما بعثني به ، فقد بلغتكم ما أرسلت به، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله ، حتى يحكم الله بيني وبينكم " .
قالوا:

- فإن لم تفعل لنا هذا فخذ لنفسك ، فاسأل ربك أن يبعث ملكا يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك ، وتسأله فيجعل لك جنانا ، وكنوزا وقصورا من ذهب وفضة ، ويغنيك بها عما نراك تبتغي، فإنك تقوم بالأسواق، وتلتمس المعاش كما نلتمسه ، حتى نعرف فضل منزلتك من ربك ، إن كنت رسولا كما تزعم .
فقال لهم:

- " ما أنا بفاعل، ما أنا بالذي يسأل ربه هذا، وما بعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثني بشيرا ونذيرا، فإن تقبلوا ما جئتمكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم " .
قالوا:

- فأسقط السماء، كما زعمت أن ربك إن شاء فعل ذلك، فإننا لن نؤمن لك إلا أن تفعل .
فقال لهم:

- "ذلك إلى الله إن شاء فعل بكم ذلك " .
فقالوا:

- يا محمد، أما علم ربك أنا سنجلس معك ، ونسألك عما سألناك عنه ، ونطلب منك ما نطلب فيقدم إليك ويعلمك ما تراجعنا به ، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا ، إذا لم نقبل منك ما جئتنا به ، فقد بلغنا أنه إنما يعلمك هذا رجل باليمامة ، يقال له: (الرحمن) وأنا والله لا نؤمن بالرحمن أبداً ، فقد أعذرتنا إليك يا محمد، أما والله لا نتركك وما فعلت بنا حتى نهلكك أو تهلكنا . وقال قائلهم : نحن نعبد الملائكة وهي بنات الله . وقال قائلهم: لن نؤمن لك حتى تأتي بالله والملائكة قبيلاً .

فلما قالوا ذلك قام رسول الله (ص) عنهم، وقام معه عبد الله بن أبي أمية ، وهو ابن عمته عاتكة ، فقال:

- يا محمد، عرض عليك قومك ما عرضوا، فلم تقبله منهم ، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله ، فلم تفعل ذلك ، ثم سألوك أن تعجل لهم ما تخوفهم به من العذاب ، فوالله لا أؤمن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً ، ثم ترقى فيه ، وأنا أنظر حتى تأتيها، وتأتي معك بنسخة منشورة ، معك أربعة من الملائكة، يشهدون أنك كما تقول . وأيم الله، لو فعلت ذلك لظننت أني لا أصدقك .

ثم انصرف عن رسول الله، وانصرف رسول الله إلى أهله حزينا أسفا لما فاتته، مما كان طمع فيه من قومه حين دعوه، ولما رأى من مباحثهم إياه.

تحدي النضر بن الحارث للنبي محمد والقرآن

وكان من بين أشد المعارضين للنبي محمد (ص)، النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف، التاجر المكي الذي حفظ قصص الفرس وأساطير الروم، وخالط المجوس واليهود والمسيحيين، أثناء سفره إلى الحيرة في العراق والشام وفارس ، وكان إذا عاد إلى مكة يحدث الناس بهذه القصص والأحاديث . وقد استغل ثقافته هذه ليعارض بها النبي، ويقول للمشركين: "بماذا محمد أحسن حديثاً مني؟"

وكان إذا جلس النبي مجلساً، فدعا فيه إلى الله والإسلام، وتلا فيه القرآن ، يأتي النضر فيبدأ يحكي الأساطير والأقاصيص التي تعلمها ويحدث الناس عن رستم وإسفنديار، وملوك فارس، ثم يقول: "أنا والله يا معشر قريش، أحسن حديثاً منه، فهلّموا إليّ، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه"، وكان يقول: "محمد يحدثكم أحاديث

عاد وثمود، وأنا أحدثكم أحاديث فارس والروم"،
وفي ذات مرة قص النبي محمد ما جرى مع أهل القرون الماضية، فقال النضر:
"قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا، وما حديثه إلا أساطير الأولين اكتبتها كما
اكتبتها" فقال الصحابي عثمان بن مظعون: "اتق الله فإن محمداً يقول الحق"، فرد
النضر قائلاً: "فأنا أقول الحق" أي حتى أنا أقول الحق، فقال عثمان: "فإن محمداً
يقول لا إله إلا الله!"، فرد النضر: "وأنا أقول لا إله إلا الله، ولكن هذه بنات
الله!!"، يقصد الأصنام العزى واللات ومناة، ثم قال: "اللهم إن كان هذا الذي يقول
محمد هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم"
فنزلت فيه آية:

- "وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا، إن هذا إلا أساطير
الأولين". (الأنفال، ٣١)

وفي مرة أخرى سأل النضر النبي: متى تنقضي الدنيا؟ فأجابه الوحي:
- "يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّ لَيْلٍ مُرْسَلَةٍ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا
هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ
إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ". (الأعراف، 187)

وكان النضر إذا سمع أن أحداً يريد دخول الإسلام والإيمان بالنبي محمد يذهب
إليه وينطلق به إلى جارية مغنية له، فيقول: أطعميه واسقيه وغنيه، هذا خير مما
يدعوك إليه محمد من الصلاة والصيام. أي الغناء والموسيقى واللهو أفضل من
العبادات وما يأمر به الإسلام، فنزلت فيه آية قرآنية وهي:
"وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا
أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ". (لقمان، 6)

ويظهر من خلال عدد من الآيات أن النضر كان من أشد المتربصين بالنبي
والمعارضين له، كما تقول هذه الآية التي يقال انها نزلت فيه:

• "ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ثاني
عطفه ليضل عن سبيل الله له في الدنيا خزي ونذيقه يوم القيامة عذاب
الحريق ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد". (الحج، 8 -

(10)

فقد قال القرطبي في تفسيرها: "إن النضر بن الحارث يجادل في الله
بغير علم، ويتبع كل شيطان مريد، والنضر بن الحارث يجادل في الله من غير

علم ومن غير هدى وكتاب منير؛ ليضل عن سبيل الله...وقد قيل: كان من قول النضر بن الحارث أن الملائكة بنات الله، وهذا جدال في الله تعالى.

المشركون يطلبون نزول ملائكة

وفي غضون ذلك الجدل الساخن في مكة، نزلت سورة 53 (الحجر) لتنتقل لنا طلبا جديدا – قديما من المشركين، وهو نزول الملائكة على النبي وإثبات صحة دعوى النبوة لهم:

- "وقالوا: يا أيها الذي نُزِّلَ عليه الذكر إنك لمجنون، لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين". (الحجر، 7)
- " فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك، وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك، إنما أنت نذير، والله على كل شيء وكيل". (هود، آية 12)

وهو نزولٌ للملائكة يذكر القرآن (في سورة هود) أنه حدث في زمان إبراهيم ولوط :

- "ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى، قالوا سلاما، قال سلام، فما لبث أن جاء بعجل حنيذ، فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة، قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط". (هود، 70) وأن الملائكة بشروا زوجة إبراهيم العقيم بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب (هود، 71 – 73)، وأنهم ذهبوا بعد ذلك إلى لوط: "ولما جاءت رسلنا لوطا سيئ بهم وضاق بهم ذرعا، وقال هذا يوم عصيب". (هود، 77) وأن قوم لوط حاولوا الاعتداء جنسيا على ضيوفه من الملائكة: "وجاءه قومه يهرعون إليه، ومن قبل كانوا يعملون السيئات، قال يا قوم: هؤلاء بناتي هن أطهر لكم، فاتقوا الله ولا تخزونني في ضيفي، أليس منكم رجل رشيد، قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد". (هود، 78-79) كما يؤكد القرآن نزول الملائكة على الأرض مرة أخرى، في سورة (الحجر) في الآيات من 51 إلى 71: "ونبئهم عن ضيف إبراهيم، إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما، قال: إنا منكم وجلون...قالوا: إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين...فلما جاء آل لوط المرسلون، قال إنكم قوم منكرون... وجاء أهل المدينة يستبشرون، قلل إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون، واتقوا الله ولا تخزون...". ورغم ذلك فإن القرآن يرفض

نزول الملائكة على النبي وأهل مكة، ويرد على طلب المشركين
قائلاً:

• " ما ننزل الملائكة الا بالحق، وما كانوا إذاً منظرين". (8)

واضافة الى ذلك فقد تحدث القرآن عن نزول الملائكة على مريم ابنة عمران، وهي ليست نبيهة، حيث نزلت سورة 43 (مريم) لتحكي عن نزول الملك، متجسداً في إنسان سوي، على مريم :

• "واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً". (آية 17)

القرآن يرفض طلب المشركين بنزول الملائكة ويفسره بالعامل النفسي

ويفسر القرآن ذلك الطلب بوجود مشكلة لدى الكفار تمنعهم من الإيمان بالنبي محمد، وأن المشكلة لا تكمن في نزول الملائكة، بل حتى لو سعد الكفار أنفسهم الى السماء فلن يؤمنوا:

• " ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون، لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون". (الحجر، 15)
ولا نملك بالطبع رواية تاريخية مستقلة، أو معبرة عن رأي أهل مكة المشركين، وبالتالي لا نعرف ردهم على هذا التحدي القرآني وما ذا قالوا جواباً عن هذه الآية.

إن القرآن الكريم يصر دائماً على اتهام الكفار بأنهم يستخدمون طلب الآيات كحجة وغطاء لرفضهم الإيمان بالاسلام، وإلا فلو استجاب الله لطلباتهم، وحتى لو أنزل اليهم ملائكة، فإنهم سيستمرون في عنادهم وكفرهم واتهام النبي حينئذ بالسحر، كما فعل أقوام الأنبياء السابقين، ويؤكد أكثر من مرة أنهم يعرفون الحق جيداً ولكنهم يعرضون. وهذا ما تعبر عنه سورة 54 (الأنعام) بصورة واضحة، حيث تقول:

• "وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين. فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون. ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم... ولو أنزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا الا سحر مبين. وقالوا : لولا أنزل عليك ملك، ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم لا ينظرون. ولو جعلناه ملكاً لجعلناه

رجلا وللبسنا عليهم مما يلبسون". (الأنعام، 4-9) وتؤكد ذلك في مقاطع أخرى: "الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون. ومن أضلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته، إنه لا يفلح الظالمون. ومنهم من يستمع اليك، وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا، وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين". (الأنعام، 20 و 21 و 25) "وقالوا: لولا نزل عليه آية من ربه، قل إن الله قادر على أن ينزل آية، ولكن أكثرهم لا يعلمون". (الأنعام، 37)

وتتحدث سورة الأنعام عن الحوار الذي جرى بين زعماء المشركين والنبي فنقول:

• "وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها، قل إنما الآيات عند الله، وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون. ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة، ونذرهم في طغيانهم يعمهون. ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا، ما كانوا ليؤمنوا، إلا أن يشاء الله، ولكن أكثرهم يجهلون". (109 – 111)

وتعود سورة (الأنعام) لتتحدث عن مطالب المشركين الممتنعين من الإيمان بالرسول، والعوامل النفسية التي تقف وراء موقفهم، فنقول:

• "وإذا جاءتهم آية، قالوا: لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله، الله أعلم حيث يجعل رسالته، سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون. فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء، كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون". (124-125) "وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا: ما أنزل الله على بشر من شيء، قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس، تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا، وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم، قل الله، ثم ذرهم في خوضهم يلعبون". (91)

ويتوجه القرآن لمخاطبة المكذبين مباشرة:

• "وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون، أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا، وإن كنا عن دراستهم لغافلين. أو تقولوا لو أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم، فقد

جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة، فمن أظلم ممن كذب بآيات الله، وصدف عنها، سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون. هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة، أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك، يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل، أو كسبت في إيمانها خيرا، قل انتظروا إنا منتظرون". (155-158)

ثم يتوجه القرآن لمخاطبة النبي الذي كان يحرص على هداهم، ويعز عليه كفرهم، فيقص عليه أنباء المرسلين السابقين مع أقوامهم، ويدعوه الى الصبر والصمود، فيقول:

• "ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون. قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين". (10-11) "ولقد كُذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا، وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ، ولا مبدل لكلمات الله، ولقد جاءك من نبا المرسلين، وإن كان كبر عليك إعراضهم ، فان استطعت أن تبتغي نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتيهم بآية، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين". (35)

ويرسم القرآن للنبي الموقف العملي الممكن في مواجهة المشككين:

• "قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب، ولا أقول لكم إني ملك، إن أتبع إلا ما يوحى الي، قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون". (50)

وفي الرد على المشركين المشككين برسالة النبي محمد، والمطالبين الآيات والمعجز، أوضح الله سبب الامتناع عن تسليح النبي بالمعجز، قائلا:

• "وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون، وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا". (الإسراء، 59) وأنزل يومها: "وأقسموا بالله جهد أيمانهم: لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها، قل: إنما الآيات عند الله، وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون، ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة، ونذرهم في طغيانهم يعمهون، ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا، ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله، ولكن أكثرهم يجهلون، وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن، يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول

غرورا، ولو شاء الله ما فعلوه، فذرهم وما يفترون". (الأنعام،
109-112)

لقد كان النبي يحب أن يهدي قومه، ويبذل المستحيل لإقناعهم وهدايتهم، ولما لم يستجيبوا له خاطبه الله قائلاً:

• " إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين".
(القصص، 56)

إن من يلقي بنظرة على أجواء الحوار والجدل الدائر بين النبي محمد والمشركين، والتي ينقلها القرآن الكريم بدقة، يستغرب من تكرار النبي لقصة موسى وآياته التسع، في سور عديدة متتالية، في الوقت الذي كان المشركون يطالبونه بالدليل على صدق نبوته، وبالإتيان ببعض المعاجز والآيات، ولكن النبي كان يرفض الاستجابة لهم، ويكرر على مسامعهم قصص الأنبياء السابقين ومعجزهم، كدليل على قدرة الله على صنع المعاجز على أيدي أنبيائه، وعدم حدوث الفائدة من تلك المعاجز في التأثير على الكفار ودفعهم للإسلام.

وربما يتساءل متسائل: لماذا كان النبي يحكي لهم إذن قصص المعاجز والآيات السابقة، في الوقت الذي كان بإمكانه أن يكتفي بتحذيرهم وتهديدهم، أو يدعوهم للنظر في مضمون رسالته، والإيمان أو الكفر، بعد ذلك؟ ولماذا كان النبي يعطي الكفار سلاحاً قوياً، ويدفعهم لتحديه بطلب المعاجز؟

في الحقيقة لا نملك اجابة دقيقة، ولا يسعنا الا احتمال الجواب في أن النبي محمد لم يكن يريد أن يجحد معاجز الأنبياء السابقين، أو ينكرها بالمرّة، وهي مذكورة في التوراة والإنجيل، وانما كان يتحدث عنها باطمئنان، ويتحداهم بعدم تلبية طلباتهم بالمعاجز.

الله عز وجل يرفع معنويات النبي

ولا بد أن نتوقع شيئاً من الحرج أصاب النبي محمد في حوارهِ مع المشركين مع تحدّثه بالتفصيل عن معاجز الأنبياء السابقين، وإصراره على رفض الاتيان بآية معجزة، وهذا ما يستشف - ربما - من هذه الآية:

• " كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين". (38 الأعراف، 2)

وجاءت سورة 40 (يس) لترفع مرة أخرى معنويات النبي وتؤكد له:

- "يس والقرآن الحكيم، إنك لمن المرسلين، على صراط مستقيم، تنزيل العزيز الرحيم، لتتذرع قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون".

وترفع عنه شيئاً من الهم والحزن لعدم استجابتهم له:

- " لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون ... وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون، وسواء عليهم أنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون، إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب". (7-11)

وذهبت سورة (يس) تضرب للنبي الأمثال التاريخية عن تكذيب الأقسام السابقين لأنبيائهم:

- "واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون، إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا: إنا إليكم مرسلون، قللوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون، قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون، وما علينا إلا البلاغ المبين... يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون... وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين". (17 و30 و46)

ويهدد الله المستكبرين والمكذبين بالخلود بالنار:

- "لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط، وكذلك نجزي المجرمين". (آية 36 – 40)

وجاءت سورة 42 (فاطر) لتعزي الرسول، وتهدد الكافرين:

- "وإن يكذبوك فقد كُذبت رسل من قبلك، وإلى الله ترجع الأمور... وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير. ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير". (4 و 25 و26)

وتابعت سورة (الشعراء) الحديث عن نفس المشكلة:

- " لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين، إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين". (آية 4) وحاولت طمأنة النبي بحقيقة ما ينزل عليه من الوحي:

- "وإنه لتنزيل رب العالمين، نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من

المنذرين، بلسان عربي مبين، وانه لفي زبر الأولين". (192)

اليأس من اسلام قريش

وهنا لا بد أن نتخيل سيطرة جو من اليأس من إسلام كفار قريش، ووصول الحوار بينهم وبين النبي الى طريق مسدود، وهذا ما توحى به الآيات التالية التي تتحدث عن عناد الكفار حتى لو جاءتهم آية (معجزة) من الله، واستمرار وجود الشك لديهم، وتقول أن الإيمان من الله:

- " إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون، ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم". (يونس، 96-97) "وما كان لنفس أن تؤمن الا بإذن الله، ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون". (يونس، 100) و "قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني فلا اعبد الذين تعبدون من دون الله، ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم، وأمرت أن أكون من المؤمنين". (يونس، 104)

ومن هنا فقد جاءت سورة 51 (هود) لكي تسلي النبي محمد وترفع عنه الغم والحزن، وتنهاه عن التنازل عن بعض ما يوحى اليه:

- " فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك، وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك، إنما أنت نذير، والله على كل شئ وكيل". (هود، آية 12)

وتحكي سورة الأنعام (التي تحمل رقم 54 من السور المكية) عن فترة عصيبة وصعبة من الحوار بين النبي والمشركين، فمن ناحية كان هؤلاء يصرون ويكررون مطالبهم بنزول الآيات أو الملائكة، ومن ناحية أخرى كان النبي يتطلع الى إيمانهم ويعاني من إعراضهم عن رسالته، وتذكر هنا قوله تعالى:

- "طه، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى، إلا تذكرة لمن يخشى". (طه، 3-1) وقوله تعالى: "لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين". (الشعراء، 3) وقوله تعالى: "فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا". (الكهف، 6) وكذلك: "وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك، إنما أنت نذير، والله على كل شئ وكيل". (هود، 12) .

وظل المشركون يرددون اتهاماتهم الساخرة الأولى للنبي بالشعر والجنون، الى

وقت متأخر في مكة، وهو ما تكشف عنه سورة (الصفات) ذات الرقم التسلسلي المكي (55):

- " ويقولون: أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون". (آية 36)
- وهو ما تؤكد سورة 56 (لقمان) التي تتحدث أيضا عن عنادهم واستكبارهم:
- "ومن الناس من يشري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم، ويتخذها هزوا، أولئك لهم عذاب مهين. وإذا تتلى عليه آياتنا ولي مستكبرا كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقرا، فبشره بعذاب أليم". (6-7)

وهنا يعود القرآن لتذكير النبي بمعاندة الأقسام السابقين لأنبيائهم، من أجل أن يخفف عنه بعض المعاناة النفسية والإحباط لرفض مشركي أهل مكة الاستجابة له وترديدهم لتهم الافتراء والسحر والجنون، فيقول:

- "وما أرسلنا في قرية من نذير الا قال مترفوها: إنا بما أرسلتم به كافرون... وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا الا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم، وقالوا ما هذا الا إفك مفترى، وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا الا سحر مبين. وما أتيناهم من كتب يدرسونها، وما أرسلنا اليهم من قبلك من نذير. وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما أتيناهم، فكذبوا رسلي فكيف كان نكير. قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة، إن هو الا نذير لكم بين يدي عذاب شديد". (34-46)

ثم يأمر القرآن النبي بمخاطبة المشركين:

- " قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي، وإن اهتديت فبما يوحي إلي ربي إنه سميع قريب". (50)

وهو موقف يحمل في طياته قدرا كبيرا من اليأس من اهتدائهم للحق. وربما كانت سورة 58 (الزمر) تحمل نفس الموقف اليأس من هداية الكافرين، وتضع الفريقين أمام مفترق طرق، حيث تخاطب النبي محمد:

- "تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم، إنا أنزلنا اليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين... قل الله أعبد مخلصا له ديني". (1و2و14)
- كما تخاطب المشركين وتوعدهم بالخسران والعذاب: "فاعبدوا ما شئتم من دونه، قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران المبين. (15)... فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه، أليس في جهنم مثوى للكافرين. (32)... ومن يضل الله فما له من هاد، ومن يهد الله فما

له من مضل. (36)... انا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق، فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فانما يضل عليها، وما أنت عليهم بوكيل. (41)... واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم من قبل أن يأتكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون. (55) أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله، وإن كنت لمن الساخرين. (56) أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين". (57)

إذا.. فقد تحول الحوار بين النبي والمشركين الى جدل عقيم يائس، وهذا ما جاءت سورة 59 (غافر) لتحدث عنه:

• " ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا، فلا يغررك تقلبهم في البلاد، كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم، وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب. (5) ...الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم، كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا، كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار. (35)...إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم، إن في صدورهم الا كبر ما هم ببالغيه، فاستعذ بالله، انه هو السميع البصير. (56)... ألم تر الى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون، الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا، فسوف يعلمون. (70) ...وما كان لرسول أن يأتي بأية الا بإذن الله، فإذا جاء أمر الله قضي بينهم بالحق وخسر هنالك المبطلون". (78).

وبعد أن انقطع الحوار الإيجابي بين النبي والمشركين، أعلن هؤلاء موقفهم النهائي الرافض للاستجابة للدين الجديد، وهذا ما تحدثت عنه سورة 60 (فصلت) فقالت:

• " كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون، بشيرا ونديرا، فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون، وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إنا عاملون". (5) ...وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون... (27) ... ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي، قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر، وهو عليهم عمى، أولئك ينادون من مكان بعيد". (44).

نفهم من الآيات الآنفة أعلاه: أن المشركين تحجروا في موقفهم وأغلقت آذانهم وعقولهم، ثم بدأوا يشنون حربا إعلامية قمعية، ويمنعون الناس من الاستماع للقرآن الكريم، الذي بدأ يؤثر على كثير من الناس، وحاولوا المشاغبة بإثارة اللغو،

والإشاعات والتحليلات الوهمية، والافتراءات والتكذيب، كما تقول الآية الكريمة: "وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه، لعلكم تغلبون" (فصلت، 26)

إشكالات المشركين الواهية على القرآن

ويبدو أن (القرآن) بدأ مع تزايد كميته، يشكل فعلا، تحديا صعبا للمشركين، فلم يستطيعوا مواجهته بسهولة، وفضلوا اعتماد التهريج ومنع الناس من الاستماع إليه، كما ورد في هذه الآية:

- "وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون". (فصلت، 26) وفعلوا كما فعل قوم نوح حيث "جعلوا أصابعهم في آذانهم، واستغشوا ثيابهم، وأصروا واستكبروا استكبارا". (نوح، 7)

وراح المشركون يأخذون إشكالات واهية أخرى مثل السؤال عن سبب نزول القرآن منجما:

- "وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة"، فرد الله عليهم بقوله: "كذلك لنثبت به فؤادك، ورتلناه ترتيلا، ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا". (الفرقان، 32-33)
- "ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته، أأعجمي وعربي؟ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء، والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى، أولئك ينادون من مكان بعيد". (فصلت، 44)
- وعندما عجز كفار قريش عن تحدي القرآن، حاولوا أن يستهينوا بالرسول وينفوا عنه الوحي والنبوة، فنسبوا تأليف القرآن الى بعض البشر:
- "ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر، لسان الذي يلحدون إليه أعجمي، وهذا لسان عربي مبين". (النحل، 103)
- "وقال الذين كفروا: إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون، فقد جاءوا ظلما وزورا". (الفرقان، 4)

وقد شكك مشركو قريش أيضا بالقرآن وقالوا: إنه من وحي الشيطان، فرد عليهم الله عز وجل بقوله:

- "إنه لقرآن كريم، في كتاب مكنون، لا يمسه إلا المطهرون". (الواقعة، 79)
- "وما تنزلت به الشياطين، وما ينبغي لهم وما يستطيعون، إنهم عن السمع لمعزولون". (الشعراء، 212)
- "إنه لقرآن رسول كريم، ذي قوة عند ذي العرش مكين، مطاع ثم أمين، وما صاحبكم بمجنون، ولقد رآه بالأفق المبين، وما هو على

الغيب، بضنين، وما هو بقول شيطان رجيم، فأين تذهبون، إن هو إلا ذكر للعالمين". (التكوير، 19-26)

وبعد سنوات طويلة من العناد، بدأ المشركون يشعرون بأهمية القرآن ودوره في كسب المؤمنين برسالة النبي محمد، فراحوا يثيرون قضايا جانبية وشخصية، ويستهزئون بالنبي، ويستصغرون شأنه أن ينزل عليه قرآن، كما تحدثنا سورة 62 (الزخرف):

• "وقالوا: لولا نُزِّلَ هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم".
(الزخرف، 31)

وكانوا يقصدون: الوليد بن المغيرة المخزومي من أهل مكة، وحبیب بن عمرو بن عمير الثقفي، من أهل الطائف، أو عتبة بن ربيعة من أهل مكة، وابن عبد ياليل الثقفي من الطائف. فجاءهم الجواب:

• "أهم يقسمون رحمة ربك؟ نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات، ليتخذ بعضهم بعضا سخريا، ورحمة ربك خير مما يجمعون". (32)

النسخ والتبديل

وحاولت سورة النحل معالجة بعض الآثار المترتبة على عملية نسخ بعض الآيات القرآنية أو أحكامها، والتي دفعت المشركين الى مزيد من التشكيك بنبوة النبي محمد واتهامه بالافتراء على الله وتغيير بعض الآيات أحيانا، وهذا في نظرهم لا يجوز على الله، وإنما هو من فعل الإنسان، ففسرت (سورة النحل) سبب النسخ والتبديل، فجاء فيها:

• " وإذا بدلنا آية مكان آية، والله أعلم بما ينزل، قالوا: إنما أنت مفتر. بل أكثرهم لا يعلمون. قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين". (101-105)

واستشكل كفار قريش أيضا على عملية النسخ وتبديل بعض الآيات بأن القرآن ليس من وحي الله، وإنما من تأليف محمد، وإلا لما تعرض للنسخ والتبديل، وقد نقل القرآن كلامهم:

• "ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها، ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير". (البقرة، 106)

وبعد أن كان المشركون يستنكرون تبديل أو نسخ بعض آيات القرآن من قبل

الله، قاموا أنفسهم بالطلب من النبي استبدال بعض آي القرآن التي لا تعجبهم:

- "وإذا تتلى عليهم آياتنا، قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا، أو بدلناه، قل ما يكون لي أن أبدله من تلقائي نفسي، إن أتبع إلا ما يوحى الي، إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم، قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به، فقد لبثت فيكم عمرا من قبله، أفلا تعقلون، فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته، إنه لا يفلح المجرمون". (يونس، 15-17)

"يعلمه بشر"

كما ناقشت سورة (النحل) أيضا دعوى تعلم النبي من بعض أهل الكتاب. ف جاء فيها:

- " ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر، لسان الذي يلحدون إليه أعجمي، وهذا لسان عربي مبين. إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم. إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله، وأولئك هم الكاذبون". (101-105)

ولا نعرف بالضبط ماذا كان جواب المشركين لهذا الرد القرآني على تهمة التعليم الأجنبي (العجمي) للنبي، ويمكن لأي باحث محايد أن يتخيل بأنهم ربما أجابوا بأننا نقصد المضمون وليس اللغة والصياغة العربية للقرآن. وهي بلا شك بلغة النبي محمد وفصاحته وبلاغته. وبالتالي يمكن افتراض أنهم لم يقتنعوا تماما بالرد، وأن الرد لم يكن دقيقا، وأن الجدل حول الموضوع استمر الى وقت أطول. وهذا ما نلمسه في سورة 71 (إبراهيم) في الآية الرابعة، التي نتحدث عن انسجام لغة الرسل مع أقوامهم:

- "وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم، فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء، وهو العزيز الحكيم". (إبراهيم، ٤)

علما بأن الرسالة الإسلامية هي لجميع الناس، وليست للعرب فقط، وإن كان العجم لا يفهمون اللغة العربية ولا فصاحتها وإعجازها، فانهم يتعاملون مع مضامينها ومعانيها، وبالتالي فإن الكفار أو الباحثين العجم (غير العرب) قد يكررون التهمة للنبي محمد بالتلقي والتعلم من بعض أهل الكتاب (العبيد أو الأحرار) في مكة وغيرها من المدن، والقراءة والاقتباس من كتب التوراة

والتلمود، مستغلين بعض التطابق في بعض القصص والحكايات، كما فعل القسيس (يوحنا الدمشقي) في وقت متأخر، أو بعض الباحثين المعاصرين الذين يقومون بدراسات مقارنة بين القرآن والتوراة والثقافة الاسرائيلية القديمة التلمودية والشعبية.

التحدي القرآني: معجزة النبي الخالدة

لقد كان ذلك هو التحدي الأكبر الذي رفعه النبي في وجوه كفار قريش: أن يأتيوا بحديث مثل القرآن " فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين"، ولكنهم كانوا ينكفئون خائبين، ويتشبثون بمطلب المعاجز، فكان يرد عليهم القرآن بأنهم غير صادقين بوعدهم بالإيمان، كما حدث مع الأقوام السابقين مع أنبيائهم الذين جاءوهم بالآيات البينات والمعاجز الباهرات، ومع ذلك لم يؤمنوا. كما تقول سورة 84 (العنكبوت) التي تتحدث عن المشركين، الذين:

• "قالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه، قل انما الآيات عند الله وانما أنا نذير مبين. أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم، إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون. قل كفى بالله بيني وبينكم شهيدا، يعلم ما في السماوات والأرض، والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون". (العنكبوت، 50- 52)

وتحداهم الله قائلا:

• " قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين، فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم، ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله، إن الله لا يهدي القوم الظالمين". (القصص، 59 – 50)

وبعد سنوات طويلة من العناد والرفض والمطالبة بالمعاجز والآيات، قدم النبي محمد للمشركين معجزة الاسلام الخالدة، وهي (القرآن) فقال:

• "قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتيوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا". (الإسراء 88 – 89)

وهناك آية أخيرة تعبر عن مشهد الجدل والحوار والتحدي، بين النبي محمد والكفار بصورة عامة، وهي من أوائل ما نزل في المدينة، في بداية سورة (البقرة) وربما كانت موجهة الى اليهود الذين بدأوا يشككون بنبوته، ويطالبونه أيضا

بالمعاجز والآيات، وهي:

- "وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين، فإن لم تفعلوا، ولن تفعلوا، فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة، أعدت للكافرين". (البقرة 23-24)

وبدلاً من أن يستجيب المشركون للتحدي الإسلامي بالإتيان بما يشابه القرآن، أو بسورة من مثله، راحوا يتهمون النبي محمد (ص) بالافتراء على الله، واختلاق القرآن من نفسه، فنزلت سورة 61 (الشورى) لتستنكر هذه الدعوى:

- "أم يقولون افتري على الله كذباً فإن يشأ الله يختم على قلبك ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته، إنه علیم بذات الصدور". (24) وتدعوهم للإيمان: "استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله ما لكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير". (47) ولتخاطب النبي من جهة أخرى: "فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً، إن عليك إلا البلاغ". (48)

كما تعود سورة الاحقاف لتناقش هذا الاتهام (افتراء النبي القرآن):

- "أم يقولون افتراه، قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً، هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيداً بيني وبينكم هو الله الغفور الرحيم. (8) ، قل ما كنت بدعاً من الرسل، وما أدري ما يفعل بي ولا بكم، إن أتبع إلا ما يوحى الي وما أنا إلا نذير مبين. (9) قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به، وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم، إن الله لا يهدي القوم الظالمين. (10) وحاولت سورة هود معالجة هذه التهمة، بإلقاء الكرة في ملعب المشركين، للمرة الثالثة، وتحديهم بقوة:

- "أم يقولون افتراه، قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين. فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله، وأن لا إله إلا هو، فهل أنتم مسلمون". (هود، 13-14)

وواصلت سورة (يونس) التحدي:

- "أم يقولون افتراه، قل فاتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين. بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه، ولما يأتهم

تأويله، كذلك كذب الذين من قبلهم، فانظر كيف كان عاقبة
الظالمين". (يونس، 38-39)

ما هي طبيعة إعجاز القرآن؟

لم يصلنا من القرآن أو النبي محمد (ص) أي توضيح لهذه الآيات واخواتها
السابقة، حول مضمون هذا التحدي القرآني: كيف هو؟ وفي أي مجال؟ أو في أي
جانب؟ هل في بلاغة القرآن؟ أم في المضمون والجوانب التشريعية؟ أم في العلوم
الغيبية التي تضمنها القرآن والتي اكتشفت عبر الزمان؟

لا يمكن القول: إن المقصود من المعجزة القرآنية هي العلوم والمعارف التي
يتضمنها القرآن، كما يحاول بعض المسلمين المعاصرين أن يفعل ذلك، لأن تلك
العلوم والمعارف لم تكن معروفة في بدء الرسالة، ولم تكن تشكل حجة معجزة
على الجاهليين أو الكفار في زمن الرسول، ولذا يبدو أن جانب الإعجاز الأدبي
للقرآن هو الأقرب من المقصود، وهذا الجانب أيضا، لم يكن بارزا في بدء نزول
الوحي مع العدد القليل من السور والآيات، ولذلك فإن الرسول الأكرم لم يطرح
التحدي القرآني في بداية الدعوة، وإنما طرحه في أواخر عهده بمكة. ويلاحظ أن
الآية الأولى هي من سورة هود التي نزلت في أواسط السور المكية، وأن الآيتين
الأخريين هما من سورتي (الإسراء) و(يونس) وهما من أواخر السور المكية،
وأما الآية الرابعة فهي من أوائل سورة (البقرة)، تلك السورة الأولى التي نزلت
في المدينة واستمرت في النزول المتقطع طوال العهد المدني.

وإذا كان التحدي بإعجاز القرآن قد اعتمد في أواخر العهد المكي وأوائل العهد
المدني، فإنه يكشف عن صعوبة واجهت النبي في السنوات الأولى من دعوته، قبل
أن يكتمل القرآن أو تنزل كمية معتبرة منه، لا سيما أن النبي كان يرفض الإتيان
بآيات معجزة كما فعل الأنبياء السابقون، الذين دأب النبي على التحدث عنهم وعن
معجزهم.

اسألوا أهل الذكر

ولكي يثبت الله عز وجل، للمشركين المشككين بصحة نزول الوحي على رسوله
محمد (ص) طلب منهم مرارا، أن يسألوا أهل الذكر، أي اليهود والنصارى، عن
حقيقة نبوته قائلا:

- "وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن
كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر^{٣٤} وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما
نزل إليهم ولعلهم يتفكرون". (النحل، ٤٣-٤٤)

- "وما أرسلنا قبلك الا رجالا نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون. (الأنبياء، ٧)
 - "ويقول الذين كفروا لست مرسلا، قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب". (الرعد 43)
 - "قل: أرأيتم إن كان من عند الله، وكفرتم به، وشهد شاهد من بني اسرائيل على مثله، فأمن واستكبرتم، إن الله لا يهدي القوم الظالمين". (الأحقاف، 10)
- ويخبر المشركين قائلا:

- "الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون. وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به، إنه الحق من ربنا، إنا كنا من قبله مسلمين، أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرؤون بالحسنة السيئة، ومما رزقناهم ينفقون". (القصص، 52-54)

أن القرآن يحيل، عدة مرات، على أهل الكتاب أو علمائهم للتأكد من حقيقة القرآن وصحة دعوى النبي محمد :

- "الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون".

- "والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق، فلا تكونن من الممترين". (الأنعام، 20 و 114)

- "ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل اليك من ربك هو الحق، ويهدي الى صراط العزيز الحميد". (سبأ، 6)

- "قل آمنوا به أو لا تؤمنوا، إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا، ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا". (الإسراء، 107-108)

وهناك آيتان مثيرتان للجدل تخاطب النبي:

- "وهو الذي أنزل إليك الكتاب مفصلا، والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق، فلا تكونن من الممترين". (الأنعام، 114)
- "فإن كنت في شك مما أنزلنا اليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك، لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين، ولا تكونن من الذين كذبوا

بآيات الله فتكون من الخاسرين". (يونس، 94)

ولا يمكن أن نتخيل تزعرع إيمان النبي بنفسه وبرسالته، نتيجة لتشكيك الكفار به، ولكن يبدو أن الآية الأولى (الأنعام، 114) تحاول طمأنته بالقول إن أهل الكتاب يعلمون أن القرآن منزل من ربه بالحق "فلا تكونن من الممترين". وربما كانت تشير إلى بعض علمائهم الذين أعلنوا إسلامهم في وقت لاحق.

وأما الآية الثانية فإنها تأتي في أعقاب آيتين يتحدى فيهما القرآن مرتين الكفار والناس أجمعين أن يأتوا بمثل هذا القرآن: (الإسراء، 88) و (يونس، 38) وهي لا تعني وقوع الشك فعلا في قلب النبي، إذ لا يمكن أن نتصور الرسول الذي يتحدى البشرية بللقرآن، يشك هو- نفسه فيه، ولا يجد طريقة للتثبت مما ينزل عليه إلا بسؤال خصومه أهل الكتاب! وإنما هي على طريقة (إياك أعني واسمعي يا جارة) أي أن الخطاب موجه للنبي والمعنى المقصود من الشك هم المشركون.

وعلى أي حال، فإن السؤال الآن هو: هل ذهب المشركون ليسألوا اليهود أهل الكتاب عن صحة القرآن ونبوة محمد؟ وهل أجابوهم جوابا إيجابيا مثبتا لصحة دعوى النبي؟

سوف نبحث ذلك في الفصل التالي:

الباب الأول، الفصل الرابع: اختبار المشركين للنبي في مادة التاريخ

قريش تبعث وفدا لليهود لتسأل عن حقيقة النبي محمد (ص)

تحدثنا في الفصل السابق عن طلب النبي محمد (ص) من مشركي قريش، مرارا وفي آيات عديدة، سؤال أهل الذكر أي اليهود والنصارى عن حقيقة نبوته، وقد لقي ذلك الطلب قبولا عند بعض زعماء قريش، كالنضر بن الحارث الذي وقف فيهم خطيبا وقال: "يا معشر قريش، إنه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد، قد كان محمد فيكم غلاما حدثا أرضاكم فيكم، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب، وجاءكم بما جاءكم به، قلتم: ساحر، لا والله ما هو بساحر. لقد رأينا السحرة ونثمهم وعقدهم؛ وقلتم: كاهن، لا والله ما هو بكاهن، قد رأينا الكهنة وتخالجهم وسمعنا سجعهم؛ وقلتم: شاعر، لا والله ما هو بشاعر، قد

رأينا الشعر، وسمعنا أصنافه كلها هزجه وزجزه؛ وقلتم: مجنون، لا والله ما هو
بمجنون، لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه ولا وسوسته ولا تخليطه. يا معشر قريش
فانظروا شأنكم فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم.

ولما قال لهم النضر ذلك قرر زعماء قريش إرساله مع عقبة بن أبي معيط
إلى أحبار اليهود في المدينة، وقالوا لهما: "سلاهم عن محمد، وصفا لهم
صفته، وأخبراهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علم ليس عندنا من
علم الأنبياء" فذهبوا للمدينة فسألوا أحبار اليهود عن النبي، ووصفا لهم أمره،
وأخبراهم ببعض قوله، وقالوا لهم: "إنكم أهل التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا
عن صاحبنا هذا"، فقالوا لهم: "سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن
فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقول، فروا فيه رأيكم. سلوه عن فتية
ذهبوا في الدهر الأول ما كان أمرهم؛ فإنه قد كان لهم حديث عجب، وسلوه
عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغربها ما كان نبؤه؟ وسلوه عن
الروح ما هي؟ فإذا أخبركم بذلك فاتبعوه، فانه نبي، وإن لم يفعل، فهو رجل
متقول، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم.

فعاد النضر وعقبة لمكة، وقالوا لقريش: "يا معشر قريش، قد جئناكم
بفصل ما بينكم وبين محمد، قد أخبرنا أحبار يهود أن نسأله عن أشياء
أمرونا بها، فإن أخبركم عنها فهو نبي، وإن لم يفعل فالرجل متقول، فرؤا فيه
رأيكم"، فذهبوا للنبي محمد وقالوا: "يا محمد، أخبرنا عن:

- فتية ذهبوا في الدهر الأول قد كانت لهم قصة عجب؛
- وعن رجل كان طوفا قد بلغ مشارق الأرض ومغربها؛
- وأخبرنا عن الروح ما هي؟".

فوعدهم النبي بأن يخبرهم عن ذلك غدا، ولكن الوحي لم ينزل عليه في اليوم
التالي، وتأخر أياما أخرى، فبدأوا يستهزئون بالنبي ويلحون عليه في طلب

الجواب، فنزل قوله تعالى:

- "ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا، إلا أن يشاء الله، واذكر ربك إذا نسيت، وقل عسى أن يهدينني ربي لأقرب من هذا رشدا". (الكهف، 24-23)

أصحاب الكهف

وفي الإجابة عن السؤال الأول حول الفتية، نزل قوله تعالى:

- "أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا فَضَرْبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِئُوا أَمَدًا نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاَهُمْ هُدًى وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا هُوَ لَاءِ قَوْمِنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يُعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهُ فَأَوْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا... " الى تنمة القصة ، من آية 7 الى آية 26 من سورة الكهف.

وقد أكد القرآن المعلومة الرئيسية عن قصة الفتية السبعة الذين هربوا من ملك كافر، وهم كما يذكر التاريخ كانوا من المسيحيين هربوا من اضطهاد الأمبراطور الروماني الوثني دقيانوس (ديسيوس) الذي حكم بين 249 و251م وكان يجبر الناس على عبادة الآلهة الرومانية وتقديم القرابين لها، فلجأ الفتية المؤمنون الى كهف في جبل (انخليوس) في مدينة أفسس (في آسيا الصغرى)، ولكن القرآن لم يشر الى اسم الملك ولا الى اسم مدينتهم،

في الوقت الذي أضاف معلومات أخرى ربما لم تكن معروفة لأحد وهي اصطحابهم لكلب، وتقليب الشمس لهم، وبقائهم على قيد الحياة ثلاثمائة وتسع سنوات ثم استيقاظهم وخروجهم من الكهف، ووفاتهم بعد ذلك وبناء الناس (المسيحيين) مسجدا عليهم.

وإذا جمعنا الرقمين $559=309+250$ فمن المفترض أن يكون تاريخ العثور على أصحاب الكهف قبل ميلاد النبي محمد بعشر سنوات، ولا بد أن يكون خبر العثور عليهم حديثا ومعروفا ومشهورا وموثقا، ولكن لم يصلنا شيء عنهم، ولا يوجد دليل على معرفة اليهود والمشركين بهم بدقة، وبالتالي فقد بقي الجواب غامضا لأن السؤال كان كذلك.

ذو القرنين ويأجوج ومأجوج

وفي الجواب عن الرجل الطواف من المشرق الى المغرب، سمي القرآن ذلك الرجل "بذي القرنين"، كناية عن ذي القوة والسلطان، فقال:

"وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا إِنَّا مَكَنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَاتَّيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا فَأَتْبَعَ سَبَبًا ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّمَا أَنْ تَعَذَّبَ وَإِنَّمَا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ، قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكَرًا ، وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا" (الكهف، 83 - 88)

ورغم تبادر الذهن الى الاسكندر المقدوني الكبير (336-323 ق.م) الذي كسر ملك الفرس الأخميني داريوس الثالث سنة 331 ق.م ، إلا أن القرآن لم يحدد اسمه وهويته بالضبط، وتركه مترددا بين عدة أشخاص. ولكنه أضفى عليه صفة تقارب النبوة، حيث قال: "قلنا يا ذا القرنين..." وهي صفة ينسبها التراث اليهودي القديم الى (قورش) ملك الفرس الذي جاء في القرن السابع ق.م قبل الإسكندر بأربعة قرون. وكان هذا وثنيا بينما يصف سفر (أشعياء الاصحاح 44 و45) قورش بانه مؤمن بالله واليوم الآخر. ويسميه: "راعي الرب" وقال عنه في الاصحاح 45:

- "هكذا يقول الرب لمسيحه كورش الذي أمسكت بيمينه لأدوس أمامه أمما

وحقاء ملوك أحل لأفتح أمامه المصراعين والأبواب لا تغلق، أنا أسير قدامك والهضاب أمهد، أكسر مصراعي النحاس ومغاليق الحديد اقصف، وأعطيك ذخائر الظلمة وكنوز المخابئ، لكي تعرف أنني أنا الرب الذي يدعوك باسمك. لقبتك وأنت لست تعرفني". وهو ما يؤكد أيضا كتاب دانيال (القرن السادس ق.م) الاصحاح 6 وكتاب عزرا (القرن الخامس ق.م) (الاصحاح 1).

وهذا ما يتفق مع ما أشار اليه القرآن بأن "ذا القرنين" كان مؤمنا ويتلقى الوحي من الله، في كيفية التعامل مع الشعوب التي كان يصادفها في طريقه، خلافا للاسكندر المقدوني الذي كان وثنيا وظالما.

ولكن المقطع الثاني من قصة "ذي القرنين" وتعامله مع "يأجوج ومأجوج" تتفق مع ما اشتهر عن الاسكندر المقدوني، كما ورد في الروايات اليهودية والمسيحية:

• " ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطَّلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَيْنِ وَجَدَ دُونَهُمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا، قَالُوا: يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنْ يَا جُوجَ وَمَأْجُوجَ مَفْسُدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًا، قَالَ مَا مَكْنِي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ، فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا، آتُونِي زَبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أَفْرَغَ عَلَيْهِ قَطْرًا، فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا، قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي... " (الكهف، 84 – 99)

وقد ورد ذكر "ماجوج" في (سفر التكوين، أول أسفار موسى الخمسة)، (سفر التكوين 10:1؛ سفر الأخبار الأول 1:5))، على أنه واحد من أولاد يافث بن نوح. وهو اسم علم لرجل واحد، ثم أصبح يطلق على قوم من الناس، ثم أطلق على منطقة من الأرض يسكنها ذلك الشعب، وذلك حسبما ورد في رؤيا حزقيال (570-622 ق.م): "يا ابن آدم اجعل وجهك على جوج أرض يأجوج رئيس روش ماشك وتوبال". وهما أيضا من أبناء يافث (سفر التكوين 10:2). وقد وصف المؤرخ اليهودي فلافيوس يوسيفوس (حوالي 37-103م) السكيثيين بأنهم يأجوج،

وهم شعب بدوي جبلي قوقازي يعيش في آسيا الصغرى الى الجنوب الشرقي من البحر الأسود، واكتسح غربي آسيا في العام 626 ق.م. وأقام مملكة في تلك

المنطقة امتدت من بلغاريا الحالية حتى جبال القوقاز (700-200 ق.م).

وقد عبر النبي اليهودي حزقيال الذي عايش تلك الأحداث، عن مخاوفه من اجتياح يأجوج لمملكة بني اسرائيل (سفر حزقيال 38:5؛ 38:12) وتنبأ بأن الله سيقضي على يأجوج ويمطر عليها نارا: "فيعلمون أنني أنا الرب قدوس إسرائيل" (سفر حزقيال 38-39:16).

وتكمن صعوبة التحقق من تطابق القصة القرآنية عن "ذي القرنين" مع الاسكندر المقدوني، وحقيقته والأعمال التي قام بها من واقع عدم وجود روايات تاريخية موثقة عن (سيرة الاسكندر) ما عدا بعض الكتب الخيالية المؤلفة في وقت متأخر بقرون.

ولذلك فقد تحول الاسكندر المقدوني الى أسطورة لا يمكن التحقق مما ينسب إليه، ولا نعرف بدقة ما إذا كان مؤمنا حقا ونبيا أو شبه نبي، أو كافرا. ولا ينبغي أن نعتبر حديث القرآن عن "ذي القرنين" حديثا تاريخيا عن الاسكندر، رغم تشابه ما يتحدث به القرآن مع الكثير مما يعرف عن الاسكندر، ولا سيما محاصرته لقوم يأجوج ومأجوج، وكذلك رغم توقع اليهود والمشركين من النبي محمد الإجابة عن سؤالهم عن الرجل الطواف في المشرق والمغرب.

وبغض النظر عن هوية "ذي القرنين" الشخصية، وما فعله حقا بقوم يأجوج ومأجوج، فإن القرآن ينص في موضعين (في سورتي الكهف والأنبياء) على تحطيم الله للسد الذي بناه "ذو القرنين" وخروج يأجوج ومأجوج، كعلامة من علامات يوم القيامة، حيث يقول القرآن:

• "فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء، وكان وعد ربي حقا، وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض، ونفخ في الصور فجمعناهم جمعا" (الكهف، 98 – 99) و"حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون، واقترب الوعد الحق فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين" (الأنبياء، 96 و97)

وهو ما يتفق مع رؤيا حزقيال و (سفر يوحنا) اللذين أشارا الى يأجوج ومأجوج، بأنهم يظهرون في الفترة الأخيرة التي تسبق يوم الدين في آخر الزمان، حيث سيطلقون من عقابهم لارتكاب شرورهم بانتظار عودة المسيح، وأن ظهورهم شرط من أشراط الساعة.

يسألونك عن الروح

وأما السؤال الثالث عن (الروح) الذي ورد في رواية ابن هشام، فيبدو أنه طرح في مناسبة أخرى تالية، ولذلك ورد الجواب عنه في سورة الإسراء، وهي من أواخر السور المكية. وتختلف الروايات بشأن نزول هذه الآية في مكة أو المدينة، وفيما إذا سألته اليهود مباشرة من النبي، أو انهم اقترحوا على وفد المشركين طرح السؤال عليه في مكة. وعلى أي حال فقد جاء السؤال غامضا وكذلك الجواب، ولم يتم تحديد ما المقصود بالروح هل هو روح الانسان؟ أو الملك (جبرئيل)؟ وقد نزلت هذه الآية:

- " وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا". (الإسراء، 85)

موسى والعبد الصالح

وقد تحدثت سورة الكهف، إضافة الى قصة الفتيان السبعة وذي القرنين ويأجوج ومأجوج، عن قصة النبي موسى والعبد الصالح (الذي يطلق عليه في كتب التفسير الاسلامية اسم الخضر) الذي خرق السفينة وقتل الغلام وأقام الجدار. (من آية 60 الى 82) وربما كان هذا المقطع من السورة جوابا عن سؤال رابع آخر من أسئلة اليهود التي علموها لقريش، أو بدلا من أحدها، ولكن الجواب يختلف قليلا عما ورد في تراث اليهود سواء في التوراة أو التلمود. حيث لم ترد هذه القصة في التوراة، وإنما ورد مقطع منها بصورة مختلفة في التلمود الذي كتب مؤخرا في أيام السبي البابلي، وتقول الرواية التلمودية أن القصة حدثت بين الرابي يوحنا وإلياهو النبي الذي يزعم اليهود أنه قد رفع الى السماء. مع اختلاف في بعض التفاصيل الاخرى حيث تخلو الرواية التلمودية عن قصة خرق السفينة، ولا تذكر قتل الغلام، وإنما فقط موت بقرة بدعاء إياهو.

كما تشترك بعض فقرات القصة القرآنية (حول موسى والعبد الصالح) مع ما يروى عن الاسكندر الكبير، حسبما يرد في الكتاب الخيالي غير الموثوق

(مغامرات الاسكندر الكبير). الذي يتحدث عن الاسكندر وطاهيه وذهابهما الى ملتقى النهرين، وينقل عنه قوله: "وصلنا الى موضع فيه بئر صافية يلتمع ماؤه كالبرق، وفيه آبار كثيرة. وكانت رائحة الهواء في ذلك الموضع طيبة ولم تسيطر العتمة تماما فيه. شعرت بالجوع واحتجت الى شيء آكله فطلبت الطاهي المدعو أندرياس وقلت له: اصنع لنا طعاما. فأخذ سمكة مملحة وذهب بها الى ماء البئر الصافية ليغسلها. ولكن ما أن لامست السمكة الماء حتى عادت حية وانزلت من يد الطاهي. ولما كان الخوف قد استولى على الطاهي فهو لم يخبرني بما حدث. فأخذ شيئا من الماء لنفسه وشربه ووضع بعضا منه في ابريق فضي ليحفظه. كان ثمة وفرة من الآبار هناك وشربنا منها كلها. ولكن من نكد الحظ أنه لم يقيض لي أن أشرب من بئر الخلود التي تعيد الموتى الى الحياة؛ بينما كان من حسن طالع الطاهي أن حظي بذلك".

قصة يوسف وإخوته

ويذكر المفسرون أيضا محاولة أخرى مشتركة للمشركين واليهود لامتحان النبي محمد، وذلك بسؤاله عن قصة تاريخية مذكورة في التوراة (سفر التكوين) وهي قصة يوسف وإخوته، كما قال تعالى:

- "لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين". (آية 7)

وأن هذا السؤال (الامتحان) كان سبب نزول سورة يوسف، كما يقول الإمام المقرئ محمد بن القاسم ابن الأنباري (328هـ) في "زاد المسير": "إن قريشا واليهود سألت رسول الله (ص) عن قصة يوسف وإخوته، فشرحها شرحا شافيا، وهو يؤمل أن يكون ذلك سببا لإسلامهم فخالقوا ظنه، فحزن رسول الله (ص) فعزاه الله تعالى بهذه الآية "وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين". (يوسف، 103)

ملك سليمان

ولا ندري فيما إذا كان المشركون أو اليهود قد سألوا النبي عن تفاصيل ملك

سليمان، ولكن القرآن يتحدث في أكثر من سورة عن ذلك، كما في سورة (ص):

- "ولقد فتننا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب، قال رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي، إنك أنت الوهاب، فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب، والشياطين كل بناء وغواص، وآخرين مقرنين في الأصفاد". (ص، ٣٤-٣٨)

كما لا نعرف ماذا كان موقف المشركين واليهود من بعض هذه التفاصيل التي ذكرها القرآن، ولم ترد في التراث اليهودي عن ملك سليمان، وفيما إذا كانوا موافقين أو معترضين على هذه المعلومات. وهل استغلوا ذلك في التشكيك بنبوة النبي محمد، أو اعتبروا تلك التفاصيل دليلا على صدق كلامه؟ ويبدو أن الموافقة عليها كانت أقرب، وإلا لشنعوا على النبي ذكر تفاصيل لا يعرفونها أبدا.

الرجل الميت الذي عاد الى الحياة

وهناك قصص تاريخية أخرى يتحدث عنها القرآن بإيجاز وغموض، كقصة الرجل

"الذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها، قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مئة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم، قال بل لبثت مئة عام فانظر الى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر الى حمارك ولنجعلك آية للناس، وانظر الى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما، فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير" (البقرة، 259)

وكما هو ملاحظ لا يذكر القرآن الكريم اسم الشخص ولا اسم المدينة الخاوية، ولكن (سفر باروخ الرابع) وهو من الأسفار اليهودية غير القانونية يتحدث عن غلام النبي إرميا (أبي مالك) الذي أماته الله ستة وستين عاما عشية دمار أورشليم، ثم أحياه كبشارة بإحياء المدينة وعودة المسبيين إليها.

مسخ الذين اعتدوا في السبت قردة وخنازير

ومن الأمور التي يذكرها القرآن عن تاريخ اليهود ما حدث لبعضهم من الذين اعتدوا في السبت "فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين". (البقرة، ٦٥) والذي يكرره في آية أخرى هي:

- "قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله، من لعنه الله وغضب عليه

وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت، أولئك شر مكانا وأضل
عن سواء السبيل". (المائدة، ٦٠)

ولا يمكن بالطبع أن نتوقع اعترافا يهوديا بحدوث ذلك، كما لا توجد أدلة
تاريخية محايدة تثبت ذلك، ومن هنا فقد أول بعض المفسرين مسخ بعض
اليهود قردة وخنازير، بالمسخ المعنوي وليس المادي كما يظهر من
الآيتين.؟؟؟؟؟؟

قصة هاروت وماروت في بابل

ولعل أهم قصة في التاريخ يتحدث عنها القرآن الكريم هي قصة هاروت
وماروت، الملكين اللذين نزلا الى الأرض ليمتحننا البشر، وعاشا في بابل، وقد
ورد ذكرهما في هذه الآيات:

• "واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان، وما كفر سليمان، ولكن
الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل
هاروت وماروت، وما يعلمان من أحد حتى يقولا: إنما نحن فتنة فلا
تكفر، فيتعلمون منهما ما يفرقون بين المرء وزوجه، وما هم بضارين به
من أحد إلا بإذن الله، ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم، ولقد علموا لمن
اشتراه ماله في الآخرة من خلاق، ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا
يعلمون" (البقرة، 201 – 202)

وقد اختلف المفسرون في هوية الملكين، وحقيقة هاروت وماروت، وما إذا
كانت "ما" الواردة في "وما أنزل على الملكين" جاحدة أو موصولة، وأول
الأئمة والمفسرون والمحدثون هذه الآية تأويلات عديدة، حيث روى الطبري عن
ابن مسعود وابن عباس أنهما قالوا: لما كثر بنو آدم وعصوا، دعت الملائكة
عليهم والأرض والسماء والجبال: ربنا ألا تهلكتهم! فأوحى الله الى الملائكة:
إني لو أنزلت الشهوة والشيطان من قلوبكم ونزلتم لفلتم أيضا! قال: فحدثوا
أنفسهم أن لو ابتلوا اعتصموا، فأوحى الله إليهم: أن اختاروا ملكين من

أفضلكم، فاختاروا هاروت وماروت، فأهبطا الى الأرض، وأنزلت الزهرة إليهما في صورة امرأة من أهل فارس... فوقعا في الخطيئة... فخيراً بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاختارا عذاب الدنيا.

ولا توجد في التوراة العبرانية أو التلمود إشارة الى هاذين الملكين، ولكن الأسفار غير القانونية الفولكلورية تتحدث عن هبوط ملاكين الى الأرض أحدهما يدعى عزازيل والآخر شمهازي، ووقوع الأخير في حب امرأة تدعى الزهرة وطلب وصالها، ولكنها تمنعت واشترطت عليه أن يطلعها على اسم الله الأعظم الخفي، ففعل ذلك. وما أن حازت على الاسم حتى استخدمت قوته في الصعود الى السماء قبل أن تفي بوعدا لشمهازي، ولكن الله أوقفها بين أفلاك الأجرام السماوية السيارة، وحولها الى الجرم المعروف بكوكب الزهرة أو كوكب فينوس.

وأرى أنني لست بحاجة للتعليق على هذه الرواية المتهاففة.

الفصل الرابع: هل حاول النبي محمد التنازل قليلاً للمشركين؟

بعد وصول الحوار بين النبي الأكرم ومشركي قريش الى طريق مسدود، ومحاولته المستميتة لجذبهم للإسلام، يذكر المؤرخون والمحدثون والمفسرون قصصاً عن تنازل النبي محمد (ص) عن تشدده السابق في رفض الاتيان بمعاجز وآيات تثبت نبوته، حسبما كلن المشركون يطلبون، ويذكرون أيضاً الميل لهم قليلاً بالنسبة للموقف من آلهتهم. وهي قصص غير تثبتة تلريخياً، وقد أثلرت جدلاً طويلاً، ولكننا سنقوم باستعراضها وتقييمها، ونترك للقارئ اللبيب اختيار الموقف النهائي منها.

والقصص التي تروى في هذا المجال هي:

1 - شق القمر

2 - الاسراء والمعراج

3 - الغرانيق العلا

• انشقاق القمر .. معجزة حدثت؟ أم آية ستحدث في المستقبل؟

يقال أن النبي محمد (ص) في إطار محاولته استمالة قومه الى الإسلام، قام بتلبية أحد مطالبهم بالإتيان بمعجزة أو آية تشهد له بصحة نبوته، وهو ما كان يرفضه بشدة سابقا، ولكنه تنازل لهم قليلا وجاء لهم بآية. حيث يروي البخاري عن أنس بن مالك: أن أهل مكة سألوا رسول الله (ص) أن يريهم آية، فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما. وأخرج أبو نعيم في "الدلائل" عن ابن عباس، قال: اجتمع المشركون الى رسول الله (ص) منهم الوليد بن المغيرة وأبو جهل بن هشام والعاص بن وائل والأسود بن المطلب والنضر بن الحارث ونظراؤهم فقالوا للنبي: إن كنت صادقا فشق لنا القمر فرقتين، فسأل ربه فانشق.

وعن ابن مسعود قال: انشق القمر على عهد رسول الله (ص) فرقتين، فرقة فوق الجبل وفرقة دونه. فقال رسول الله: أشهدوا.. أشهدوا. (متفق عليه) وعنه أيضا قال: لقد رأيت جبل حراء من بين فلقتي القمر. وقال الطبري في تفسيره: "قوله (وانشق القمر)... وكان ذلك فيما ذكر على عهد رسول الله (ص) وهو بمكة، قبل هجرته إلى المدينة، وذلك أن كفار أهل مكة سألوه آية، فأراهم (ص) انشقاق القمر، آية حجة على صدق قوله، وحقيقة نبوته؛ فلما أراهم أعرضوا وكذبوا، وقالوا: هذا سحر مستمر، سحرنا محمد، فقال جل ثناؤه (وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر) ". ولا يشير الطبري في تفسيره لأي رأي آخر في موضوع الإنشقاق.

وقال أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي المتوفى سنة (671 هـ) في كتابه (الجامع لأحكام القرآن، والمبين لما تضمن من السنة وأحكام الفرقان): "وعلى هذا الجمهور من العلماء، ثبت ذلك في صحيح البخاري وغيره من حديث ابن مسعود وابن عمر وأنس وجبير بن مطعم وابن عباس رضي الله عنهم... وقال قوم لم يقع... وكذا قال القشيري. وذكر الماوردي: إن هذا قول الجمهور... قلت: وقد ثبت بنقل الأحاد العدول أن القمر انشق بمكة، وهو ظاهر التنزيل، ولا يلزم أن يستوي الناس فيها، لأنها كانت آية ليلية، وأنها كانت باستدعاء النبي (ص) من الله تعالى التحدي... وقد تقدم أن أهل مكة هم الذين سألوا وطلبوا أن يريهم آية، فأراهم انشقاق القمر فلقتين، كما في حديث ابن مسعود وغيره".

وأضاف القرطبي: "قد ثبت بنقل الأحاد العدول أن القمر انشق بمكة، وهو ظاهر التنزيل، ولا يلزم أن يستوي الناس فيها، لأنها كانت آية ليلية؛ وانها كانت

باستدعاء النبي (صلى الله عليه وسلم) من الله تعالى عند التحدي". وأكد رأيه بتفسير المقطع التالي من الآية: "وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر" فقال: "هذا يدل على أنهم رأوا انشقاق القمر... وفي حديث ابن مسعود: انشق القمر على عهد رسول الله (ص) فقالت قریش: هذا من سحر ابن أبي كبشة، سحر كم فاسألوا السفار (المسافرين)، فسالوهم فقالوا: قد رأينا القمر انشق". وقال أبو عيسى الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وروى ابن كثير إسماعيل بن عمر الدمشقي المتوفى سنة (774هـ) في البداية والنهاية) عن عبد الله بن عباس: أن المشركين اجتمعوا الى رسول الله (ص) منهم الوليد بن المغيرة وأبو جهل بن هشام، والعاص بن وائل، والعاص بن هشام، والأسود بن المطلب، وزمعة بن الأسود، والنضر بن الحارث ونظراؤهم فقالوا للنبي (ص): إن كنت صادقاً فشق لنا القمر فرقتين نصفاً على أبي قبيس ونصفاً على قعيقعان، فقال لهم النبي: إن فعلت تؤمنوا؟ قالوا: نعم، وكانت ليلة بدر، فسأل الله عز وجل أن يعطيه ما سألوا، فأمسى القمر وقد سلب نصفاً على أبي قبيس ونصفاً على قعيقعان، ورسول الله ينادي: يا أبا سلمة بن عبد الأسد والأرقم بن الأرقم اشهدوا.

وربما يدل على حدوث هذه المعجزة ظاهر آية: "اقتربت الساعة وانشق القمر، وإن يروا كل آية يقولوا سحر مستمر، وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر". (القمر 1-3).

وإذا صحت رواية انشقاق القمر فهو يشكل تغيراً كبيراً في استراتيجية النبي محمد في الدعوة الإسلامية، حيث كان يرفض منذ البداية الإتيان بالمعجز لإثبات نبوته، على عكس ما كان يفعل الأنبياء الذين تحدث عنهم القرآن، وكان يصر على أن الأمر بيد الله، وأن معجزته الأساسية هي القرآن.

وبناء على صحة الرواية فقد وقع ما كان النبي يتوقعه بعد الإتيان بمعجزة، من تكذيب المشركين له، واتهامهم له بالسحر، وهو ما تشير إليه الآية الثانية والثالثة من سورة القمر: "وإن يروا كل آية يقولوا سحر مستمر، وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر". وهو ما يلغي الفائدة من الإتيان بالمعجز، وعدم حدوث أي تغيير في موقف المشركين الراضين للإسلام.

والسؤال هنا: إذا كان النبي يعلم بأن الكفار سيقولون ذلك فلماذا استجاب لهم؟ ولماذا قام بمعجزة شق القمر؟

وإذا صحت الرواية فلننظر في الواقع سؤالاً عما إذا كلن انشقاق القمر عملاً إعجازياً، فعلاً؟ أم عملاً سحرياً كما قال المشركون؟ وذلك لعدم رؤية أحد من الناس في بقية أنحاء العالم لذلك الانشقاق، وكون القمر جرملاً سماوياً كبيراً جداً لا

يمكن أن ينقسم الى شطرين ويسقط كل شطر منهما على جبلين في مكة.
ولكن رواية الإنشقاق ليست مؤكدة، والآية تحتمل الوجهين:
• الانشقاق الفعلي في زمن النبي استجابة لطلب المشركين،
• الانشقاق في المستقبل عند اقتراب الساعة.

ولذا اختلف حولها المفسرون والمؤرخون، ونقل القرطبي عن قوم قولهم: لم يقع انشقاق القمر بعد، وهو منتظر؛ أي: اقترب قيام الساعة وانشقاق القمر، وأن الساعة إذا قامت انشقت السماء بما فيها من القمر وغيره. وكذا قال القشيري. وذكر- الماوردي: أن هذا قول الجمهور، وقلل: لأنه إذا انشق القمر لم بقي أحد الا رآه، لأنه آية والناس في الآيات سواء. وقال الحسن: اقتربت الساعة فإذا جاءت انشق القمر بعد النفخة الثانية. وقد نقل هذا الرأي عن الحسن، الماوردي في تفسيره في إزاء الرأي الآخر دون أن يرجح أياً منهما.
ولكن أبا حامد الغزالي (المتوفى سنة ٥٠٥هـ) رفض في (المستصفى) رواية الانشقاق، وقال: "لم ينقله إلا ابن مسعود وعدد يسير معه، وكان ينبغي أن يراه كل مؤمن وكافر، وباد وحاضر".

• الإسراء والمعراج

ولئن كان حدوث انشقاق القمر فعلاً، غير واضح من الآية، وليس ثابتاً في التاريخ، ويوجد حوله خلاف بين المفسرين، فلا خلاف بين المسلمين حول حدوث الإسراء في السنة العاشرة (أو الثانية عشرة) من البعثة، كمعجزة إلهية تؤكد نبوة النبي محمد، فقد جاء موضوع الإسراء صريحاً في قوله تعالى:
- " سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا ، إنه هو السميع البصير". (الإسراء، 1)

وفي تفصيل ذلك يروى الطبري عن محمد بن إسحاق أن الرسول الأعظم قال: بينما أنا نائم في الحجر إذ جاءني جبريل فهزني بقدمه، فجلست فلم أر شيئاً، فعدت إلى مضجعي ، فجاءني الثانية فهزني بقدمه، فجلست فلم أر شيئاً ، فعدت إلى مضجعي ، فجاءني الثالثة فهزني بقدمه ، فجلست ، فأخذ بعضدي ، فقامت معه ، فخرج بي إلى باب المسجد فإذا دابة بيضاء (يقال لها البراق) بين البغل والحمار ، له في فخذه جناحان يحفز بهما رجليه يضع يده في منتهى طرفه ، فحملني عليه ، ثم خرج معي لا يفوتني ولا أفوته.

وتضيف بعض الروايات الى حديث الإسراء الذي كان على سطح الأرض، عروج النبي الى السماوات السبع العلى والوصول الى سدرة المنتهى، وملاقة الأنبياء، والاطلاع على أهل الجنة والنار، كما قد يفهم من قوله تعالى: " ثم دنا فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى الى عبده ما أوحى، ما كذب الفؤاد ما رأى، أفتمارونه على ما يرى، ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى، إذ يغشى السدرة ما يغشى، ما زاغ البصر وما طغى، لقد رأى من آيات ربه الكبرى". (النجم، 8-18)

وقد اختلف المحدثون والمفسرون في حدوث الإسراء جسدياً أو روحياً، وفي اليقظة أو المنام، وذهب جمهور المفسرين والمحدثين إلى القول بالإسراء الجسدي في اليقظة، كما ذهب البعض إلى حدوث ذلك في عالم الرؤيا. وهو بعيد، ولو كان في عالم الرؤيا لما كان ثمة داع للتعجب والتسبيح الوارد في الآية: "سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى" ولما كان ثمة داع لتكذيب قريش للرسول.

وقد روى الطبري في تفسيره عن أم هانئ بنت أبي طالب، أنها كانت تقول: ما أسرى برسول الله (ص) إلا وهو في بيتي نائم عندي تلك الليلة، فصلى العشاء الآخرة، ثم نام ونمنا، فلما كان قبيل الفجر، أهبنا رسول الله (ص) فلما صلى الصبح وصلينا معه قال: "يا أم هانئ لقد صليت معكم العشاء الآخرة، كما رأيت بهذا الوادي، ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه، ثم صليت صلاة الغداة معكم الآن كما ترين". وإذا صحت هذه الرواية فإنها تدل على الإسراء الروحي في المنام وليست في اليقظة. ولذلك عندما أخبر رسول الله أنه يريد أن يخرج الى قومه ويخبرهم بذلك، تعلق برداءه وقالت: أنشدك الله يا ابن عم ألا تحدث بها قريشا فيكذبك من صدقك، فضرب بيده على رداءه فأنزعه منها.

وإذا ثبت أن الرحلة النبوية الى بيت المقدس (والعروج الى السماء) كانت بالروح والبدن وفي اليقظة، فإنها تشكل أسلوباً جديداً في استراتيجيات الدعوة الإسلامية وتحدي المشركين الذين كانوا يطالبون سابقاً – فيما يطالبون – بصعود النبي الى السماء وإنزال كتاب معه من الله، كما تحدثنا آيات أخرى من سورة الإسراء نفسها: "وقالوا: لن نؤمن لك حتى... ترقى في السماء، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه، قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً". (الإسراء، 90 – 93)

ولكن هذا الإسراء المعجز ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى في الشام، والعودة الى مكة في نفس الليلة، لم يشكل دليلاً حسياً يمكن إثباته للآخرين، ولذلك

لم يحطم جدار الكفر والإنكار لدى قريش، بل زادهم تعنتا واستهزاء، وحسبما يروي أحمد والبخاري بإسناد حسن عن عبد الله بن عباس عن النبي أنه شعر بصعوبة التحدث عن الإسراء وعرف أن الناس سيكذبوه، وقعد معتزلاً حزينا، حيث ينقل عن رسول الله (ص): "لما كان ليلة أسري بي ثم أصبحت بمكة، قطعت بأمرى، وعرفت أن الناس مكذبيّ. فقعدت معتزلاً حزينا، فمرّ بي عدو الله أبو جهل، فجاء حتى جلس إلي، فقال لي كالمستهزئ: هل كان من شيء؟"

قلت : نعم

قال: ما هو؟

قلت: إني أسري بي الليلة

قال: إلى أين؟

قلت: إلى بيت المقدس

قال: ثم أصبحت بين أظهرنا؟!

قلت: نعم

فلم ير أبو جهل أن يكذبه مخافة أن يجحد الحديث إن دعا له قومه، فقال: إن دعوت إليك قومك أتحدثهم؟

قلت: نعم

قال أبو جهل: يا معشر بني كعب بن لؤي!.. فانتفضت إليه المجالس فجاءوا حتى جلسوا إليهما، قال: حدّث قومك ما حدثتني

قال رسول الله (ص): إني أسري بي الليلة

قالوا: إلى أين؟

قال: إلى بيت المقدس

قالوا: ثم أصبحت بين أظهرنا!!

قال: نعم .

فمن بين مصدق - وفي رواية: مصفق - ومن بين واضع يده على رأسه للكذب، قال: وفي القوم من سافر إلى ذلك البلد ورأى المسجد. قال: قالوا: هل تستطيع أن تنعت لنا المسجد؟

فقال رسول الله (ص): فذهبت أنعت لهم، فما زلت أنعت حتى التبس علي بعض النعت.

قال: فجاء بالمسجد حتى وضع [وأنا أنظر] حتى وضع دون دار عقال أو عقيل. قال: فنعت المسجد وأنا أنظر إليه. قال: وقد كان مع هذا حديث فنيسته أيضاً. قال القوم: أما النعت فوالله لقد أصاب .

وفي حديث أم هانئ أيضاً أنهم قالوا له: كم للمسجد باب؟ قال: ولم أكن عددتها، فجعلت أنظر إليه وأعدّها بابا بابا. فقال رجل من القوم هل مررت بإبل لنا في مكان كذا وكذا؟ قال: نعم والله، قد وجدتهم قد أضلوا بغيرا لهم فهم في طلبه،

ومررت بإبل بني فلان انكسرت لهم ناقة حمراء، قالوا: فأخبرنا عن عدتها وما فيها من الرعاء؟ قال: كنت عن عدتها مشغولاً، فقام فأتى الإبل فعدّها وعلم ما فيها من الرعاء، ثم أتى قريشاً فقال: هي كذا وكذا، وفيها من الرعاء فلان وفلان، فكان كما قال.

وكل هذه الروايات بالطبع من مصدر داخلي غير محايد يرويها ابن عم النبي، عبد الله بن عباس، ويحتمل أنها قد وضعت على لسانه في وقت متأخر، لأن بيت المقدس كان مطموراً في ذلك الوقت، في أيام البيزنطيين الذين جعلوه مكاباً لقمامتهم، ولم يرفع التراب والأذى عنه إلا في عهد عمر، بعد فتح الشام. فكيف يقول النبي: "لما كذبتني قريش قمت في الحجر فجلا الله لي بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا انظر إليه"؟ ومع ذلك فإن هذه الرواية تقول على لسان النبي انه قد "التبس عليه بعض النعت".

قال ابن هشام: فلما أصبح غداً على قريش فأخبرهم الخبر، فقال أكثر الناس: هذا والله الأمر البين، والله إن العير لتطرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرة، وشهراً مقبلة، أفيذهب محمد في ليلة واحدة ويرجع إلى مكة؟ .

ومن هنا فقد تسببت دعوى الإسراء في ردة بعض المسلمين عن الإسلام، كما تقول السيدة عائشة أم المؤمنين: "لما أسري بالنبي (ص) إلى المسجد الأقصى أصبح يتحدث الناس بذلك، فارتد ناس ممن كان آمنوا به وصدقوه، وهذا ما أكده ابن هشام، الذي قال: ارتد كثير ممن كان أسلم. والبيهقي الذي قال: افتتن ناس كثير عقب الإسراء. وربما تشير آية رقم 60 من سورة الإسراء: "وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس" إلى هذه الردة التي أصابت بعض المسلمين. وتقول السيدة عائشة إنهم سعوا بذلك إلى أبي بكر، فقالوا: هل لك إلى صاحبك يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس!!؟

قال: أو قال ذلك؟

قالوا: نعم.

قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق.

قالوا: أو تصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح؟

قال: نعم؛ أني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقته بخبر السماء في غدوة أو روحة.

فلذلك سمي أبو بكر الصديق .

• قصة الغرائيق.. هل كانت محاولة للتقرب من المشركين؟

ومع ذلك ظل النبي محمد يحرص على تجاوز هذه العقبة، وتمنى في نفسه لو

يكسب قومه إلى الاسلام، حتى عاتبه الله على إتعب نفسه من أجل هدايتهم للاسلام:

- "فعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا". (الكهف، 6) وقال له:

- "فلا تذهب نفسك عليهم حسرات". (فاطر، 8)

وفي هذا السياق يقول المؤرخون: إن النبي أضاف آيتين هما "تلك الغرائق العلى وأن شفاعتهن لترتجى" الى سورة النجم، مما أدى الى سجود المشركين مع المسلمين خلف النبي. ولما تراجع النبي عن هاتين الآيتين، اشتد الكفار في معارضة النبي وارتد على أثرها بعض المسلمين، وشكوا بنبوة النبي محمد. وهو ما يعرف بقصة (الغرائق).

وقد روى هذه القصة المؤرخ محمد ابن إسحاق (ت 151هـ) في (السيرة النبوية) عن عبد الله بن عباس، وبعض التابعين كسعيد بن جبير، ورواها محمد بن سعد

(230 هـ) في (الطبقات الكبرى) وذكر محمد بن اسماعيل البخاري (256هـ) شطراً منها، وهو موضوع سجود المشركين خلف النبي بعد قراءته لسورة النجم، ولكنه لم يذكر موضوع الإضافة.

ورواها محمد بن جرير الطبري (310هـ) بأسانيد مختلفة، عن محمد بن إسحاق، عن يزيد بن زياد المدني، عن محمد بن كعب القرظي، وابن عباس قال: لما رأى رسول الله تولي قومه عنه، وشق عليه ما يرى من مبادئهم ما جاءهم به من الله، تمنى في نفسه أن يأتيه من الله ما يقارب بينه وبين قومه، وكان يسره مع حبه لقومه، وحرصه عليهم أن يلين له بعض ما قد غلظ عليه من أمرهم؛ حتى حدث بذلك نفسه، وتمناه وأحبه، فأنزل الله عز وجل: "والنجم إذا هوى، ما ضل صاحبكم وما غوى، وما ينطق عن الهوى"، فلما انتهى إلى قوله: "أفرأيتم اللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى"، ألقى الشيطان على لسانه، لما كان يحدث به نفسه، ويتمنى أن يأتي به قومه: "تلك الغرائق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى"؛ فلما سمعت ذلك قريش فرحوا، وسرهم وأعجبهم ما ذكر به آلهتهم، فأصاخوا له - والمؤمنون مصدقون نبيهم فيما جاءهم به عن ربهم، ولا يهتمون على خطأ ولا وهم زلل - فلما انتهى إلى السجدة منها وختم السورة سجد فيها، فسجد المسلمون بسجود نبيهم، تصديقاً لما جاء به، واتباعاً لأمره، وسجد من في المسجد من المشركين من قريش وغيرهم، لما سمعوا من ذكر آلهتهم، فلم يبق في المسجد مؤمن ولا كافر إلا سجد، إلا الوليد بن المغيرة، فإنه كان شيخاً كبيراً، فلم يستطع السجود، فأخذ بيده حفنة من البطحاء فسجد عليها، ثم تفرق الناس من المسجد،

وخرجت قريش، وقد سرهم ما سمعوا من ذكر آلهتهم، يقولون: قد ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر، قد زعم فيما يتلو: " أنها الغرانيق العلا، وأن شفاعتهن ترضى". فرضوا بما تكلم به، وقالوا: قد عرفنا أن الله يحيى ويميت؛ وهو الذي يخلق ويرزق؛ ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده، فإذا جعلت لها نصيباً فنحن معك.

وأتى جبريل رسول الله، فقال: يا محمد، ماذا صنعت؟! لقد تلوت على الناس ما لم أتك به عن الله عز وجل، وقلت ما لم يُقل لك! فحزن رسول الله عند ذلك حزناً شديداً، وخاف من الله خوفاً كثيراً، فأوحى الله إليه: " وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره ، وإذا لاتخذوك خليلاً، ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئاً قليلاً، إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً ". (الإسراء 73-75)؛ فما زال مغموماً مهموماً، حتى نزلت: " وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته (أي تلاوته)، فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته، والله عليمٌ حكيمٌ، ليجعل ما يلقي الشيطان فتنةً للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم، وإن الظالمين لفي شقاق بعيد، وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك، فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم، وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم، ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتهم عذاب عقيم". (الحج 52-55) فأذهب الله عز وجل عن نبيه الحزن، وأمنه من الذي كان يخاف، ونسخ ما ألقى الشيطان على لسانه من ذكر آلهتهم: "أنها الغرانيق العلا وأن شفاعتهن ترضى"، بقول الله عز وجل حين ذكر اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى: "ألكم الذكر وله الأنثى، تلك إذا قسمة ضيزى" أي عوجاء، " إن هي إلا أسماء سميتوها أنتم وآبؤكم ما أنزل الله بها من سلطان، إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى، أم للإنسان ما تمنى، فله الآخرة والأولى، وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى، إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى، وما لهم به من علم إلا الظن، وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً". (النجم، 21-28)

وقد حسم الله في هذه الآيات الأخيرة الموقف من آلهة قريش (اللات والعزى ومناة) التي كانوا يعتقدون أنها تشفع لهم عند الله، فنفى الله أي شئ من تلك الأوهام. وطالب نبيه بالإعراض عن المشركين: " فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا". (النجم، 29)

ويبدو أن هذه الرواية كانت رائجة ومقبولة في القرون الهجرية الثلاثة الأولى، ولم يسجل أي تشكيك فيها حتى القرن الخامس الهجري.

وفيما عدا ابن اسحاق وابن سعد والطبري وابن حجر، فإن عامة المؤرخين والمفسرين والمحدثين بعد ذلك، رفضوا حكاية الغرانيق، واستبعدوا قيام النبي بإضافة آيتين لسورة النجم من وحي الشيطان، وقوله "إن شفاعتهن لترتجى، أو

لترتضى " إرضاء لمشركي قريش واستجلابا لهم للاسلام، لأن ذلك يهدم الثقة بالرسول وبمصداقيته، ويفتح بابا للشك في آيات أخرى أو في عموم القرآن. ومن هنا حاول بعض المفسرين ايجاد مخرج من هذه الأزمة فقالوا بأن الشيطان تحدث على لسان النبي في أثناء قراءة النبي للقرآن، وأن النبي لم يتلفظ بتلك الفقرة (الآية المزورة) وأن المشركين ظنوا ذلك.

وقال البغوي (516هـ) في تفسيره: قد اختلف الناس في الجواب عنه، فقال بعضهم: إن الرسول (ص) لم يقرأ، ولكن الشيطان ذكر ذلك بين قراءته، فظن المشركون أن الرسول قرأه. وقال قتادة: أغفى النبي (ص) إغفاءة فجرى ذلك على لسانه بإلقاء الشيطان ولم يكن له خبر. والأكثر أن قالوا: جرى ذلك على لسانه بإلقاء الشيطان على سبيل السهو والنسيان، ولم يلبث أن نبهه الله عليه. وقيل: إن شيطاننا يقال له (أبيض) عمل هذا العمل، وكان ذلك فتنة ومحنة من الله تعالى يمتحن عباده بما يشاء.

واعتبر القاضي عياض (544) حديث الغرانيق مشكلاً، ورد عليه من ناحيتين: تضعيف السند، وتأويله إن صح. ورفضه بناء على إجماع الأمة على عصمة النبي في الوحي.

وقال أبو بكر بن العربي (543): "إن النبي صلى الله عليه وسلم إذا أرسل الله إليه الملك بوحيه فإنه يخلق له العلم به حتى يتحقق أنه رسول من عنده ولولا ذلك لما صحت الرسالة ولا تبينت النبوة فإذا خلق الله له العلم به تميز عنده من غيره وثبت اليقين واستقام سبيل الدين ولو كان النبي إذا شافهه الملك بالوحي لا يدري أملك هو أم شيطان أم أنسان أم صورة مخالفة لهذه الأجناس ألفت عليه كلاماً وبلغت إليه قولاً لم يصح أن يقول: إنه من عند الله ولا ثبت عندنا أنه أمر الله، فهذه سبيل متيقنة وحالة متحققة لا بد منها ولا خلاف في المنقول ولا في المعقول فيها ولو جاز للشيطان أن يتمثل فيها أويتشبه بها ما أمناه على آية ولا عرفنا منه باطلاً من حقيقة، فارتفع بهذا الفصل اللبس وصح اليقين في النفس".

وقال الفخر الرازي (606) هذه القصة باطلة موضوعة، لا يجوز القول بها. قال الله "وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى" أي الشيطان لا يجترئ أن ينطق بشيء من الوحي.

وقال المفسر محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (671) في (تفسيره): إن الأحاديث المروية في نزول هذه الآية لا يصح شيء منها. ونقل قول النحاس أن هذا حديث منقطع وفيه هذا الأمر العظيم. وهذا حديث منكر منقطع ولا سيما من

حديث الواقدي. كما نقل عن ابن عطية قوله: إن هذا الحديث الذي فيه (هي الغرائيق العلاء) وقع في كتب التفسير ونحوها، ولم يدخله البخاري، ولا مسلم، ولا ذكره في علمي مصنف مشهور؛ بل يقتضي مذهب أهل الحديث أن الشيطان ألقى، ولا يعينون هذا السبب ولا غيره. ولا خلاف أن إلقاء الشيطان إنما هو لألفاظ مسموعة؛ بها وقعت الفتنة. ثم اختلف الناس في صورة هذا الإلقاء، فالذي في التفسير وهو مشهور القول أن النبي (صلى الله عليه وسلم) تكلم بتلك الألفاظ على لسانه. وحدثني أبي (رضي الله عنه): أنه لقي بالشرق من شيوخ العلماء والمتكلمين من قال: هذا لا يجوز على النبي (صلى الله عليه وسلم) وهو المعصوم في التبليغ، وإنما الأمر أن الشيطان نطق بلفظ أسمعه الكفار عند قول النبي (صلى الله عليه وسلم): أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، وقرب صوته من صوت النبي (صلى الله عليه وسلم) حتى التبس الأمر على المشركين، وقالوا: محمد قرأها. وقد روي نحو هذا التأويل عن الإمام أبي المعالي. وقيل: الذي ألقى شيطان الإنس؛ كقوله عز وجل: "والغوا فيه".

ولما كانت الروايات الواردة بشأن الغرائيق أخبار آحاد ضعيفة، وليست متواترة ولا مضبوطة، فقد أصبحت عرضة للتحريف والتغيير والتأويل بما ينسجم مع الموقف الأيديولوجي المسبق المؤمن بعصمة الوحي، ونقل القرطبي عن ابن عطية الأندلسي (541) قوله: لا خلاف أن إلقاء الشيطان إنما هو لألفاظ مسموعة، بها وقعت الفتنة؛ فالله أعلم. وأن الجملة المضافة كانت: (والغرائيق العلاء) يعني الملائكة وليس (انهن الغرائيق العلاء) وأن الضمير في (وإن شفاعتهم ترتجى) يعود على الملائكة، وليس على اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى. وهذا ما روي عن مجاهد والحسن والكلبي.

وقال الرازي محمد بن عمر (606) في (التفسير الكبير): هذا رواية عامة المفسرين الظاهريين، أما أهل التحقيق فقد قالوا: هذه الرواية باطلة موضوعة، واحتجوا عليه بالقرآن والسنة والمعقول.

وشكك إسماعيل بن عمر بن كثير (774) في تفسيره، في اسناد الرواية، وقال: كلها مراسلات أو منقطعات. وقال: "قد ذكر كثير من المفسرين هاهنا قصة الغرائيق، وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبشة، ظنا منهم أن مشركي قريش قد أسلموا. ولكنها من طرق كلها مرسلة، ولم أرها مسندة من وجه صحيح، والله أعلم. وقد ذكرها محمد بن اسحاق في السيرة بنحو من هذا، وكلها مراسلات ومنقطعات". وحاول ابن كثير أن يقرأ الرواية بشكل آخر لا يتنافى مع عصمة الرسول، واستلطف أجوبة بعض الناس: أن الشيطان أوقع في مسامع المشركين ذلك، فتوهموا أنه صدر عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وليس

كذلك في نفس الأمر ، بل إنما كان من صنيع الشيطان لا من رسول الرحمن (ص)، والله أعلم.

وفسر محمد بن علي بن محمد الشوكاني (1250) الزيدي، في كتابه (فتح القدير) معنى كلمة "تمنى" فقال إنه: تشهى وهياً في نفسه ما يهواه. ثم نفى أصل الرواية وقال: لم يصح شيء من هذا، ولا ثبت بوجه من الوجوه، وانها من طرق كلها مرسله، ولم أرها مسندة من وجه صحيح . ونقل قول إمام الأئمة ابن خزيمة: إن هذه القصة من وضع الزنادقة. ورأى الشوكاني أن رواية إضافة النبي لآيتين في مدح اللات والعزى ومناة الثالثة، تناقض آيات صريحة في القرآن تؤكد أن النبي لا ينطق عن الهوى (النجم، 3) وتضمن عصمته "ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم قليلاً". (الاسراء، 74)، وتهده بالعقوبة إن تقول على الله بعض الأقاويل: " ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين ". (الحاقة: 44 - 46).

واستخلص الشوكاني من كل ذلك: أن معنى الآية: أن الشيطان أوقع في مسامع المشركين ذلك من دون أن يتكلم به رسول الله (ص) ولا جرى على لسانه، فتكون هذه الآية تسلية لرسول الله (ص) أي لا يهولنك ذلك ولا يحزنك، فقد أصاب مثل هذا من قبلك من المرسلين والأنبياء.

قصة الغرائيق في المصادر الشيعية

لم تختلف التفاسير الشيعية عن التفاسير السنية في رفض هذه الرواية، فقد لخص فضل بن حسن الطبرسي (546) في (مجمع البيان) كل الآراء السابقة والتأويلات الرافضة لحديث الغرائيق، وقال: " روي عن ابن عباس وغيره أن النبي (ص) لما تلا سورة والنجم و بلغ إلى قوله "أفرأيتم اللات والعزى" فلما انتهى إلى السجدة سجد المسلمون و سجد أيضا المشركون لما سمعوا من ذكر آلهتهم بما أعجبهم فهذا الخبر - إن صح - محمول على أنه كان يتلو القرآن فلما بلغ إلى هذا الموضع وذكر أسماء آلهتهم و قد علموا من عاداته (ص) أنه كان يعيها قال بعض الحاضرين من الكافرين تلك الغرائيق العلى وألقى ذلك في تلاوته توهم أن ذلك من القرآن فأضافه الله سبحانه إلى الشيطان لأنه إنما حصل باغوائه ووسوسته، وهذا أورده المرتضى قدس الله روحه في كتاب (التنزيه) وهو قول (الناصر للحق) من أئمة الزيدية. وهو وجه حسن في تأويله. أو يكون تمنى القلب فإن كان المراد التلاوة فالمعنى أن من أرسل قبلك من الرسل كان إذا تلا ما يؤديه إلى قومه حرفوا عليه وزادوا فيما يقوله ونقصوا كما فعلت اليهود، وأضاف ذلك إلى الشيطان لأنه يقع بغروره "فينسخ الله ما يلقي الشيطان" أي يزيله

ويدحضه بظهور حججه، وخرج هذا على وجه التسلية للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لما كذب المشركون عليه وأضافوا إلى تلاوته من مدح ألتهم ما لم يكن فيها. وقيل إن المراد بالغرانيق الملائكة وقد جاء ذلك في بعض الحديث فتوهم المشركون أنه يريد ألتهم، وقيل إن ذلك كان قرأنا منزلا في وصف الملائكة فلما ظن المشركون أن المراد به ألتهم نسخت تلاوته. وقال البلخي و يجوز أن يكون النبي (ص) سمع هاتين الكلمتين من قومه، وحفظهما، فلما قرأ ألقاها الشيطان في ذكره فكاد أن يجريها على لسانه فعصمه الله ونبهه ونسخ وسواس الشيطان وأحكم آياته بأن قرأها النبي (ص) محكمة سليمة مما أراد الشيطان. و يجوز أن يكون النبي (ص) لما انتهى إلى ذكر اللات والعزى قال الشيطان هاتين الكلمتين رافعا بهما صوته فألقاهما في تلاوته في غمار الناس فظن الجهال أن ذلك من قول النبي (ص) فسجدوا عند ذلك ، "ثم يحكم الله آياته" أي يبقي آياته و دلائله وأوامره محكمة لا سهو فيها و لا غلط".

وأما المفسر المعاصر محمد حسين الطباطبائي (1402) فقد أشار في (الميزان) في البداية، إلى وجود معنيين لكلمة (تمنى) أي تمنى القلب والتلاوة، وقال: إن معنى الآية على أول المعنيين- وهو كون التمني هو تمنى القلب-: وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى و قدر بعض ما يتمناه من توافق الأسباب على تقدم دينه وإقبال الناس عليه وإيمانهم به ألقى الشيطان في أمنيته وداخل فيها بوسوسة الناس وتهيج الظالمين وإغراء المفسدين فأفسد الأمر على ذلك الرسول أو النبي وأبطل سعيه فينسخ الله و يزيل ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته بإنجاح سعي الرسول أو النبي و إظهار الحق والله عليم حكيم.

والمعنى: على ثاني المعنيين - وهو كون التمني بمعنى القراءة والتلاوة -: وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تلا وقرأ آيات الله ألقى الشيطان شيئا مضلة على الناس بالوسوسة ليجادلوه بها ويفسدوا على المؤمنين إيمانهم فيبطل الله ما يلقيه الشيطان من الشبه و يذهب به بتوفيق النبي لرده أو بإنزال ما يرده.

ولم يناقش الطباطبائي في إسناد حديث الغرانيق، بل نقل عن جلال الدين السيوطي (911) في (الدر المنثور) قوله: أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه بسند صحيح عن سعيد بن جبير قال: قرأ رسول الله (ص) بمكة النجم فلما بلغ هذا الموضع "أ فرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى" ألقى الشيطان على لسانه "تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى" قالوا: ما ذكر ألتهنا بخير قبل اليوم فسجد وسجدوا. ثم جاء جبريل بعد ذلك قال: أ عرض علي ما جئتك به فلما بلغ "تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى" قال جبريل لم أنك بهذا. هذا من الشيطان فأنزل الله "وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي". الآية.

وعقب عليها الطباطبائي بقوله: "الرواية مروية بطرق عديدة عن ابن عباس وجمع من التابعين وقد صححها جماعة منهم الحافظ ابن حجر". ولكن الطباطبائي

رفضها بناء على نظرية العصمة، وقال: "لكن الأدلة القطعية على عصمته (ص) تكذب متنها وإن فرضت صحة سندها، فمن الواجب تنزيه ساحته المقدسة عن مثل هذه الخطيئة مضافا إلى أن الرواية تنسب إليه (ص) أشنع الجهل و أقبحه فقد تلى "تلك الغرائق العلى و إن شفاعتهن لترتجى" و جهل أنه ليس من كلام الله ولا نزل به جبريل، و جهل أنه كفر صريح يوجب الارتداد و دام على جهة حتى سجد وسجدوا في آخر السورة، و لم يتنبه ثم دام على جهله حتى نزل عليه جبريل وأمره أن يعرض عليه السورة فقرأها عليه وأعاد الجملتين وهو مصر على جهله حتى أنكره عليه جبريل ثم أنزل عليه آية تثبت نظير هذا الجهل الشنيع والخطيئة الفضيحة لجميع الأنبياء والمرسلين وهي قوله: "وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته" .. وبذلك يظهر بطلان ما ربما يعتذر دفاعا عن الحديث بأن ذلك كان سبقا من لسان، دفعه بتصريف من الشيطان سهواً منه (عليه السلام) و غلطا من غير تفتن. فلا متن الحديث على ما فيه من تفصيل الواقعة ينطبق على هذه المعذرة، و لا دليل العصمة يجوز مثل هذا السهو والغلط.

وحذر الطباطبائي من قبول الرواية قائلا: "على أنه لو جاز مثل هذا التصرف من الشيطان في لسانه (ص) بإلقاء آية أو آيتين في القرآن الكريم لارتفع الأمن عن الكلام الإلهي فكان من الجائز حينئذ أن يكون بعض الآيات القرآنية من إلقاء الشيطان ثم يلقي نفس هذه الآية "وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي" الآية فيضعه في لسان النبي وذكره فيحسبها من كلام الله الذي نزل به جبريل كما حسب حديث الغرائق كذلك فيكشف بهذا عن بعض ما ألقاه وهو حديث الغرائق سترأ على سائر ما ألقاه. أو يكون حديث الغرائق من كلام الله، وآية "وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي" إلخ، و جميع ما ينافي الوثنية من كلام الشيطان. ويستتر بما ألقاه من الآية وأبطل من حديث الغرائق على كثير من إلقاءاته في خلال الآيات القرآنية، وبذلك يرتفع الاعتماد والوثوق بكتاب الله من كل جهة وتلغو الرسالة والدعوة النبوية بالكلية جلت ساحة الحق من ذلك".

المحدث الألباني يرفض الرواية جملة وتفصيلا

وقد ألف المحدث المعاصر محمد ناصر الدين الألباني (1420)، كتابا خاصا حول الموضوع تحت عنوان: (نصب المجانيق لنسف قصة الغرائق). وذهب في مقدمة كتابه الى اختيار معنى (التلاوة) لكلمة (تمنى) بدلا من حديث القلب، وقال: إن هذا المعنى " عليه جمهور المفسرين والمحققين، وحكاه ابن كثير عن أكثر المفسرين بل عزاه ابن القيم إلى السلف قاطبة فقال في (إغاثة اللهفان ، ج 1 ص 93) : "والسلف كلهم على أن المعنى إذا تلا ألقى الشيطان في تلاوته". ثم

استخلص الألباني قائلًا: "الكلام إذن: وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تلا كتاب الله وقرأ أو حدث وتكلم ألقى الشيطان في كتاب الله الذي تلاه وقرأه أو في حديثه الذي حدث وتكلم فينسخ الله ما يلقي الشيطان بقوله تعالى: فيذهب الله ما يلقي الشيطان من ذلك على لسان نبيه ويبطله. هذا هو المعنى المراد من هذه الآية الكريمة". ولكن الألباني حذر من قبول ما في الروايات من تفاصيل أخرى تسيء إلى النبي الأكرم. ثم قام باستعراض الروايات الواردة بهذا الشأن.. فناقش في إسنادها، وضعفها قائلًا: "تلك هي روايات القصة وهي كلها كما رأيت معلة بالإرسال والضعف والجهالة فليس فيها ما يصلح للاحتجاج به لا سيما في مثل هذا الأمر الخطير". ورفض الألباني قول السيوطي في كتابه (أسباب النزول): أنها "مراسيل يقوي بعضها بعضاً" قائلًا: إن فيه إشارة إلى أن ليس هناك إسناد صحيح موصل يعتمد عليه وإلا لعرج عليه وجعله أصلاً".

وأضاف الألباني: إن القاعدة التي أشار إليها وهي تقوية الحديث بكثرة الطرق ليست على إطلاقها، وقد نبه على ذلك غير واحد من علماء الحديث المحققين منهم الحافظ أبو عمر بن الصلاح في "مقدمة علوم الحديث" (ص 36 - 37) ونقل الألباني قول القاضي عياض من أن الشيطان هو الذي ألقى ذلك في سكتة النبي (ص) بين الآيتين محاكياً نغمة النبي (ص) وأشاع ذلك المشركون عنه (ص) ولم يقدح ذلك عند المسلمين لحفظه السورة قبل ذلك على ما أنزلها الله وتحققهم من حال النبي (ص) في ذم الأوثان وعبثها على ما عرف منه وقد حكى موسى بن عقبة في مغازيه نحو هذا وقال: "إن المسلمين لم يسمعوها وإنما ألقى الشيطان ذلك في أسماع المشركين وقلوبهم" ويكون ما روى من حزن النبي (ص) لهذه الإشاعة والشبهة وسبب هذه الفتنة.

ولكن الألباني استبعد هذا التأويل، ورد على ابن حجر ومن يقول بصحة أصل الرواية، قائلًا: إن هذا الرد ضعيف لأن الرواية الصحيحة التي أشار إليها هي رواية ابن جبير المتقدمة وفيها كما في غيرها من الروايات المتابعة الأمر المستنكر باعترافه بل في بعض الروايات عن سعيد ما هو أنكسر من ذلك وهو قوله: ثم جاءه جبريل بعد ذلك فقال: اعرض علي ما جئتك به فلما بلغ "تلك الغرائق العلى وإن شفاعتهن لترتجى" قال له جبريل: "لم آتك بهذا وهذا من الشيطان" وقد جاء هذا في غير رواية سعيد كما تقدم، ولازمه أن النبي (ص) قد انطلق عليه وحى الشيطان واختلط عنده بوحى الرحمن حتى لم يميز بينهما وبقي على هذه الحالة ما بقي إلى أن جاءه جبريل في المساء. سبحانك هذا بهتان عظيم وافتراء جسيم. وأصر الألباني على القول بأن "ليس هناك رواية معتمدة صحيحة بالمعنى العلمي الصحيح".

بعد أن قدمنا وجهتي النظر المثبتة لحديث الغرائق والنافية له، وكذلك المؤولة

له، نقول: انه يصعب القول بأن الحديث برمته من اختلاق الزنادقة، لروايته وقبوله من الأولين (ابن عباس وسعيد بن جبير، وابن اسحاق وابن هشام وابن سعد والطبري وابن حجر)، واعتماد المتأخرين في رفضهم له بصورة أساسية على موقف أيديولوجي مسبق وهو عصمة النبي واستحالة تلفظه بما ينافي النبوة والتوحيد. علما بأن المصدر الوحيد لهذا الحديث أو هذه القصة هو المصدر الاسلامي، حيث لا يوجد لدينا أي مصدر آخر معارض أو محايد أو متهم بالزندقة. ولو نظرنا الى الموضوع بصورة محايدة لقلنا إن سبب تضعيف المسلمين له وإهمالهم له، ولا سيما جامعوا الحديث، ربما يعود الى خشيتهم من مواجهة الحقيقة والتسبب بفتح ثغرة على الاسلام والتشكيك بصدقية النبي محمد، ومع ذلك فقد تسرب الحديث بصورة خجولة الى التراث الاسلامي.

وقد روى البخاري ومسلم الحديث ولكنهما حذفوا الجزء الرئيسي منه وأوردا فقط الجزء الأخير، فقال البخاري: "عن عبد الله أن النبي (ص) قرأ سورة النجم فسجد بها فما بقي أحد من القوم إلا سجد! فأخذ رجل من القوم كفاً من حصى أو تراب فرفعه إلى وجهه وقال يكفيني هذا". وكذلك فعل مسلم. دون أن يقولوا أو يشرحا لماذا سجد القوم؟ ويمكن القول إن تداول الرواية من قبل رجال مقربين من النبي كعبد الله بن عباس (ابن عم النبي) والفقهاء المعارضين للأمويين سعيد بن جبير، وروايته أيضا في ظل الخلافة العباسية من قبل المفسر الطبري، يشكل دعما للحديث. وقد اعترف بحديث الغرائيق بعض المفسرين والمحدثين ولكنهم أولوه بتأويلات شتى، وكانت بعض تأويلاتهم تعسفية وافتراضية ومن وحي الخيال.

وربما كانت الآيات الأخرى التي تعاتب الرسول وتهده، وهي: "وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره، وإذا لاتخذوك خليلا، ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا، إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا". (الإسراء 73-75) تدعم نظرية حدوث القصة بشكل أو بآخر. وكذلك (آية النسخ)، التي جاءت لتهدئ من خاطر النبي، وتعلمه بنسخ ما ألقى الشيطان: "وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته، فينسخ الله ما يلقي الشيطان، ثم يحكم آياته، والله عليم حكيم". (الحج 52-55) مما يوحي بحدوث قصة ملتبسة وخطيرة.

وحسب (آية النسخ) فإن إلقاء الشيطان في أمنية النبي أدى الى فتنة البعض وهم الذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم والكفار الذين استمروا في شكهم بالنبوة: "ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة...". (الحج 55) بينما ازداد المؤمنون إيمانا "وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك، فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم، وإن الله لهاد الذين آمنوا الى صراط مستقيم". (الحج 54) وهو ما ينسجم مع ما ذكره ابن اسحاق: "ارتد ناس حين سمعوا سجع الشيطان".

ولكن تلك الآية لا تصرح ماذا قال النبي وماذا تمنى؟ مما يفتح الباب أمام احتمال نزولها في قصة أخرى غير حديث الغرانيق. رغم أن الآية، على أية حال، تحكي عن إلقاء الشيطان في أمنية النبي ونسخ الله لما ألقى. ومن هنا لا يمكننا القول بصحة حديث الغرانيق، بالإضافة في سورة النجم، وذلك لأنه من المستبعد جدا أن يضيف النبي آيتين مناقضتين لروح وسياق سورة النجم التي تبدأ بالحديث عن الوحي وتنزيه النبي عن النطق بغير الوحي الإلهي: " والنجم إذا هوى، ما ضلّ صلحكم وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إن هو - إلا وحي يوحى " (النجم، 1 - 4) تلك السورة المركزة في الرد على المشركين وعقائدهم بالملائكة وشفاعة اللات والعزى، فكيف يضيف النبي الى تلك السورة آية من وحي الشيطان، مناقضة لروحها تماما؟. وقد نزلت سورة النجم في مكة، في أواسط العهد المكي بعد الهجرة الى الحبشة، وإذا صح هذا الخبر، فلا بد أنه حدث قبل سنوات من هجرة النبي الى المدينة. في حين أن (آية النسخ) (الحج 52 - 55) قد نزلت بين مكة والمدينة وهي من سورة الحج المدنية، والحج قد فرض في أواسط العهد المدني، إذن فان هناك فاصلة بضع سنوات بين ما يزعم من قصة الغرانيق التي يقال إنها حدثت في أواسط العهد المكي، وبين آية النسخ التي نزلت في الطريق الى مكة أو بعد ذلك، أي بعد الآية الأولى بحوالي عشر سنوات. بينما يزعم حديث الغرانيق أن هذه الآية نزلت في نفس اليوم مساء. وهذا ما يعزز تركيب الآيتين على بعض مع عدم وجود رابط بينهما. مع وجود احتمال بنزول هذه الآية في وقت أسبق وإضافتها في وقت متأخر للسورة، كما هي عادة جمع القرآن. ولو نظرنا الى سورة النجم لما وجدنا فيها أية إشارة أو احتمال لأية اضافة شيطانية، بل وجدناها تنطوي على وحدة موضوعية واحدة و مترابطة.

الأثر المعاكس لحديث الغرانيق

وعلى أية حال، فان النتيجة التي حصل عليها النبي من تلك المحاولة - إن صحت - والتي كانت عكس ما تمناه، هو ارتداد بعض المسلمين، وازدياد الكفار تصلبا في موقفهم الراض للإسلام والمشكك بصحة دعوى النبوة. وحسبما يقول الطبري: فلما جاء من الله ما نسخ ما كان الشيطان ألقى على لسان نبيه، قالت قريش: ندم محمد على ما ذكر من منزلة ألتهتمك عند الله، فغيّر ذلك وجاء بغيره؛ وكان ذانك الحرفان اللذان ألقى الشيطان على لسان رسول الله (ص) قد وقعا في فم كل مشرك، فازدادوا شرا إلى ما كانوا عليه، وشدة على من أسلم منهم. وبلغت السجدة من بأرض الحبشة من أصحاب رسول الله (ص)؛ وقيل: أسلمت قريش، فنهض منهم رجال، وتخلف آخرون، وأقبل أولئك النفر من أصحاب

رسول الله منهم الذين خرجوا من أرض الحبشة لما بلغهم من إسلام أهل مكة، حين سجدوا مع رسول الله؛ حتى إذا دنوا من مكة، بلغهم أن الذي كانوا تحدثوا به من إسلام أهل مكة كان باطلاً، فلم يدخل منهم أحد إلا بجوار، أو مستخفياً.

وقد ارتد أحد المهاجرين في الحبشة، وهو عبید الله بن جحش، زوج أم حبيبة (أم المؤمنين) السابق، وتنصر، وقال لزوجته: إني نظرت في الدين فلم أر خيراً من النصرانية، وكنت قد دنت بها، ثم دخلت في دين محمد، ثم رجعت إلى النصرانية. وكان يمر بالمسلمين المهاجرين فيقول لهم: "فقدنا وصأصأتم". أي أبصرنا، وأنتم تلتمسون البصر ولم تبصروا بعد.

وربما نزلت هذه الآيات بهذه المناسبة: "من كفر بالله من بعد إيمانه، إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان، ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله، ولهم عذاب عظيم، ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، وأن الله لا يهدي القوم الكافرين، أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم، وأولئك هم الغافلون، لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون". (النحل، 106-109) و "إن الذين ارتدوا على أديبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى، الشيطان سؤل لهم، ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر، والله يعلم إسرارهم". (محمد، 25-26)

الميل لأصنام قريش

ويقال أنه في هذه الأثناء، أراد النبي ذات يوم، أن يستلم الحجر الأسود في طوافه، فمنعته قريش وقالوا: لا ندعك حتى تلم بالهتتنا، فحدث نفسه وقال: ما عليّ أن ألمّ بها بعد أن يدعوني أستلم الحجر الأسود، والله يعلم أنني لها كاره، فأبى الله تعالى ذلك وأنزل عليه هذه الآية:

• " وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره، وإذا لاتخذوك خليلاً، ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئاً قليلاً. إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً". (الإسراء، 73-

(75)

وبما أن مشركي قريش كانوا يعتقدون أن محمداً متنبئاً وليس نبياً، فقد حسبوا أن بإمكانهم الحوار معه من أجل حل وسط، فتقدموا بهذا الاقتراح العجيب: وهو أن يعبدوا إلهه عاماً ويعبد آلهتهم (مناة واللات والعزى) عاماً آخر، أي يعترف بالهتتهم ويكف عن سبها وتحقيرها والكفر بها. وقالوا: يا محمد، هلم فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، ونشركك في أمرنا كله، فإن كان الذي جئت به خيراً مما في أيدينا،

كنا قد شركناك فيه، وأخذنا بحظنا منه؛ وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما في يدك، كنت قد شركتنا في أمرنا، وأخذت بحظك منه. فقال النبي: حتى أنظر ما يأتي من عند ربي!

ثم جاء الوحي الإلهي الحاسم رداً على دعوة المشركين بالعبادة الدورية المتبادلة لله وآلهتهم:

- " قل يا أيها الكافرون، لا أعبد ما تعبدون، ولا أنتم عابدون ما أعبد، ولا أنا عابد ما عبدتم، ولا أنتم عابدون ما أعبد، لكم دينكم ولي دين " (الكافرون، 1-6). وأنزل الله عز وجل: "قل: أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون؟ ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين، بل الله فاعبد وكن من الشاكرين". (الزمر، 55-56)

الفصل الخامس: القطيعة مع المشركين، وقرار الهجرة من مكة

بعد وصول الحوار بين النبي محمد والمشركين، الى طريق مسدود، حاول المشركون أن يعرضوا على النبي أن يعطوه مالاً ويزوجوه ما أراد من النساء، ويجعلوه زعيماً عليهم مقابل الكف عن شتم آلهتهم وعدم ذكرها بسوء. ولكن النبي قام بالرد عليهم بأن حاول أن يدخل الى قلوبهم من باب آخر هو بيان فوائد الاسلام لهم.

يروى الطبري عن السدي أن أناساً من قريش اجتمعوا، فيهم أبو جهل بن هشام، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب، والأسود بن عبد يغوث، في نفر من مشيخة قريش، فقال بعضهم لبعض: انطلقوا بنا إلى أبي طالب فلنكلمه فيه، فليئصفنا منه، فيأمره فليكيف عن شتم آلهتنا، وندعه وإلهه الذي يعبد، فإننا نخاف أن يموت هذا الشيخ، فيكون منا شيء، فتعيرنا العرب فيقولون: تركوه حتى إذا مات عمه تناولوه، قال: فبعثوا رجلاً منهم يدعى المطلب، فاستأذن لهم على أبي طالب، فقال: هؤلاء مشيخة قومك وسرواتهم يستأذنون عليك، قال: أدخلهم، فلما دخلوا عليه قالوا: يا أبا طالب أنت كبيرنا وسيدنا، فأنصفنا من ابن أخيك، فمره فليكيف عن شتم آلهتنا، وندعه وإلهه. قال: فبعث إليه أبو طالب، فلما دخل عليه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: يا ابن أخي هؤلاء مشيخة قومك وسرواتهم، وقد سألتوك النصف، أن تكف عن شتم آلهتهم، ويدعوك وإلهك. قل: يا عم، أولاً أدعوهم إلى ما هو خير لهم منها؟ قال أبو طالب: وإلام تدعوهم؟ قال النبي: أدعوهم إلى أن يتكلموا بكلمة تدين لهم العرب، ويملكون بها العجم. (وفي رواية

أخرى: تدين لهم بها عند العرب، وتؤدي إليهم بها العجم الجزية) فقال أبو جهل: ما هي وأبيك؟ لنعطينكها وعشرًا أمثالها. قال: تقول: لا إله إلا الله، قال: فنفروا وتفرقوا وقالوا: سلنا غير هذه، فقال: لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي ما سألتكم غيرها! قال: فغضبوا وقاموا من عنده غضابى. وقالوا: والله لنشتمنك والذي يأمرك بهذا. فنزل قوله تعالى:

• "وانطلق الملائمة منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيءٌ يراد، ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة، إن هذا إلا اختلاق". (سورة ص، 6-7)

وقد تدهورت، بعد ذلك، العلاقات بين المسلمين والمشركين الذين سعدوا من عنفهم وقمعهم وملاحقتهم للمسلمين. يقول الطبري: ثم شرى الأمر بينه وبينهم حتى تباعد الرجال، وتضاغنوا، وأكثرت قريش ذكر رسول الله بينها، وتذامروا فيه، وحض بعضهم بعضًا عليه.. فحقب الأمر عند ذلك، وحميت الحرب، وتناذب القوم، وبادى بعضهم بعضًا. ثم إن قريشًا تذامروا على من في القبائل منهم من أصحاب رسول الله الذين أسلموا معه. فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم، ومنع الله رسوله منهم بعمه أبي طالب. فحاصروا المسلمين وبني هاشم في شعب أبي طالب وقاطعوهم، ثم توفي أبو طالب، فأصبح بلا حام، وهذا ما دفعه إلى الذهاب إلى الطائف ليعرض الإسلام ويطلب الحماية من زعماء ثقيف؛ فجلس إليهم فدعاهم إلى الله وكلمهم بما جاء لهم من نصرته على الإسلام. والقيام معه على من خالفه من قومه، فاستخفوا برسول الله ورفضوا دعوته، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم، يسبونونه ويصيحون به؛ حتى اجتمع عليه الناس وألجئوه إلى حائط.

ثم قدم رسول الله مكة، وقومه أشد ما كانوا عليه من خلافه وفراق دينه، إلا قليلاً مستضعفين ممن آمن به. فدخل الكعبة وخطبهم ذات يوم قلئلاً: "يا معشر- الملائمة من قريش؛ فوالله لا يأتي عليكم غير كبير من الدهر حتى تدخلوا فيما تنكرون، وأنتم كارهون". وفي هذا إشارة إلى توقف منطق الحوار والاستدلال، واستخدام القوة والتحدي مع المعاندين الذين كانوا يعتبرونه "مبدعا وضالاً". وكان من أشد المعاندين له عمه أبو لهب، الذي كان يسير خلف رسول الله في منى، وكلما ذهب إلى قبيلة من قبائل العرب يعرض عليها الإسلام، ويقول: "يا بني فلان، إنني رسول الله إليكم، يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بي وتصدقوني وتمنعوني، حتى أبين عن الله ما بعثني به" كان أبو لهب يكذبه ويقول: "يا بني فلان، إن هذا إنما يدعوكم إلى أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تطيعوه ولا تسمعوا له".

طلب المشركين نزول العذاب عليهم

وتنقل لنا الآيات التالية نهاية الحوار الطويل الذي جرى بين النبي والمشركين في مكة، ووصل الى طريق مسدود، فهم كانوا يطالبون بالآيات والمعجز على صحة نبوة النبي، وهو كان يرفض الإتيان بشيء من ذلك، في حين أن معجزتي (شق القمر) و(الإسراء) لم تفعلوا فعلهما في قريش، ولم تقنعاهم بالاسلام، وكان الرسول يقول بصورة عامة: إن الأمر بيد الله، وإن معجزته هو القرآن. ولكنهم لم يعترفوا بإعجاز القرآن وردوا على النبي بأنهم قادرين على التحدث بما يشبه القرآن، كما يخبرنا الله تعالى عنهم:

- "وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا لو نشاء لقلنا مثل هذا، إن هذا إلا أساطير الأولين".
(الأنفال، 31)

وعندما كان النبي يهددهم بعذاب الله كما عذب الله الأمم السابقة (قوم نوح وعاد وthumb و آل فرعون ولوط وغيرهم)، كانوا يصمتون في البداية. وقاموا في النهاية بالطلب من الله أن ينزل عليهم العذاب الذي يعدهم به النبي، كما يخبرنا الله تعالى في آيتين من سورتي الأنفال والمعارج، حيث يقول:

- "وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك، فأمطر علينا حجارة من السماء، أو إئتنا بعذاب أليم". (الأنفال، 32)

- "سأل سائل بعذاب واقع، للكافرين ليس له دافع، من الله ذي المعارج".
(المعارج، 3-1)

وبينما كان جواب طلب العذاب في آية سورة الأنفال، هو عدم نزول العذاب عليهم بسبب وجود رسول الله بينهم:

• "وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم". (الأنفال، 33)

فإن جواب سورة المعارج لطلب قريش نزول العذاب عليهم، كان هو الدعوة للانتظار ريثما ينزل العذاب عليهم في الآخرة:

• "فاصبر صبرا جميلا، إنهم يرونه بعيدا، ونراه قريبا، يوم تكون السماء كالمهل، وتكون الجبال كالعهن، ولا يسأل حميم حميما، يبصرونهم يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه، وصاحبته وأخيه، وفصيلته التي تؤيه، ومن في الأرض جميعا ثم ينجيها، كلا إنها لظى نزاعة للشوى، تدعو من أدبر وتولى". (المعارج، 5-17)

ولا فرق بين نزول العذاب في الدنيا أو الآخرة. وقد أكد الله تعالى نزول العذاب على الكافرين في آية ثالثة:

• "ويستعجلونك بالعذاب، ولن يخلف الله وعده، وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون، وكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة ثم أخذتها وإلي

المصير، قل يا أيها الناس إنما أنا نذير مبين، فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم، والذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك أصحاب الجحيم". (الحج، 47 – 51)

محاولة بني حنيفة استغلال الدعوة الإسلامية، سياسيا

ويحدثنا محمد ابن اسحاق عن موقف فريد لبني حنيفة من دعوة الرسول، يتضمن قيامهم بحسابات سياسية مستقبلية، أكثر مما اهتمامهم بصدق النبي أو كذبه، فيقول: إن رسول الله أتى بني حنيفة في منازلهم، فدعاهم إلى الله، وعرض عليهم نفسه، فلم يكن أحدٌ من العرب أقبح ردًا عليه منهم... أنه أتى بني عامر بن صعصعة، فدعاهم إلى الله، وعرض عليهم نفسه، فقال رجل منهم، يقال له (بيجرة بن فراس): والله لو أنني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب. ثم قال للنبي: رأيت إن نحن تابعنك على أمرك، ثم أظهرك الله على من خالفك؛ أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال: الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء. قال: فقال له: أفتهدف نحورنا للعرب دونك، فإذا ظهرت كان الأمر لغيرنا! لا حاجة لنا بأمرك. فأبوا عليه.

إسلام الأنصار وبيعة العقبة

وعلى عكس ما فعل بنو حنيفة من محاولة استغلال الإسلام في مآربهم السياسية، استجاب نفر من الخزرج للإسلام بسرعة، بمجرد أن حدثهم النبي وتلا عليهم شيئا من القرآن، وقال بعضهم لبعض: يا قوم، تعلموا والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود، فلا تسبقنكم إليه. فأجابوه فيما دعاهم إليه، بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا: إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم، فندعوهم إلى أمرك، وتعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فلن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك. ثم انصرفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعين إلى بلادهم، وقد آمنوا وصدقوا.

حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلا، فلقوه بالعقبة (وهي العقبة الأولى) فبايعوا رسول الله (ص) على بيعة النساء وذلك قبل أن تفترض عليهم الحرب.

وكما يروي ابن إسحاق عن عبادة بن الصامت أنه قال: كنت فيمن حضر العقبة الأولى، وكنا اثني عشر رجلا، فبايعنا رسول الله (ص) على بيعة النساء، وذلك قبل أن تفترض الحرب، على أن لا نشرك بالله شيئا، ولا نسرق،

ولا نزني ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نلتي ببهتان نفترية من بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه في معروف . فإن وفيتم فلکم الجنة . وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأمرکم إلى الله عز وجل إن شاء عذب وإن شاء غفر .

وعندما عاد الأنصار في العام المقبل كانوا ثلاثة وسبعين رجلاً، وقد عزموا على دعوة النبي إلى المدينة لكي ينصروه، فاجتمعوا معه في العقبة الثانية، فقال: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم.

وقال أحدهم وهو الهيثم بن التيهان: يا رسول الله، ان بيننا وبين الرجال حبلاً، وإنا قاطعوها - يعني اليهود - فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟

فتبسم رسول الله ثم قال: بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتكم، وأسالم من سالمتم.

قال ابن إسحاق: فحدثني عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت ، عن أبيه الوليد ، عن جده عبادة بن الصامت ، وكان أحد النقباء ، قال : بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة الحرب على السمع والطاعة ، في عسرنا ويسرنا ومنشطنا ومكرهنا ، وأثرة علينا ، وأن لا ننازع الأمر أهله ، وأن نقول بالحق أينما كنا ، لا نخاف في الله لومة لائم .

قرار الهجرة إلى المدينة

وفي الوقت الذي كان النبي يعد العدة للهجرة من مكة إلى المدينة، كان المشركون يتآمرون ضده ويحاولون قتله ، وهو ما تشير إليه الآية الكريمة:

- - "وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك، أو يقتلوك، أو يخرجوك، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين". (الأنفال، 30)

وكان هذا المكر على ما ذكره ابن عباس وغيره من أهل التفسير: أن قريشاً فرّقوا (خافوا) لما أسلمت الأنصار أن يتفاقم أمر رسول الله (ص) فاجتمع نفر من كبارهم في دار الندوة ، ليتشاوروا في أمر رسول الله ، وكانت رءوسهم : عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو جهل بن هشام ، وأبو سفيان ، وطعيمة بن عدي ، وشيبة بن ربيعة ، والنضر بن الحارث ، وأبو البختر بن هشام وزمعة بن الأسود ، وحكيم بن حزام ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج ، وأمّية بن خلف ، فاعترضهم شيخ

نجدي، فلما رأوه قالوا : من أنت؟ قال: شيخ من نجد ، سمعت باجتماعكم ، فأردت أن أحضركم، ولن تعدموا مني رأيا ونصحا ، قالوا : ادخل فدخل ، فقال أبو البختری :

- أما أنا فأرى أن تأخذوا محمدا وتحبسوه في بيت، وتشدوا وثاقه، وتسدوا باب البيت غير كوة تلقون إليه طعامه وشرابه ، وتتربصوا به ريب المنون حتى يهلك فيه ، كما هلك من كان قبله من الشعراء . قال : فصرخ الشيخ النجدي وقال :
- بنس الرأي رأيتم والله لئن حبستموه في بيت فخرج أمره من وراء الباب الذي غلقتم دونه إلى أصحابه فيوشك أن يثبوا عليكم ويقاتلوكم ويأخذوه من أيديكم، قالوا : صدق الشيخ ، فقال هشام بن عمرو من بني عامر بن لؤي :
- أما أنا فأرى أن تحملوه على بعير تخرجوه من أظهركم فلا يضركم ما صنع ولا أين وقع إذا غاب عنكم واسترحتم منه، فقال الشيخ النجدي:
- ما هذا لكم برأي تعتمدون عليه، تعمدون إلى رجل قد أفسد أحلامكم فتخرجونه إلى غيركم فيفسدهم؟ ألم تروا إلى حلاوة منطقته وحلاوة لسانه وأخذ القلوب بما تسمع من حديثه؟ والله لئن فعلتم ذلك ليذهبن وليستميل قلوب قوم ثم يسير بهم إليكم فيخرجكم من بلادكم، قالوا : صدق الشيخ : فقال أبو جهل:
- والله لأشيرن عليكم برأي ما أرى غيره إنني أرى أن تأخذوا من كل بطن من قريش شأبا نسيبا وسيطا فتيا ثم يعطى كل فتى منهم سيفا صارما ، ثم يضربوه ضربة رجل واحد ، فإذا قتلوه تفرق دمه في القبائل كلها ولا أظن هذا الحي من بني هاشم يقوون على حرب قريش كلها ، وأنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العقل فتؤدي قريش دينته ، فقال الشيخ النجدي :
- صدق هذا الفتى ، وهو أجودكم رأيا ، القول ما قال لا أرى رأيا غيره.

فتفرقوا على قول أبي جهل وهم مجمعون له. فأتى جبريل النبي (ص) وأخبره بذلك وأمره أن لا يبيت في مضجعه الذي كان يبيت فيه ، وأذن الله له عند ذلك بالخروج إلى المدينة ، فأمر رسول الله علي بن أبي طالب أن ينام في مضجعه وقال له : تسبح ببردتي هذه فإنه لن يخلص إليك منهم أمر تكرهه ، ثم خرج النبي فأخذ قبضة من تراب فأخذ الله أبصارهم عنه فجعل ينثر التراب على رؤوسهم وهو يقرأ:

- " إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي إلى الأنقان فهم مقمحون، وجعلنا من بين أيديهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون". (يس 8 - 9)
- ومضى إلى الغار من ثور هو وأبو بكر ، وخلف عليا بمكة حتى يؤدي عنه الودائع التي قبلها وكانت الودائع تودع عنده (ص) لصدقه وأمانته ، وبات المشركون يحرسون عليا في فراش رسول الله يحسبون أنه النبي ، فلما أصبحوا ثاروا إليه فرأوا عليا ، فقالوا : أين صاحبك؟ قال : لا أدري ، فمكث النبي في غار ثور ثلاثا، ثم قدم المدينة ، وذلك قوله تعالى:
- " وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك (ليحبسوك ويسجنوك ويوثقوك) أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله، والله خير الماكرين". (الأنفال، 30)

الفصل السادس: توجه الدعوة الإسلامية للإنس والجن

يؤكد القرآن الكريم على وجود جنس (الجن) الى جانب (الإنس) في هذه الآية: "وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون". (الذاريات، ٥٦) ويخبرنا بأن إبليس كان من الجن، مع الملائكة: "واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا". (الكهف ، ٥٠)

و كان النبي يخاطب الجن كما يخاطب الإنس: " يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والارض فانفذوا لا تنفذون الا بسلطان". (الرحمن، ٣٣) ويتحداهم أن يأتوا بمثل معجزته الخالدة (القرآن): "قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا". (الاسراء، ٨٨)

وكما يلاحظ فان هذه الآية تتضمن تحديا مضاعفا للمشركين الذين كانوا يدعون الاتصال بالجن واستقاء الأخبار السماوية منهم.

ويحذر القرآن بني آدم من إتباع الشيطان (أو ابليس الجني) ويؤكد على حقيقة مهمة جدا وهي عدم استطاعة بني آدم رؤية الشياطين، من حيث لا يرونهم: "يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع

عَنْهُمْ لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوَّاتِهِمَا ۗ إِنَّهُ يَرَكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ". (الاعراف ٢٧)

ولكن القرآن يستثني حالة واحدة فقط من قاعدة عدم رؤية الناس للجن، وهي حالة النبي سليمان الذي طلب من الله أن يعطيه ملكا لا ينبغي لأحد من بعده، فيفرد آيات عديدة عن خدمة الجن للنبي سليمان، ورؤيته لهم، فيقول: "وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون". (النمل، ١٧) و" قال عفريت من الجن أنا أتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين". (النمل، ٣٩) "ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر، ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير". - يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات، اعملوا آل داود شكرا، وقليل من عبادي الشكور، فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين". (سبأ، ١٢-١٤)

ويستغرب القرآن مما كان يفعل المشركون من جعل الجن شركاء لله تعالى، والاعتقاد بأنهم على علاقة نسبية مع الله عز وجل: "وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون". (الانعام، ١٠٠) "وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ولقد علمت الجنة انهم لمحضرون". (الصافات، ١٥٨) مما يشي بأن ثقافة المشركين كانت تتضمن الايمان بالجن وتعظيمهم الى حد عبادتهم: "قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون". (سبأ، ٤١)

ويتحدث القرآن أيضا عن وجود علاقة ثقافية متبادلة بين المشركين (الكهان) والجن، وعن نوع من الوحي المتبادل فيما بينهم: "وانه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا". (الجن، ٦) "وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا ولو

شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون". (الانعام، ١١٢)

ويطلق القرآن على الوحي الشيطاني لعموم الناس وليس للمشركين فقط، اسم (الوسوسة) فيقول: "قل أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس". (الناس، ١-٦)

كما يتحدث عن انقطاع علاقة الجن بالسماء أو قدرتهم على استماع حديث الملائكة، بعد بعثة النبي محمد: "وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملأت حرسا شديدا وشهبا، وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد شهابا رسدا، وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض؟ أم أراد بهم ربهم رشدا". (الجن، ٨-١٠)

إسلام نفر من الجن

وبالرغم من حديث النبي محمد الكثير في القرآن عن الجن، إلا أنه لا يدعي رؤيته للجن، أو حتى شعوره بوجودهم أثناء مرورهم به عند عودته من الطائف، وأثناء قراءته للقرآن، وإنما يتحدث عن إخبار الله له بذلك: "وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن، فلما حضروه قالوا: أنصتوا، فلما قضى، ولوا إلى قومهم منذرين. قالوا: يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم. يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم. ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء، أولئك في ضلال مبين". (الأحقاف، 29 - 32). وقال في سورة الجن: "قل أوحى إلي أنه استمع نفرٌ من الجن، فقالوا: إنا سمعنا قرآناً عجبا، يهدي إلى الرشد فأمانا به، ولن نشرك بربنا أحداً" (آية 1-2)

وكما يتحدث القرآن فان إسلام الجن كان بمجرد سماعهم له:

• "وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به، فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا

رهقا". (الجن، 13).

وكما حدث مع الإنس فقد حدث مع الجن حيث لم يسلموا جميعا، وأصر بعضهم على الكفر، ولا نعرف سبب ذلك بالطبع لأن الله عز وجل لم يخبرنا بمزيد من التفاصيل، ولكنه ينقل لنا قولهم: "وأنا منا المسلمون، ومنا القاسطون، فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا، وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا". (الجن، 14 – 15) وكل ما نعرفه عن إسلام الجن أنهم أسلموا بمجرد الاستماع الى القرآن الكريم (الأحقاف، 30) فأدركوا أنه كلام الله، دون نقاش كبير.

ويتحدث القرآن عموما عن تكليف الله للجن وحریتهم مثل الانسان في طاعة الله أو عصيانه، وإرسال الرسل للجن كما للإنس، ومسؤوليتهم أمامه يوم القيامة، ودخولهم الجنة أو النار، كما في هذه الآيات التالية:

• " يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا؟ قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين". (الانعام، ١٣٠) "ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس اجمعين". (السجدة، ١٣) "ويوم يحشرهم جميعا يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا، قال النار مثواكم خالدين فيها الا ما شاء الله ، إن ربك حكيم عليم". (الانعام، ١٢٨) "قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا ادركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فاتهم عذابا ضعفا من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون". (الأعراف، ٣٨) "ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون". (الأعراف، ١٧٩) "وقيضنا لهم قرناء فزيناوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس

انهم كانوا خاسرين". (فصلت، ٢٥) "وقال الذين كفروا ربنا أرنا الذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين". (فصلت، ٢٩) "أولئك الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين". (الاحقاف، ١٨)

الباب الثاني: استراتيجية النبي محمد في دعوة اليهود الى الإسلام

يضم أربعة فصول

الفصل الأول: الموقف الإيجابي الأول من اليهود

موقف النبي من اليهود وهو في مكة

اتسم موقف النبي محمد (ص) عندما كان في مكة بموقف إيجابي، حيث أرجع كفار قريش اليهم للسؤال عنه وعن علامات النبوة فيه، وتعاطف مع ما حدث لهم في مصر على يد فرعون، ودعا الى الحوار معهم بالتالي هي أحسن.

• اليهود مرجعية للحكم على صحة النبوة

لقد اعتبر النبي محمد (ص) في مكة، في بداية نزول الوحي عليه، اليهود وأهل الكتاب مرجعا دينيا للحكم على صحة رسالته، وإزالة الشك من قلبه، كما ورد في القرآن الكريم:

• "فان كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك، لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين، ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين". (يونس 94-95)

• "والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق، فلا تكونن من الممترين". (الأنعام، 114)

واعتبر اليهود (أهل الكتاب) حَكَمًا بينه وبين المشركين الذين كانوا يطالبون النبي بالمعاجز والأدلة على صدق نبوته، ومرجعا لإثبات صحة رسالته لهم، من خلال آيات مكية عديدة:

- " أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني اسرائيل". (الشعراء، 197)
- "الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل". (الأعراف، 157)
- "قل آمنوا به أو لا تؤمنوا، إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا، ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا". (الاسراء، 109)
- "ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل اليك من ربك هو الحق، ويهدي الى صراط العزيز الحميد. (لقمان، 6)
- "قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به، وشهد شاهد من بني اسرائيل على مثله فأمن واستكبرتم، إن الله لا يهدي القوم الظالمين". (الأحقاف، 10)
- "الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون. وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين، أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرؤون بالحسنة السيئة، ومما رزقناهم ينفقون". (القصص، 52-54)
- "والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل اليك...". (الرعد، 36)
- "وما أرسلنا قبلك إلا رجالا يوحي إليهم، فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون". (الأنبياء، 7)
- "وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم، فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر...". (النحل، 43 - 44)

ب - التعاطف مع بني إسرائيل

فقد تحدث القرآن عن عذابات بني إسرائيل في مصر، ورحلتهم منها الى أرض الميعاد، وذكر فضل الله ونعمه الوفيرة عليهم:

- " نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون. إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم، انه كان من المفسدين". (القصص، 3)
- " وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها، وتمت كلمة ربك الحسنى على بني اسرائيل بما

صبروا، ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون".
(الاسراء، 137)

• "وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم، وفي ذلك بلاء من ربكم عظيم". (الإسراء، 141)

• "ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون". (الاسراء، 159)
• "وأوحينا إلى موسى إذ استسقاءه قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانجست منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم، وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المن والسلوى، كلوا من طيبات ما رزقناكم، وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون". (الإسراء، 160)

• "ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكمة والنبوة ورزقناهم من الطيبات، وفضلناهم على العالمين، وآتيناهم بينات من الأمر، فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم، إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون". (الجنائفة، 16-17)

• "فأخرجناهم من جنات وعيون، وكنوز ومقام كريم، كذلك فأورثناها بني إسرائيل". (الشعراء، 57 – 59) وتحدث القرآن عن انقاذهم من فرعون على يد النبي موسى، فقال:

• "يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن، ونزلنا عليكم المن والسلوى. كلوا من طيبات ما رزقناكم، ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي، ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى". (طه، 80-81)

• "ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين. ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون". (القصص، 5-6)

• "وإني لأظنك يا فرعون مثبورا، فأراد أن يستفزهم من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعا، وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض، فاذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم ليفا". (الإسراء، 102-104)

• "وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا. ولقد بوأنا بني إسرائيل ميثاقا صديق ورزقناهم من الطيبات، فما اختلفوا حتى جاءهم العلم، إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون". (يونس، 90-93)

ج - الحوار بالتي هي أحسن

ودعا القرآن الى الحوار الودي مع اليهود وأهل الكتاب:

- "ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن، إلا الذين ظلموا منهم، وقولوا أمانا بالذي أنزل الينا وأنزل اليكم، وإلهانا وإلهكم إله واحد ونحن له مسلمون. وكذلك أنزلنا اليك الكتاب، فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به، ومن هؤلاء من يؤمن به، وما يجحد بآياتنا الا الكافرون". (العنكبوت، 46-47)

موقف النبي الإيجابي من اليهود في المدينة

وقام النبي محمد (ص) عند مجيئه للمدينة، بالتودد لليهود من أجل جلبهم الى الاسلام، كما نلاحظ ذلك في الصفحات الأولى من سورة البقرة (من آية 123-40)، التي تذكرهم بفضل الله ونعمته عليهم:

- "يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون. وأمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به، ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا وإياي فاتقون. ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون... يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين... وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلك بلاء لمن ربكم عظيم. وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون. وإذ وعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون. ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون. وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون. وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم. وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون. ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون. وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى، كلوا من طيبات ما رزقناكم، وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون. وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين. فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون. وإذ استسقى موسى لقومه قلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم، كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين. وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام

وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِيهَا وَبَصَلِهَا، قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ. وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ. (61) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. (62) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ. ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ. وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ". (65) ثم يختم الله تلك المجموعة من الآيات بالآية الأولى التي ابتدأ فيها الخطاب معهم وتذكيرهم بنعمة الله وفضله عليهم مرة ثانية: "يا بني إسرائيل اذكروا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ". (البقرة، 122)

إن هذه المجموعة من الآيات (من 40 الى 123)، التي اقتطفنا بعضها، والتي نزلت في أول سورة البقرة، التي كانت أول سورة تنزل في المدينة (واستمرت تنزل مقاطع عديدة منها الى السنة الأخيرة العاشرة)، تعبر عن موقف إيجابي واضح من اليهود، ينسجم مع توقع صحيفة المدينة، والعلاقات الإيجابية بين المسلمين واليهود، ولا سيما الآية رقم 62 :

• " إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ". (البقرة، 62)

والتي أكدها القرآن الكريم بآية أخرى مشابهة في سورة المائدة:

• "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ، مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا، فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ". (المائدة، 69)

ويمكننا أن نستنتج من هذه الآيات أن النبي محمد (ص) كان يتوقع أن يسارع اليهود الى التصديق به ودعمه في مقابل المشركين، كما ورد في هذه الآية:

• "الذين يتبعون الرسول الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه، أولئك هم المفلحون". (الأعراف، 157)

دستور المدينة: المسلمون واليهود أمة واحدة

وعندما وصل النبي محمد (ص) الى المدينة، وجدها تضم أطرافاً من الناس بين مسلم ومشرك ويهودي ونصراني، وكانت أول خطوة قام بها هو تشكيل حلف بين المسلمين واليهود، للدفاع والأمن والتكافل والتعايش الاجتماعي السلمي، فكتب وثيقة عرفت بدستور المدينة، وجاء فيها:

• "هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم انهم أمة واحدة من دون الناس.... وان المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم أو إثم أو عدوان، أو فساد بين المؤمنين، وان أيديهم عليه جميعا... وان المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس، وانه من تبعنا من يهود فان له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم، وان سلم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله الا على سواء وعدل بينهم، وان كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضا... وان المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه، وانه لا يجير مشرك ما لا لقربش- ولا نفسها، ولا يحول دونه على مؤمن... وان اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وان يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم الا من ظلم وإثم فانه لا يوتغ الا نفسه وأهل بيته. وان ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف، وان ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف، وان ليهود بني ساعدة ما ليهود بني عوف، وان ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف، وان ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف، وان ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف، الا من ظلم وإثم فانه لا يوتغ الا نفسه وأهل بيته... وان على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وان بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وان بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم، وانه لم يأتهم امرؤ بحليفه، وان النصر للمظلوم، وان اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وان يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة... وانه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو شجار يخاف فساده فان مرده الى الله عز وجل والى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وانه لا تجار قريش ولا من نصرها. وان بينهم النصر على من دهم يثرب، وإذا دعوا الى صلح يصلحونه ويلبسونه فانهم يصلحونه ويلبسونه، وانهم اذا دعوا الى مثل ذلك فان لهم على المؤمنين الا من حارب في الدين، على كل حصتهم من جانبهم الذي قبلهم. وان يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على ما لأهل هذه الصحيفة. مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة.. وانه لا يحول هذا

الكتاب دون ظالم وأثم، وانه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة، الا من ظلم أو أثم، وان الله جار لمن بر واتقى. ومحمد رسول الله (ص)."

وربما تشير الآية التالية الى هذه الوحدة بين المسلمين وأهل الكتاب، التي تحققت في بداية مجيئ النبي الى المدينة:

- "إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون" (الأنبياء، 92)
- وكذلك الآية التالية التي تأتي بين مجموعة آيات تتحدث عن اليهود:
- "وإن هذه أمتكم أمة واحدة، وأنا ربكم فاتقون". (المؤمنون، 51)
- " قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا أربابا من دون الله، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون". (آل عمران، ٦٤)
- "ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن الا الذين ظلموا منهم، وقولوا: آمنا بالذي أنزل الينا وانزل اليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون". (العنكبوت، ٤٦)

دعوة اليهود للإسلام

وقد انطلق النبي ذات يوم حتى دخل كنيس اليهود بالمدينة يوم عيد لهم ، فقال لهم:

- "يا معشر اليهود أروني اثني عشر رجلا يشهدون أنه لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله يُحبط الله عن كل يهودي تحت أديم السماء الغضب الذي غضب عليه".

فأسكتوا ما جاء به منهم أحد. ثم رد عليهم فلم يجبه أحد. ثم ثلث فلم يجبه أحد. فقال:

- "أبيتم ! فو الله إني لأنا الحاشر وأنا العاقب وأنا النبي المصطفى آمنتم أو كذبتم".

وربما نجد الدعوة الى الاسلام في هذه الآية:

- " ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم، منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون".
(آل عمران، 110)

ولم يسلم إلا مجموعة من اليهود، وعلى رأسهم الحبر الحصين (عبد الله) بن سلام بن الحارث، وحسبما يروى عنه، فإنه يقول: لما قدم رسول الله (ص) المدينة انجفل الناس إليه، فجنّت في الناس لأنظر إليه، فلما استنثبت وجه رسول الله (ص) عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، وكان أول شيء تكلم به أن قال:

- "أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصدّوا والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام".

وروى البخاري عن أنس، قال: سمع عبد الله بن سلام بقدم رسول الله (ص)، فأتى النبي فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي: فما أول أشرط الساعة؟ وما أول طعام أهل الجنة؟ وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال: أخبرني بهن جبريل أنفا. قال: جبريل؟! قال: نعم. قال: ذاك عدو اليهود من الملائكة! فقرأ رسول الله (ص) هذه الآية:

- " مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ". (البقرة، ٩٧)

ثم قال: أما أول أشرط الساعة فنار تحشرُ الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام أهل الجنة فزيادة كبد حوت، وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد، وإذا سبق ماء المرأة نزعت.

قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله.

وفي رواية أخرى للبخاري: قال عبد الله بن سلام: أشهد أنك رسول الله وأنت جئت بحق وقد علمت يهود أنني سيدهم وابن سيدهم وأعلمهم وابن أعلمهم، فادعهم فاسألهم عني قبل أن يعلموا أنني قد أسلمت، فإنهم إن يعلموا أنني قد أسلمت قالوا في ما ليس في، فأرسل نبي الله (ص) إليهم، فأقبلوا فدخلوا عليه فقال لهم: يا معشر اليهود ويلكم اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنني رسول الله حقا وأني جئتكم بحق فأسلموا. قالوا: ما نعلمه. قال: فأبي رجل فيكم عبد الله بن سلام؟ قالوا: ذلك سيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا! قال: أفرأيتم إن أسلم؟ قالوا: حاشى الله ما كان ليسلم! قال: أفرأيتم إن أسلم؟ قالوا: حاشى الله ما كان ليسلم!

قال: يا ابن سلام اخرج عليهم، فخرج، فقال: أي رجل تعلمون فيكم يا معشر اليهود؟ قالوا: والله ما نعلم أنه كان فينا رجل أعلم بكتاب الله منك ولا أفقه منك

ولا من أبيك قبلك ولا من جدك قبل أبيك. قال: يا معشر اليهود اتقوا الله، فو الله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله ، فإنني أشهد له بالله إنه نبي الله الذي تجدونه في التوراة وأنه جاء بحق. قالوا : كذبت. ثم ردوا عليه قوله وقالوا فيه شرا. فقال رسول الله: كَذَّبْتُمْ لَنْ يَقْبَلَ اللهُ قَوْلَكُمْ. أَمَا أَنْفَا فَتَنْتُونُ عَلَيْهِ مِنْ الْخَيْرِ مَا أَثْنَيْتُمْ، وَلَمَا آمَنْ كَذَّبْتُمُوهُ وَقَلْتُمْ فِيهِ مَا قَلْتُمْ، فَلَنْ يَقْبَلَ اللهُ قَوْلَكُمْ. وَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ الْآيَةَ:

• " قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَأَمَنْ وَاسْتَكْبَرْتُمْ " .

ويقول بعض المفسرين أن عبد الله بن سلام هو (الذي عنده علم من الكتاب) الوارد في هذه الآية:

• " وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسَدْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ " . (الرعد، ٤٣).

وانه هو الذي أكد للنبي وجوده مكتوبا في التوراة باسمه وصفته، كما تقول الآية التالية:

• الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ " . (الأعراف، 157)

وحسب رواية البخاري السابقة لم يذكر عبد الله بن سلام تفاصيل الإشارة الى النبي محمد في التوراة، أين؟ وهل كانت بالاسم؟ أم بالوصف؟ على العكس من رواية لابن هشام، تتضمن التصريح باسم النبي وصفته. دون ذكر ذلك بالتفصيل. ولكن يبدو أن هذه الرواية ضعيفة ولذلك لم يأخذ بها البخاري، ولم يعز عبد الله إسلامه الى ذكر النبي بالاسم، وإنما قال إنه آمن بالنبي بعد أن سأله ثلاثة أسئلة غيبية. وربما كلنت الأجوبة تطابق ما كلن لديه من التراث اليهودي، ولكنها لا تشير الى علامة قوية على النبوة، وربما آمن عبد الله بالنبي لما يقوله في الرواية

السابقة من أنه عندما استثبت وجه رسول الله (ص) عرف أن وجهه ليس بوجه كذاب.

وربما تشرح الرواية التالية عن كيفية إسلام حبر اليهود الآخر زيد بن سحنة، بعض الصفات النبوية الخلقية التي كان يتمتع بها النبي ، والتي أدت الى إسلامه، فقد قال: والله ما من شيء من علامات النبوة إلا وقد عرفته في وجه النبي حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أعرفهما فيه الأولى: يسبق حلمه جهله، والثانية: لا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلما، ثم يقول في قصة مفصلة أنه أقرض النبي مالا (ثمانين مثقالا من الذهب)، ثم التقى النبي قبل أن يحل وقت السداد فأخذه من مجامع ثوبه، وقال له: أد ما عليك من دين يا محمد فو الله ما علمتكم يا بني عبد المطلب إلا مطلا في سداد الديون، فانتفض عمر وهدده بالقتل، فالتقت النبي إلى عمر وقال: "لا يا عمر لقد كان من الواجب عليك أن تأمرني بحسن الأداء وأن تأمره بحسن الطلب" ثم قال: "يا عمر ، خذه وأعطه حقه، وزده عشرين صاعا من تمر جزاء ما روعته" يقول زيد: فأخذني عمر فأعطاني حقي، وزادني عشرين صاعا من التمر . فقلت له: ما هذه الزيادة؟ قال: أمرني رسول الله أن أزيدكها جزاء ما روعتك. ثم قال عمر: فما الذي حملك على أن تفعل برسول الله ما فعلت؟ قال زيد: يا عمر والله ما من شيء من علامات النبوة إلا وقد عرفته في وجه محمد حين نظرتُ إليه إلا اثنتين لم أعرفهما فيه: الأولى: يسبق حلمه جهله، والثانية: لا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلما، أما وقد عرفتهما اليوم فإنني أشهدك أنني قد رضيت بالله ربا، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً ورسولاً. وشهد زيد مع رسول الله بعد ذلك كل المشاهد والغزوات، وتوفي في غزوة تبوك.

ونزل في هؤلاء المؤمنين من اليهود قول الله تعالى:

- "ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون، يؤمنون بالله واليوم الآخر، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين، وما يفعلوا من خير فلن يكفروه، والله عليم بالمتقين". (آل عمرا، 113- 115)
- "وان من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما انزل اليكم، وما أنزلنا اليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا، أولئك لهم أجرهم عند ربهم، ان الله سريع الحساب". (آل عمران ١٩٩)

الفصل الثاني: الموقف السلبي لليهود من الاسلام

رفض عامة اليهود الاستجابة للنبي محمد (ص)

على عكس توقع النبي محمد (ص) لم يستجب عامة اليهود للدعوة الإسلامية، عندما قدم إلى المدينة، فقد قام وفد من علماء اليهود وزعمائهم في المدينة، ضمّ كلا من: (كعب بن الأشرف وحيي بن أخطب، وياسر بن أخطب، ومالك بن الصيف، ووهب بن يهودا، وفنحاص بن عازوراء) بزيارة النبي محمد؛ وطالبوه بإثبات نبوته لهم، فقالوا له: أتزعم أن الله أرسلك إلينا؟ وقد أنزل علينا كتاباً عهد إلينا فيه ألا نؤمن لرسول يزعم أنه من عند الله حتى يأتينا بقربان تأكله النار، فإن جئنا به صدقناك.

وربما كان اليهود هنا يشيرون إلى قصة النبي إيلياء مع الملك آخاب وأنبياء البعل الرابع مائة والخمسين، الكذبة، الواردة في (ملوك الأول ١٨: ١٩ - ٤٠) والتي طلب فيها النبي إيلياء وضع ثورين مقطعين على حطب، ثم دعا الأنبياء الكذبة إلى دعاء ربهم لاشعال النار في أحد الثورين، فعجزوا عن ذلك، بينما تقدم هو ودعا ربه "فانزلت نار الرب والتهمت المحرقة والحطب والحجارة والتراب وحتى الماء الذي في الخندق". (ملوك الأول ١٨: ٣٨)

وفيما عدا هذه القصة لا يذكر التراث اليهودي أية معاجز أخرى للأنبياء السابقين أو اللاحقين، أو امتحان صدق الأنبياء بنزول النار وأكل القرابين.

وعلى أي حال فقد تفاجأ النبي محمد (ص) من موقفهم السلبي تجاه الدعوة الإسلامية، ورد عليهم بأن اليهود السابقين لم يؤمنوا ببعض الأنبياء وقتلوهم رغم تقديمهم للقرابين، حسبما جاء في هذه الآيات:

• "الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار. قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين، فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير". (آل عمران، 183-184)

وكما نلاحظ فإن القرآن لا ينكر هنا مسألة القرابين في إثبات نبوة الأنبياء السابقين، بل يؤكد وجودها، كما يؤكد في مناسبات أخرى إتيان الأنبياء السابقين للمعاجز. كما إن النبي لم يتحدث هنا عن معجزة (القرآن) كبديل عن المعاجز المادية. ولكن إذا نظرنا إلى الآيتين 23 و24 من سورة البقرة، فقد نجد فيهما جواباً مناسباً ومتزامناً لطلب كعب بن الأشرف وهؤلاء اليهود:

• "وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله، وادعوا شهداءكم من دون الله، إن كنتم صادقين. فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا، فاتقوا

النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين". (البقرة، ٢٣-٢٤)

بما يعني أن النبي محمد كرر لليهود جوابه الذي تحدى فيه مشركي مكة، أن يأتوا بمثل هذا القرآن (المعجزة).

ولكن اليهود تمسكوا بموقفهم الرفض للإيمان بالنبي محمد، ما عدا فريق صغير منهم، وطالبوه بإثبات دعواه بمعجزات وآيات، كما يحدثنا القرآن عنهم:

• "فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ، أَوْلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ. قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ" (القصص، 48) وهنا خاطب الله نبيه:

• " قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا اتَّبِعْهُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ، فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ " (القصص، 49 - 50) وأكد لهم:

• "وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ فَآخَذْتُلْفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَفُضِي بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ" (فصلت، 45)

وفي محاولة من اليهود للتشكيك بنبوة النبي محمد، ذهب وفد منهم برئاسة بعض أحرارهم وسادتهم مثل كعب بن أسد، وشموئيل بن زيد، وجبل بن عمرو بن سكينه، وخاطبوا النبي قائلين:

- يا محمد، أما يعلمك هذا إنس ولا جن؟ فقال لهم رسول الله (ص):
- أما والله إنكم لتعلمون أنه من عند الله وأني لرسول الله، تجدون ذلك مكتوبا عندكم في التوراة. فقالوا:
- يا محمد! فأنزل علينا كتابا من السماء نقرأه ونعرفه، وإلا جنناك بمثل ما تأتي به. فأنزل الله تعالى:
- "قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون به ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا". (الإسراء، 88)

وفي رواية أخرى: قالوا: إن كنت صادقاً أنك رسول الله فأتنا كتابا مكتوبا من السماء، كما جاء موسى بنى إسرائيل بالتوراة مكتوبة من عند الله، فنزلت الآيات التالية التي لم تكتف بالرد، وإنما شنت هجوما عنيفا وشاملا عليهم، يوضح

مخالفاتهم للنبي موسى وعصيانهم لأوامره رغم اعترافهم بنبوته:

• "يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء، فقد سألوا موسى أكبر من ذلك، فقالوا: أرنا الله جهرة، فأخذتهم الصاعقة بظلمهم، ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات، فغفونا عن ذلك، وآتينا موسى سلطانا مبينا. ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم، وقلنا لهم ادخلوا الباب سجدا، وقلنا لهم لا تعدوا في السبت، وأخذنا منهم ميثاقا غليظا. فبما نقضهم ميثاقهم وكفروهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق، وقولهم قلوبنا غلف، بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا. وبكفروهم وقولهم على مريم بهتاننا عظيما. وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم، وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه، ما لهم به من علم، إلا اتباع الظن، وما قتلوه يقينا. بل رفعه الله إليه، وكان الله عزيزا حكيما. وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته، ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا. فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم، وبصدهم عن سبيل الله كثيرا. وأخذهم الربا، وقد نهوا عنه، وأكلهم أموال الناس بالباطل، وأعدنا للكافرين منهم عذابا أليما". (النساء، 153-160)

وقال اليهود للنبي محمد (ص): ألا تكلم الله وتنظر إليه، إن كنت نبيا، كما كلمه موسى ونظر إليه. وقالوا: لن نؤمن لك حتى تفعل ذلك. فقال النبي: لم ينظر موسى الى الله عز وجل. ونزلت هذه الآية:

• "وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب". (الشورى، 51).

وربما قال اليهود ذلك بناء على فهمهم لظاهر آية:

- "وكلم الله موسى تكليما". (النساء، 164) وآية:
- "ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه، قال رب أرني أنظر اليك...". (الأعراف، 143) وآية:
- "فلما أتاه نودي من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين". (القصص، 30) أو:
- " فلما أتاه نودي: يا موسى أنا ربك فاخضع نعليك إنك بالواد المقدس طوى، وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى، إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني،

واقم الصلاة لذكري". (طه، 11 – 14) .

وهي آيات تصرح بنوع مباشر ومختلف من الوحي عن الذي كان ينزل على الأنبياء السابقين واللاحقين ومن بينهم النبي محمد الذي لم يدع يوماً أن الله قد كلمه تكليماً. ولكن تلك الآيات لا تصرح بمشاهدة الله للنبي موسى، وهو أمر يختلف فيه اليهود فيما بينهم، حيث يؤكد اليهود العبرانيون، وينفيه اليهود السامريون.

وكان اليهود العبرانيون يعتقدون بإمكانية نزول الله الى الأرض ورؤيته، بل والمصارعة مع الانسان. ويروون في الاصحاح الثالث من سفر الخروج من التوراة:

• "وأما موسى فكان يرعى غنم يثرون حميه كاهن مديان، فساق الغنم الى وراء البرية، وجاء الى جبل حوريب، وظهر له ملاك الرب بلهيب من نار من وسط عليقة، فنظر واذا العليقة تتوقد بالنار، والعليقة لم تكن تحترق، فقال موسى: أميل الآن لأنظر هذا المنظر العظيم لما لا تحترق العليقة. فلما رأى الرب أنه مال لينظر ناداه الله من وسط العليقة، وقال: موسى.. موسى.. فقال: ها أنذا، فقال: لا تقترب الى ههنا، اخلع حذاءك من رجلك لأن الموضع الذي أنت واقف عليه أرض مقدسة، ثم قال: إنا إله أبيك إله إبراهيم وإله إسحق، وإله يعقوب. فغطى موسى وجهه لأنه خاف أن ينظر الى الله. فقال الرب: إني قد رأيت مذلة شعبي الذي في مصر، وسمعت صراخهم من أجل مسخريهم، إني علمت أوجاعهم فنزلت لأنقذهم من أيدي المصريين، وأصعدهم من تلك الأرض الى أرض جيدة (من 1-7)... اذهب واجمع شيوخ بني إسرائيل وقل لهم: الرب إله آبائكم إبراهيم واسحق ويعقوب ظهر لي قائلاً: إني قد افتقدتكم..(16).

ويبدو من هذا النص التوراتي أن موسى كان يرى الرب (عز وجل) أو شبحه، أو كان اليهود يحسبون "ملاك الرب" هو الله الذي يقولون إنه ظهر لموسى، وكان يسير في عمود من نار، أو عمود من سحب ليرشدهم، أو ينزل أمام خيمة الاجتماع. ولذلك طلب اليهود (العبرانيون) من النبي محمد أن يكلم الله تكليماً، كما كلم الله موسى تكليماً، أي مباشرة.

وعلى أية حال، فقد جاء الوحي ليطمئن النبي في مقابل تشكيكات اليهود ومطالبتهم بإنزال صحف مكتوبة، كما نزلت على موسى:

• "لكن الله يشهد بما أنزل اليك، أنزله بعلمه، والملائكة يشهدون، وكفى بالله

شهيذا". (النساء، 166)

وقد ذكر ابن اسحاق أن رسول الله (ص) كلم رؤساء من أحيار اليهود منهم: عبد الله بن سوريا، وهو من يهود بني ثعلبة بن الفطيون، وكعب بن أسد رئيس بني قريظة، فقال لهم:

• "يا معشر اليهود: اتقوا الله وأسلموا فوالله إنكم لتعلمون أن الذي جئتكم به الحق".

قالوا: ما نعرف ذلك يا محمد. فجدوا ما عرفوا وأصروا على الكفر.

وقال معاذ بن جبل وسعد بن عبادة وعقبة بن وهب: يا معشر يهود، اتقوا الله، فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله، ولقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه، وتصفونه لنا بصفته.

فقال رافع بن حريملة ووهب بن يهودا: ما قلنا لكم هذا قط، وما أنزل الله

من كتاب بعد موسى، ولا أرسل بشيرا ولا نذيرا بعده.

• " يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنِ ذَلِكَ وَأَتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا".

(النساء، ١٥٣)

وقال أبو صلوي الفطيوني لرسول الله: يا محمد ما جئتنا بشيء لا نعرفه،

وما انزل الله عليك من آية فنتبعك لها.

وقال حيي بن أخطب وكعب بن أسد وأبو رافع وأشيع وشموييل بن زيد، لعبد الله بن سلام حين أسلم: ما تكون النبوة في العرب، ولكن صاحبك ملك.

• وقد رد عليهم القرآن:

• "ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم". (الجمعة، ٤)

ولكن القرآن وجه اتهامها صريحا لليهود بأنهم يعرفون حقيقة النبي وينكرونها:

• "الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون". (الأنعام 20) وندد بالمكذبين قائلا:

• "ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته؟ إنه لا يفلح الظالمون". (الأنعام، 21) وهددهم قائلا:

• "يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها، أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت، وكان أمر الله مفعولا". (النساء 47) وخاطبهم قائلا:

• "قل آمنوا به أو لا تؤمنوا، إن الذين أوتوا العلم من قبله، إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا، ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا". (الإسراء، 107 – 108)

• "وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم، فإن أسلموا فقد اهتدوا، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ، والله بصير بالعباد". (آل عمران، 20)

وشبه القرآن أهل الكتاب (اليهود) الذين طلبوا من النبي إثبات نبوته بمعاجز، بالمشركين من أهل مكة:

• "وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية، كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يوقنون". (البقرة، 118).

وأشار النبي في آية أخرى إلى إصرار اليهود على الكفر بالرغم من نزول البينات والآيات، كما كفروا بالنبي عيسى الذي كان يأتيهم بالمعجزات، واتهامهم له بالسحر:

• "إذ قال الله يا عيسى بن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلا... وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذني، وتبرئ الأكمه والأبرص بإذني، وإذ تخرج الموتى بإذني، وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات، فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين". (المائدة، 110)

• "وإذ قال عيسى بن مريم: يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد، فلما

جاءهم بالبينات قالوا: هذا سحر مبين". (الصف، 6)

ومن هنا فقد رفض النبي نهائياً الاستجابة لطلب اليهود بالإتيان بالمعاجز، كما رفض من قبل الاستجابة لطلب المشركين المشابه، وقرأ عليهم قوله تعالى:

• "ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه، إنما أنت منذرٌ ولكل قوم هادٍ". (الرعد، 7).

واستثنى منهم اليهود الذين أعلنوا إسلامهم:

• "الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل". (الأعراف، 157)

• "الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون، وإذا يتلى عليهم قالوا: آمنا به، إنه الحق من ربنا، إنا كنا من قبله مسلمين، أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا، ويدرؤون بالحسنة السيئة، ومما رزقناهم ينفقون". (القصص، 52-54) (هذه الآية التي يقال أنها نزلت في عبد الله بن سلام وأصحابه) وكذلك الراسخين في العلم:

• "لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك، والمقيم الصلاة والمؤتون الزكاة، والمؤمنون بالله واليوم الآخر، أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً". (النساء، 161) وميز القرآن بين اليهود المؤمنين والكافرين، فقال:

• "وقطعناهم في الأرض أمماً، منهم الصالحون، ومنهم دون ذلك، وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلمهم يرجعون... والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة، إنا لا نضيع أجر المصلحين". (الأعراف 168 و 170)

وبالرغم من مواقف اليهود السلبية تجاه النبي والاسلام والمسلمين، فان القرآن دعا الى النظر اليهم باعتدال وموضوعية وعدم تعميم النظرة السلبية تجاههم، فقال:

• "ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك، ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك، إلا ما دمت عليه قائماً، ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون". (آل عمران، 75) وهي تؤكد ما جاء في سورة الأعراف:

• "ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون". (159) وربما تشير

هذه الآية أيضا إلى النظرة النسبية:

- "ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم، منهم المؤمنون، وأكثرهم الفاسقون". (آل عمران، 110)

الاحتكام للنبي في قضية الزنا، وكتمان اليهود لحكم الرجم

وقد حدثت أثناء فترة الحوار بين النبي واليهود، في السنوات الأولى في المدينة، حادثة كشفت عن تلاعب اليهود بالتوراة، وكتمانهم للحق، وهو ما أضفى مزيدا من التوتر على علاقة الطرفين، والقصة كما يذكرها البخاري ومسلم والطبري عن ابن عباس، وعبد الله بن عمر، وجابر بن عبد الله، في تفسير قوله تعالى: " يحرفون الكلم من بعد مواضعه، يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا " (المائدة، 41) ، حيث قالوا: زنى رجل من أهل فدك ، فكتب أهل فدك إلى ناس من اليهود بالمدينة أن سلوا محمدا عن ذلك ، فإن أمركم بالجلد فخذوه عنه ، وإن أمركم بالرجم فلا تأخذوه عنه ، تسألوه عن ذلك. وفي رواية أخرى: زنت منهم امرأة ، فنفسوا أن يرموها ، وقالوا : انطلقوا إلى محمد ، فعسى أن يكون عنده رخصة ، فإن كانت عنده رخصة فاقبلوها! فأتوه ، فقالوا: يا أبا القاسم ، إن امرأة منا زنت ، فما تقول فيها؟ فأتاهم في بيت المدارس (المدارس) ، فوضعوا له وسادة ، فجلس عليها ، ثم قال: ائتوني بالتوراة . فأتي بها ، فنزع الوسادة من تحته ، ووضع التوراة عليها، وقال : أمنت بك وبمن أنزلك . ثم قال : ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟ أو: كيف حكم الله في التوراة في الزاني؟ فقالوا : دعنا من التوراة، ولكن ما عندك في ذلك؟ وقالوا : نسود وجوههما ونحملهما، ونخالف بين وجوههما ويطاف بهما ، قال: " فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين " وائتوني بأعلمكم بالتوراة التي أنزلت على موسى ! وقال لهم: بالذي نجاكم من آل فرعون ، وبالذي فلق لكم البحر فأنجاكم وأغرق آل فرعون ، إلا أخبرتموني ما حكم الله في التوراة في الزاني؟! قال : فجاءوا بها ، فقرأوها، حتى إذا مر بأية الرجم وضع الفتى الذي يقرأ يده على آية الرجم ، وقرأ ما بين يديها وما وراءها . فقال له عبد الله بن سلام - وهو مع رسول الله (ص) - : مره فليرفع يده . فرفع يده ، فإذا تحتها آية الرجم. فأمر بهما رسول الله (ص) فرجما .

وآية الرجم في التوراة، لا تزال كما هي، في سفر التثنية، آية 22-29:

- "إذا وجد رجل مضطجعا مع امرأة زوجة بعل يقتل الأثنان الرجل المضطجع مع المرأة والمرأة، فتنزع الشر من إسرائيل. إذا كانت فتاة عذراء مخطوبة لرجل فوجدها رجل في المدينة واضطجع معها.

فاخرجوهما كليهما إلى باب تلك المدينة وارجموهما بالحجارة حتى يموتا، الفتاة من أجل أنها لم تصرخ في المدينة والرجل من أجل أنه أذل امرأة صاحبه، فتنزع الشر من وسطك. ولكن إن وجد الرجل الفتاة المخطوبة في الحقل وأمسكها الرجل واضطجع معها يموت الرجل الذي اضطجع معها وحده. وأما الفتاة فلا تفعل بها شيئاً، ليس على الفتاة خطية للموت، بل كما يقوم رجل على صاحبه ويقتله قتلاً هكذا هذا الأمر. أنه في الحقل وجدها فصرخت الفتاة المخطوبة فلم يكن من يخلصها. إذا وجد رجل فتاة عذراء غير مخطوبة فامسكها واضطجع معها فوجدا. يعطي الرجل الذي اضطجع معها لأبي الفتاة خمسين من الفضة، وتكون هي له زوجة من أجل أنه قد أذلها لا يقدر أن يطلقها كل أيامه".

ونزل قوله تعالى:

- "يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، ومن الذين هادوا سماعون للكذب لقوم آخرين لم يأتوك، يحرفون الكلم من بعد مواضعه، يقولون: إن أوتيتهم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا، ومن يرد الله فنتنته فلن تملك له من الله شيئاً، أولئك لم يرد الله أن يظهر قلوبهم، لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم، سماعون للكذب أكالون للسحت، فإن جاؤوك فاحكم بينهم، أو أعرض عنهم، وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً، وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط، إن الله يحب المقسطين، وكيف يحكمونك و عندهم التوراة فيها حكم الله، ثم يتولون من بعد ذلك، وما أولئك بالمؤمنين. إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور، يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا، والربلانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله، وكانوا عليه شهداء، فلا تخشوا الناس واخشون، ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون". (المائدة، 41-44) كما نزلت هذه الآية:
- "ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يُدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون". (آل عمران، 23)

ويقول ابن إسحاق: أتى رهط من يهود إلى رسول الله فقالوا: يا محمد هذا الله خلق الخلق فمن خلق الله؟ قال فغضب رسول الله حتى انتقع لونه ثم ساورهم (واثبهم وباطشهم) غضبا لربه، فجاء جبريل فسكنه وجاءه بجواب ما سألوا:

- "قل هو الله أحد الله اصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد".

وأتى رسول الله سلام بن مشكم ونعمان بن أوفى وشأس بن قيس ومالك

بن الصيف، فقالوا: كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا وأنت لا تزعم أن عزيرا ابن الله؟

واعترض اليهود على القرآن - كما يقول ابن إسحاق - لما ذكر سليمان بن داود في المرسلين، فقال بعضهم أحبارهم: ألا تعجبون من محمد يزعم أن سليمان بن داود كان نبيا؟ والله ما كان الا ساحرا. فأنزل الله في ذلك من قولهم:

• " وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا...".

ويروي البخاري حوارا جرى بين النبي الأكرم وبين صبي يهودي في المدينة، كان يتكهن ، أو يدعي النبوة، ويطلق عليه (ابن صياد) وكان يشاع عنه أنه (الدجال) وذلك عندما انطلق اليه النبي في رهط من أصحابه ليتحقق من أمره حتى وجدوه يلعب مع الصبيان، وقد قارب اللحم، فقال له النبي:

- تشهد أني رسول الله، فنظر اليه ابن صياد فقال:
- اشهد أنك رسول الأميين، ورفضه، فقال له:
- ماذا ترى؟ فقال ابن صياد:
- يأتيني صادق وكاذب، فقال له النبي:
- خلط عليك الأمر، ثم قال له النبي:
- إني قد خبأت لك خبيئا، فقال ابن صياد:
- هو الدح، فقال:
- اخسأ فلن تعدو قدرك، فقال عمر:
- دعني يا رسول الله أضرب عنقه، فقال النبي:
- ان يكنه (أي الدجال) فلن تسلط عليه وان لم يكن فلا خير لك في قتله.

اتهام اليهود بتحريف التوراة

ونتيجة لرفض اليهود الإيمان بالإسلام، اتهم النبي فريقا منهم بتحريف

التوراة ، بكتمان بعض آياتها أو تأويلها تأويلاً خاطئاً، فقال:

• "إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب، أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون... إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلاً، أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار، ولا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم. أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار. ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق، وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد". (البقرة، 159 و174 و175 و176) وقال:

• "من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا، واسمع غير مسمع وراعنا، لئلاً بألسنتهم، وطعنا في الدين، ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم، ولكن لعنهم الله بكفرهم، فلا يؤمنون إلا قليلاً". (النساء، 46)

• "أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون". (البقرة، 75)

• "فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله، ليشتروا به ثمناً قليلاً، فويل لهم مما كتبت أيديهم، وويل لهم مما يكسبون". (البقرة، 79)

• "وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب، وما هو من الكتاب، ويقولون: هو من عند الله، وما هو من عند الله، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون". (آل عمران، 78)

وقد اختلف المفسرون في موضع التحريف، فقال الواحدي في (أسباب النزول): عند أكثر المفسرين: نزلت الآية في الذين غيروا الرجم وصفة محمد (ص).

وروى الطبري عن رسول الله (ص) في تفسير آية: "فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون" أنها أنزلت في اليهود، "لأنهم حرفوا التوراة، وزادوا فيها ما يحبون، ومحوها منها ما يكرهون، ومحو اسم محمد (ص) من التوراة، فلذلك غضب الله عليهم، فرفع بعض التوراة".

ونقل ابن كثير رواية الطبري هذه وعقب عليها قائلاً: "وهذا غريب أيضاً جداً". وروى عن السدي، أنه قال: هي التوراة حرفوها. وقال أبو العالية: عمدوا

الى ما أنزل الله في كتابهم من نعت محمد (ص) فحرفوه عن مواضعه.

أما البغوي فقال في (تفسيره): إن أحبار اليهود خافوا ذهاب مآكلتهم وزوال رياستهم حين قدم النبي (ص) المدينة، فاحتالوا الى تعويق اليهود عن الإيمان به، فعمدوا الى صفته في التوراة، وكانت صفته فيها: (حسن الوجه، حسن الشعر، أكحل العينين، ربعة)، فغيروها وكتبوا مكانها (طوال أزرق سبط الشعر) فيجدونها مخالفا لصفته فيكذبونه وينكرونه. قال الله تعالى: "فويل لهم مما كتبت أيديهم" يعني ما كتبوا بأنفسهم اختراعا من تغيير نعت محمد (ص).

نحصل من كل ذلك: أن التحريف حصل في محو اسم النبي محمد (ص) أو نعته وصفته، وهو بالطبع ما لا يمكن التحقق منه بصورة مستقلة، أو التأكد منه من قبل اليهود الذين ينفون كل ذلك. ولا يوجد في التوراة الحالية ما يشير الى ذلك. وربما كان المقصود من "وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون". (البقرة 75) الاستماع الى القرآن وليس التوراة. ولا يوجد في تلك الآيات ما يصرح بموضوع التحريف، إلا إذا أخذنا في نظرنا الآية السابقة: "الذين يتبعون الرسول الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل". (الأعراف، 157) وهو ما صرح به القرآن بالنسبة للإنجيل:

• "وإذ قال عيسى بن مريم: يا بني إسرائيل، إني رسول الله إليكم، مصدقا لما بين يدي من التوراة، ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد". (الصف، 6)

ولكنه لم يصرح بالنسبة للتوراة أن اسم النبي محمد كان مذكورا فيها. علما بأنه من المعروف أن اليهود كانوا ولا يزالون ينتظرون "المسيح" كما يقول القرآن:

• "...وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا...". (البقرة، 89) ولكن مقدمة الآية: "ولما جاءهم كتاب من الله مصدق لما معهم" ونهايتها: "فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، فلعنة الله على الكافرين" توحى بأن اليهود كانوا ينتظرون نبيا على العموم، أو النبي محمد "فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به".

فهل كان النبي موسى قد أشار الى النبي محمد من قبل أربعة آلاف سنة، وذكر اسمه بصراحة في التوراة؟ وهل كان اليهود ينتظرون النبي محمدا؟ أو "الرسول الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل". (الأعراف، 157) و"الأمي" هنا بمعنى الانتماء الى الأمم غير اليهود؟ أم كانوا ينتظرون "المسيح"؟

الذي كانوا يعتقدون أنه من سلالة اليهود، ولذلك رفضوا الإيمان بالنبي العربي "الأمي"؟

الفصل الثالث: التآمر اليهودي على الاسلام

حسبما يحدثنا القرآن عن اليهود فان بعضهم حاول التآمر على الاسلام، وذلك بإعلان الاسلام وجه النهار والكفر آخره، من أجل تشكيك المسلمين بدينهم:

• "ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم، وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون. يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله، وأنتم تشهدون. يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون. وقالت طائفة من أهل الكتاب: آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره، لعلهم يرجعون. ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم. قل إن الهدى هدى الله، أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، أو يحاجوكم عند ربكم، قل إن الفضل بيد الله يؤتية من يشاء، والله واسع عليم، يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم". (آل عمران، 69- 74)

• "وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُّوْكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ، فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ". (البقرة، 109)

وقد حكى ابن هشام أن بعض أخبار اليهود أوصوا بأن يظهر بعضهم الإيمان بالنبي غدوة، ونكفر به عشية حتى نلبس عليهم دينهم.

كما يحدثنا القرآن عن بعض اليهود المنافقين الذين أظهروا الاسلام وأبطنوا الكفر:

• "وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا، وإذا خلا بعضهم الى بعض قالوا: أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون. أو لا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون". (البقرة، 76 – 77)

وقد تمادى اليهود في محاربة الإسلام، عندما سألهم مشركو قريش، عشية معركة الخندق: من هو أحق؟ المسلمون؟ أم المشركون؟ فقال لهم اليهود: أنتم أحق. مما أغضب النبي أكثر منهم ودفعه الى لعنهم:

• "ألم تر الى الذين أتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت،

ويقولون للذين كفروا: هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا، أولئك الذين لعنهم الله، ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا، أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيرا، أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله، فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما". (النساء، 51 – 54)

واستنكر النبي التحالف بين اليهود والمشركين، فنزلت:

• "قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق، ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل، وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل. لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون. كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، لبئس ما كانوا يفعلون. ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا، لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم، وفي العذاب هم خالدون. ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء، ولكن كثيرا منهم فاسقون. لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون". (المائدة، 77- 82)

وقد خيب هؤلاء اليهود ظن النبي بهم بعد أن كان يتوقع منهم أن يدعوا المشركين الى الإيمان به وتأكيد نبوته. وذلك بإعطاء المشركين جوابا مناقضا يصددهم عن الاسلام. وهكذا لم يعد اليهود بعد ذلك رافضين فقط للاستجابة للدعوة الاسلامية، وإنما أصبحوا من الصادين عنها، فنزلت هذه الآيات توبخهم وتهدهم:

• "قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله، والله شهيد على ما تعملون. قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا، وأنتم شهداء، وما الله بغافل عما تعملون. (آل عمران، 98-99)

وإضافة الى ذلك فان اليهود حاولوا إثارة الفتنة بين المسلمين من الأوس والخزرج، وذلك بتذكيرهم بأيامهم السابقة، فأنزل الله تعالى:

• "يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين، وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله، وفيكم رسوله، ومن يعتصم بالله فقد هدي الى صراط مستقيم، يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق-تقاته، ولا تموتن- إلا وأنتم مسلمون، واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم

بنعمته إخوانا، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون... ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات، وأولئك لهم عذاب عظيم". (آل عمرا، 100 - 105)

الطلاق بين اليهود والمسلمين

واضافة الى كل تلك المواقف اليهودية الراضية للاسلام، ادعى اليهود أنهم وحدهم على حق، وحاولوا إقناع بعض المسلمين باتباعهم:

• "وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ". (البقرة، 111) فسخر النبي من دعواهم ورد عليهم قائلًا: "بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون". وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ، كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ، فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ". (البقرة، 112-113)

وقد رفض النبي الاعتماد على أي شيء في التوراة، وكما ينقل ابن كثير في تفسيره عن الامام أحمد... عن عبد الله بن ثابت، قال: جاء عمر الى النبي (ص) فقال: يا رسول الله، اني مررت بأخ لي من قريظة، فكتب لي جوامع من التوراة، ألا أعرضها عليك؟ قال: فتغير وجه رسول الله (ص). قال عبد الله بن ثابت: قلت له: ألا ترى ما بوجه رسول الله (ص)؟ فقال عمر: رضينا بالله ربا، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولا. قال: فسرى عن رسول الله (ص) وقال:

• "والذي نفس محمد بيده لو أصبح فيكم موسى عليه السلام، ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتهم، إنكم حظي من الأمم، وأنا حظكم من النبيين". وفي حديث آخر، قال رسول الله: "لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء، فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، وإنكم إما إن تصدقوا بباطل، وإما أن تكذبوا بحق، وإنه - والله - لو كان موسى حيا بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني". وفي بعض الأحاديث: "لو كان موسى وعيسى حيين لما وسعهما إلا اتباعي".

ولو صح هذا الحديث فإنه يثبت عدم اعتراف النبي محمد بالتوراة التي كانت بين يدي اليهود في زمانه، أو عدم اعتماده عليها، ومحاولة نزع القدسية عنها بعد انتهاء رسالتها.

النبي محمد يهاجم اليهود

وعندما ينس النبي من إيمان اليهود به، أخذ يهاجمهم بشدة في آيات كثيرة وسور عديدة، وقال:

• " ثُمَّ قَسَدَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً، وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقُّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (74) أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرَفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (75) ... وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ (83) ... وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ، وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ، أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (87) وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ، بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ (88) وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ، فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (89) بِئْسَمَا اسْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ (90) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ، قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (91) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (92) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا، قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ، قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (93) قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (94) وَلَنْ يَتَمَنَّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (95) وَتَجَدَّنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسُ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرْضِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (96) قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (97) مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (98) وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ، وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (99) أَوْكَلَمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (100) وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا

مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (البقرة، 101)

وبما أن النبي كان قد ذكر في بداية مجيئه الى المدينة، ومحاولته استمالة اليهود الى الاسلام، تفضيل الله لهم في السابق، كما في هذه الآية: "يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتك على العالمين". (البقرة، 47 و122) فقد شرح في المرحلة التالية التي اشتد فيها الخصام والعداء معنى التفضيل، وأنه لم يكن لذات اليهود، وانما كان مشروطا بالوفاء بميثاق الله وطاعة الأنبياء، فقال:

• "ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل، وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا، وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وأتيتم الزكاة، وآمنتم برسلي وعزرتموهم، وأقرضتم الله قرضا حسنا، لأكفرن عنكم سيئاتكم، ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار، فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل. فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية، يحرفون الكلم عن مواضعه، ونسوا حظا مما ذكروا به، ولا تزال تطلع على خائنة منهم، إلا قليلا منهم، فاعف عنهم واصفح، إن الله يحب المحسنين". (المائدة، 12-13)

وانتقد النبي فكرة (اليهود شعب الله المختار) وقال:

• "وقالت اليهود والنصارى: نحن أبناء الله وأحباؤه، قل فلم يعذبكم بذنوبكم؟ بل أنتم بشر ممن خلق، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء، والله ملك السماوات والأرض وما بينهما واليه المصير". (المائدة، 18) ثم ذكر مخالفتهم للنبي موسى وعصيانهم لأوامره بدخول المدينة المقدسة:

• "قللوا يا موسى: إننا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها، فلذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون، قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي، فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين، قال: فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض، فلا تأس على القوم الفاسقين". (المائدة، 24-26)

• "فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهاون عن السوء، وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون. فلما عتوا عن ما نهوا عنه قلنا لهم: كونوا قردة خاسئين. 166 وإذ تأذن ربك لبيعن عليهم الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب، إن ربك لسريع العقاب وأنه لغفور رحيم". (الأعراف، 165-167)

• "وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله

اليكم، فلما زاعوا أزاغ الله قلوبهم، والله لا يهدي القوم الفاسقين". (الصف، 5)

• "مثل الذين حملوا التوراة، ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا، بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله، والله لا يهدي القوم الظالمين. قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين. ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم، والله عليم بالظالمين. قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم، ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة، فينبئكم بما كنتم تعملون". (الجمعة، 5 - 8)

وبعد إلغاء أفضلية اليهود كشعب مختار من الله، أكد القرآن الكريم خيرية الأمة الإسلامية بشرط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفتح المجال أمام اليهود للانضمام إلى الأمة الإسلامية الجديدة:

• "كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله، ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم، منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون، ضربت عليهم الذلة أين ما تقفوا، إلا بحبل من الله وحبل من الناس، وبأؤوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون". (آل عمران، 111-112)

إلغاء الاتفاقية مع اليهود ومقاطعتهم

ثم اتجهت الأحداث نحو الصدام بين الفريقين، سواء من قبل اليهود الذين كانوا يتآمرون على الإسلام والمسلمين، أو من جهة المسلمين الذين أصبحت لهم شوكة في المدينة، مما دفع النبي إلى إلغاء الاتفاقية التي عقدها مع اليهود أول مجيئه إلى المدينة (أو بعد معركة بدر)، ونزل قوله تعالى:

• "يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء، بعضهم أولياء بعض، ومن يتولهم منكم فإنه منهم، إن الله لا يهدي القوم الظالمين". (المائدة، 51)

• "يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم، والكفار أولياء، واتقوا الله إن كنتم مؤمنين، وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون". (المائدة، 58)

ملة إبراهيم، أصالة الاسلام، لا اليهودية

بعد وصول الحوار بين النبي محمد (ص) واليهود، الى طريق مسدود، مشحون بالعنف والكراهية، كان لا بد لله تعالى أن يكرس خط الاسلام بصورة مستقلة بعيدا عن اليهود، ويربطه بأبي الأنبياء إبراهيم (ع). وكان النبي قد تحدث في مكة، عن إبراهيم، ثلاثا وثلاثين مرة، وذكر قصصه مع أبيه آزر، وتحطيمه للأصنام، ومحاولة حرقه، وإنقاذه من النار، وبنائه للبيت الحرام مع ابنه إسماعيل، ومحاولة ذبحه فداء لله، وقصته مع لوط والملائكة الضيوف وما الى ذلك، وذكر في آيتين علاقة الدين الاسلامي بملة إبراهيم الحنيف، في مقابل المشركين الذين كانوا يدعون أيضا اتباع دين إبراهيم. والآيتان هما:

- "قل إنني هداني ربي الى صراط مستقيم ديننا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين". (الأنعام، 161) و
- "إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين. ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين". (النحل، 120 و 123).

وكما هو ملاحظ فان طرح النبي محمد موضوع (ملة إبراهيم) كان في مقابل المشركين الذين شوخوا ملة إبراهيم بشركهم وعبادتهم للأصنام، والتأكيد على تناقض الشرك مع دعوة التوحيد الإبراهيمية.

وعندما جاء النبي الى المدينة، واصطدم باليهود، الذين رفضوا الاسلام، وكانوا يحتكرون الانتماء الى ملة إبراهيم، ويقولون: "كونوا هودا، أو نصارى تهتدوا"، ويحاولون بذلك الاستهانة بالاسلام واعتباره هرطقة خارج إطار الدين الإلهي، فان النبي محمد (ص) قام بالرد على اليهود، واعتبرهم منحرفين عن خط إبراهيم، معززا بذلك انتماءه وحده الى ذلك الخط "الإسلامي" الممتد من إبراهيم الى محمد.

ونزلت الآيات التالية:

- "قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله، فإن تولوا فقولوا: اشهدوا بأنا مسلمون. (آل عمران، 64)

لقد كان اليهود يحسبون أنهم على دين إبراهيم، وأن إبراهيم كان يهوديا، ولذلك فقد سألوا النبي الذي دعاهم للدخول في الاسلام: على أي دين أنت يا محمد؟

فقال: على ملة إبراهيم. فقالوا: إنه كان يهودياً. فجاء القرآن ليرد عليهم قائلاً:

• "يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم؟ وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده، أفلا تعقلون. ها أنتم حاجتم فيما لكم به علم، فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون. **مذ كلن إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً، وما كان من المشركين. إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي، والذين آمنوا، والله ولي المؤمنين.**" (آل عمران، 65 – 69) كما نفى أن يكون أنبياء بني إسرائيل السابقون يهوداً:

• "قل: أتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم، ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم، ونحن له مخلصون؟ أم تقولون: إن إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط كانوا يهوداً أو نصارى؟ قل أنتم أعلم أم الله؟ ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله، وما الله بغافل عما تعملون". (البقرة، 139 – 140)

وأكد القرآن جذور الإسلام في دعوة إبراهيم واللحظات الأولى التي بنى فيها البيت الحرام:

• "وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا، إنك أنت السميع العليم. ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا، إنك أنت التواب الرحيم. ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، إنك أنت العزيز الحكيم. ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه، ولقد اصطفيناه في الدنيا، وإنه في الآخرة لمن الصالحين. إذ قال له ربه أسلم، قال: أسلمت لله رب العالمين. ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب: يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون. أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه: ما تعبدون من بعدي؟ قالوا: نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون". (البقرة، 127 – 133) وقرأ:

• "ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم، قل إن هدى الله هو الهدى، ولئن أتبعنا أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير". (البقرة، 120)

تحويل القبلة من بيت المقدس الى الكعبة

وبعد تكريس امتداد الاسلام من والى ابي الأنبياء إبراهيم، في مقابل اليهود، كان لا بد أن يتم صرف النظر عن القبلة اليهودية: (بيت المقدس) التي كان المسلمون يصلون اليها حتى منتصف السنة الثانية من الهجرة، وتحويلها الى قبلة مستقلة هي الكعبة في البيت الحرام، بيت إبراهيم العتيق، وقد نزل القرآن معبرا عن مشاعر النبي الطامح للاستقلال عن اليهود، في تلك المرحلة:

• "قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها، فول وجهك شطر المسجد الحرام، وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره، وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم، وما الله بغافل عما يعملون. ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك، وما أنت بتابع قبلتهم، وما بعضهم بتابع قبلة بعض، ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين... لئلا يكون للناس (اليهود) عليكم حجة، إلا الذين ظلموا منهم، فلا تخشوهم واخشوني، ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون". (البقرة، 144-150)

وكان تحويل القبلة الى الكعبة بمثابة إعلان استقلال الهوية الاسلامية، وانقلاب كامل على اليهودية وقطع آخر خيط معها، ولذلك توقع الله أن يسبب التحويل امتعاضا يهوديا كبيرا، فأخبر نبيه مسبقا بذلك، وأمره بتهيئة الجواب لهم:

• "سيقول السفهاء من الناس: ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟! قل لله المشرق والمغرب، يهدي من يشاء الى صراط مستقيم... وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه، وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله". (البقرة، 142 – 143)

الحج الى بيت الله الحرام

ولم تلبث أن اكتملت "الهوية الاسلامية" للدين الجديد، بتشريع حكم الحج الى بيت الله والطواف حول الكعبة المشرفة، في السنة التاسعة من الهجرة. خلافا لما يعتقد اليهود، أو ما ينكرونه من بناء النبي إبراهيم للبيت الحرام. وأعلن النبي:

• "أن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين، فيه آيات بينات مقام إبراهيم، ومن دخله كان آمنا، والله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا، ومن كفر فإن الله غني عن العالمين". (آل عمران، 96 – 97)

ورفع النبي محمد بذلك أولوية بيت المقدس كبيت لله أو كعبة مقدسة. ونزلت سورة الحج، وفيها:

- "وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً، وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود، وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق". (الحج، 26-27)
- "وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود". (البقرة، 125)

الفصل الرابع: المجابهة العسكرية:

• غزوة بني قينقاع

إذا عدنا إلى بداية التوتر بين المسلمين واليهود في المدينة، فسوف نقف عند إجلاء بني قينقاع منها، بعد معركة بدر، وذلك أن النبي محمد كان يأمل من اليهود بصورة عامة، ومن يهود بني قينقاع بصورة خاصة أن يستجيبوا لدعوته، ولا سيما بعد إسلام مجموعة من أحبارهم برئاسة عبد الله بن سلام (وهم: سعد بن حنيف، وزيد بن اللصيت، ونعمان بن أوفى بن عمرو، وعثمان بن أوفى، ورافع بن حريملة، ورفاعة بن زيد بن التابوت، وسلسلة بن برهام، وكنانة بن صوريا) وإن كان بعضهم منافقاً. وتأكيد عبد الله بن سلام لليهود بوجود اسم النبي محمد أو صفته في التوراة. ولكن اليهود خيَّبوا ظن النبي فيهم، وعندما انتصر على قريش في بدر ذهب إلى بني قينقاع وجمعهم في السوق، ثم قال:

- "يا معشر اليهود، احذروا من الله عز وجل مثل ما نزل بقريش من النعمة (في بدر)، وأسلموا؛ فإنكم قد عرفتم أنني نبيٌّ مرسل تجدون ذلك في كتابكم؛ وفي عهد الله إليكم".

فأخذهم الغرور وقالوا:

- يا محمد؛ إنك ترى أنا كقومك! لا يغرنك أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة؛ إنا والله إن حاربتنا لتعلمن أنا نحن الناس.

وقال الطبري: "لما قتل رسول الله من قتل ببدر من مشركي قريش، أظهروا (اليهود) له الحسد والبغي، وقالوا: لم يلق محمدٌ من يحسن القتال؛ ولو لقينا لاقى

عندنا قتالاً لا يشبهه قتال أحد؛ وأظهروا نقض العهد". فأنزل الله تعالى:

- "قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم وبئس المهاد، قد كان لكم آية في فتنتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله، وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين، والله يؤيد بنصره من يشاء، إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار". (آل عمران، 12-13)

وقال ابن اسحاق: إن بني قينقاع كانوا أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله (ص) وحاربوا فيما بين بدر وأحد.

وكانت الشرارة التي فجرت الحرب بين المسلمين ويهود بني قينقاع: اعتداء أحدهم على امرأة من المسلمين جاءت الى سوق بني قينقاع وجلست الى أحد صاغتهم، فقام بربط ثوبها الى ظهرها، وهي غافلة، فلما نهضت كشف عن عورتها، فضحكوا بها، فصاحت، فوثب رجل من المسلمين فقتل الصائغ، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل القتل المسلمين، على اليهود، فغضب المسلمون ووقع الشر بينهم. ونزلت هذه الآية:

- "وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء، إن الله لا يحب الخائنين". (الأنفال، 56 – 58)

بشأن يهود بني قينقاع، فقال النبي بعد نزولها: "إنني أخاف من بني قينقاع". وقام بنبذ العهد إليهم، ثم سار إليهم في شوال من السنة الثانية للهجرة، وحاصره خمس عشرة ليلة لا يطلع منهم أحد. حتى نزلوا على حكم رسول الله، فكتفوا وهو يريد قتلهم، فكلمه فيهم عبد الله بن أبي بن سلول (زعيم الخزرج) الذي لم يكن قد أسلم بعد، فقال: يا محمد، أحسن في موالي - وكانوا حلفاء الخزرج - فأبطأ عليه النبي، فقال: يا محمد، أحسن في موالي، فأعرض النبي عنه، فأدخل يده في جيب رسول الله. فقال: أرسلني، وغضب حتى رأوا في وجهه ظلالاً - يعني تلوناً - ثم قلل: ويحك أرسلني! قلل: لا والله لا أرسلك حتى تحسن إلى موالي، أربعمئة حاسر وثلاثمئة دارع قد منعوني من الأسود والأحمر؛ تحصدتهم في غداة واحدة! وإنني والله لا آمن وأخشى الدوائر. فقال رسول الله: هم لك. ثم أمر رسول الله بإجلائهم، وغنم المسلمون ما كان لهم من مال - ولم تكن لهم أرضون؛ إنما كانوا صاغة - فأخذ رسول الله لهم سلاحاً كثيراً وآلة صياغتهم. فأخذ رسول الله صفيه والخمس وسهمه، وفض أربعة أخماس على أصحابه.

هذا ما يحدثنا به المؤرخون المسلمون، ولكنهم لا يقدمون لنا صورة دقيقة

وواضحة عن أسباب الحرب أو قيام اليهود بهجوم على المسلمين مثلا، فانهم -كما يقولون- اعتصموا بحصونهم وأغلقوا أبوابهم، أي اتخذوا موقف الدفاع وليس الهجوم، فماذا كان الدافع الحقيقي لقيام النبي بغزوهم؟ هل هو الخوف من وجودهم بين أضلع المسلمين، ومحاولة تأمين أمن المدينة؟ أم الانتقام منهم لعدم استجابتهم للدعوة الإسلامية؟

لا بد أن نشكك بقوة بكثير من تفاصيل هذه الغزوة ودوافعها التي لا يعلمها إلا الله. وقد نفى الكاتب الهندي بركات أحمد في كتابه (محمد واليهود) قصة الجلاء من أساسها، اعتمادا على عدم ذكر البخاري ومسلم أي خلاف وقع بين يهود بني قينقاع والنبي، ولكن الكاتب السعودي محمد فارس الجميل يرد هذا القول بالتأكيد على ذكر- مصادر السنة الموثوقة ومن بينها البخاري ومسلم، بما لا يدع مجالا للشك الى أن النبي (ص) أجلى بني قينقاع مع غيرهم من يهود. ومع ذلك فانه يقول: "إن مشكلة بني قينقاع لا يزال يلفها الكثير من الغموض، وتحتاج الى أكثر من دراسة لكشف ذلك الغموض".

• اغتيال زعماء يهود

ونظرا لتوتر العلاقة مع اليهود، بعث النبي في شهر ربيع الأول من السنة الثالثة، سرية من أجل قتل كعب بن الأشرف؛ (أحد زعماء اليهود، من بني النضير). وكان سبب اتخاذ النبي قرارا بقتله حسب المصادر الإسلامية، هو موقفه السلبي المحرض على المسلمين، فقد أبدى انزعاجه لمقتل أشرف قريش في بدر، وقال حين بلغه الخبر: ويلكم أحقُّ هذا! أترون أن محمداً قتل هؤلاء وهم أشرف العرب وملوك الناس؟. والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير لنا من ظهرها.

ثم خرج حتى قدم مكة، وجعل يحرض على رسول الله، وينشد الأشعار، ويبكي على أصحاب القليب الذين أصيبوا ببدر من قريش. ثم رجع إلى المدينة، فشجب بأبى الفضل بنت الحارث (زوج العباس عم النبي)، وبنساء من نساء المسلمين حتى آذاهم؛ فقال النبي: من لي من ابن الأشرف! قد استعلن بعداوتنا وهجائنا وخرج الى قريش فأجمعهم على قتالنا. قد أخبرني الله عز وجل بذلك، ثم قدم على أخت ما كان ينتظر قريشا أن تقدم فيقاتلنا معهم. قال: فقال محمد بن مسلمة: أنا لك به يا رسول الله، أنا أقتله. قال: فافعل إن قدرت على ذلك.

وذكر الواقدي أنه في صبيحة اليوم الذي اغتيل فيه كعب بن الأشرف، فرزت اليهود، فجاؤوا الى النبي (ص) حين أصبحوا فقالوا: قد طرقتنا الليلة وهو سيد من ساداتنا، قتل غيلة بلا جرم ولا حدث علمناه، فقال رسول الله (ص): "إنه

لو قرَّ كما قرَّ غيره ممن هو على مثل رأيه ما اغتيل، ولكنه نال منا الأذى، وهجانا بالشعر، ولم يفعل هذا أحد منكم إلا كان له السيف".

وبما أن اليهود نقضوا العهد بعدم مناصرة قريش، أعلن رسول الله: من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه. فخافت اليهود، فلم يطلع عظيم من عظمائهم ولم ينطقوا وخافوا أن يُبيتوا كما بُيت ابن الأشرف.

فوثب أحد المسلمين (واسمه محيصة) وقام بقتل تاجر يهودي، فاستنكر ذلك أخ للمسلم (أكبر منه واسمه حويصة، لم يكن قد أسلم بعد) وقال: أي عدو الله! قتلته! أما والله لرب شحم في بطنك من ماله! قال محيصة: فقلت له: والله لو أمرني بقتلك من أمرني بقتله لضربت عنقك. فتعجب حويصة وقال: لو أمرك محمد بقتلي لقتلتني؟! قال: نعم والله، لو أمرني بقتلك لضربت عنقك. قال: والله إن ديناً بلغ بك هذا لعجب! فأسلم حويصة.

وإذا صحت هذه القصة فإنها تحمل في طياتها نموذجاً عاطفياً فريداً عن الدخول في الإسلام، لا يقوم على القناعة الفكرية بالدين الجديد، وإنما على الإعجاب العاطفي، وربما المشوب أيضاً بشئ من الخوف والانهيار النفسي.

وقام النبي محمد بعد ذلك، بقتل زعيم آخر من زعماء اليهود، وهو أبو رافع سلام بن أبي الحقيق، في داخل حصنه بخيبر، لأنه كان يظاهر كعب بن الأشرف على رسول الله، ويؤذيه ويبغي عليه، فوجه إليه في النصف من جمادى الآخرة من هذه السنة عبد الله بن عتيك، فقتله.

وكما هو واضح فإن هذه العملية كانت تدخل في إطار الدفاع عن النفس، وليس في إطار الدعوة للإسلام.

• إجلاء بني النضير

امتد التوتر بين يهود بني النضير والمسلمين في المدينة بعد مقتل زعيمهم كعب بن الأشرف، رغم العهد الذي عقده مع النبي، فنقضوه بمعونة قريش على المسلمين يوم أحد، وكما يقول الرازي في تفسيره فإنهم استغلوا هزيمة المسلمين في أحد لينكثوا عهدهم. ويقول موسى بن عقبة في (المغازي): "كانوا دسوا إلى قريش حيث نزلوا بأحد لقتال رسول الله (ص) فحضوهم على القتال ودلوهم على العورة".

وهناك رواية مشهورة عن سبب إجلاء النبي لبني النضير من المدينة، بعد محاولتهم الغدر بالنبي وقتله، رغم ما كان بينهم وبينه من عهد. وذلك عندما

جاءهم رسول الله في طلب قرض (دية عن القتيلين الكلابيين) فقالوا: نعم أبا القاسم، نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه. ثم خلا بعضهم ببعض، فقالوا: إنكم لن تجدوا هذا الرجل على مثل حاله هذه - ورسول الله إلى جنب جدار من بيوتهم، قاعد - فقالوا: مَنْ رجلٌ يعلو على هذا البيت، فيلقى عليه صخرة فيقتله بها فيريحنا منه؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب أحدهم؛ فقال: أنا لذلك، فصعد ليلقي عليه الصخرة - كما قال - ورسول الله في نفر من أصحابه؛ فيهم أبو بكر وعمر وعلي؛ فعلم رسول الله بما أراد القوم، فقام وقال لأصحابه: لا تبرحوا حتى آتيكم، وخرج راجعاً إلى المدينة، فأقبل أصحاب رسول الله حتى انتهوا إليه، فأخبرهم الخبر بما كانت يهود قد أرادت من الغدر به، وأمر رسول الله بالتهيؤ لحربهم، والسير إليهم. وأرسل إليهم محمد بن مسلمة، فقال: اذهب إلى يهود فقل لهم: اخرجوا من بلادي فلا تساكنوني وقد هممت بما هممت به من الغدر. ثم سار بالناس إليهم؛ حتى نزل بهم، فتحصنوا منه في الحصون، فأمر رسول الله بقطع النخل والتحريق فيها، فنادوه: يا محمد، قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه، فما بال قطع النخل وتحريقها!

وتوجد رواية أخرى حول الغدر تقول: إن بني النضير أجمعت على الغدر، فأرسلت إلى النبي (ص): أخرج الينا في ثلاثين رجلا من أصحابك ولنخرج في ثلاثين حبرا حتى نلتقي في مكان كذا، نصف بيننا وبينكم، فيسمعوا منك، فإن صدقوك وآمنوا بك آمنا كلنا. ولكن النبي اكتشف نية الغدر لدى بني النضير فقال لهم: "لا تأمنون عندي إلا بعهد تعاهدونني عليه" فأبوا عليه ذلك، فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء.

ونتيجة لأجواء الهزيمة المرة، التي كان يعيشها المسلمون بعد أحد، حاول زعيم الخزرج (المنافق) عبد الله بن أبي الانشقاق عن صف المسلمين، والتمرد على قرار الحصار والحرب، فأرسل إلى اليهود يقول: لا تخرجوا، فإن معي من العرب وممن انضوى إليّ من قومي ألفين، فأقيموا فيهم يدخلون معكم، وقريظة تدخل معكم. وبعث آخرون إليهم أيضا: أن اثبتوا وتمنعوا؛ فإننا لن نسلمكم؛ وإن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أخرجتم خرجنا معكم. فأنزل الله فيهم:

• " ألم تر الى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب: لئن أخرجتم لنخرجن معكم، ولا نطيع فيكم أحدا أبدا، وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون، لئن أخرجوا لا يخرجون معهم، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم، وليولن الأديار ثم لا ينصرون، لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله، ذلك بأنهم قوم لا يفقهون، لا يقاتلونكم جميعا الا في قرى محصنة، أو من وراء جدر، بأسهم بينهم شديد، تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى، ذلك

بأنهم قوم لا يعقلون، كمثل الذين من قبلهم قريبا ذاقوا وبال أمرهم، ولهم عذاب أليم". (الحشر، 11-15)

وقد رفض زعيم يهود بني قريظة كعب بن أسد، نقض العهد الذي كان بينه وبين المسلمين، فقال: لا ينقض العهد رجل من بني قريظة وأنا حي. فحاصر رسول الله بني النضير خمسة عشر يوماً؛ حتى صالحوه على أن يحقن دماءهم، وله الأموال والحلقة (أي السلاح). فصالحهم على أن يحقن لهم دماءهم، وأن يخرجهم من أرضهم وأوطانهم، ويسيرهم إلى أذرعات الشام. وكانت أموالهم لرسول الله خاصة يضعها حيث يشاء، فقسما على المهاجرين الأولين دون الأنصار، ما عدا رجلين فقيرين منهم. ولم يسلم من بني النضير إلا رجلان: يامين بن عمير بن كعب ابن عم عمرو بن جحاش، وأبو سعد بن وهب، أسلما على أموالهما فأحرزاهما.

ونزلت بهذه المناسبة سورة الحشر، وقد جاء فيها:

• "هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر، ما ظننتم أن يخرجوا، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا، وقذف في قلوبهم الرعب، يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين، فاعتبروا يا أولي الأبصار، ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب النار، ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله، ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب، ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله، وليخزي الفاسقين، وما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم، وما آتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا، واتقوا الله، إن الله شديد العقاب". (الحشر، 2-7)

• "لا يقاتلونكم جميعا إلا في قرى محصنة، أو من وراء جدر، بأسهم بينهم شديد، تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون، كمثل الذين من قبلهم قريبا، ذاقوا وبال أمرهم، ولهم عذاب أليم". (الحشر، 14 - 15)

ويلاحظ هنا أن القرآن الكريم الذي يتحدث عن جلاء بني النضير، وعن تفاصيل تكتيكات الحصار، وكيفية تقسيم أموال اليهود، لا يتحدث عن غدرهم أو محاولتهم قتل النبي غيلة - كما يقول المؤرخون المسلمون - كسبب لإعلان الحرب عليهم، وإنما يشير فقط إلى مشاقتهم لله والرسول، والمشاقة هي العصيان

والمخالفة في الأمر والنهي وهو ما يعني عدم اتباع النبي وطاعته في الدخول في الاسلام، أو اتخاذ موقف سلبي منه ، بصورة عامة. ولذلك فإن من الخطأ التوقف عند قضية جزئية غامضة كدعوى الغدر والتآمر لقتل النبي، وذلك لعدم إمكانية إثباتها أو تشكيلها مبررا قانونيا لفسخ العهد معهم، ولا سيما أن أصحاب النبي لم يلاحظوا أي شيء غريب على تصرفات اليهود، ولم يعرفوا سبب مغادرة النبي لحصن اليهود، الا بعدما عادوا الى المدينة وقال لهم النبي: "إن الخبر جاءه من السماء". ولم يقل لهم إنه لاحظ في تصرفات يهود بني النضير ما أثار شكوكه. وهذا ما دفع المستشرق الانجليزي وليام موير (1819-1905) الى التشكيك بقصة المؤامرة، والقول بأن طرد بني النضير كان بهدف التخلص منهم وإبعادهم عن المدينة، دون أن يرتكبوا جرما. ولكن موير اعترف أيضا بالدوافع السياسية لعملية الإجلاء وقال: "في حالة حدوث أي وئام بين اليهود وأي من أعداء الإسلام، فإن ذلك سيشكل خطرا على سلامة محمد في المدينة". أما المستشرق الهولندي فنسك فيري أن وجود يهود بني النضير في المدينة كان عائقا في سبيل إقامة حكومة دينية في المدينة، ولذلك فإن النبي قرر منذ البداية وجوب التخلص منهم الى الأبد.

• بنو قريظة ينقضون العهد مع رسول الله، في حرب الخندق

أدى إجلاء النبي ليهود بني النضير من ديارهم في المدينة، ومصادرة أموالهم، الى تألبهم أكثر، ودفعمهم الى التخطيط لحرب شاملة ضد المسلمين، فخرج زعمائهم سلام بن أبي الحقيق النضري وحيى بن أخطب النضري، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق النضري، وهوذة بن قيس الوائلي، وأبو عمار الوائلي؛ في نفر من بني النضير ونفر من بني وائل؛ حتى قدموا على قريش بمكة؛ فدعوهم إلى حرب رسول الله ، وقالوا: إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله، فقالت لهم قريش: يا معشر يهود، إنكم أهل الكتاب الأول، والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه. وهذا ما حكاه القرآن الكريم:

• "ألم ترَ الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت، ويقولون للذين كفروا: هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا، أولئك الذين لعنهم الله، ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا، أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيرا، أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله، فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما" (النساء، 51 – 54)

فلما قالوا ذلك لقريش، سرهم ما قالوا ونشطوا لما دعواهم إليه من حرب

رسول الله، فأجمعوا لذلك واعدوا له.

ثم خرج أولئك النفر من يهود حتى جاءوا غطفان من قيس عيلان فدعوهم إلى حرب رسول الله، وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه؛ وأن قريشاً تابعوهم على ذلك وأجمعوا فيه، فأجابوهم.

وخرج حيي بن أخطب؛ حتى أتى كعب بن أسد القرظي صاحب عقد بني قريظة وعهدهم؛ وكان قد وادع رسول الله على قومه، وعاهده على ذلك وعاقده؛ فقال: ويحك يا كعب! جنئك بعز الدهر وببحر طام، جنئك بقريش على قاداتها وساداتها؛ حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من رومة؛ وبغطفان على قاداتها وساداتها حتى أنزلتهم بذنب نقمي إلى جانب أحد؛ قد عاهدوني وعاقدونني ألا يبرحوا حتى يستأصلوا محمداً ومن معه. فقال كعب بن أسد: جننتي والله بذل الدهر! بجهام قد هراق ماءه يرعد ويبرق، ليس فيه شيء! ويحك فدعني ومحمداً وما أنا عليه؛ فلم أر من محمد إلا صدقاً ووفاءً! فلم يزل حيي بكعب يفتله حتى نقض كعب بن أسد عهده، وبرئ مما كان عليه فيما بينه وبين رسول الله.

غزوة بني قريظة

بعد هزيمة الأحزاب، كان على بين قريظة أن يدفعوا ثمن غدرهم ونقضهم للعهد الذي بينهم وبين المسلمين، وكان ثمن غدرهم غالياً جداً، حيث يتحدث المؤرخون (ومنهم الطبري وابن اسحاق والزهري) عن مجيء جبريل لرسول الله ظاهراً "معتجراً بعمامة من إستبرق، على بغلةٍ عليها رحالة، عليها قطيفة من ديباج" فقال: أ قد وضعت السلاح يا رسول الله؟ قال نعم، قال جبريل: ما وضعت الملائكة السلاح وما رجعت الآن إلا من طلب القوم؛ إن الله يأمرك يا محمد بالسير إلى بني قريظة، وأنا عامد إلى بني قريظة. فأمر رسول الله منادياً، فأذن في الناس: إن من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة.

ومر رسول الله على أصحابه بالصورين قبل أن يصل إلى بني قريظة، فقال: هل مر بكم أحد؟ فقالوا: نعم يا رسول الله، قد مر بنا دحية بن خليفة الكلبي، على بغلة بيضاء، عليها رحالة عليها قطيفة ديباج، فقال رسول الله: ذلك جبريل، بعث إلى بني قريظة يزلزل بهم حصونهم، ويقذف الرعب في قلوبهم. وكان دحية يشبه سنته ولحيته ووجهه بجبريل عليه السلام. كما يقول ابن اسحاق.

لكن هذه الرواية تتناقض مع القرآن الكريم الذي رفض نزول الملائكة بحيث يشاهدتهم الناس، عندما طالب المشركون في مكة النبي محمد بأن يثبت نبوته بنزول ملك عليهم يراهم ويرونه، كما يقول تعالى:

- "وقالوا لولا أنزل عليه ملك، ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر ثم لا ينظرون، ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا، وللبسنا عليهم ما يلبسون". (الأنعام، 8 – 9)

واستمر حصار بني قريظة حوالي أسبوعين حتى نزلوا على حكم الرسول، فحكم فيهم سعد بن معاذ، حليفهم في الجاهلية، فحكم فيهم بقتل الرجال وسبي النساء والذرية. وقيل أن رسول الله أمر أن يشق لبني قريظة في الأرض أخاديد ثم جلس؛ فجعل علي والزبير يضربان أعناقهم بين يديه.

ويبدو أن هذا الجزاء القاسي كان حسب قانون اليهود في التوراة، ولو أنهم نجحوا في الحرب لفعلوا بالمسلمين مثله، فقد جاء في سفر التثنية الاصحاح العشرون ما يلي:

10 "حِينَ تَقْرُبُ مِنْ مَدِينَةٍ لِكَيْ تُحَارِبَهَا اسْتَدْعِيهَا إِلَى الصُّلْحِ، 11 فَإِنْ أَجَابَتْكَ إِلَى الصُّلْحِ وَفَتَحَتْ لَكَ، فَكُلُّ الشَّعْبِ الْمَوْجُودِ فِيهَا يَكُونُ لَكَ لِلتَّسْخِيرِ وَيُسْتَعْبَدُ لَكَ. 12 وَإِنْ لَمْ تُسَالِمَكَ، بَلْ عَمِلْتَ مَعَكَ حَرْبًا، فَحَاصِرْهَا. 13 وَإِذَا دَفَعَهَا الرَّبُّ إِلَيْكَ فَاصْطَرِبْ يَدَيْكَ فَاصْطَرِبْ جَمِيعَ ذُكُورِهَا بِحَدِّ السَّيْفِ. 14 وَأَمَّا النِّسَاءُ وَالْأَطْفَالُ وَالْبَهَائِمُ وَكُلُّ مَا فِي الْمَدِينَةِ، كُلُّ غَنِيمَتِهَا، فَتَغْنِمُهَا لِنَفْسِكَ، وَتَأْكُلُ غَنِيمَةَ أَعْدَائِكَ الَّتِي أَعْطَاكَ الرَّبُّ إِلَيْكَ. 15 هَكَذَا تَفْعَلُ بِجَمِيعِ الْمُدُنِ الْبَعِيدَةِ مِنْكَ جِدًّا الَّتِي لَيْسَتْ مِنْ مُدُنِ هَوْلَاءِ الْأَمَمِ هُنَا. 16 وَأَمَّا مُدُنُ هَوْلَاءِ الشُّعُوبِ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ نَصِيبًا فَلَا تَسْتَبِقُ مِنْهَا نَسَمَةً مَّا، 17 بَلْ تُحَرِّمُهَا تَحْرِيمًا: الْحِثِّيِّينَ وَالْأَمُورِيِّينَ وَالْكَنَعَانِيِّينَ وَالْفِرِزِّيِّينَ وَالْحَوِّيِّينَ وَالْأَيُّوسِيِّينَ، كَمَا أَمَرَكَ الرَّبُّ إِلَيْكَ، 18 لِكَيْ لَا يَعْلَمُوكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا حَسَبَ جَمِيعِ أَرْجَاسِهِمُ الَّتِي عَمِلُوا لِأِلَهَتِهِمْ، فَتَخْطِئُوا إِلَى الرَّبِّ إِلَهُكُمْ".

وربما كان السبي أيضا حسب القانون اليهودي الوارد في التوراة، سفر التثنية، الاصحاح 21 :

- "إذا خرجت لمحاربة أعدائك، ودفعهم الرب إليك، وسبيت منهم سبيا، ورأيت في السبي امرأة جميلة الصورة والتصفت بها واتخذتها لك زوجة، فحين تدخلها إلى بيتك تحلق راسها وتقليم أظفارها، وتنزع ثياب سببها عنها وتقع في بيتك وتبكي أباه وأمه شهرا من الزمان، ثم بعد ذلك تدخل عليها وتتزوج بها فتكون لك زوجا، وان لم تسر بها فاطلقها لنفسها لا تبعها بيعة بفضة ولا تسترقها من أجل أنك قد أذلتها".

وحسبما ينقل اليهود في سفر تثنية الإشتراع عن (يهوه) قوله: "إذا أراحك الرب إلهك من جميع أعدائك الذين حواليك في الأرض التي يعطيك الرب إلهك إياها- ميراثا- لترثها، فلمح- ذكر- عماليق من- تحت السماء. لا تنس" (الفصل 25، الآية 19).

قال ابن إسحاق: ثم إن رسول الله قسم أموال بني قريظة ونساءهم وأبناءهم على المسلمين، واصطفى لنفسه من نسائهم ريحانة بنت عمرو. وكانت "ريحانة" عند رسول الله حتى توفي عنها وهي في ملكه، وقد كان رسول الله عرض عليها أن يتزوجها، ويضرب عليها الحجاب، فقالت: يا رسول الله، بل تتركني في ملكك فهو أخف عليّ وعليك. فتركها؛ وقد كانت حين سبها رسول الله قد تعصت بالإسلام، وأبت إلا اليهودية، فعزلها رسول الله ووجد في نفسه لذلك من أمرها؛ فبينما هو مع أصحابه إذ سمع وقع نعلين خلفه، فقال: إن هذا لثعلبة بن سعية يبشرني بإسلام ريحانة، فجاءه فقال: يا رسول الله، قد أسلمت ريحانة، فسرّه ذلك.

الدعوة للإسلام قبل الحرب

ولا نريد أن نتوقف كثيرا عند هذه العقوبة القاسية (قتل رجال بني قريظة وسبي نسائهم وذراريهم)، وظروفها ودوافعها، "فقد كانت الأمة الإسلامية - كما تقول الراهبة البريطانية كارين أرمسترونغ- قد نجت من الإبادة بأعجوبة وقت الحصار. وبطبيعة الحال، كانت العواطف متقدة، كما أن القرظيين أوشكوا أن يدمروا المدينة. ولو أن محمدا أطلق سراحهم لعملوا على زيادة معارضة اليهود في خيبر، ولنظموا هجوما آخر ضد المدينة، حيث لم يكن هناك ضمان لأن يحالف الحظ المسلمين مرة أخرى. كما أن المعركة الدموية من أجل البقاء كانت ستستمر إلى ما لا نهاية، ويستمر معها المعاناة والموت". وهناك من لا يستبعد الفرض: "بأن مؤرخي السيرة المتقدمين قد بالغوا في وصف ما حل ببني قريظة رغبة في إظهار قوة الإسلام والمسلمين". ولكننا نود الإشارة إلى أن قرار تصفية بني قريظة لم يتخذه النبي محمد لأنهم يهود، وإنما بسبب غدرهم بالمسلمين في ساعة الشدة، ومشاركتهم في حرب الأحزاب التي هدفت إلى تصفية المسلمين عن بكرة أبيهم، ومع ذلك فإن النبي فتح أمامهم بابا للنجاة والتكفير عن ذنبهم، وذلك بالتوبة وإعلان الإسلام. فقد عرض عليهم الإسلام أثناء الحصار، بالرغم من معرفته باحتمال استسلامهم له خوفا ونفاقا، وبقائهم على دينهم سرا. وقام زعيمهم كعب بن أسد، بعد فشل المفاوضات مع النبي، بعرض خيار الإسلام

على قومه، من أجل حفظ دمائهم وأموالهم، وقال لهم: "والله إنكم لتعلمون أن محمدا نبي الله، وما منعنا من الدخول معه إلا الحسد للعرب" ولكنهم رفضوا الدخول في الاسلام والنجاة بأنفسهم. وينقل محمد الجميل عن محرر مادة "قريظة" في الموسوعة اليهودية عرض الصحابي الذي حكم فيهم سعد بن معاذ، الاسلام عليهم في مقابل العفو عنهم، وأن أربعة منهم اختاروا الاسلام على الموت. ولكن عند مراجعتي للموسوعة اليهودية لم أجد سوى هذا النص: "ويقال إن بعضهم اعتنق الإسلام. وكان من بين هؤلاء المتحولين امرأة حاولت تحويل زوجها. ومع ذلك، فقد وبخها، وفي قصيدة قصيرة، لا تزال موجودة، حثها على العودة إلى إيمانها القديم".

غزوة خيبر

بالرغم من الضربة الساحقة التي وجهها النبي محمد ليهود بني قريظة الذين غدروا به في معركة الخندق، فإنه لم يطمئن الى اليهود والمشركين المحيطين به في الشمال والجنوب والشرق، فلا تزال قريش قادرة على تجييش الجيوش مرة أخرى، ولا تزال غطفان تشكل خطرا كبيرا، وأما اليهود الذين تأمروا مع قريش، فقد تجمعوا في حصونهم في خيبر، حيث كان يحتمل أن يقوموا بتشكيل تحالف جديد ويهاجموا المدينة. ولذلك حاول النبي أن يكسر شوكة قريش ويحيدها أولا، وإن بصورة سلمية، فأعلن عزمه على حج بيت الله الحرام في السنة السادسة من الهجرة. وقد انتهت حملته بتوقيع صلح الحديبية. وما أن أمن شر قريش حتى بادر الى تسديد ضربة قوية الى تجمعات اليهود في خيبر (80 كم شمال شرق المدينة) وهي أشبه بمدينة كبيرة. وقد لعب يهود خيبر دورا كبيرا في حرب الأحزاب وتشجيع بني قريظة على الغدر بالمسلمين.

وقد أعلن رسول الله أنه لا يخرج معه الا من خرج معه الى الحديبية، فلم يخرج إلا أصحاب بيعة الشجرة وهم ألف وأربعمائة، واستعمل على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري. وقد تمت هذه الغزوة في محرم من السنة السابعة. ويقال إن رأس المنافقين عبد الله بن أبي أرسل الى يهود خيبر: أن محمدا قصد قصدكم، وتوجه اليكم، فخذوا حذركم، ولا تخافوا منه، فان عددكم وعدتكم كثيرة، وقوم محمد شرذمة قليلون عزل لا سلاح معهم الا قليل. فلما علم أهل خيبر بذلك أرسلوا كنانة بن أبي الحقيق الى حلفائهم (غطفان) يستمدونهم، وشرطوا لهم نصف ثمار خيبر إن هم غلبوا المسلمين.

ولما حل النبي بخيبر قال: "الله أكبر، خربت خيبر. إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين". فحاصرهم رسول الله بضع عشرة ليلة. وخرج مرحب اليهودي من حصنهم فقتله علي بن أبي طالب. وكان حصن ناعم أول حصونهم

افتتاحاً. ثم جعل رسول الله يتدنى الحصون واحداً بعد الآخر كحصن الصعب بن معاذ وقلعة الزبير وحصن أبي، وحصن النزار. وبعد معارك ضارية قتل فيها العشرات من الطرفين، نزل ابن أبي الحقيق زعيم اليهود (من بني النضير وكان قد أجلى من المدينة)، وطلب الصلح، فصالحه النبي على حقن دماء من في حصونهم من المقاتلة، والخروج من خيبر بذراريهم، وترك ما فيها من أموال وسلاح، فقال رسول الله: "وبرئت منكم ذمة الله وذمة رسوله إن كنتمونني شيئاً". فصالحوه على ذلك، وتم تسليم الحصون التالية بدون قتال، وهي الوطيح والسلام والقموص، حصن ابن أبي الحقيق، وحصون أخرى أصغر منها. وعلى رغم هذه المعاهدة غيب ابنا أبي الحقيق مالا كثيراً وحلي لحبي بن أخطب. وأخفى كنانة بن الربيع كنز بني النضير، فقال له رسول الله: إن وجدناه عندك أقتلك؟ قال: نعم. ولما اكتشف النبي الأموال المدفونة أمر بقتله، وسبى زوجته صفية بنت حبي بن أخطب زعيم اليهود. وكانت عروساً حديثة عهد بالدخول. فألقى النبي عليها رداءه، فعرف المسلمون أنه قد اصطفاها لنفسه.

وينقل البخاري هنا قصة إسلام صفية، فيقول: إن النبي خيرها بين الإسلام والبقاء على دينها، وقال لها: "فان اخترت الإسلام أمسكتك لنفسى، وان اخترت اليهودية فعسى أن اعتقك فتلحقى بقومك". فقالت: "يا رسول الله لقد هويت الإسلام وصدقت بك قبل أن تدعوني، حيث صرت الى رحلك وما لي في اليهودية إرب، ومالي فيها والد ولا أخ، وخيرتني الكفر والإسلام، فالله ورسوله أحب الي من العتق وأن أرجع الى قومي". فأعتقها النبي وتزوجها، وجعل عتقها صداقها. ويضيف الطبري: أن صفية كانت قد رأت في المنام وهي عروس بكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق؛ أن قمرًا وقع في حجرها؛ فعرضت رؤياها على زوجها فقال: ما هذا إلا أنك تمنين ملك الحجاز محمدًا، فلطم وجهها لطمه أخضرت عينها منها؛ فأتى بها رسول الله وبها أثر منها، فسألها: ما هو؟ فأخبرته هذا الخبر.

وفي تفسير إسلام صفية السريع، بعد الانتهاء من المعركة، رغم مقتل أبيها وأخيها وزوجها، ينقل ابن إسحاق في (السيرة النبوية) عنها أنها قالت: لما قدم رسول الله قبا، غدا إليه أبي وعمي أبو ياسر بن أخطب، مغلسين (فجرا) فوالله ما جاء الا مع مغيب الشمس، فجاءانا فاترين، كسلانين، ساقطين، يمشيان الهوينى... فسمعت عمي أبا ياسر يقول لأبي: أهو هو؟ قال: نعم، والله! قال: تعرفه بنعته وصفته؟ قال: نعم والله، قال: فماذا في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت. ويضيف البخاري أنها قالت: "ما لي في اليهودية إرب، ومالي فيها والد ولا أخ". وروى ابن حبان عن عبد الله بن عمر، قال قالت صفية: كان رسول الله من أبغض الناس الي، قتل زوجي وأبي وأخي، فما زال يعتذر إلي ويقول: "إن

أباك ألب علي العرب وفعل ما فعل " حتى ذهب ذلك من نفسي.

وأراد رسول الله أن يجلي اليهود من خيبر، فقالوا: يا محمد، دعنا نكون في هذه الأرض، نصلحها ونقوم عليها، فنحن أعلم بها منكم. فأعطاهم خيبر على أن يكون لهم الشطر من كل زرع ومن كل ثمر، ما بدا لرسول الله أن يقرهم.

وقد أحدث الاستيلاء على خيبر تحولا اقتصاديا كبيرا في حياة المسلمين، فقد روى البخاري عن ابن عمر قوله: ما شبعنا حتى فتحنا خيبر. وعن عائشة قولها: لما فتحت خيبر، قلنا: الآن نشبع من التمر. ولما رجع المسلمون الى المدينة، رد المهاجرون الى الأنصار منائحهم التي كانوا منحوهم إياها من النخيل، بعد أن صار لهم بخيبر مال ونخيل.

استسلام حصون فدك

وبعث أهل فدك اليهود إلى رسول الله يسألونه أن يسيرهم ويحقن دماءهم، ويخلوا له الأموال وأن يعاملهم على النصف، وقالوا: نحن أعلم بها منكم؛ وأعمر لها؛ فصالحهم رسول الله على النصف؛ على أنها إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم؛ فكانت خيبر فيئا للمسلمين، وفدك خالصة لرسول الله؛ لأنهم لم يجلبوا عليها بخيل ولا ركاب. فدعاهم رسول الله فقال: إن شئتم دفعنا إليكم هذه الأموال على أن تعملوها؛ وتكون ثمارها بيننا وبينكم؛ وأقركم ما أقركم الله. فقبلوا، فكانوا على ذلك يعملونها.

ويلاحظ هنا أن النبي لم يفرض الاسلام على يهود خيبر وفدك، فقد ترك لهم حرية البقاء على دينهم، ولم يقتص منهم بالقتل والأسر والسبي، كما فعل في يهود بني قريظة. وبالرغم من نزول آية القتال والجزية (التوبة، 29-31) إلا أن النبي لم يعلن عليهم الحرب ولم يفرض عليهم الجزية، عدا ما كان قد اتفق معهم عليه من خراج.

• إعلان الحرب على اليهود والنصارى

ختم النبي موقفه من اليهود والنصارى، في السنة العاشرة، بإعلان الحرب عليهم واتهامهم بعدم توحيد الله، ونسبة الولد له، بهذه الآيات:

• "قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون. وقالت اليهود عزير ابن الله، وقالت النصارى المسيح ابن الله، ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل، قاتلهم الله أنى يؤفكون. اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله،

والمسيح ابن مريم، وما أمروا إلا ليعبدوا إلهًا واحدًا، لا إله إلا هو سبحانه
عما يشركون". (التوبة، 29-31)

وقد أثارت هذه الآيات جدلاً لدى المفسرين والمؤرخين، فلئن كان واضحاً
وثابتاً قول النصارى ببنوة النبي عيسى لله، فإنه لم يكن واضحاً ولا معروفاً قول
اليهود بأن عزيراً ابن الله، ولا سيما يهود المدينة والحجاز، بل يذكر العهد القديم،
سفر عزرا، الأصحاح السابع، الآية الأولى اسم والد عزرا (سرايا بن عزريا بن
حلقيا).

وقد عاش عزرا من 480 حتى 440 قبل الميلاد، ويعرف أيضاً باسم عزرا
الكاتب (سفر عزرا)، وعزرا الكاهن في (سفر عزرا) وهو ينحدر من سلالة
سرايا (رئيس الكهنة في بابل) في حكم أرتخششتا الأول ملك فارس. وهو
شخصية تحظى باحترام كبير في اليهودية. وقد عاد من منفى بابل وجدد الدين
اليهودي، وأعاد تعليم التوراة لليهود في القدس. ويعد (سفر عزرا) القانوني أقدم
المصادر التي ورد فيها نشاط عزرا. ويشار إليه في الإسلام باسم (عزير) وقد
ذكر في القرآن، دون أن يذكر في قائمة أنبياء بني إسرائيل، واعتبره بعض
العلماء المسلمين واحداً منهم. ويقال إنه هو المقصود بالرجل الذي أماته الله مائة
عام، ثم بعثه، كما ذكر القرآن:

• "أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها، قال: أنى يحيي هذه
الله بعد موتها، فأمرته الله مائة عام، ثم بعثه، قال: كم لبثت؟ قال لبثت يوماً
أو بعض يوماً. قال: بل لبثت مائة عام، فانظر إلى طعامك وشرابك لم
يتسنه، وانظر إلى حمارك، ولنجعلك آية للناس، وانظر إلى العظام كيف
ننشزها ثم نكسوها لحماً، فلما تبين له، قال: أعلم أن الله على كل شيء
قدير". (البقرة، 259).

وله ضريح في منطقة تعرف بالعزير، على ضفاف نهر دجلة، في محافظة
العمارة بالقرب من البصرة في العراق. كما ينسب له ضريح آخر في قرية
(تيديف) السورية، يقده اليهود. ولم ينظر العديد من العلماء المسلمين
والأكاديميين الغربيين لعزير على أنه "عزرا". ويلاحظ أن اسم "عزير" ليس هو
المعادل في اللغة العربية لعزرا، أما عزرا في اللغة العربية فهو (إزرا) أو
(عزرا).

وقد روى ابن اسحاق عن ابن عباس قال: أتى رسول الله (ص) سلام بن مشكم
ونعمان بن أوفى وأبو أنس وشاس بن قيس ومالك بن الصيف فقالوا: كيف نتبعك
وقد تركت قبلتنا، وأنت لا تزعم أن عزيراً ابن الله.

وقال الطبري: اختلف أهل التأويل في القائل: "عزير ابن الله" فقال بعضهم: كان ذلك رجلا واحدا، هو فنحاص..

وقال القرطبي في تفسيره: هذا لفظ خرج على العموم ومعناه الخاص، لأن ليس كل اليهود قالوا ذلك وهذا مثل قوله تعالى: "الذين قال لهم الناس: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، فزادهم إيمانا، وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل". (آل عمران، 173) وقيل: إن من كان يقولها كانوا في زمان وقد انقضوا، وهذا متوجه للذم اليهم، لأن بعضهم قد قاله، وعاضد هذا القول النقاش، فقال: لم يبق يهودي يقولها، بل قد انقضوا. فإذا قالها واحد فيتوجه أن تلزم الجماعة شنعة المقالة، لأجل نباهة القائل فيهم.

وقال ابن حزم الأندلسي: "إن هناك بعض من يهود اليمن يعتقدون أن عزيرا ما هو إلا ابن الله". ولكن ليس هناك ما يثبت وجود تلك الفئة من اليهود.

وقال ابن كثير في تفسيره، تعليقا على الآية: هذا إغراء من الله تعالى على قتال المشركين الكفار من اليهود والنصارى؛ لمقاتلتهم هذه المقالة الشنيعة، والفرية على الله.

وقال البغوي في تفسيره: روى سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس، قال: أتى رسول الله (ص) جماعة من اليهود... فقالوا: كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا، وأنت لا تزعم أن عزيرا ابن الله؟ فأنزل الله عز وجل: "وقالت اليهود عزير ابن الله".

وهكذا قال محمد رشيد رضا في (المنار): قد اتفق المفسرون على أن إسناد هذا القول اليهم يراد به بعضهم لا كلهم، وهو مبني على القاعدة التي بينها في تفسير بعض آيات سورة البقرة التي تحكي عنهم أقوالا وأفعالا مسندة اليهم في جملتهم، وهي مما صدر عن بعضهم، وهي أن المراد من هذا الأسلوب تقرير أن الأمة تعد متكافلة في شئونها العامة، وأن ما يفعله بعض الفرق أو الجماعات أو الزعماء منها يكون له تأثير في جملتها، وأن المنكر الذي يفعله بعضهم إذا لم ينكره عليه جمهورهم ويزيلوه يؤخذون به كلهم... وأما الذين قالوا هذا القول من اليهود فهم بعض يهود المدينة... ويحتمل أن يكون قد سبقهم إليه غيرهم، ولم ينقل الينا... ومن المعلوم أن بعض النصارى الذين قالوا إن المسيح ابن الله كانوا من اليهود، وقد كان الفيلسوف اليهودي الاسكندري المعاصر للمسيح يقول: "إن الله ابنا هو كلمته التي خلق بها الأشياء" فعلى هذا لا يبعد أن يكون المتقدمين على عصر البعثة المحمدية قد قالوا: إن عزيرا ابن الله بهذا المعنى.

ولكن يبدو أن قول صاحب المنار ليس سوى افتراض أو احتمال لا دليل عليه

من تاريخ اليهود.

وقد نفى بعض الباحثين المعاصرين (مثل ديفيد واينر، وجون كالتنر) توفر أي دليل على تبني يهود المدينة فكرة بنوة عزير لله. (حسب موسوعة ويكيبيديا)

الباب الثالث: استراتيجية النبي محمد (ص) في دعوة النصارى للإسلام

يضم ثلاثة فصول

الفصل الأول: تعظيم السيدة مريم وتأكيد حملها بالمسيح بصورة اعجازية

سوف نبحث في هذا الباب موقف النبي محمد (ص) من المسيحية، وهو في مكة، واستراتيجيته في دعوة النصارى للدخول في الإسلام، ثم موقفه الأخير منهم في المدينة، وموقف المسيحيين منه أفراداً ورتباً وملوكاً.

نصارى؟ أو مسيحيون؟

يعبر القرآن الكريم عن "المسيحيين" بـ: "النصارى" في ثلاث عشرة آية، مثل قوله تعالى: "إن الذين آمنوا والذين هادوا والذين هادوا والنصارى" (البقرة، 62) و"قالت النصارى: المسيح ابن الله". (التوبة، 30) "الذين قالوا: إنا نصارى". (المائدة، 82) كما يعبر عنهم "بأهل الكتاب" في إحدى وثلاثين آية أخرى، جامعا إياهم مع اليهود. ولا يستخدم أبدا اسم "المسيحيين" الذي يشتهرون به اليوم. وذلك لأن إطلاق اسم "نصارى" على أهل الإنجيل جميعا كان شائعا بين العرب في زمن

البعثة المحمدية. كما يعترف بذلك القس يوسف درة الحداد.

والنصارى اسم مشتق من "الناصره" كما جاء في إنجيل متى، 2/23: "وأتي وأسكن في مدينة يقال لها ناصرة، لكي يتم ما قيل للأنبياء إنه سيدعى ناصريا". أو من "أنصار" كما في هذه الآية... قال عيسى بن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله، قال الحواريون: نحن أنصار الله". (الصف، 14) و"المسيحية" نسبة إلى "المسيح" (Christ) وهو اسم مفعول على وزن فعيل، ويعني "الممسوح بالدهن أو البركة" (anointed) وأطلق على "يسوع" لبركته. ومنه اشتقت كلمة "المسيحية".

وأما اسم "عيسى" الوارد في القرآن فإنه يقرب من الكلمة اليونانية (إيسوس

(lycouc) وأما في العبرية فهو "يسوع" أو "يهوشع" والتي تعني: "المخلص" أو "الرب يخلص". وقد ورد في (إنجيل متى) الإصحاح الأول، آية رقم 21 ما يلي: "فستلد ابنا وتدعو اسمه يسوع، لأنه يخلص شعبه من خطاياهم". وآية رقم 25: "ودعا اسمه يسوع". ويقال إن القرآن قلب اسم "يسوع" الى "عيسى" - حسب قاعدة القلب في اللغة العربية - لأن "يسوع" يعني بالعربية: "ضاع وهلك" فقلبه لكي يفيد عكس معناه: "المخلص الناجي".

استراتيجية النبي محمد في دعوة النصارى للاسلام

اعتمدت استراتيجية النبي محمد في دعوة النصارى للاسلام على أمرين رئيسيين، أحدهما إيجابي والثاني سلبي، فأما الإيجابي فهو اتخاذ موقف قوي مؤيد للرواية المسيحية حول كيفية الحمل بعيسى والولادة من أم عذراء، والمعجز التي قام بها في أيام طفولته وشبابه، وكذلك صعوده الى السماء وعودته الى الأرض في آخر الزمان، وأما السلبي فهو اتخاذ موقف رافض وبصورة قاطعة لموضوع الصلب والفداء الذي يشكل أساس العقيدة المسيحية، وكان لهذه الاستراتيجية المزدوجة دور كبير في نسف العقيدة المسيحية من ناحية، والدفاع عن عذرية مريم والسيد المسيح، وهو ما فتح قلوب كثير من النصارى تجاه الاسلام.

تأكيد حمل النبي عيسى بصورة اعجازية

رأينا في صفحات سابقة (في المدخل) اختلاف الأناجيل المسيحية واضطرابها حول كيفية حمل السيدة مريم بعيسى، وعدم اشارة بولس بكلمة واحدة الى السيدة مريم العذراء، ولا الى ميلاد يسوع الاعجازي، وكذلك إهمال مرقس ويوحنا تماما الحديث عن هذا الموضوع، واكتفاء متى بالقول باختصار: " بأن مريم كانت مخطوبة ليوسف قبل أن يجتمعا ووجدت حبلها من الروح القدس " (متى 1:18-21). وعدم تحدث أي إنجيل عن بشارة جبرئيل لمريم بالحمل بيسوع، ما عدا إنجيل لوقا الذي يتوسع بذكر حادثة البشارة والأحداث السابقة للميلاد. (لوقا 1/32) وهو ما لم يذكره حتى "أخي

الرب " يعقوب بن يوسف النجار في إنجيله الخاص.

ولو لم يكن النبي محمد يشكل امتدادا للأنبيا، لأمكنه بسهولة التشكيك بقصة ولادة عيسى من أم عذراء، ونزول جبرائيل عليها وبشارتها بالحمل بكلمة من الله، تلك القصة الغامضة والضعيفة والغريبة أو المستحيلة ، وكان بإمكان النبي محمد تصديق الرواية اليهودية التي تتهم مريم بالزنا، أو الحمل من خطيبها يوسف النجار، وإنكار كون عيسى نبيا صادقا، فضلا عن ادعاءات النصارى بأنه ابن الله وروح منه وما الى ذلك، وتفسير معاجزه بالسحر والشعوذة، وكذلك تأكيد صلبه، وتفسير فقدان جسده من القبر بسرقة من قبل أنصاره، والسخرية من ارتفاعه الى السماء، أو جلوسه الى يمين الله على العرش، ثم عودته الى الدنيا في آخر الزمان. وربما كان النبي محمد يكسب من خلال تبني هذا الموقف (اليهودي) تأييد اليهود له أكثر مما حدث في التاريخ.

ولكن النبي محمد أتخذ - بوحي من الله تعالى - على عكس ذلك موقفا قويا جدا من قصة الولادة العذرية، وشرح قصة ولادة مريم بالتفصيل، حيث رواها القرآن بصورة قاطعة وجلية، أقوى وأكثر تفصيلا مما رواها النصارى، وعظم السيدة مريم أكثر مما عظمها كتاب الأناجيل، ورفض بشدة اتهامات اليهود لمريم العذراء بالزنا، وأكد على طهارتها، قائلا:

" وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين، يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين". (آل عمران 42-43)

كما رفض نسبة ولدها عيسى الى خطيبها أو زوجها يوسف النجار، كما قالت الفرقة "الأبيونية". وقام القرآن، بدلا من ذلك، بنسبة عيسى الى أمه مريم، وأكد على حملها بصورة غير طبيعية، بعد نزول الروح القدس، أو الملاك جبرئيل عليها والنفخ فيها:

" إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم، وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين، ويكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين، قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسنني بشر، قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون". (آل عمران، 45 – 47)

وكرر ذلك في سورة مريم:

• " واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا، فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً. قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً، قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً. قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسنني بشر، ولم أك بغياً، قال كذلك قال ربك هو علي هين، ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً. فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً. فأجاها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً. فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً، وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً فكلي واشربي وقري عينا، فإما تزين من البشر أحدا فقولي إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسياً، فأنت به قومها تحمله، قالوا يا مريم لقد جننت شيئاً فرياً. يا أخت هارون ما كان أبوك إمراً سوء وما كانت أمك بغياً. فأشارت إليه، قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبياً...". (مريم، 16 – 29)

ويلاحظ أن القرآن يتحدث هنا عن مجيء بشر سوي إلى مريم، ولكنه لا يقول انه جامعها بل يقول في آيتين أخريين: إنه نفخ في فرجها:

• "ومريم بنت عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا". (التحريم 12) أو فيها:

• " والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا". (الأنبياء 91)

أسرة مريم وميلادها

ولا يكتفي القرآن الكريم بالحديث عن عذرية مريم وحملها الإعجازي من دون رجل، وإنما يغوص في التاريخ لكي يربط نسب مريم بآل عمران، ويؤكد أن "مريم ابنت عمران". (التحريم، 12)، خلافاً لأنجيل الطفولة المنحولة، كأنجيل يعقوب ومنحول متى، التي تقول: إن والد مريم اسمه (يهوياقيم = يواكيم) وإن "ملاك الرب ظهر له قائلاً: يواكيم، يواكيم، لقد سمع الرب صلاتك". وإن أمها تسمى (حنة) وهي أخت (إليصابات) زوجة زكريا. ولكن

القرآن الكريم يسميه "عمران" أو ينسب مريم إلى "عمران" وذلك في إشارة إلى جدها الأعلى والد موسى (عمران) كما يصف مريم بأنها "أخت هارون" في حين لم يكن يوجد لمريم أخ يسمى هارون، وإنما يقصد بذلك أنها من بني هارون (أخي موسى). أو على سبيل التعظيم والتشبيه في العبادة والتقوى:

- "قالوا يا مريم لقد جنّت شيئاً فرياً، يا أخت هارون ما كان أبوك امرأً سوء وما كانت أمك بغياً". (مريم، ٢٨)

ويشير القرآن إلى موضوع النذر:

- "إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين، ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم. إذ قالت امرأة عمران رب إنني نذرت لك ما في بطني محررا فتقبل مني إنك أنت السميع العليم، فلما وضعتها قالت رب إنني وضعتها أنثى، والله أعلم بما وضعت، وليس الذكر كالأنثى، وإني سميتها مريم، وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم، فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا، وكفلها زكريا، كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا، قال يا مريم أنى لك هذا؟ قالت: هو من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب". (آل عمران، 35-37)

وهنا يتفق القرآن مع ما ورد في إنجيل يعقوب وإنجيل متى (المنحول) حول كفالة زكريا لمريم، في البداية، حتى بلغت الثانية عشرة فكفلها ليوسف النجار: "لما أتمت عامها الثاني عشر، اجتمع الكهنة يتشاورون بشأنها قائلين... فظهر له ملاك الرب وقال له: زكريا، زكريا اذهب وادع اليك جميع الرجال الأراامل وليجلب كل واحد معه عصا، فمن ظهرت آية الرب على عصاه يأخذ مريم زوجة له... فما أن مد يده ليأخذها حتى انطلقت منها حمامة وطارت فحطت على رأسه، عند ذلك قال الكاهن ليوسف: لقد تم اختيارك بالقرعة لكي تأخذ عذراء الرب وتحتفظ بها".

وبينما تهمل الأناجيل الرسمية الأربعة أي مكانة خاصة لمريم، يجعل القرآن

منها سيدة نساء العالمين، ويتحدث عن مخاطبة الملائكة لها:

- "وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين، يا مريم افنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين". (آل عمران، 42-43)

معاجز النبي عيسى

ذكر القرآن الكريم عدة روايات اكتنفت مولد عيسى، ووردت في بعض الأناجيل (غير القانونية) كإنجيل (متى العبراني) و (إنجيل ميلاد مريم) ولم ترد في الأناجيل الأربعة الرسمية المعروفة (متى ولوقا ومرقس ويوحنا) مثل نزول الملائكة بالرزق على مريم، وتكلم وليدها معها بعد الولادة، وقيامه بخلق طيور من الطين ونفخ الروح فيها بإذن الله. حيث ورد في (إنجيل ميلاد مريم):

1- أن الملائكة كانت تزور العذراء مريم يوميا أثناء مدة

إقامتها في الهيكل وتقدم لها الطعام.

وهو ما أكدته القرآن الكريم بقوله:

- "كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا، قال يا مريم: أنى لك هذا؟ قالت هو من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب. هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء، فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب: إن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحسورا ونبيا من الصالحين. قال رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر، قال كذلك الله يفعل ما يشاء، قال: رب اجعل لي آية، قال: ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا. واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشي والإبكار". (آل عمران، 37 - 41)

2- وأن "يسوع تكلم في المذود". وذلك حسب رواية رئيس الكهنة يوسف

في زمن يسوع المسيح، حيث يقول: "إن يسوع تكلم حين كان موضوعا في المذود، وقال لأمه السيدة مريم: أنا الذي ولدته، أنا يسوع ابن الله، الكلمة، كما

أعلن لك الملاك جبرئيل، وإن أبي أرسلني لخلص العالم".

وهو ما يذكره القرآن أيضا، ولكنه يهمل ما جاء في ذلك الانجيل من كلمات تحمل معاني البنية لله تعالى، ويستبدلها بإعلان العبودية له:
- " قال: إني عبد الله أتاني الكتاب وجعلني نبيا، وجعلني مباركا وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا، وبرا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا، والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا". (مريم، 30-33)

3- وأما معجزة النخلة والرطب وتدفق الماء من تحت أقدام يسوع، التي وردت في (منحول متى) أثناء السفر الى مصر، وهو في السنة الثانية من عمره. فقد ذكرها القرآن أيضا ولكنه قال إنها حدثت بعد الولادة مباشرة:
- "فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سريا، وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا". (مريم، 24-25)

4- ورد في (انجيل توما) المنحول، أن "يسوع كان يخلق من الطين كهيئة الطير، وينفخ فيه فيتحول الى طير مغرد". وذلك مرة واحدة في طفولته، وجاء فيه: "صنع يسوع من طين الصلصال اثني عشر عصفورا. وكان ذلك يوم سبت. فجرى صبي وأخبر يوسف (النجار) قائلا: هو ذا ابنك يلعب عند غدير المياه، وصنع من طين الصلصال اثني عشر عصفورا، الذي لا يحل. فلما سمع ذلك ذهب وقال ليسوع: لماذا فعلت ذلك ودنست السبت؟ لكن يسوع لم يجاوبه، بل نظر للعصافير وقال: انطلق طيري وعيشي واذكريني. وعند قوله هذا طارت وصعدت في الهواء، فلما رأى يوسف ذلك تعجب".

وقد أكد ذلك القرآن، بالإضافة الى معاجز أخرى، فقال:
- " ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، ورسولا الى بني اسرائيل أني قد جئتكم بأية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله، وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تآكلون وما تدخرون في بيوتكم، إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين، ومصدقا لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم، وجئتكم بأية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون، إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم". (آل عمران، 48 - 51)

ويفسر القرآن في آية أخرى تحدث الطفل الرضيع أنه كان بقوة الروح القدس، فيقول:

- " إذ أيدتك بروح القدس، تكلم الناس في المهد وكهلا". (المائدة، 110)

وهكذا يقدم القرآن صورة للنبي عيسى متوسطة بين الغلو والتفريط، فينفي عن أمه الرجس، أو الحمل من خطيبتها يوسف، كما ينفي عنه البنوة لله تعالى، أو الألوهية، ولكنه يعبر عنه بروح الله وكلمته، ويقول:

- " ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذي فيه يمترون، ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه، إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون". (مريم، 35)

ويرد على الغلاة والمفرطين باختصار:

- "إن مثل عيسى عند الله، كمثل آدم، خلقه من تراب ثم قال له كن، فيكون". (آل عمران، 59)

وتحدث القرآن عن مكانة النبي عيسى العظيمة عند الله، ونعمه عليه، وعلى والدته، والمعجز التي سلحه بها، والقدرات التي منحها إياه:

- "إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس...". (المائدة، 110)

إقرار رفع عيسى الى السماء

وبالرغم من إنكار القرآن بشدة لموضوع صلب المسيح فإنه يؤكد على رفعه الى السماء، وعودته الى الأرض، كما في هذه الآيات:

- "وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم، وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه، ما لهم به من علم إلا اتباع الظن، وما قتلوه يقينا، بل رفعه الله إليه، وكان الله عزيزا حكيما، وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته، ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا". (النساء، 157-159)

- و"إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إليّ ومطهرك من الذين كفروا، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة، ثم إليّ مرجعكم، فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون". (آل عمران 55)

ولم يوضح القرآن كيفية الرفع الى السماء: هل كانت بالجسد؟ أم بالروح؟ وفي حالة الحياة؟ أم بعد الموت؟ وربما يستفاد من كلمة "إني متوفيك ورافعك الي" أن الرفع تم بعد الوفاة، هذا إذا فسرنا "الوفاة" هنا بالموت.

الفصل الثاني: الموقف الاسلامي الأول الإيجابي من النصارى

بيّن القرآن الكريم منزلة النبي عيسى ومنزلة أتباعه:

- "وإذ أوحيت الى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي، قالوا: آمنا واشهد بأنا مسلمون. إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال: اتقوا الله إن كنتم مؤمنين. قالوا: نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا، ونكون عليها من الشاهدين. قال عيسى بن مريم: اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك، وارزقنا وأنت خير الرازقين، قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعدُ منكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين". (المائدة، 111-115)

وأنزل الله تعالى آيات أخرى تمدح النصارى:

- "وقفينا بعيسى ابن مريم، وآتيناه الإنجيل، وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رافة ورحمة، ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله، فما رعوها حق رعايتها، فاتينا الذين آمنوا منهم أجرهم، وكثير منهم فاسقون". (الحديد 27)

- "لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قللوا إنا نصارى، ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون". (المائدة 82)

- "ومن أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون. يؤمنون بالله واليوم الآخر، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويسارعون في الخيرات، وأولئك من الصالحين". (آل عمران، 113)

- "الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته، أولئك يؤمنون به، ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون". (البقرة 121)

كما أنزل آيات أخرى تدعو المسلمين الى التأكيد على النقاط المشتركة بينهم وبين أهل الكتاب (ومن بينهم النصارى) والتعامل معهم بالحسنى:

- "ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن، إلا الذين ظلموا منهم، وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا واليكم، وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون وكذلك أنزلنا إليك الكتاب، فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به، ومن هؤلاء من يؤمن به، وما يجحد بآياتنا الا الكافرون". (العنكبوت 46-47)

وورد الموقف الإيجابي الأول، أيضاً ضمن آيات أخرى يعلن فيها القرآن احترامه للأديان السابقة، وترك الحكم عليها لله في الآخرة:

- "إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا، إن الله يفصل بينهم يوم القيامة، إن الله على كل شيء شهيد". (الحج، 17)

- "إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا يحزنون". (البقرة، 62)

- "إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى، من آمن بالله واليوم الآخر

وعمل صالحا، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون". (المائدة 69)

واعتبر القرآن الإيمان بالكتب السابقة كالتوراة والانجيل شرطا أساسيا للإيمان بالاسلام، فقال في أول سورة البقرة:

- " والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون. أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون. (البقرة 4-5) وقال:

- "نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والانجيل من قبل هدى للناس، وأنزل الفرقان". (آل عمران 3-4)

- " يا أيها الذين آمنوا، آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي أنزل على رسوله، والكتاب الذي أنزل من قبل، ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا". (النساء، 136)

- "أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة، فإن يكفر بها هؤلاء، فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين، أولئك الذين هدام الله فبهدهم اقتده". (الأنعام 89-90)

الدعوة للجمع بين التوراة والإنجيل

إن جميع هذه الآيات تحمل موقفا إيجابيا عاما من النصارى، وهناك آيات أخرى تخاطب أهل الكتاب (اليهود والنصارى) وتدعوهم للعمل بالتوراة والإنجيل. ويمكن أن نفهمها كدعوة منفردة موجهة لكل من اليهود والنصارى، كما يمكن أن نفهمها كدعوة موحدة موجهة للفريقين بالالتزام بالعمل بالتوراة والانجيل معا، وهو ما يذهب اليه بعض الكتاب المسيحيين (كموسى الحريري مؤلف كتاب (قس ونبي))، الذين يقولون بأن هذه الآيات تتفق مع وجهة نظر الفرقة "الأبيونية" التي كانت تجمع بين الإيمان بالتوراة والإنجيل، والعمل بشريعة موسى وعيسى، في مقابل اليهود الذين كانوا يتمسكون فقط بالتوراة ولا يعترفون بالإنجيل، والمسيحيين الذين كانوا يتمسكون فقط

بالإنجيل ولا يلتزمون بما ورد في التوراة، على العكس من "الأبيونيين" الذين جمعوا بين الأثنين، ورفضوا الفصل بينهما، وكما أوضح القرآن فقد جاء النبي عيسى مصدقا لما بين يديه من التوراة: "وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة". (المائدة، 46). ولم يحدث الفصل بين التوراة والإنجيل، وتخلي المسيحيين عن التوراة، الا في مجمع أورشلين عام 49 م عندما أراد بولس دعوة غير اليهود من الأميين، فرفع عنهم شريعة الختان، ولم يلزمهم الا بالامتناع عما ذبح للأصنام، والدم والمخنوق، والزنا. والآيات هي:

- "قل آمننا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون". (آل عمران 84)

- "قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل، وما أنزل اليكم من ربكم". (المائدة 68)

- "ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم. ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل اليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم، منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون". (المائدة، 65-66)

ويلاحظ في هذه الآيات أن القرآن يتحدث عن إنجيل عيسى، بصيغة المفرد "الإنجيل" مع (ال) التعريف أو العهد، ويقول: "إن فيه هدى ونور"، وهو كما يبدو غير الأناجيل التي كتبها تلامذته من بعده، والمعروفة بالأناجيل الأربعة وغيرها من الأناجيل غير المعترف بها من قبل المسيحيين، ولا نعرف بالضبط أي إنجيل يقصد القرآن، ولا سيما أنه يدعو أهل الإنجيل للعمل والحكم به. وربما كان يعني تعاليم النبي عيسى المبتوثة في الأناجيل المختلفة، يقول تعالى:

"وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة، وآتيناه

الانجيل فيه هدى ونور، مصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين. وليحكم (وليحكم) أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون. وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمننا عليه". (المائدة، 46-48)

فهل المقصود هو إنجيل عيسى المفقود؟ أم إنجيل الفرقة الأبيونية؟ أم الأناجيل الأربعة المعروفة؟ وهل يعترف القرآن بهذه الأناجيل مع ما تحتوي عليه من غلو؟ وماذا يعني بدعوته أهل الإنجيل للحكم بما أنزل الله فيه؟

توقع النبي محمد إسلام أهل الكتاب

أهل الكتاب مرجعا للحكم على صحة الرسالة المحمدية

لم يتوقع النبي محمد، في بداية الدعوة، مسارعة النصارى الى الاسلام، فحسب، وانما اعتبرهم مرجعا أساسيا للفصل بينه وبين المشركين، والحكم على صحة نبوته، كما تقول الآية الكريمة:

- "فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك، لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين، ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكونن من الخاسرين". (يونس، 94 – 95)

- "والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق، فلا تكونن من الممترين". (الأنعام 114)

- "وما أرسلنا من قبلك إلا رجلا نوحى اليهم فاسألوا أهل الذكر- إن كنتم لا تعلمون". (الأنبياء، 7)

وكما يقول ابن إسحاق فقد سارع القس ورقة بن نوفل الى تصديق النبي محمد في الساعات الأولى من بعثته، حيث كان أول من رحب بالنبي وأكد له نبوته عند نزول الوحي عليه، بل عندما كان النبي لا يزال مضطربا وشاكا بما نزل عليه من الوحي، وذلك عندما ذهبت خديجة الى ورقة تستفسر منه عن طبيعة ما يرى زوجها محمد، فقال لها: قدوس، قدوس! والذي نفس ورقة

بيده، لئن كنت صدقت يا خديجة، لقد جاءه الناموس الأكبر - يعني جبرئيل عليه السلام الذي كان يأتي موسى - وإنه لنبي هذه الأمة، فقولي له فليثبت. وعندما رأى النبي في الكعبة قال له: والذي نفسي بيده، إنك لنبي هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء إلى موسى.

البشارة بالنبي محمد في التوراة والإنجيل

وحسبما يؤكد القرآن الكريم في آيات عديدة، فإن البشارة بالنبي محمد، جاءت في التوراة والإنجيل، ولذلك لم يكن النبي يطلب من (أهل الكتاب) الاعتراف برسالته، بل كان مطمئناً إلى مسارعته لتأييده ودعم دعوته التوحيدية الجديدة، وهكذا تحدث عن امتداد خط الأنبياء، وضرورة اعتراف كل نبي سابق - فضلاً عن أتباعه - بأي نبي جديد:

"وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه، قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري؟ قالوا: أقررنا، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين. فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون. أفغير دين الله يبغون، وله أسلم من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون". (آل عمران، 81-83)

وقد روى المفسرون (الطبري وابن كثير والقرطبي والزمخشري وغيرهم) عن علي بن أبي طالب وابن عمه عبد الله بن عباس، في تفسير هذه الآية ما يلي: "ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق، لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته: لئن بعث محمد (ص) وهم أحياء ليؤمنن به وينصرنه". ولكن الآية لا تصرح بذلك، ولا تشكل بنفسها حجة على اليهود والنصارى. وربما كانت موجهة للمسلمين، كما يقول بعض المفسرين الذين يروون بشأن نزولها قصة عن كتابة عمر بعض آيات التوراة وعرضها على النبي مما سبب في امتعاضه. إلا أن الطبري يروي عن مجاهد، في قوله تعالى: "وإذ أخذ الله ميثاق النبيين" قال هي خطأ من الكاتب، وهي في قراءة ابن مسعود: "وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا

الكتاب". وعن الربيع يقول: "وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب"، وكذلك كان يقرأها الربيع: "وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب" إنما هي أهل الكتاب، وكذلك كان يقرأها أبيّ بن كعب. قال الربيع: ألا ترى أنه يقول: "ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه"؟ يقول: لتؤمنن بمحمد (ص) ولتنصرنه. قال: هم أهل الكتاب.

ولئن لم تكن هذه الآية واضحة وصريحة، فهناك آية أخرى أكثر صراحة منها بورود اسم النبي محمد مكتوبا في التوراة والإنجيل، وهي:

"الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم الذي كان عليهم، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه، أولئك هم المفلحون". (الأعراف، 157)

"وإذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة، ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد، فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين". (الصف، 6)

وقد تحدثنا في الباب السابق عن إشارة بعض المفسرين الى وجود بعض مواصفات النبي الشخصية، في التوراة، وقيام اليهود بمحوها أو تغييرها. ولكن لم يعرف عن الأناجيل المتداولة (الأربعة وغيرها) أي حديث عن نبي يأتي بعد النبي عيسى، حيث انها تعتبر عيسى ملكا الى يوم القيامة. الا ما ورد في (إنجيل يوحنا) من أقوال ليسوع تبشر المؤمنين بشخصية ترسل من قبله وتتابع عمله وتمكث مع تلاميذه وأتباعه، وتدعى بـ"البارقليط" (Paracletos): "لكني أقول لكم الحق إنه خير لكم أن أنطلق لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزي، ولكن إن ذهبت أرسله إليكم". (يوحنا 16:7) وقد ترجمت هذه الكلمة اليونانية (Paracletos) باعتبارها تعني "المؤيد" أو "المحامي" أو "المعزي".

وقد نقلنا في الصفحات الماضية قول الباحث فراس السواح بوجود

احتمال خلط لدى النساخ بين كلمة بارقليطوس (Paraqletos) وكلمة بيرقليطوس (Periqlytos) المشتقة في اللغة اليونانية القديمة من جذر يفيد معنى التمجيد والحمد والثناء، وهو ما يؤيد البشارة بالرسول محمد، التي تحدث عنها القرآن "ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد". (الصف، 6)

قال ابن إسحاق: "وقد كان ، فيما بلغني عما كان وضع عيسى بن مريم فيما جاءه من الله في الإنجيل لأهل الإنجيل من صفة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، مما أثبتت يحُنس الحواري لهم ، حين نسخ لهم الإنجيل عن عهد عيسى بن مريم (عليه السلام) في رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إليهم أنه قال : من أبغضني فقد أبغض الرب ، ولولا أنني صنعت بحضرتهم صنائع لم يصنعها أحد قبلي ، ما كانت لهم خطيئة ، ولكن من الآن بطروا وظنوا أنهم يعزوني ، وأيضا للرب ، ولكن لا بد من أن تتم الكلمة التي في الناموس: أنهم أبغضوني مجانا ، أي باطلا . فلو قد جاء "الْمُنْحَمًا" هذا الذي يُرسله الله إليكم من عند الرب ، وروح القدس ، هذا الذي من عند الرب خرج ، فهو شهيد علي وأنتم أيضا ، لأنكم قديما كنتم معي في هذا قلت لكم : لكيما لا تشكوا .

والمنحننا بالسريانية : محمد ، وهو بالرومية : البرقْلَيْطُس ، صلى الله عليه و آله و سلم".

وقد ذكر الواقدي رواية من غير سند بأن أركون دمشق (عظيم من عظماء النصارى) كان عند هوزة بن علي ملك اليمامة، عندما وصله كتاب النبي الذي يدعوه فيه الى الاسلام، فقال الأركون لهوزة: "إنه للنبي العربي الذي بشر به عيسى ابن مريم، وإنه لمكتوب عندنا في الانجيل: محمد رسول الله". ومن الواضح ضعف هذه الرواية من ناحيتين: الأولى: أنها من مصدر (إسلامي) غير محايد، والثانية: أنها بغير سند.

وتبقى الإشارة الى اسم النبي محمد في التوراة والإنجيل غامضة، ويحتمل

أن يكون ذلك مما كتبه أحبارهم، ولا سيما مع عدم وجود نسخ قديمة متواترة وصحيحة ومعروفة من التوراة والإنجيل، ولذلك فقد اتخذت القضية طابعا جدليا تاريخيا، حيث يؤمن المسلمون بوجود النص على النبي محمد في تلك الكتب بناء على ما يقوله القرآن، في حين ينفىها أتباع تلك الديانات.

نقد غلو النصارى وتأليه النبي عيسى

وفي الحقيقة لم يكن ثمة عائق كبير أمام إسلام النصارى سوى الغلو في المسيح والاعتقاد بأنه "ابن الله" والإيمان بنظرية الفادي المخلص، ولذلك فقد أمر الله نبيه محمد:

"قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا، وضلوا عن سواء السبيل". (المائدة 77) وقال: "يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم، ولا تقولوا على الله الا الحق، إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه. فآمنوا بالله ورسله، ولا تقولوا ثلاثة انتهوا، إنما الله إله واحد، سبحانه أن يكون له ولد، له ما في السموات والأرض وكفى بالله وكيفا". (النساء، 171)

والخطاب في هذه الآية موجه الى النصارى "الملكانيين" الذين يعتقدون "بالأب والإبن والروح القدس". والقائلين بالطبيعتين.

- "لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة، وما من إله الا إله واحد، وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم، أفلا يتوبون الى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم". (المائدة ، 73)

ويحاول القرآن هنا إقناعهم بالكف عن الاعتقاد بالوهية النبي عيسى، فيقول:

- " لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون، ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم اليه جميعا". (النساء، 172) ويركز القرآن على نفي الولد:

- "بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة". (الأنعام، 101) وفي مقابل ذلك يؤكد القرآن على طبيعة النبي عيسى البشرية:

- "ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام، انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون. قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا، والله هو السميع العليم". (المائدة، 75-76)

ويصور القرآن مشهدا حواريا بين الله (عز وجل) والنبي عيسى، ومحاسبته على

دعوى الألوهية:

- " وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله؟.. قال سبحانه ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق، إن كنت قلته فقد علمته، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك، إنك أنت علام الغيوب ، ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم، وكنت عليهم شهيدا وأنت على كل شيء شهيد". (المائدة، 116-117)

- مريم تقول في الانجيل أنها (أمة الرب) ويتشدد القرآن أكثر مع "اليعاقبة" الذين يقولون بالطبيعة الواحدة، أي إن عيسى هو الله، فيقول لهم مستنكرا:

- "لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم، قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعا، والله ملك السماوات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير". (المائدة، 17)

وبناء على ذلك اعتبر الاسلام الغلو بالنبي عيسى وتأليهه كفرا، فقال:

- "لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم، وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم، إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار". (المائدة، 72)

ودعا النصارى الى التوبة من الكفر:

- "ألا يتوبون الى الله ويستغفرونه، والله غفور رحيم؟". (المائدة، 74)

وينسف القرآن فكرة الفادي المخلص، التي تشكل العمود الفقري في الديانة المسيحية، بنفي فكرة صلب اليهود للمسيح من أساسها، فيقول:

- "وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم، وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا بل رفعه الله اليه وكان الله عزيزا حكيما، وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به، قبل موته، ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا". (النساء، 157-159)

ويلاحظ هنا: أن القرآن نفى بقوة موضوع الصلب والقتل، رغم اشتهاره تاريخيا بدرجة كبيرة، في حين أنه أكد موضوع الحبل العذري لمريم بواسطة الروح القدس (جبرئيل) رغم استحالة إثباته تاريخيا، وعدم استناد رواته (متى ولوقا) على أدلة معتبرة، ما عدا حكاية الحلم الذي رآه يوسف النجار عندما أراد فسخ خطبته لمريم بعدما شك فيها واتهمها، وقول (إنجيل يعقوب) بأن مريم لم تعرف كيف حملت؟. ولكن النبي محمد اعترف للنصارى بولادة النبي عيسى من دون أب، ثم نفى فكرة الفادي المخلص بإنكار موضوع الصلب والقتل للسيد المسيح.

وحاول القرآن تذكير النصارى بتعهدهم بالالتزام بهدى الله:

- "ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة، وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون. يا

أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير، قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين. يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات الى النور بإذنه، ويهديهم الى صراط مستقيم". (المائدة، 14-16) وتساءل: "كيف يهدي الله قوما كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق، وجاءهم البيّنات، والله لا يهدي القوم الظالمين. أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين". (آل عمران، 86-87) وألقى القرآن باللوم على أحرار النصارى ورهبانهم، في عدم استجابتهم لدعوة التوحيد، وترك الغلو، فقال:

- "اتخذوا احبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله، والمسيح ابن مريم، وما أمروا الا ليعبدوا الله إلها واحدا لا إله الا هو سبحانه عما يشركون. يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون. يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله، والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم". (التوبة، 31-34)

ورغم كل ذلك التودد من قبل النبي محمد الى النصارى، وإسلام بعضهم، فان عامتهم رفضوا، في البداية، تقبل دعوة التوحيد، وأصرروا على اعتبار أنفسهم المهتدين فقط:

- "وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، تلك أمانيتهم، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين، بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون". (البقرة 111-112)
- "وقالوا: كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا، قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين، قولوا آمنا بالله وما أنزل اليّنا وما أنزل الى إبراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط، وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون". (البقرة 135-136)

- "وقالت اليهود والنصارى: نحن أبناء الله وأحباؤه، قل فلم يعذبكم بذنوبكم؟ بل أنتم بشر ممن خلق، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء، والله

ملك السماوات والأرض وما بينهما وإليه المصير. يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير، فقد جاءكم بشير ونذير، والله على كل شيء قدير".
(المائدة، 18-19)

وبالطبع فقد كانت دعوى اليهود والنصارى، بحصر الهداية في اليهودية والنصرانية، تنطوي على غرور واضح وكبير، ولذلك كانت محل استهزاء من القرآن الذي رد عليهم بأنهم يكفر بعضهم بعضا:

• "وقالت اليهود ليست النصارى على شيء، وقالت النصارى ليست اليهود على شيء، وهم يتلون الكتاب، كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم، فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون". (البقرة 113)

وبين الله لنبيه محمد بأن سبب ذلك الموقف السلبي منه، هي محاولتهم احتواء الاسلام، وجعله تابعا لهم، فقال:

• "ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم، قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين، قل إن هدى الله هو الهدى، ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم، مالك من الله من ولي ولا نصير، الذين أتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به، ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون". (البقرة 120-121) وتوجه القرآن لمخاطبة أهل الكتاب الرافضين للاعتراف بالاسلام:

• " أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى؟، قل أنتم أعلم أم الله؟، ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله، وما الله بغافل عما تعملون". (البقرة 140)

وبين الله عز وجل أن دينه واحد، من إبراهيم الى محمد، وهو الاسلام، وليست اليهودية والنصرانية:

- "إن الدين عند الله الاسلام، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم، ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب. فان حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن، وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم، فإن أسلموا فقد اهتدوا، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد". (آل عمران، 19- 20)

وقال في آية أخرى:

- "ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين". (آل عمران: 85) وقال:

- "فلما أحس عيسى منهم الكفر، قال من أنصاري الى الله؟ قال الحواريون نحن أنصار الله، آما بالله، واشهد بأنا مسلمون". (آل عمران 52)

وهنا وجه القرآن دعوة للنصارى للوحدة على أساس الإيمان بالله:

- "قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون. يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والانجيل الا من بعده، أفلا تعقلون. ها أنتم حاجتم فيما لكم به علم، فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون. ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين". (آل عمران، 64- 67)

ويبدو أن موقف النصارى لم يكن بعيدا من الاسلام ، ولا سيما بعد تنزيه النبي لمريم العذراء وتعظيمها، ولذلك فقد أسلم كثير من النصارى، ورحب ورقة بن نوفل بالدين الجديد.

إسلام الملوك النصارى

وقد استجاب ملك الحبشة النجاشي (أصحمة) للاسلام، من قبل، عندما دعاه رسول الله، في رسالة بعثها اليه مع عمرو بن أمية الضمري، وهي كما يلي:

• "بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصحم ملك الحبشة، سلم أنت؛ فإنني أحمد إليك الله الملك القدوس

السلام المؤمن المهيمن؛ وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته، ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحسنة، فحملت بعيسى؛ فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له؛ والموالاتة على طاعته؛ وأن تتبعتني وتؤمن بالذي جاءني؛ فإنني رسول الله، وقد بعثت إليك ابن عمي جعفرًا ونفراً معه من المسلمين؛ فإذا جاءك فأقرهم، ودع التجبر؛ فإنني أدعوك وجنودك إلى الله؛ فقد بلغت ونصحت؛ فاقبلوا نصحي، والسلام على من اتبع الهدى". وهناك نسخة أخرى لهذه الرسالة، مشابهة، وفي خاتمتها: "أسلم تسلم...فإن ابنتك إليك إثم النصارى من قومك".

وإذا تأكد إرسال النبي لرسالتين، فيحتمل أن تكون الأولى من النبي في مكة، ولذلك لم تتضمن أي تهديد بالحرب أو طلب لدفع الجزية، لأن النجاشي كان بعيداً عن مركز الإسلام، وكان النبي ضعيفاً في مكة، وقبل أن يؤسس سلطته في المدينة. وأما الرسالة الثانية فيحتمل أن تكون صادرة من النبي بعد انتصاره في المدينة، وإذا تأكد صدور هذه الرسالة الثانية، فإنه ينقض حكاية إسلام النجاشي في السنوات الأولى، أو أنه شخص آخر.

ويروى أن النجاشي سأل جعفرًا في اللقاء الأول معه: ماذا يقول لكم هذا الرجل (النبي) وما يأمركم به؟ وما ينهاكم عنه؟ فقال: يقرأ علينا كتاب الله ويأمرنا بالمعروف وينهانا عن المنكر، ويأمرنا بحسن الجوار وصلة الرحم وبر اليتيم، ويأمرنا بأن نعبد الله وحده لا شريك له. فقال النجاشي: اقرأ مما يقرأ عليكم. فقرأ سورة العنكبوت والروم. ففاضت عينا النجاشي من الدمع. وقال: زدنا من هذا الحديث الطيب، فقرأ عليهم سورة الكهف. فأراد عمرو بن العاص (وكان مشركاً، جاء ليستعيد المهاجرين إلى مكة) أن يغضب النجاشي، فقال: انهم يشتمون عيسى وأمه، فقرأ جعفر عليهم سورة مريم. فلما أتى على ذكر عيسى وأمه رفع النجاشي قشاة من سواكه قدر ما يقذي العين، فقال: والله ما زاد المسيح على ما تقولون نقيراً. وسرعان ما أسلم على

أيديهم، فنزلت فيه هذه الآية:

- " وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم، وما أنزل إليهم، خاشعين لله، لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا، أولئك لهم أجرهم عند ربهم، إن الله سريع الحساب". (آل عمران، 199)

وكتب النجاشي إلى رسول الله:

- " بسم الله الرحمن الرحيم، إلى محمد رسول الله، من النجاشي الأصحم (أصحمة) بن أبجر. سلام عليك يا نبي الله ورحمة الله وبركاته، من الله الذي لا إله إلا هو، الذي هداني إلى الإسلام. أما بعد؛ فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى، فو رب السماء والأرض إن عيسى ما يزيد على ما ذكرت تفروقا (علامة تكون بين النواة والتمرة)؛ إنه كما قلت؛ وقد عرفت ما بعثت به إلينا؛ وقد قرينا ابن عمك وأصحابه؛ فأشهد أنك رسول الله صادقا مصدقا؛ وقد بايعتك وبايعت ابن عمك؛ وأسلمت على يديه لله رب العالمين؛ وقد بعثت إليك بابني أرها بن الأصحم ابن أبجر؛ فإنني لا أملك إلا نفسي؛ وإن شئت أن آتيك فعلت يا رسول الله؛ فإنني أشهد أن ما تقول حق، والسلام عليك يا رسول الله".

فخرج ابنه في ستين نفسا من الحبشة في سفينة في البحر، فلما توسطوا البحر غرقوا كلهم.

وان مما يؤكد إسلام النجاشي من قبل، رواية عمرو بن العاص التي يقول فيها إنه هاجر إلى الحبشة مرة أخرى وهو مشرك، بعد هزيمة الأحزاب، في السنة الخامسة للهجرة، وان النجاشي. أكد له: أن الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى، يأتي النبي محمد، وقال له: " ويحك يا عمرو أظعني واتبعه، فانه والله لعلى الحق، وليظهرن على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون

وجنوده".

ويقال إن النجاشي منع الخراج الذي كان يدفعه لهرقل بعد ما أسلم، وان النبي صلى عليه صلاة الغائب عندما سمع بخبر وفاته في شهر رجب من السنة التاسعة، وقال: مات اليوم رجل صالح فقوموا فصلوا على أخيكم أصحمة.

وهكذا أسلم المنذر بن ساوى (ملك البحرين)، وكان نصرانيا ، وأسلم معه فريق من قومه، فكتب الى النبي يستشيريه فيمن لم يسلم: "أما بعد يا رسول الله، فاني قرأت كتابك على أهل البحرين، فمنهم من أحب الاسلام وأعجبه ودخل فيه، ومنهم من كرهه، وبأرضي موجوس ويهود، فأحدث الي في ذلك أمرك". فكتب اليه رسول الله:

• " بسم الله الرحم الرحيم، من محمد رسول الله الى المنذر بن ساوى، سلام عليك، فاني أحمد اليك الله الذي لا إله الا هو... أما بعد فاني أذكرك الله فانه من ينصح فإنما ينصح لنفسه، ومن يطع رسلي ويتبع أمرهم فقد أطاعني، ومن نصح لهم فقد نصح لي، وان رسلي قد أثنوا عليك خيرا، واني قد شفعتك في قومك، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه، وعفوت على أهل الذنوب فاقبل منهم، وإنك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك، ومن أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية".

وأما ملك اليمامة النصراني هوذة بن علي، فقد استحسن دعوة النبي، ولكنه اشترط عليه أن يجعل له بعض الأمر لكي يتبعه. وذكر الواقدي أن أركون دمشق (عظيم من عظماء النصارى) كان عند هوذة، فسأله عن النبي (ص) فقال: جاءني كتابه يدعوني الى الاسلام، فلم أجبه. قال الأركون: لم لا تجيبه؟ قال: ظننت بديني، وأنا ملك قومي، وإن اتبعته لم أملك. قال: بلى والله لئن تبعته ليملكك، فان الخيرة لك في اتباعه، وانه للنبي العربي الذي بشر به عيسى ابن مريم، وإنه لمكتوب عندنا في الانجيل: محمد رسول الله. ولم يذكر الواقدي سنده الى هذه الرواية. وقد توفي هوذة بعد فتح مكة، دون أن

يسلم.

كما أسلم عدي بن حاتم الطائي، ملك طي، وأهل دومة الجندل.

وتنقل المصادر التاريخية الاسلامية أن هرقل ملك الروم، عرف الحق وكاد يسلم، وأنه قال لرسول النبي اليه دحية الكلبي: "ويحك! والله إني لأعلم أن صاحبك نبيٌ مرسل؛ وأنه الذي كنا ننتظره ونجده في كتابنا؛ ولكنني أخاف الروم على نفسي؛ ولولا ذلك لأتبعته". ولكن لا يوجد ما يؤكد ذلك من مصادر مسيحية أو محايدة.

الفصل الثالث: الصدام مع غلاة النصارى

امتناع نصارى نجران عن الإسلام، ودعوتهم للمباهلة

ولم يمتنع من الاسلام سوى الذين يقولون بألوهية المسيح كنصارى نجران "اليعاقبة" الذين رفضوا الاستجابة للإسلام، والإقلاع عن تأليه النبي عيسى. فكتب إليهم النبي في العام التاسع للهجرة، بعد عودته من غزوة تبوك:

• " من محمد النبي رسول الله الى أسقف نجران، وأهل نجران: إن أسلمتم فإنني أحمد الله إليكم إله إبراهيم وإسحق ويعقوب. أما بعد.. فإنني أدعوكم الى عبادة الله من عبادة العباد، وأدعوكم الى ولاية الله من ولاية العباد، فإن أبيتم فالجزية، فإن أبيتم فقد أذنتكم بحرب، والسلام".

ويقول البيهقي: لما أتى الاسقف كتابُ النبي وقرأه فظع به وذعره ذعرا شديدا، فبعث الى رجل من أهل نجران يقال له شرحبيل بن وداعة ودفع اليه كتاب رسول الله فقرأه، وقال له ما رأيك؟ فقال شرحبيل: قد علمت ما وعد الله إبراهيم في ذرية إسماعيل من النبوة، فما يؤمن أن يكون هذا هو ذاك الرجل. ليس لي في النبوة رأي، لو كان لي أمر من أمر الدنيا أشرت عليك فيه. وسأل

الأسقف زعماء آخرين فأجابوه نفس الجواب. فلما اجتمع الرأي منهم على تلك المقالة جمعاً، أمر الأسقف بالناقوس فضرب به، ورفعت المسوح في الصوامع. وكذلك كانوا يفعلون إذا فزعوا بالنهار. فاجتمع أهل الوادي منهم على أن يبعثوا شرحبيل بن وداعة، وعبد الله بن شرحبيل الاصبحي، وجبار بن فيض الحارثي فيأتونهم بخبر رسول الله.

وروى ابن اسحاق عن ابن عباس قال: حين اجتمعت الأخبار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله، ودعاهم الى الاسلام: أتريد يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى بن مريم؟ فقال: رجل من أهل نجران نصراني يقال له الربيس (أو الرئيس): أو ذاك تريد منا يا محمد، وإليه تدعوننا؟ أو كما قال، فقال رسول الله: "معاذ الله أن نعبد غير الله، أو نأمر بعبادة غيره، ما بذلك بعثني ولا بذلك أمرني"، أو كما قال. فأنزل الله في ذلك من قولهما:

• " ما كان لبشر أن يوئيه الله الكتاب والحكمة والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله، ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون. ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً، أ يأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون". (آل عمران، 79 – 80)

قال ابن اسحاق: لما كلم الحبران (السيد والعاقب) قال لهما رسول الله: أسلما، قالوا: قد أسلما، قال: انكما لم تسلما، فأسلما. قالوا: بلى قد أسلما قبلك. قال: كذبتما، يمنعكما من الاسلام دعاؤكم لله عز وجل ولدا، وعبادتكما الصليب، وأكلكما الخنزير. قالوا: فمن أبوه يا محمد؟ فصمت رسول الله عنهما فلم يجبهما، فأنزل الله في ذلك من قولهم واختلاف أمرهم كله صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها.

وروى الطبري عن ابن عباس: أن رهطا من أهل نجران قدموا على محمد وكان فيهم السيد والعاقب، فقالوا لمحمد: ما شأنك تذكر صاحبنا؟ فقال: من هو؟ قالوا: عيسى، تزعم أنه عبد الله، فقال محمد: أجل إنه عبد الله، قالوا له:

فهل رأيت مثل عيسى، أو أنبئت به؟ ثم خرجوا من عنده، فجاءه جبرئيل بأمر ربنا فقال: قل لهم: إذا أتوك:

• " إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب، ثم قال له كن فيكون". (آل عمران 59)

وعن السدي: لما بعث رسول الله وسمع به أهل نجران فأتاه أربعة نفر من خيارهم... فسألوه ما يقول في عيسى، فقال: هو عبد الله وروحه وكلمته. (و في رواية أخرى: قال: أجل، إنه عبد الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه). قالوا: لا، ولكنه هو الله، نزل من ملكه فدخل في جوف مريم ثم خرج منها فأرانا قدرته وأمره، فهل رأيت إنسانا خلق من غير أب؟

قال ابن اسحاق: عمدوا فخاصموا النبي قالوا: ألسنت تزعم أنه كلمة الله وروح منه؟ قال: بلى: قالوا: فحسبنا.

وفي هذا يقول القرطبي في تفسيره: إن وفد نصارى نجران أنكروا على النبي محمد قوله " إن عيسى عبد الله وكلمته" فقالوا: أرنا عبداً خلق من غير أب؟ فقال لهم النبي: آدم من كان أبوه؟ أعجبتم من عيسى ليس له أب، فأدم عليه السلام ليس له أب ولا أم. فذلك قوله تعالى :

• " ولا يأتونك بمثل، أي في عيسى، إلا جنناك بالحق في آدم وأحسن تفسيراً". (الفرقان، ٣٣)

ويظهر من الروايات والآيات الأنفة أن الحوار مع نصارى نجران كان صعباً جداً، حتى كره النبي رؤيتهم بسبب مرأتهم وجدلهم. وقد أخرج الطبري عن عبد الله بن الحارث الزبيري: أنه سمع النبي يقول: "ليت بيني وبين أهل نجران حجاباً، فلا أراهم ولا يروني". من ش ما كانوا يمارون النبي. وذلك بسبب تشبثهم بعقيدة الولادة الإعجازية (من دون أب) وإيمانهم بالطبيعة "الإلهية" للنبي عيسى، وهو ما عبرت عنه الآية التالية:

- "هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب، وأخر متشابهات،

فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وما يعلم تأويله الله، والراسخون في العلم يقولون أمانا به كل من عند ربنا، وما يذكر إلا أولوا الألباب". (آل عمران، 7)

وهكذا وصل الحوار بين النصارى والنبي محمد الى طريق مسدود، ولكن الغريب أنهم لم يطلبوا من النبي محمد أية معجزة أو أية تدل على صدق نبوته، كما طالب المشركون واليهود، أو لا يذكر القرآن ذلك. وربما يعود ذلك الى امتناع المسيح عن صنع المعاجز، كما ورد في إنجيل مرقس: "ولم يقدر (أي المسيح) أن يصنع هناك ولا قوة واحدة، وتعجب من عدم إيمانهم". (6/5) وكذلك "فخرج الفريسيون وابتدأوا يحاورونه طالبين منه أية من السماء لكي يجربوه، فتنهد بروحه وقال: لماذا يطلب هذا الجيل أية؟. الحق أقول لكم: لن يعطى هذا الجيل أية". (مرقس 8 / 11-12) وورد في (إنجيل لوقا): سألته هيرودس مرارا أن يصنع له أية يراها بنفسه فلم يجبه بشيء. ولما شفى أعمى بيت صيدا (أرسله الى بيته قائلاً لا تدخل القرية ولا تقل لأحد في القرية). (لوقا 33 / 8 - 9).

ولم يكن يوجد أي حل سوى المباهلة، التي عرضها النبي على نصارى نجران، كما ورد في القرآن الكريم:

- "الحق من ربك فلا تكن من الممترين. فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين". (آل عمران، 60-61)

وقد تشاور الوفد في هذا الأمر أيخرجون أم لا؟ وقال شرحبيل لصاحبيه: يا عبد الله بن شرحبيل، ويا جبار بن فيض ... إنني والله أرى أمرا مقبلا، إن كان هذا الرجل ملكا مبعوثا فكنا أول العرب طعنا في عينه وردا عليه أمره لا يذهب لنا من صدره ولا من صدور قومه حتى يصيبونا بجائحة، وإنا لأدنى العرب منهم جوارا، وإن كان هذا الرجل نبيا مرسلا فلاعناه فلا يبقى على وجه الأرض منا شعر ولا ظفر الا هلك. وقالوا من الغد: نعوذ بالله، ولما دعاهم النبي للمباهلة قالوا: نعوذ بالله.. نعوذ بالله.

ثم خلوا بالعاقب فقالوا: يا عبد المسيح ماذا ترى؟ فقال: والله يا معشر النصارى لقد عرفتم أن محمداً لنبي مرسل، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم، ولقد علمتم ما لا عن قوم نبيا قط فبقي كبيرهم ولا نبت صغيرهم، وانه للاستتصال منكم ان فعلتم، فان كنتم قد أبيتم إلا إلف دينكم، والاقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم فوادعوا الرجل، ثم انصرفوا الى بلادكم، حتى يريكم زمن رأيه.

وفي رواية ابن اسحاق: وقالوا: رأينا أن لا نلاعنك وأن نتركك على دينك ونرجع على ديننا.

وهنا عرض النبي محمد عليهم: الاسلام أو الجزية أو الحرب، فأقروا بالجزية.

ومن الجدير بالذكر إن النبي لم يخير النصارى واهل الكتاب، بين هذه الثلاث، الا بعد أن كان قد أقام دولته في الجزيرة العربية، في السنوات الأخيرة من حياته، بعد صلح الحديبية مع قريش، حيث كانت دعوة نصارى نجران في السنة التاسعة. وقد تضمن الخيار الثاني (الجزية) إشارة الى سيطرة الاسلام والمسلمين على الجزيرة العربية بما فيها نجران.

مؤامرة مسجد ضرار، بتخطيط أبي عامر الراهب (الفاسق)

وفي الحقيقة، لم يعكر صفو العلاقات بين المسلمين والنصارى، في المدينة، سوى الراهب (عبد عمرو بن صيفي بن النعمان، أبو عامر) ، وهو أبو حنظلة (الشهيد غسيل الملائكة، يوم أحد) ، وكان قد ترهب في الجاهلية ، ولبس المسوح ، فكان يقال له: "الراهب". وهو رجل شريف في قومه من الأوس، وكان له نفوذ واسع في المدينة (يثرب) يشابه نفوذ عبدالله بن أبي بن سلول في الخزرج. واختلف (أبو عامر) عن (ابن سلول) في أن هذا الأخير، لما شاهد قومه قد اعتنقوا الاسلام، وانصرفوا عنه، مال معهم وأعلن الاسلام في الظاهر، بينما أبى أبو عامر إلا الكفر والتحدي والفراق لقومه حين اجتمعوا على الإسلام، وقال لرسول الله : ما هذا الذي جئت به ؟ قال : جئت بالحنيفية

دين إبراهيم عليه السلام ، قال : فأنا عليها ، قال له رسول الله : إنك لست عليها ، قال : بلى إنك أدخلت يا محمد في الحنيفية ما ليس منها ، قال : ما فعلت ولكنني جئت بها بيضاء نقية . فخرج أبو عامر إلى مكة ببضعة عشر رجلا مفارقا للإسلام، فقال رسول الله (ص): لا تقولوا: "الراهب"، ولكن قولوا: "الفاسق"، وأضاف: "الكاذب، أماته الله طريدا غريبا وحيدا".

وتحالف أبو عامر مع مشركي قريش، وشارك في حرب أحد، كما حاول استمالة قومه من الأوس يومئذ، فردوه. فلما افتتح رسول الله مكة، خرج إلى الطائف فلما أسلم أهل الطائف، خرج إلى الشام، وحاول أن يستجلب جيشا من الروم لغزو المدينة، فقام في البداية بمحاولة لشق صفوف المسلمين في المدينة، وأرسل إلى أصحابه المنافقين أن استعدوا وابنوا مسجدا فإنني أذهب إلى قيصر، وأتي من عنده بجنود، وأخرج محمدا من المدينة، وكان منهم ثعلبة بن حاطب، ومعتب بن قشير، ونبتل بن الحارث، فبنوا مسجدا إلى جنب قباء، فلما فرغوا منه أتوا رسول الله، وهو يتجهز إلى تبوك، فقالوا: يا رسول الله: إنا قد بنينا مسجدا لذي العلة والحاجة والليله المطيرة والليله الشتاتية، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه وتدعو بالبركة، فقال (ص): إنني على جناح السفر ولو قدمنا أتيناكم إنشاء الله فصلينا لكم. فلما انصرف رسول الله من تبوك نزلت عليه الآية في شأن المسجد: "والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين، وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل، وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى، والله يشهد إنهم لكاذبون، لا تقم فيه أبدا، لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه، فيه رجال يحبون أن يتطهروا، والله يحب المطهرين، أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله، ورضوان، خير، أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم، والله لا يهدي القوم الظالمين، لا يزال بنيانهم الذين بنوا ريبة في قلوبهم، إلا أن تقطع قلوبهم، والله عليم حكيم". (التوبة، 107-110) فأمر رسول الله بهدم ذلك المسجد الظالم أهله وإحراقه.

وبعد توسع الخلاف بين المسلمين والنصارى، نزل القرآن بمقاطعتهم:

- "يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء، بعضهم أولياء بعض، ومن يتولهم منكم فإنه منم، إن الله لا يهدي القوم الظالمين". (المائدة 51)

ثم أعلن النبي عليهم الحرب:

- "قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون. وقالت اليهود عزير ابن الله، وقالت النصارى المسيح ابن الله، ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون". (التوبة، 29-30)

وكانت هذه الآية عنوانا لتاريخ جديد من العلاقات السياسية والعسكرية بين المسلمين وأهل الكتاب من اليهود والنصارى، وتخييرهم بين الاسلام أو دفع الجزية أو الحرب، ولا سيما في ما عرف بالفتوح العربية الإسلامية.

الباب الرابع: الموقف من المجوس والصابئة يضم فصلين

الفصل الأول: الموقف الإسلامي من المجوس

إذا كان القرآن الكريم قد تحدث كثيرا عن اليهود والنصارى، فإنه لم يشر الى المجوس إلا في آية واحدة إشارة عابرة، هي:

- "إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا، إن الله يفصل بينهم يوم القيامة، إن الله على كل شئ شهيد". (الحج، 17)

ولا يتضمن القرآن أي حديث عنهم، أو أية مناقشة أو نقد لعقائدهم، وفي حين

لا يعتبرهم القرآن في مصاف من يؤمن بالله واليوم الآخر من اليهود والنصارى والصابئين (البقرة، 62). فانه لا يعتبرهم مشركين في نفس الوقت، وهناك حديث مرسل عن النبي يأمر بالحاقهم بأهل الكتاب في أخذ الجزية منهم، في الوقت الذي لم يكن الرسول يأخذ فيه الجزية من المشركين الوثنيين.

وقد روي عن عبد الرحمن بن عوف قال: أشهد لسمعت رسول الله (ص) يقول: "سنوا بهم سنة أهل الكتاب، غير آكلي ذبائحهم ولا ناكحي نسائهم".

ومن الواضح أن القرآن لم يعتبر المجوس أهل كتاب كما اعتبر اليهود (أهل التوراة)، أو النصارى (أهل الانجيل)، ولم يشر الى كتابهم "أوستا" ولا الى نبيهم (زرادشت) ولا الى طبيعة عقيدتهم وفيما إذا كانت تتضمن التوحيد أو الشرك. بالرغم من احتمال كونهم من أتباع بقايا دين إبراهيم، وبالرغم من توجيه القرآن اتهاما مباشرا لليهود والنصارى بإشراك عزير والمسيح مع الله والقول بينوتهما له. وإعلان الحرب عليهم.

ويصعب تفسير موقف الاسلام من المجوس الذين يوحدون الله ويعبدونه ويؤدون الصلوات الخمس ويدعون إتباعهم لنبي (زرادشت) ووجود كتاب موروث لهم منه، وان كان ذلك الكتاب "أوفيستا" قد ضاع قسم كبير منه كما ضاع إنجيل عيسى وتوراة موسى. فلماذا لم يعدهم القرآن من أهل الكتاب؟ ولماذا يقول النبي محمد "سنوا بهم سنة أهل الكتاب" وينهى في نفس الوقت عن التزاوج معهم أو أكل ذبائحهم؟

الفصل الثاني: الموقف الإسلامي من الصابئة

يرد اسم الصابئة في القرآن الكريم في ثلاث آيات هي:

- "ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون". (البقرة، 62)

• " إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ
آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ " . (المائدة، ٦٩)

• " إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى
وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا، إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ،
إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ " . (الحج، 17)

وكما يلاحظ في الآية الأولى أن الله تعالى وعدهم ضمن الأديان
الأخرى بالأجر في الآخرة والأمن من العذاب، بشرط العمل
الصالح، ورفع عنهم الخوف والحزن في الآية الثانية بينما ترك
في الآية الثالثة مصيرهم لله الذي يفصل بينهم يوم القيامة.

لم يتوسع القرآن الكريم في الحديث عن الصابئة، ولم يذكر
عقائدهم بنقد، ولم يعتبرهم أهل كتاب، كما لم ينسبهم الى نبي
من الأنبياء.

ولا نعرف هل كانوا موجودين في الجزيرة العربية في أيام الرسول الأكرم؟
وهل التقى أحدا منهم؟ أو احتك به أو دعاه للإسلام؟ ولكن الجيش العربي
الاسلامي الذي فتح العراق، بعد انتصاره على الساسانيين في معركة
القادسية (سنة 15 للهجرة) تعرف على الصابئة في العراق، حيث تقدم أحد
زعمائهم وهو (أنش بر دنقا) من القائد العربي سعد بن أبي وقاص، وعرفه
بدينه وقدم له كتاب الصابئة "كنزا ربا" وأخذ منه الأمان لقومه باعتبارهم
"أهل كتاب". وهكذا بدأ فقهاء الاسلام يعاملونهم منذ أن تعرفوا عليهم، أي
يأخذون الجزية منهم ولا يجبرونهم على تغيير دينهم، كما كانوا يفعلون مع
المشركين. وقال عنهم السدي إنهم فرقة من أهل الكتاب، وقال ابن راهويه: لا
بأس بذبائحهم لأنهم طائفة من أهل الكتاب. وأفتى الامام أبو حنيفة بجواز
أكل ذبائحهم ونكاح نسائهم.

الباب الخامس: الهجرة الى المدينة، وإقامة الدولة الإسلامية يضم خمسة فصول

الفصل الأول: هل اختلفت استراتيجية النبي الدعوية في المدينة عنها في مكة؟

هل اعتمد على الآيات وعلم الغيب في دعوة الناس للإسلام؟

• نزول الملائكة

علمنا في ما سبق (في الباب الثاني) بأن مشركي قريش جادلوا النبي وحاججوه وطالبوه بالمعجز والآيات والإخبار بالغيب، ونزول الملائكة، كما قالوا:

• "لولا أنزل إليه ملك، فيكون معه نذيرا". (تكررت الآية ثلاث مرات: الأحقاف، 9، والفرقان، 11، الأنعام، 8)

• "وقال الذين لا يرجون لقاءنا: لولا أنزل علينا الملائكة". (الأحقاف، 21).

وقول الله تعالى جوابا لهم:

• "ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا، ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله". (الأنعام، 112)

ولكن الأمر اختلف بعدما هاجر النبي محمد (ص) الى المدينة، فقد بدأ النبي يتحدث عن نزول الملائكة على الأرض نصرة للمؤمنين، والقيام بالتحدث بالغيب (عن الله) من أجل إثبات نبوته وتقديم أدلة على ارتباطه بالسماء، وإسلام الكثير من الناس بسبب ذلك.

فقد تحدثت سورة (الأنفال) عن نزول الملائكة نصرة للمؤمنين في بدر، فقالت:

• " إذ تستغيثون ربكم، فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين... إذ يوحى ربك الى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا، سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب، فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان". (الأنفال، 10، 9، 12) وجاء ذكر

الملائكة في سورة آل عمران أيضا، مع زيادة في العدد:

- "ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة، فاتقوا الله لعلكم تشكرون، إذ تقول للمؤمنين: ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين، بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا، يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين، ما جعله الله إلا بشري لكم ولتطمئن قلوبكم، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم". (آل عمران، 123-126)

وبالرغم من عدم وجود إشارة في القرآن الى رؤية المسلمين أو الكفار للملائكة، إلا أنه توافرت روايات عديدة عن رؤية المسلمين والمشركين لهم في معركة بدر، كما عن ابن عباس، قال: كانت سيماء الملائكة يوم بدر عمائم بيضا قد أرسلوها في ظهورهم، ويوم حنين عمائم حمرا، ولم تقا تل الملائكة في يوم من الأيلم سوى يوم بدر. وكلنوا يكونون فيما سواه من الأيلم عددا ومددا لا يضربون.

- وعنه أيضا قال: حدثني رجلٌ من بنى غفار، قال: أقبلت أنا وابن عم لي حتى أصدنا في جبل يشرف بنا على بدر، ونحن مشركان، ننتظر الواقعة على من تكون الدبرة، فننتهب مع من ينتهب. قال: فبيننا نحن في الجبل؛ إذ دنت منا سحابة، فسمعنا فيها حممة الخيال، فسمعت قائلا يقول: أقدم حيزوم. قال: فأما ابن عمي فانكشف قناع قلبه فمات مكانه؛ وأما أنا فكدت أهلك، ثم تماسكت.

ويحدثنا ابن عباس أيضا عن كيفية أسر أبيه من قبل رجل قصير وأبوه (العباس) رجل جسيم، فقال رسول الله له: كيف أسرت العباس يا أبا اليسر؟ فقال: يا رسول الله؛ لقد أعانني عليه رجلٌ ما رأيته قبل ذلك ولا بعده؛ هيئته كذا وكذا، قال رسول الله: قد أعانك عليه ملك كريم.

وعن أبي داود المازني - وكان شهد بدرًا - قال: إنى لأتبع رجلا من المشركين يوم بدر لأضربه، إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي، فعرفت أنه قد قتله غيري.

وعن سهيل بن حنيف، قال: لقد رأيتنا يوم بدر؛ وإن أحدنا ليشير بسيفه إلى المشرك فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف.

وكما هو واضح فقد اعتبر الراويان ذلك دليلا على قيام الملائكة بقطع رؤوس

المشركين.

هل نزلت الملائكة في أحد؟

وقد كان من الطبيعي ان يثور سؤال عن الملائكة في معركة أحد التي خسر فيها المسلمون كثيرا من الشهداء، فقد أخبرهم القرآن أن الله أمدهم بثلاثة آلاف من الملائكة في بدر (آل عمران، 123-126) فأين كانت الملائكة يوم أحد؟

يؤكد المفسرون (مجاهد وعكرمة والضحاك، والزهري، وموسى بن عقبة، وغيرهم) في تفسير الآيتين اللتين تشيران للثلاثة آلاف والخمسة آلاف من الملائكة: أن هذا كان موعدا من الله يوم أحد عرضه على نبيه محمد: أن المؤمنين اذا اتقوا وصبروا أمدهم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين، ففر المسلمون يوم أحد وولوا مدبرين فلم يمدهم الله بملك واحد. وينقل الطبري عن مجاهد قوله: حضرت الملائكة في أحد ولم تقاتل.

• ومع ذلك فان الواقدي يروي: ان ملكا أخذ الراية من مصعب بعد مقتله، وتشبهه به دون ان يعرفه النبي. وعن سعد بن ابي وقاص، قال: لقد رأيت رجلين عليهما ثياب بيض أحدهما عن يمين رسول الله والآخر عن يساره يقاتلان أشد القتال، ما رأيتهما قبل ولا بعد.

وبالرغم من ان المسلمين انهزموا أيضا يوم حنين ولم يصبروا، فان القرآن يتحدث عن نزول بعض الجنود:

- "لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحَبَتْ ثُمَّ وَابَسَتْ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ". (التوبة، ٢٥-٢٦)

ومع ان القرآن لم يحدد هنا عدد الجنود (الملائكة) الا ان الطبري يقول: أمد الله نبيه يوم حنين بخمسة آلاف من الملائكة مسومين. ويقول الواقدي: وكان سيما الملائكة يوم حنين عمائم حمراء قد ارخوها بين اكتافهم. وينقل عن شهد المعركة أنه قال: رأينا يومئذ كالبجد (أكسية مخططة) السود هوت من السماء ركاما فنظرنا فاذا نمل مبعوث ، فان كنا لننفضه عن ثيابنا.

جبرئيل ينزل أمام الناس ويسأل النبي أسئلة

وفي رواية عن عمر بن الخطاب أن جبرئيل كان يتمثل أحيانا للنبي بصورة إنسان ظاهر يراه الآخرون (غير النبي)، ويخاطبه بالوحي، أي كما حدث مع النبيين إبراهيم ولوط، قال عمر: بينما نحن عند رسول الله (ص) ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي (ص) فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال:

- يا محمد أخبرني عن الإسلام؟ فقال رسول الله (ص):
- الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا. قال صدقت. قال (عمر) فعجبنا له يسأله ويصدقه. قال:
- فأخبرني عن الإيمان. قال:
- أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره. قال:
- صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان، قال:
- أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك. قال:
- فأخبرني عن الساعة، قال:
- ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، قال:
- فأخبرني عن أمارتها، قال:
- أن تلد الأمة ربثها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في

البنيان.

قال (عمر): ثم انطلق، فلبثت مليا. ثم قال لي (رسول الله): يا عمر أتدري من السائل؟ قلت الله ورسوله أعلم. قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم".

جبرئيل يتمثل في صورة دحية الكلبي

ويقال أيضا ان الملك كان يتمثل بشخصية الصحابي (دحية الكلبي) وهو صحابي كان يضرب به المثل في حسن الهيئة وجمال الصورة وقد أسلم في العام الثالث للهجرة قبل معركة أحد، ويراها النبي والصحابة، كما عن عبد الله بن عمر عن أنس أن النبي كان يقول:

• "يأتيني جبريل في صورة دحية".

وعن عائشة: "أن رسول الله (ص) كان عندي فسلم علينا رجل ونحن في البيت فقام رسول الله (ص) فزعا وقمت في أثره فإذا بدحية الكلبي فقال هذا جبريل أمرني أن أذهب إلى بني قريظة وقال: قد وضعت السلاح لكننا لم نضع، طلبنا المشركين حتى بلغنا حمراء الأسد. وذلك حين رجع رسول الله (ص) من الخندق فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فزعا وقال لأصحابه عزمتم عليكم أن لا تصلوا صلاة العصر حتى تأتوا بني قريظة... وخرج رسول الله (ص) فمر بمجالس بينه وبين بني قريظة فقال: هل مر بكم أحد فقالوا مر علينا دحية الكلبي على بغلة شهباء تحته قطيفة ديباج فقال: ذلك جبريل أرسل إلى بني قريظة ليزلزلهم ويقذف في قلوبهم الرعب".

وأضافت عائشة: رأيت رسول الله (ص) واضعا يده على معرفة فرس وهو يكلم رجلا، قلت: رأيتك واضعا يدك على معرفة فرس دحية الكلبي وأنت تكلمه، قال: ورأيتة؟ قلت: نعم، قال: ذاك جبريل عليه السلام وهو يقرئك السلام.

وكما في رواية أم سلمة فيما نقله البخاري في باب علامات النبوة: "عن أبي عثمان قال: أنبئت أن جبريل (ع) أتى النبي (ص) وعنده أم سلمة، فجعل يحدث، ثم قام فقال النبي (ص) لأم سلمة: من هذا؟! أو كما قال، قال: قالت: هذا دحية، قالت أم سلمة: أيم الله ما حسبته إلا إياه، حتى سمعت خطبة نبي الله يخبر جبريل أو كما قال، قال: فقلت لأبي عثمان: ممن سمعت هذا؟ قال: من أسامة بن زيد".

أبو سفيان يسمع قعقة سلاح الملائكة

ويروي المفسر القرطبي حديثاً عن الصحابي حذيفة الذي تسلل الى معسكر الأحزاب في معركة الخندق، ويذكر في نهايته: ان أبا سفيان كان يسمع قعقة السلاح (سلاح الملائكة): " قال حذيفة : فانتهيت إليهم وإذا نيرانهم تتقد، فأقبلت ريح شديدة فيها حصباء ، فما تركت لهم ناراً إلا أطفأتها ولا بناء إلا طرحته ، وجعلوا يتترسون من الحصباء . وقام أبو سفيان إلى راحلته وصاح في قريش : النجاء النجاء ! وفعل كذلك عيينة بن حصن والحارث بن عوف والأقرع بن حابس . وتفرقت الأحزاب ، وأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم فعاد إلى المدينة وبه من الشعث ما شاء الله ، فجاءته فاطمة بغسل فكانت تغسل رأسه ، فأتاه جبريل فقال : و"ضعت السلاح ولم تضعه أهل السماء ، ما زلت أتبعهم حتى جاوزت بهم الروحاء - ثم قال - انهض إلى بني قريظة" . وقال أبو سفيان: ما زلت أسمع قعقة السلاح حتى جاوزت الروحاء ."

• الإخبار بالغيب

وقد ذكرنا في فصل سابق: قول زعماء قريش للنبي في حوارهم الطويل معه: يا محمد ، أما علم ربك أنا سنجلس معك ، ونسألك عما سألتناك عنه ، ونطلب منك ما نطلب فيقدم إليك ويعلمك ما تراجعنا به ، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا. ورفض النبي الاستجابة لهم بذلك، وجواب القرآن لهم:

• "قل لا أقول لكم عندي خزائن الله، ولا أعلم الغيب، ولا أقول لكم إنني ملك، إن أتبع إلا ما يوحى إلي". (الأنعام، 50)

• "قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا، إلا ما شاء الله، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء، إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون". (الأعراف، 188)

• "قل ما كنت بدعاً من الرسل، وما أدري ما يفعل بي ولا بكم، إن أتبع إلا ما يوحى إلي، وما أنا إلا نذير مبين". (الأحقاف، 9) ونقل عن نوح قوله لقومه:

- "ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب، ولا أقول إني ملك".
(هود، 31)

ولكن استراتيجية النبي محمد في المدينة اختلفت عنها في مكة، في مجال التحدث عن الغيب، واستخدام ذلك في دعوة الناس للإسلام.

النبي يتنبأ بفتح قصور كسرى والروم وصنعاء

يذكر المؤرخون المسلمون، قصة حدثت أثناء حفر الخندق، واصطدام المسلمين بصخرة صماء مروية لم يستطيعوا كسرها فأخذ رسول الله المعول من سلمان، فضرب الصخرة ضربة صدعها، وبرقت منها برقة أضاء ما بين لابتيها - يعني لابتي المدينة - حتى لكأن مصباحًا في جوف بيت مظلم. فكبر رسول الله تكبير فتح، وكبر المسلمون. ثم ضربها رسول الله الثانية، فصدعها وبرق منها برقة أضاء منها بين لابتيها، حتى لكأن مصباحًا في جوف بيت مظلم، فكبر رسول الله تكبير فتح وكبر المسلمون. ثم ضربها رسول الله، الثالثة، فكسرها، وبرق منها برقة أضاء ما بين لابتيها، حتى لكأن مصباحًا في جوف بيت مظلم، فكبر رسول الله تكبير فتح وكبر المسلمون، ثم أخذ بيد سلمان فرقى، فقال سلمان: بأبي أنت وأمي يا رسول الله! لقد رأيت شيئًا ما رأيته قط! فالتفت رسول الله إلى القوم، فقال: هل رأيتم ما يقول سلمان؟ قالوا: نعم يا رسول الله، بأبينا أنت وأمنا قد رأيته تضرب فيخرج برق كالموج، فرأيته تكبر فنكبر، ولا نرى شيئًا غير ذلك. قال: صدقتم، ضربت ضربتي الأولى، فبرق الذي رأيتم، أضاءت لي منها قصور الحيرة ومدائن كسرى، كأنها أنياب الكلاب، فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها، ثم ضربت ضربتي الثانية، فبرق الذي رأيتم، أضاءت لي منها قصور الحمر من أرض الروم، كأنها أنياب الكلاب، فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها، ثم ضربت ضربتي الثالثة، فبرق منها الذي رأيتم، أضاءت لي منها قصور صنعاء كأنها أنياب كلاب، فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها، فأبشروا يبلغهم النصر، وأبشروا يبلغهم النصر، وأبشروا يبلغهم النصر. فاستبشر المسلمون وقالوا: الحمد لله موعد صادق بار، وعدنا النصر بعد الحصر، فطلعت الأحزاب، فقال المؤمنون:

- "هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانًا وتسليمًا".

وقال المنافقون: ألا تعجبون! يحدثكم ويمنيكم ويعدكم الباطل! يخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى، وأنها تفتح لكم؛ وأنتم تحفرون

الخدق ولا تستطيعون أن تبرزوا! وأنزل القرآن:

- " وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرضٌ ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورًا ". (الأحزاب، ١٢)

ويقول المفسر ابن كثير: " جاء في الحديث الصحيح عن خباب بن الأرت قال: قلنا: يا رسول الله ، ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعو الله لنا ؟ فقال : " إن من كان قبلكم كان أحدهم يوضع المنشار على مفرق رأسه فيخلص إلى قدميه ، لا يصرفه ذلك عن دينه ، ويمشط بأمشاط الحديد ما بين لحمه وعظمه ، لا يصرفه ذلك عن دينه . " ثم قال : " والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ، ولكنكم قوم تستعجلون " .

قصة إسلام عمير بن وهب الجمحي

وأما الطبري فإنه يروي قصصا عديدة عن إسلام بعض الأشخاص في المدينة، بناء على إخبار النبي لهم بأخبار غيبية لا يعلمها إلا الله، واقتناعهم بها كدليل على النبوة، فيروي قصة إسلام (عمير بن وهب الجمحي) الذي كان يعتبر شيطانًا من شياطين قريش، وممن يؤذي رسول الله وأصحابه، ويلقون منه عناء وهم بمكة، وذلك عندما وقع ابنه وهب في أسارى بدر، فاتفق مع صفوان بن أمية، بصورة سرية، على قتل النبي محمد. ثم شحذ سيفه وسمّه، ثم انطلق حتى قدم المدينة، ودخل على رسول الله. فقال:

- ما جاء بك يا عمير؟ قال:
- جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم، فأحسنوا فيه. قال:
- فما بال السيف في عنقك! قال: قبحها الله من سيوف! وهل أغنت شيئًا! قال:
- اصدقني بالذي جئت له، قال: ما جئت إلا لذلك، فقال:
- بلى، قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر، فذكرتما أصحاب القليب من قريش، ثم قلت: لولا دين علي وعيالي لخرجت حتى أقتل محمدًا، فتحمل لك صفوان بدينك وعيالك، على أن تقتلني له. والله عز وجل حائلٌ بيني وبينك. فقال عمير:
- أشهد أنك رسول الله؛ قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحي؛ وهذا أمرٌ لم يحضره إلا أنا وصفوان؛ فوالله إنى لأعلم ما أتاك به إلا الله؛ فالحمد لله الذي هداني للإسلام،

وساقتني هذا المساق.

ثم تشهد شهادة الحق؛ فقال رسول الله ؛ فقهوا أخاكم في دينه، وأقرئوه وعلموه القرآن، وأطلقوا له أسيره. ثم قال: يا رسول الله: إني كنت جاهداً في إطفاء نور الله، شديد الأذى لمن كان على دين الله؛ وإني أحب أن تأذن لي فأقدم مكة فأدعوهم إلى الله وإلى الإسلام؛ لعل الله أن يهديهم! وإلا آذيتهم في دينهم كما كنت أؤذي أصحابك في دينهم. فأذن له رسول الله ، فلحق بمكة، وكان صفوان حين خرج عمير بن وهب يقول لقريش: أبشروا بوقعة تَأْتِيكُمْ الآن في أيام تنسيكم ووقعة بدر، وكان صفوان يسأل عنه الركبان؛ حتى قدم ركباً فأخبره بإسلامه، فحلف ألا يكلمه أبداً ولا ينفعه بنفع أبداً. فلما قدم عمير مكة أقام بها يدعو إلى الإسلام، ويؤذي من خالفه أذىً شديداً فأسلم على يديه أناس كثير.

وإذا صحت هذه القصة، فإنها تكون أول عملية إسلام، تقوم على إخبار النبي بالغيب، قابلت رجلا من أشرس الأعداء الى داعية للإسلام ومدافع عنه. ولم يعد عمير بحاجة لكي يثبت له رسول الله نبوته بمعجزة. وهي تعبر عن اعتماد النبي لاستراتيجية جديدة (غيبية) في التعامل مع الناس ودعوتهم للإسلام.

إسلام باذان والي كسرى في اليمن

وتتكرر العملية مرة ثانية، في قصة إسلام باذان والي اليمن لكسرى، وذلك بعد إرساله لشرطيين الى المدينة من أجل جلب النبي محمد اليه، بناء على أوامر من كسرى (خسرو الثاني 590 - 628 م)، ردا على رسالة النبي له ودعوته للإسلام، فقالا:

- إن شاهانشاه ملك الملوك كسرى؛ قد كتب إلى الملك باذان، يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك؛ وقد بعثنا إليك لتتطلق معنا؛ فإن فعلت كتب فيك إلى ملك الملوك ينفعك ويكفه عنك؛ وإن أبيت فهو من قد علمت! فهو مهلكك ومهلك قومك، ومخرب بلادك، فقال النبي للشرطيين:
- إن ربي قد قتل ربكما، وأن الله قد سلط على كسرى ابنه شيرويه؛ فقتله في شهر كذا وكذا ليلة كذا وكذا من الليل. فقال الشرطيان:
- هل تدري ما تقول! إنا قد نقمنا عليك ما هو أيسر من هذا؛ أفنكتب هذا عنك، ونخبر الملك! قال:
- نعم، أخبراه ذلك عني، وقولا له: إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ ملك

كسرى، وينتهي إلى منتهى الخف والحافر؛ وقولا له: إنك إن أسلمت أعطيتك ما تحت يديك؛ وملكتك على قومك من الأبناء.

فخرجا من عنده حتى قدما على باذان، فأخبراه الخبر، فقال: والله ما هذا بكلام ملك، وإني لأرى الرجل نبيا كما يقول؛ ولننظرن ما قد قال؛ فلئن كان هذا حقا ما فيه كلام؛ إنه لنبي مرسل؛ وإن لم يكن فسئرى فيه رأينا. فلم ينشب باذان أن قدم عليه كتاب شيرويه؛ أما بعد فإني قد قتلت كسرى، ولم أقتله إلا غضبا لفارس لما كان استحل من قتل أشرافهم وتجميرهم في ثغورهم؛ فإذا جاءك كتابي هذا فخذ لي الطاعة ممن قبلك؛ وانظر الرجل الذي كان كسرى كتب فيه إليك فلا تهجه حتى يأتيك أمري فيه. فلما انتهى كتاب شيرويه إلى باذان قال: إن هذا الرجل لرسول. فأسلم وأسلمت الأبناء معه من فارس من كان منهم باليمن .

إسلام أهل جرش في اليمن

وهم قبيلة في اليمن كانوا مشركين، فأرسلوا إلى النبي شخصين من قبلهما يرتادان وينظران في صحة نبوته، وبينما كان الرجلان عند النبي، قام أحد الزعماء المسلمين في اليمن (صرد بن عبد الله الأزدي) بالهجوم على قبيلة جرش، بأمر من الرسول، فحاصرهم بها قريبا من شهر، ثم عطف عليهم فقتلهم قتلا؛ فبينما هما عند رسول الله عشية بعد العصر، إذ قال رسول الله: بأي بلاد الله شكر؟ فقام الجرشيان فقالا: يا رسول الله؛ ببلادنا جبل يقال له جبل كثر.. فما له يا رسول الله؟ قال: إن بدن الله لتنحر عنده الآن. قال فجلس الرجلان إلى أبي بكر وإلى عثمان، فقال لهما: ويحكما! إن رسول الله الآن لينعي لكما قومكما، فقوموا إلى رسول الله فاسألاه أن يدعو الله فيرفع عن قومكما، فقاما إليه فسألاه ذلك، فقال: اللهم ارفع عنهم؛ فخرجا من عند رسول الله راجعين إلى قومهما، فوجدا قومهما أصيبوا يوم أصابهم صرد بن عبد الله في اليوم الذي قال فيه رسول الله ما قال؛ وفي الساعة التي ذكر فيها ما ذكر؛ فخرج وفد جرش حتى قدموا على رسول الله فأسلموا.

الاعتماد الرئيسي على كتاب سيرة ابن هشام

الفصل الثاني: استراتيجية الأسلمة السياسية

اختلفت استراتيجية النبي محمد في الدعوة إلى الإسلام، في المدينة عنها في مكة، من دعوة عقائدية سلمية، إلى دعوة سياسية تقوم على القوة، فقد كان يعمل

في البداية على بناء نواة أمة اسلامية مؤمنة حقيقة برسالته، ومع انتقاله الى المدينة وقيامه بوضع اللبنة الأولى للدولة الاسلامية، بهدف القضاء على الشرك وعبادة الأصنام، لم يعد النبي يتوقف كثيرا عند حقيقة إيمان من يعلن الإسلام، ويرحب بأي شخص بمجرد أن يتلفظ بالشهادتين ويسلم له ولو إسلاما سياسيا. وكان يعلم بأن عملية التحول الكبرى من الشرك الى التوحيد، في الجزيرة العربية، لا يمكن أن تتم فقط بصورة سلمية، وعن طريق الاقناع، وذلك لأن المشركين كانوا قد اعتادوا على عبادة الأصنام وكان من الصعب عليهم عاطفيا التخلص منها، ولا سيما في حالة ضعف النبي أو استضعافه، كما حدث في مكة خلال السنوات العشر الأولى من الدعوة الإسلامية. ولذا كان لا بد للرسول الأعظم قائد عملية التغيير التوحيدية من استخدام القوة لاقتلاع الشرك من العقول والقلوب، ومعالجة التحجر النفسي الراض لقبول مبدأ التوحيد.

ان عبادة المشركين للأصنام، لم تكن عن وعي أو ثقافة أو علم أو عقل، وانما كانت عن جهل وتقليد وتخلف ومصالحة مادية وانحطاط. ومن هنا فان عملية انتشار هؤلاء المشركين من واقعهم لا يمكن ان تقتصر على المنطق والعقل، ولا بد ان تستعين بشيء من القوة أو الهيبة حتى يعود المشركون الى رشدهم ويعبدوا الله وحده.

ولم يكن استخدام النبي محمد في المدينة لاستخدام القوة في احداث الثورة التوحيدية في الجزيرة العربية، دليلا على عجز النبي عن استخدام المنطق كما زعم بعض المستشرقين كأجنتاس جولدتسيهر، أو وسيلة لبناء زعامة سياسية على العرب، فقد رفض النبي في مطلع الدعوة عرض المشركين لجعله رئيسا عليهم، طوعا، وقال: "والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما فعلت" ثم ما هو المنطق الذي يجب أن يستخدم لاقتناع انسان يصنع تمثالا من التمر فيعبده، واذا جاع يأكله، أو يقف خاشعا عابدا أمام صنم من حجارة أو من خشب؟

وقد أثبت المشركون أنهم لم يكونوا يعبدون الأصنام عن عقيدة واعية وإيمان راسخ، ولذلك تخلوا عن أصنامهم وشركهم وتحولوا الى الإيمان بالإسلام وتوحيد الله، بسرعة، عندما شاهدوا النبي يحقق انتصارات متتالية، ولا سيما على قريش، فهبوا يعلنون اسلامهم طوعا وكرها.

وهكذا قبل منهم النبي إعلان الإسلام والتلفظ بالمشهادتين: "أشهد ألا إله الا الله، وأن محمدا رسول الله" وهو يعلم أن إسلام الكثير من العرب، أو أكثرهم لم يكن إسلاما عميقا أو إيمانا حقيقيا مثل إيمان المسلمين في مكة، لكن النبي كان يأمل أن يترسخ إسلامهم مع مرور الزمن في المستقبل، بعد القضاء النهائي على

الشرك وتطهير الجزيرة من عبادة الأصنام.

وقد كان النبي في البداية يؤلف قلوب الأعراب ويطمعهم بالحصول على فوائد مادية (غنائم)، ويستميلهم الى جانب الإسلام، ويدعوهم للمشاركة في الحروب دفاعاً عن نواة الدولة الإسلامية، أو مهاجمة مشركين آخرين، كما فعل مع قبيلة غطفان التي لم تكن قد أسلمت بعد، عندما استعان بها في فتح مكة، ثم انتقل النبي في مرحلة لاحقة الى اتباع استراتيجية جديدة هي الأسلمة بالقوة، وتخيير القبائل العربية بين الاسلام أو القتل، رغم أنه كان يعرف جيداً أن إعلان هذا "الاسلام" لا يقوم على إيمان حقيقي.

الفصل الثاني: استراتيجية الأسلمة السياسية

الدعوة الإسلامية في المدينة

لقد اختلفت الدعوة الإسلامية في المدينة عنها في مكة، فبالإضافة الى من أسلم طوعاً واقتناعاً بحقيقة الاسلام بصورة فردية، فإن معظم من أعلن إسلامه في المرحلة المدنية، ولا سيما بعد صلح الحديبية، قام بذلك إما طمعاً أو خوفاً، أو اتباعاً لزعيم القبيلة بصورة جماعية، ولم يذكر القرآن أي جدل أو نقاش أو سؤال من قبل أولئك المسلمين عن صحة القرآن أو مطالبة النبي بإثبات نبوته بمعجزة أو دليل آخر، كما فعل مشركو مكة واليهود.

ولعل من أبرز الذين أسلموا في المرحلة المدنية، هو المكي عمرو بن العاص، في السنة الثامنة للهجرة، بعد انتصار النبي في حرب الخندق، وهزيمة قريش النفسية، ولا يوجد في قصة إسلامه إشارة الى اقتناعه فكرياً بصدق الرسول، أو تأثير القرآن عليه. وقد كان عمرو يكره الرسول الى درجة التصميم على قتله -كما يقول هو- ولكنه شعر بالهزيمة بعد معركة الأحزاب، ففكر في الهجرة الى الحبشة خوفاً من انتصار الرسول، وقد حدثنا هو عن مشاعره قائلاً: "لما انصرفنا من الأحزاب عن الخندق جمعت رجالاً من قريش كانوا يرون رأيي، ويسمعون مني، فقلت لهم: تعلمون والله اني أرى أمر محمد يعلو الأمور علواً منكراً، وإني قد رأيت أمراً فما ترون فيه؟ قالوا: وما الذي رأيت؟ قلت: رأيت أن نلحق بالنجاشي فنكون عنده فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشي فإننا أن نكون تحت يديه أحب إلينا من أن نكون تحت يدي محمد، وإن ظهر قومنا فنحن من قد عرفوا فلن يأتينا منهم إلا خيراً. قالوا: إن هذا الرأي فقلت لهم: فاجمعوا له ما نهدي له، وكان أحب ما يهدى إليه من أرضنا الأدم (الجلود)، فجمعنا له أدماً كثيراً، ثم خرجنا حتى قدمنا عليه، فوالله إنا لعنده إذ جاء عمرو

بن أمية الضمري ، وقد كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم- بعثه إليه في شأن جعفر وأصحابه .قال: فدخل عليه ثم خرج من عنده .قال : فقلت لأصحابي : هذا هو عمرو بن أمية ، فلو قد دخلت على النجاشي فسألته إياه فأعطانيه فضربت عنقه ، فإذا فعلت ذلك رأيت قريش أني قد أجزأت عنها حين قتلت رسول محمد . قال: فدخلت عليه فسجدت له كما كنت أصنع .ثم قلت: أيها الملك ، إني قد رأيت رجلاً خرج من عندك ، وهو رسول رجل عدو لنا ، فأعطانيه لأقتله ، فإنه قد أصاب من أشرافنا وأعزتنا .قال: فغضب ، ثم مد يده فضرب بها أنفه ضربة ظننت أنه قد كسره ، فلو انشقت لي الأرض لدخلت فيها خوفاً منه . ثم قلت له: أيها الملك ، والله لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتك . فقال: أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى لتقتله؟! قال: قلت: أيها الملك ، أذاك هو؟ قال: ويحك يا عمرو ، أطعني واتبعه ، فإنه والله لعلى الحق ، وليظهرن على من خالفه ، كما ظهر موسى على فرعون وجنوده .قال: قلت: أتبايعني له على الإسلام؟ قال: نعم . فبسط يده ، فبايعته على الإسلام . ثم خرجت على أصحابي ، وقد حال رأيي عما كان عليه ، فكتمت أصحابي إسلامي، ثم خرجت عامداً لرسول الله بإسلامي ، فلقيت خالد بن الوليد ، وذلك قبيل الفتح ، وهو مقبل من مكة ، فقلت: أين يا أبا سليمان؟ قال: والله لقد استقام المنسم ، وان الرجل لنبي ، أذهبُ والله أسلمُ فحتى متى؟ قال: قلت: فأنا والله ما جئت إلا للإسلام ."

ولا نريد هنا أن نشكك بإسلام عمرو بن العاص، وإنما نود الإشارة الى الظروف النفسية والسياسية التي دفعته لإعلان الاسلام، أكثر من الاقتناع الفكري، والتي جعلت عمرو ينقلب بين عشية وضحاها من الكراهية الشديدة للإسلام الى الازعان والتسليم، وربما جاء تأكيد النجاشي له بغلبة الاسلام في المستقبل حافزا له على إعلان إسلامه، وإلا فكيف تحول في مجلس النجاشي في ساعة واحدة من طالب لقتل رسول محمد (عمرو بن أمية)، الى مؤمن به لمجرد قول النجاشي له بأن الناموس الأكبر يأتيه؟

وقد ترافق إسلام عمرو بن العاص مع إسلام خالد بن الوليد، الذي نقل عنه قوله في تحليل إسلام العرب: "إن الله أخذ بهم من قلوبهم ونواصيهم، وأرادهم على أن يتبعوا النبي".

ومن الذين أسلموا في المرحلة المدنية: المغيرة بن شعبة، وهو من ثقيف وقد كان أجيرا لجماعة ذاهبا معهم في رحلة تجارية الى مصر، حتى إذا كانوا ببعض الطريق عدا عليهم، وهم نيام فقتلهم، ثم أقبل بأموالهم على رسول الله، فقال رسول الله: أما الاسلام فنقبله، وأما المال فانا لا نغدر.

حركة الاسلام بين العرب ما بعد الحديبية

وإذا قرأنا تاريخ حركة الاسلام بين القبائل العربية ما بعد صلح الحديبية فسنجد إقبالا جماهيريا كبيرا على الإسلام:

يقول ابن سعد: لما رجع رسول الله من الحديبية في ذي الحجة سنة ست أرسل الرسل إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام وكتب إليهم كتباً... وكذلك كتب إلى مجوس هجر، يعرض عليهم الإسلام، فإن أبوا أخذت منهم الجزية. ووصله رسول أهل اليمن مالك بن مرارة، بإسلامهم وطاعتهم. وكتب رسول الله، إلى بني عمرو من حمير يدعوهم إلى الإسلام، كما كتب إلى جبلة بن الأيهم ملك غسان يدعوهم إلى الإسلام، فأسلم وكتب بإسلامه إلى رسول الله، وأهدى له هدية.

وبعث رسول الله (ص) جرير بن عبد الله البجلي إلى ذي الكلاع بن ناكور وذي عمرو (من زعماء اليمن) يدعوهما إلى الإسلام فأسلما، وأسلمت ضريبة بنت أبرهة بن الصباح امرأة ذي الكلاع. وكتب رسول الله، لمعدي كرب بن أبرهة أن له ما أسلم عليه من أرض خولان.

كما بعث عياش بن أبي ربيعة المخزومي إلى ملوك آخرين من اليمن هم الحارث ومسروح ونعيم بن عبد كلال من حمير (الذين كانوا على دين اليهود أو النصراني؟) وكتب إليهم: "سلم أنتم ما آمنتم بالله ورسوله وأن الله وحده لا شريك له بعث موسى بآياته وخلق عيسى بكلماته. قالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصراني الله ثالث ثلاثة عيسى ابن الله". وأمر عياش أن يقرأ عليهم: "لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين...". ويقول: آمن محمد وأنا أول المؤمنين، وقل حسبي الله آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم، الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم، الله يجمع بيننا وإليه المصير. فلما أعطاهم الكتاب وقرأ عليهم القرآن، قبلوا، وأسلموا دون نقاش.

وبينما كان رسول الله يبعث بالكتب إلى زعماء القبائل العربية يدعوهم فيها للإسلام، جاءه رسول عامل الروم على عمان أو معان: "فروة بن عمرو الجذامي" يحمل إليه نبأ إسلامه، من تلقاء نفسه. ويقول ابن سعد إن ملك الروم دعا عامله فروة، فقال له: إرجع عن دينك نملكك، قال: "لا أفارق دين محمد وإنك تعلم أن عيسى قد بشر به ولكنك تظن بملكك"، فحبسه ثم أخرجه فقتله وصلبه.

ولكننا لا نستطيع تأكيد هذه الرواية عن سبب إسلام فروة، من مصادر مستقلة، ولا سيما أن ابن سعد يرويها بدون أسناد.

وكما يلاحظ فإن رسائل النبي الى الملوك والأمراء وزعماء القبائل العربية، كانت تتضمن نوعا من التهديد في سبيل الدعوة الى الاسلام مثل عبارة "أسلم تسلم" الى جانب الترغيب وتأليف قلوبهم، ولم تكن تلك الرسائل تقدم أية أدلة على صحة النبوة، التي أضحت فوق النقاش، ولم تكن القبائل لتناقش دعوى النبوة أو تسأل عن براهين، كما كان يفعل كفار قريش. وفي الحقيقة لم تكن هي لتستجيب لدعوة الاسلام في الوقت الذي كان النبي لا يزال يخوض حروبه مع قريش، فقالت: "دعوا محمدا يقاتل قومه فان نجح فهو نبي". وعندما فتح النبي مكة، انقلبت المعادلات السياسية وبدأت الوفود تترى على النبي تعلن إسلامها بصورة جماعية وتدخل في دين الله أفواجا. كما يقول الله تعالى:

• "إذا جاء نصر الله والفتح، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا، فسبح بحمد ربك واستغفره، انه كان توابا". (النصر، ١-٣)

ولما قدم رسول الله، من الجعرانة سنة ثمان قدم عليه وفد ثعلبة، وكانوا أربعة نفر، فقالوا: نحن رسل من خلفنا من قومنا، ونحن وهم مقرون بالإسلام، فأقاموا في المدينة أياما ثم انصرفوا. وهكذا أسلم وفد محارب، سنة عشر في حجة الوداع، وهم عشرة نفر، وقالوا: نحن على من وراءنا. وكذلك فعل وفد عقيل بن كعب، المؤلف من عدة أشخاص، حيث أسلموا وبايعوا، وبايعوا أيضا على من وراءهم من قومهم. ووفد على النبي أيضا لقيط بن عامر بن المنتفق، وبايعه على قومه.

وينقل ابن سعد قصة نادرة عن كيفية إسلام أحد الأشخاص، تحكي عقلية بعض الناس ومنطقهم في رفض الإسلام أو قبوله، وهو أبو حرب بن خويلد بن عامر بن عقيل، الذي قدم على رسول الله فقرأ عليه القرآن وعرض عليه الإسلام، فقال: أما وأيم الله لقد لقيت الله أو لقيت من لقيه، وإنك لتقول قولا لا نحسن مثله، ولكني سوف أضرب بقداحي هذه على ما تدعوني إليه وعلى ديني الذي أنا عليه، وضرب بالقداح فخرج عليه سهم الكفر ثم أعاده فخرج عليه ثلاث مرات، فقال لرسول الله: أباي هذا إلا ما ترى. ثم رجع إلى أخيه عقيل بن خويلد فقال له: قل خيسك! (أي خيرك) هل لك في محمد بن عبد الله يدعو إلى دين الإسلام ويقرأ القرآن وقد أعطاني العقيق إن أنا أسلمت؟ فقدم عقيل على رسول الله، فعرض عليه الإسلام وجعل يقول له: أتشهد أن محمدا رسول الله؟ فيقول: أشهد أن هبيرة بن النفاضة نعم الفارس ثوم قرني لبان، ثم قال: أتشهد أن محمدا رسول الله؟ قال:

أشهد أن الصريح تحت الرغوة، ثم قال له الثالثة: أتشهد؟ قال: فشهد وأسلم.

ومما يلفت النظر في إسلام بعض المسلمين، هو إسلام رجل من بني سليم يقال له "قيس بن نسيبة" الذي جاء إلى النبي، فسمع كلامه وسأله عن أشياء فأجابته ووعى ذلك كله، ودعاه رسول الله، إلى الإسلام فأسلم، ورجع إلى قومه بني سليم فقال: قد سمعت ترجمة الروم، وهيمنة فارس، وأشعار العرب، وكهانة الكاهن، وكلام مقاول حمير، فما يشبهه كلام محمد شيئاً من كلامهم، فأطيعوني وخذوا بنصيبتكم منه. فلما كان عام الفتح خرجت بنو سليم إلى رسول الله فلقوه بقديد، فأسلموا وقالوا: اجعلنا في مقدمتك، فشهدوا معه الفتح والطائف وحنينا. وكان فيهم رجل يسمى راشد، يسدن صنما لبني سليم، فرأى يوماً ثعلبين يبولان عليه فقال: "أربُّ يبول الثعلبان برأسه! ... لقد ذل من بالت عليه الثعالب"، ثم شد عليه فكسره، ثم أتى النبي، فقال له: ما اسمك؟ قال: غاوي بن عبد العزى، قال: أنت راشد بن عبد ربه، فأسلم وحسن إسلامه وشهد الفتح مع النبي، وأعطاه رسول الله، عينا يقال لها "عين الرسول".

قالوا: وقدم على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، علقمة بن علاثة ابن عوف بن الأحوص بن جعفر بن كلاب وهوذة بن خالد بن ربيعة وابنه، وكان عمر جالسا إلى جنب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال له رسول الله: أوسع لعلقمة، فأوسع له، فجلس إلى جنبه، فقص عليه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، شرائع الإسلام وقرأ عليه قرآنا، فقال: يا محمد إن ربك لكريم وقد آمنت بك وبايعت على عكرمة بن خصفة أخي قيس، وأسلم هوذة وابنه وابن أخيه وبايع هوذة على عكرمة أيضا.

ولم يكن جميع من يفد على النبي يبادر إلى إعلان إسلامه، فربما كان بعضهم يفادون النبي ويحاول الحصول على بعض المغنم السياسية، كما فعل عامر بن الطفيل بن مالك، زعيم وفد عامر بن صعصعة، الذي خاطب النبي قائلاً: يا محمد ما لي إن أسلمت؟ فقال: لك ما للمسلمين وعليك ما على المسلمين، قال: أتجعل لي الأمر من بعدك؟ قال: ليس ذاك لك ولا لقومك، قال: أفجعل لي الوبر ولك المدر؟ قال: لا ولكني أجعل لك أعنة الخيل فإنك أمرؤ فارس، قال: أو ليست لي؟ لأملأنها عليك خيلا ورجالا! ثم ولى، ولم يسلم.

إسلام قريش الجماعي بعد فتح مكة

لعل أبرز مثل على الإسلام السياسي أو الظاهري هو إسلام قريش الجماعي

بعد فتح مكة، بعد مقاومة حوالي عشرين سنة للدعوة الاسلامية، وطلبهم المعاجز والآيات من النبي حتى يصدقوا به، وقد أسلم في البداية زعيمهم أبو سفيان عندما التقاه العباس عم النبي خارج مكة، فقال له: هذا رسول الله ورأيي قد دلف إليكم بما لا قبل لكم به بعشرة آلاف من المسلمين. قال: فما تأمرني؟ فقال: تركب عجز هذه البغلة، فأستأمن لك رسول الله؛ فو الله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فلما رآه الرسول قال: ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله! فقال: بأبي أنت وأمي، ما أوصلك وأحلمك وأكرمك! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله غيره لقد أغنى عني شيئاً، فقال: ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله! فقال: بأبي أنت وأمي ما أوصلك وأحلمك وأكرمك! أما هذه ففي النفس منها شيء! فقال العباس له: ويلك! تشهد شهادة الحق قبل - والله - أن تضرب عنقك؛ قال: فتشهد.

فقال رسول الله للعباس حين تشهد أبو سفيان: انصرف يا عباس فأحبسه عند خطم الجبل بمضيق الوادي، حتى تمر عليه جنود الله؛ وعندما جلس يشاهد القبائل والكتائب وهي تدخل مكة، قال للعباس: يا أبا الفضل، لقد أصبح ملك ابن أهلك عظيماً. فقال له: ويحك إنها النبوة! فقال: نعم إذاً، فقال: الحق الآن بقومك فحذرهم؛ فخرج سريعاً حتى أتى مكة، فصرخ في المسجد: يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به! قالوا: فمه! فقال: من دخل داري فهو آمن، فقالوا: ويحك! وما تغني عنا دارك! وقامت إليه هند بنت عتبة فأخذت بشاربه فقالت: اقتلوا الحميث الدسم الأحمس، قبح من طليعة قوم، قال: ويلكم! لا تغرنكم هذه من أنفسكم؛ فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن.

ودخل رسول الله المسجد الحرام، وخطب فيهم فقال: "يا معشر قريش، ويا أهل مكة؛ ما ترون أني فاعل بكم؟" قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم. ثم قال: "أذهبوا فأنتم الطلقاء" فأعتقهم رسول الله، وقد كان الله أمكنه من رقابهم عنوة، وكانوا له فيئاً، فبذلك يسمى أهل مكة الطلقاء. ثم اجتمع الناس بمكة لبيعة رسول الله على الإسلام، فجلس لهم على الصفا، فبايعهم على السمع والطاعة لله ولرسوله.

ومن الواضح إن إسلام أبي سفيان وعامة قريش الذين لم يؤمنوا بالنبي حتى يوم الفتح، كان إسلاماً سياسياً أكثر مما كان عن عقيدة وإيمان، وقد عبر أبو سفيان نفسه عن ذلك عندما دعاه الرسول للإسلام ولشهادة أن محمداً رسول الله، فقال: إن في النفس منها شيء، ولكنه تشهد بها خوفاً من السيف، وكذلك فعلت

زوجته هند، التي قاومت حتى النفس الأخير ولكنها استسلمت في النهاية وقد انكشفت حقيقة اسلام الكثير من مسلمة الفتح، عند هزيمة المسلمين في الجولة الأولى من معركة حنين، فأظهر هؤلاء، ما في أنفسهم من الضغن، فقال أبو سفيان: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر! وصرخ كلدة بن الحنبل: ألا بطل السحر اليوم! وقال شيبه بن عثمان بن أبي طلحة: اليوم أدرك ثأري - وكان أبوه قتل يوم أحد - اليوم أقتل محمداً!.

ومن أبرز الذين أسلموا يوم الفتح، أو عادوا للاسلام، هو عبد الله بن سعد ابن أبي سرح، الذي أمر رسول الله بقتله ولو وجد متعلقاً بأستار الكعبة، لأنه كان قد أسلم من قبل، فارتد، قبيل الفتح بوقت قليل.

ومن الواضح أيضاً أن إسلام عبد الله للمرة الثانية، لم يكن عن قناعة، وإنما كان إسلاماً سياسياً عن خوف. إذ لم يكن الشك بالنبوة يرتفع من قلبه لمجرد الانتصار العسكري يوم فتح مكة. كما أن النبي لم يرحب بإسلامه كثيراً وتمنى على أصحابه لو قتلوه قبل أن يعفو عنه.

لقد كان إسلام قريش بصورة جماعية عند فتح مكة، دليلاً بارزاً على الاسلام السياسي، وان كان لعفو الرسول عنهم بعد سيطرته عليهم، دور كبير في تليين قلوبهم ودفعهم للإيمان برسالته، بحيث لم يعودوا بعد ذلك يسألون النبي إثبات نبوته بمعجزة أو آية تنزل عليه من السماء. أو تنزل الملائكة تأييداً له أو يحيي الموتى حتى تكلمهم، أو يفجر لهم ينبوعاً من الأرض، أو تكون له جنة من نخيل وعنب فيفجر الأنهار خلالها تفجيراً، أو يكون له بيت من زخرف أو يرقى في السماء، أو ينزل عليهم كتاباً يقرؤونه، أو يسقط السماء عليهم كسفاً، أو يأتي بالله والملائكة قبلاً. (كما كانوا يطلبون من قبل).

وبالرغم من أن الاسلام السياسي كان ينطوي على درجة عالية من النفاق وخطورة الردة، فإن الرسول كان يسعى إليه بل يفرضه على بعض القبائل من أجل أن يعلن هيمنة الاسلام بصورة رسمية على الجزيرة العربية.

ولقد أطلق إسلام قريش موجة كبيرة من الاسلام السياسي في الجزيرة العربية، ولا سيما لدى تلك القبائل التي كانت ترى في قريش زعيمة لها، فلما تهاوت تهاوت كل آمالها بالمقاومة والصمود، وسارعت لإعلان إسلامها أو استسلامها للنبي محمد.

وقبل أن تنطلق تلك الموجة، قامت قبيلتنا هوازن وثقيف الكبيرتين بشن هجوم كبير على النبي محمد بعد الفتح مباشرة، وذلك لأنهما ظنتا أن النبي كان يستهدفهما في مسيره نحو مكة، حيث أنه كتم هدفه النهائي وحاول مباغته قريش، فحسبت ثقيف وهوازن أن النبي كان يستهدفهما، فحشدتا قواتهما واتجهتا نحو مكة، وسددتا ضربة موجعة للمسلمين بالحاق هزيمة منكرة بهم في الجولة الأولى

من معركة حنين، قبل أن يعودوا ويلحقوا الهزيمة بقوات هوازن وثقيف. وأكمل انتصار المسلمين في حنين انتصارهم في مكة. وعندما توجه النبي لمحاصرة فلول ثقيف في الطائف، أسلم من حولهم من الناس كلهم؛ وجاءت رسول الله وفودهم؛ كما قدمت عليه وفود هوازن مسلمين، فأعتق أبناءهم ونساءهم كلهم، وكانت عدتهم ستة آلاف امرأة وطفل. فقال رسول الله لوفد هوازن، وسألهم عن زعيمهم مالك بن عوف: ما فعل؟ فقالوا: هو بالطائف مع ثقيف؛ فقال رسول الله: أخبروا مالكا أنه إن أتاني مسلماً رددت عليه أهله وماله، وأعطيته مائة من الإبل، فأتى مالك بذلك؛ فلحق برسول الله فرد عليه أهله وماله، وأعطاه مائة من الإبل، وأسلم. فأستعمله رسول الله على قومه وعلى من أسلم من تلك القبائل حول الطائف: ثماله وسلمة وفهم؛ فكان يقاتل بهم ثقيفاً.

وهذا ما عرض ثقيف الى ضغوط كبيرة، فقام زعيمهم عروة بن مسعود الثقفي باللحاق برسول الله ، حتى أدركه قبل أن يصل إلى المدينة، فأسلم؛ وسأله أن يرجع إلى قومه بالإسلام، فقال رسول الله: إنهم قاتلوك؛ وعرف رسول الله أن فيهم نخوة بلامتناع الذي كلن منهم، فخرج يدعو قومه إلى الإسلام، ورجل ألا يخالفوه لمنزله فيهم؛ فلما أشرف لهم على عليّة له وقد دعاهم إلى الإسلام، وأظهر لهم دينه، رموه بالنبل من كل وجه، فأصابه سهم فقتله.

ثم أقامت ثقيف بعد قتل عروة أشهراً، ثم إنهما اتتمروا بينهم ألا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب فبايعوا وأسلموا. وقال عمرو بن أمية - وكان من أدهى العرب: إنه قد نزل بنا أمر ليست معه هجرة، إنه قد كان من أمر هذا الرجل (النبي) ما قد رأيتم، وقد أسلمت العرب كلها، وليست لكم بحربهم طاقة، فأنظروا في أمركم. فعند ذلك اتتمرت ثقيف بينها، وقال بعضهم لبعض: ألا ترون أنه لا يأمن لكم سرب، ولا يخرج منكم أحد إلا أقتطع به! فائتمروا بينهم، وأجمعوا أن يرسلوا إلى رسول الله وفدا بزعامة عبد ياليل ابن عمرو بن عمير - وكان في سن عروة بن مسعود - ليقدّموا البيعة والإسلام، على أن يشرط لهم شروطاً، ويكتتبوا من رسول الله كتاباً في قومهم وبلادهم وأموالهم. وقد كان فيما سألو رسول الله أن يدع "الطاغية"؛ وهي اللات، لا يهدمها ثلاث سنين؛ فأبى رسول الله ذلك عليهم؛ فما برحوا يسألونه سنة سنة، فأبى عليهم حتى سألوه شهراً واحداً بعد مقدمهم؛ فأبى أن يدعها شيئاً يسمى؛ وإنما يريدون بذلك فيما يظهرون أن يسلموا بتركها من سفائهم ونسائهم وذراريهم، ويكرهون أن يروعوا قومهم بهدمها حتى يدخلهم الإسلام - فأبى رسول الله ذلك إلا أن يبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة ابن شعبة فيهدماها؛ وقد كانوا سألوه مع ترك الطاغية أن يعفيهم من الصلاة، وأن يكسروا أوثانهم بأيديهم؛ فقال رسول الله: أما كسر أوثانكم بأيديكم فسنعفيكم منه؛ وأما الصلاة فلا خير في دين لا صلاة فيه؛ فقالوا: يا

محمد، أما هذه فسنؤتيكها وإن كانت دناءة.

فلما خرجوا من عند رسول الله وتوجهوا إلى بلادهم راجعين، بعث رسول الله أبا سفيان بن حرب، والمغيرة بن شعبة في هدم "الطاغية"، فلما دخل المغيرة بن شعبة علاها يضربها بالمعول، فخرج نساء ثقيف حسرًا يبكين عليها.

ومن الملاحظ هنا بوضوح: أن إسلام عامة ثقيف كان إسلامًا ظاهريًا سياسيًا، من فوق، وتحت الضغط العسكري، مع انشداد إلى حب اللاة (الطاغية) وعدم الإيمان بالاسلام عن اقتناع في القلب.

إسلام وفد ثقيف

وأنزل رسول الله وفد ثقيف في المسجد وبنى لهم خياما لكي يسمعوا القرآن ويروا الناس إذا صلوا، وكان رسول الله إذا خطب لا يذكر نفسه، فلما سمعه وقد ثقيف، قالوا: يأمرنا أن نشهد أنه رسول الله، ولا يشهد به في خطبته، فلما بلغه عليه السلام قولهم قال: فاني أول من شهد أني رسول الله.

وكانوا يفدون إلى رسول الله ويخلفون عثمان بن العاص على رحالهم لأنه أصغرهم، فكان عثمان كلما رجع الوفد إليه وقالوا (أي ناموا في القيلولة) بالهجرة، عمد إلى رسول الله فسأله عن الدين واستقرأه القرآن، فاختلف إليه مرارا، حتى فقه في الدين، وكان إذا وجد رسول الله نائما عمد إلى أبي بكر، وكان يكتف ذلك عن أصحابه، فأعجب ذلك رسول الله وأحبه.

ومكث الوفد يخلفون إلى رسول الله وهو يدعوهم إلى الاسلام فأسلموا.

ثم رجع الوفد إلى ثقيف وخوفهم وعرض عليهم الاسلام فأسلموا مكانهم.

الوفود العربية

لقد كانت الوفود في السنة التاسعة من هجرة النبي (ص) ولذلك سمي العام التاسع عام الوفود. وذلك بعد أن عركتهم سرايا النبي وغزواته وأحسوا بأنه لا ملجأ من الله تعالى إلا إليه، وخصوصا أنهم رأوا أن قريشا قد أسلمت وسلمت للنبي، فرأوا أن يسالموا ولا يعاندوا، وخصوصا أن الاسلام أخذ يغزو قلوبهم، وفقدت الأصنام هيبتها التي تخيلوها لهم.

وكانت قريش هي التي نصبت لحرب رسول الله وخلافه، فلما افتتحت مكة

ودانت له قریش، ودوخها جيش الاسلام عرف العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله ولا عداوته، فدخلوا في دين الله أفواجا، كما قال تعالى، يضربون اليه من كل وجه.

إسلام عدي بن حاتم الطائي

بعد العودة من فتح مكة وحرب حنين، بدأ النبي في مد نفوذه الى شمال الجزيرة العربية، فوجه، في ربيع الآخر من السنة التاسعة للهجرة، علي بن أبي طالب، في سرية إلى بلاد طي، فهرب زعيمها عدي بن حاتم الى الشام، فأغار عليهم المسلمون وسبوا اخته في من سبوا من النساء، وكانت امرأة عجوزا، فلما أتوا بها الى المدينة طلبت من النبي أن يمن عليها، فأطلق سراحها، فتوجهت الى أخيها اللاجئ في الشام ودعته للاسلام.

وكان عدي بن حاتم يقول: "ما رجل من العرب كان أشد كراهية لرسول الله حين سمع به مني؛ أما أنا فكنت أمراً شريفاً، وكنت نصرانياً أسير في قومي بالمرباع، فكنت في نفسي على دين، وكنت ملكاً في قومي، لما كان يصنع بي، فلما سمعت برسول الله كرهته". ولكن موقف عدي تغير عندما التقى بأخته فسألها: ماذا ترين في أمر هذا الرجل؟ قالت: أرى والله أن تلحق به سريعاً، فإن يكن الرجل نبياً فالسابق إليه له فضيلة، وإن يكن ملكاً فلن تذلل في عز اليمن وأنت أنت! قال: والله إن هذا للرأي.

فخرج حتى أقدم على رسول الله المدينة، فدخل عليه وهو في مسجده فسلم عليه، فأنطلق رسول الله به إلى بيته، وفي الطريق استوقفت النبي امرأة ضعيفة كبيرة، فوقف لها طويلاً تكلمه في حاجتها. فقال عدي في نفسه: والله ما هذا بملك، ثم مضى رسول الله حتى دخل بيته، فتناول وسادة من أدم محشوة ليفاً، ففذفها إليه، فقال له: أجلس على هذه، فجلس عدي على الوسادة وجلس رسول الله بالأرض. فقال عدي في نفسه: والله ما هذا بأمر ملك، ثم قال:

• إيه يا عدي بن حاتم! ألم تك ركوسيا! قال: قلت:

• بلى، قال:

• أو لم تكن تسير في قومك بالمرباع! قال:

• بلى، قال:

• فإن ذلك لم يكن يحل لك في دينك، قال:

• أجل والله - وعرفت أنه نبي مرسل يعلم ما جهل - قال: ثم قال:

• لعله يا عدي بن حاتم؛ إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم! فو الله ليوشكن المال يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه؛ ولعله إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم؛ فو الله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بغيرها حتى تزور هذا البيت، لا تخاف إلا الله؛ ولعله إنما يمنعك من الدخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم، وإيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت. ثم قال له: يا عدي بن حاتم، ما أفرك أن يقال لا إله إلا الله! فهل من إله إلا الله! وما أفرك أن يقال الله أكبر! فهل من شيء هو أكبر من الله! فأسلم عدي بن حاتم.

فكان يقول: مضت الثنتان وبقيت الثالثة، والله لتكونن قد رأيت القصور البيض من أرض بابل قد فتحت، ورأيت المرأة تخرج من القادسية على بغيرها لا تخاف شيئاً حتى تحج هذا البيت. وإيم الله لتكونن الثالثة ليفيطن المال حتى لا يوجد من يأخذه.

هذه قصة إسلام عدي بن حاتم الطائي كما يقدمها الطبري والمؤرخون المسلمون، وبغض النظر عن المناقشة في سند هذه القصة وبعض تفاصيلها الجزئية، فإنها تحمل في طياتها دوافع الإسلام السياسي أكثر مما تحمل من عناصر الاقتناع العقدي، وتحاول أن تقدم أيضاً عنصر علم النبي بالغيب كسبب من أسباب الإسلام، رغم أن الموضوع (تعامل عدي بالمرباع) ليس أمراً سريراً جداً يدل الإخبار به على علم بالغيب، وبالتالي على النبوة. وتقول القصة إن عدي كان ملكاً في قومه، وكان من الطبيعي أن يكره النبي الذي ظن أنه ينافسه على الملك، واضطره للهرب إلى الشام، وسبى أخته ونساء من قومه، مما أشعره بمرارة الهزيمة. وهنا جاءت أخته لتعرض عليه الالتحاق بالنبي من أجل استعادة العزة المفقودة: "أرى والله أن تلحق به سريعاً، فإن يكن الرجل نبياً فالسابق إليه له فضيلة، وإن يكن ملكاً فلن تدل في عز اليمن وأنت أنت!".

وهذا ما دفع عدي لتقبل هذا الرأي، والقدم على النبي في المدينة، حيث شاهد هناك بأعينه بساطة النبي وحله لمشاكل الناس وجلوسه على الأرض، فأدرك أنه ليس بملك.

وعندما أخبره النبي عن تعامله بالمرباع (ضريبة الربع؟) عرف عدي أنه نبي مرسل يعلم ما جهل. وحسبما تقول الرواية فإن عدي لم يسأل عن دليل النبوة، وأن النبي لم يقرأ عليه شيئاً من القرآن، وإنما حاول إزالة مخاوفه الأمنية

والسياسية والاقتصادية، وقال له: لعله يا عدي بن حاتم؛ إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم! فو الله ليوشكن المال يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه؛ ولعله إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم؛ فو الله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بغيرها حتى تزور هذا البيت، لا تخاف إلا الله؛ ولعله إنما يمنعك من الدخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم، وأيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بلبل قد فتحت. ثم قلل له: يا عدي بن حاتم، ما أفرك (؟) أن يقال لا إله إلا الله! فهل من إله إلا الله! وما أفرك أن يقال الله أكبر! فهل من شيء هو أكبر من الله! وهذا أمر- لم يكن عدي يخالفه أو ينكره، فلأسلم ببساطة وسرعة. ولا نعرف كيف كان إسلامه في الواقع؟ وهل كان إسلاماً سياسياً؟ أم إيمانياً؟ ولكن كما يبدو من القصة انه كان أقرب الى الاسلام السياسي منه الى الإيمان. والله أعلم.

وبعدما أسلم عدي بن حاتم ملك طي، قدم وفد عظيم من بني تميم، فلما دخلوا المسجد، نادوا رسول الله من وراء الحجرات: أن أخرج إلينا يا محمد. فأذى ذلك من صياحهم رسول الله؛ فخرج إليهم، فقالوا: يا محمد، جنناك لنفاخر، فأذن لشاعرنا وخطيبنا، قال: نعم، أذنت لخطيبكم فليقل. فقام إليه عطار بن حاجب، فقال: الحمد لله الذي له علينا الفضل وهو أهلنا، الذي جعلنا ملوكاً، ووهب لنا أموالاً عظيماً نفعل فيها المعروف، وجعلنا أعز أهل المشرق وأكثره عددًا، وأيسره عدة، فمن مثلنا في الناس! ألسنا برؤوس الناس وأولى فضلهم! فمن يفاخرنا فليعدد مثل ما عددنا؛ وإنا لو نشاء لأكثرنا الكلام؛ ولكننا نحيا من الإكثار فيما أعطانا؛ وإنا نعرف. أقول هذا الآن لتأتونا بمثل قولنا، وأمر أفضل من أمرنا، ثم جلس.

فقال رسول الله لثابت بن قيس : قم فأجب الرجل في خطبته.

فقام ثابت، فقال: الحمد لله الذي السموات والأرض خلقه، قضى فيهن أمره، ووسع كرسيه علمه، ولم يك شيء قط إلا من فضله. ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكاً وأصطفى من خير خلقه رسولا أكرمهم نسباً، وأصدقهم حديثاً، وأفضلهم حسباً، فأنزل عليه كتابه، وائتمنه على خلقه؛ فكان خيرة الله من العالمين، ثم دعا الناس إلى الإيمان، فأمن برسول الله المهاجرون من قومه وذوي رحمة؛ أكرم الناس أنساباً، وأحسن الناس وجوهاً؛ وخير الناس فعلاً؛ ثم كان أول الخلق إجابة - وأستجاب لله حين دعا رسول الله - نحن؛ فنحن أنصار الله ووزراء رسوله، نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله، فمن آمن بالله ورسوله منع ماله ودمه، ومن كفر جاهدناه في الله أبداً، وكان قتله علينا يسيراً، أقول قولتي هذا وأستغفر الله للمؤمنين

وللمؤمنات؛ والسلام عليكم.

قالوا: يا محمد، ائذن لشاعرنا، فقال: نعم، فقام الزبيرقان بن بدر فألقى أبياتاً من الشعر، وأجابه حسان بن ثابت بأبيات أخرى، فلما فرغ حسان من قوله، قال الأقرع بن حابس: وأبي إن هذا الرجل لمؤتى له! لخطيبه أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، وأصواتهم أعلى من أصواتنا. ثم أسلموا دون أن يسألوا عن دليل على النبوة أو يطلبوا معجزة، فكان إسلامهم أقرب إلى الإسلام السياسي.

وما يؤيد ذلك ما يرويه الطبري في تفسيره عن زيد بن أرقم: جاء أناس من العرب إلى النبي فقال بعضهم لبعض: انطلقوا بنا إلى هذا الرجل، فإن يكن نبياً فنحن أسعد الناس به، وإن يكن ملكاً نعش في جناحه.. ثم جاءوا إلى حجر النبي فجعلوا ينادونه: يا محمد، فأنزل الله:

• " إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون، ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم، والله غفور رحيم". (الحجرات، 4 - 5)

وجاء أعراب من بني أسد فأسلموا، وأخذوا يمتنون على النبي إسلامهم، فقالوا: أسلمنا ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان، فأنزل الله فيهم:

• "قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا، ولكن قولوا: أسلمنا، ولما يدخل الإيمان في قلوبكم، وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً، إن الله غفور رحيم، إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله، ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، أولئك هم الصادقون، قل أتعلمون الله بدينكم، والله يعلم ما في السموات وما في الأرض، والله بكل شيء عليم، يمتنون عليك أن أسلموا، قل: لا تمنوا علي إسلامكم، بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين". (الحجرات، 14 - 17)

وهذه الآيات صريحة بنفي الإيمان عن بعض الأعراب الذين أعلنوا إسلامهم طمعا أو خوفاً، كما يقول سعيد بن جبیر: استسلموا خوف السباء والقتل.

وفي إطار استراتيجية الأسلمة بالقوة يمكن أن نقرأ قصة فرات بن حيان العجلي، الذي كان يرافق قافلة قريش على طريق نجد نحو الشام، في السنة الثالثة من الهجرة، وأخذ أسيراً، في غزوة القردة، فقيل له: إن أسلمت لم يقتلك

رسول الله، فلما دعا به رسول الله أسلم، فأرسله.

ولئن كانت هذه حالة فردية، فان قبائل منطقة دومة الجندل في شمال الجزيرة العربية، أعلنت اسلامها بصورة جماعية، بعد أن وصلتها سرية بقيادة عبد الرحمن بن عوف ؛ بعثها النبي بعد عودته من صلح الحديبية في العام السادس للهجرة، ولكنهم لم يلبثوا أن ارتدوا وعادوا للكفر، ثم أسلموا ثم عادوا للكفر، ثم أسلموا..

ولا يذكر الطبري والمؤرخون كم كان عدد سكان دومة الجندل، وكيف أسلموا، ولماذا؟ وهل أسلموا جميعهم وعن قناعة فكرية فورية؟ أم خوفا من السيف؟ وهل كان إسلامهم عن عقيدة وإيمان؟ أم إسلاما سياسيا ظاهريا؟ ولكن تكرار غزو المسلمين لدومة الجندل أربع مرات وارتداد أهلها، ينبئ عن إسلامهم في الظاهر فقط وتحت ظلال السيف.

قدوم رسول ملوك حمير على رسول الله بكتابهم

وما أن عاد النبي محمد من غزوة تبوك، حتى جاءته في رمضان (من السنة التاسعة) أخبار سارة عن إسلام ملوك حمير: الحارث بن عبد كلال، ونعيم ابن عبد كلال، والنعمان قيل ذي رعين وهمدان ومعافر، وزرعة ذو يزن، ومفارقتهم الشرك وأهله، واستمرت الوفود تتوالى بإسلام من وراءها، فقدم وفد بهراء ، ووفد بني البكاء ووفد بني فزارة، ووفد ثعلبة بن منقذ.

ومن أطرف الوفود التي وفدت على النبي في تلك السنة وفد بني سعد بن بكر: ضمام بن ثعلبة ، الذي قدم على رسول الله ؛ فأناخ بعيه على باب المسجد ثم عقله، ثم دخل المسجد ورسول الله جالس في أصحابه، فقال:

- أيكم ابن عبد المطلب؟ قال رسول الله:
- أنا ابن عبد المطلب، قال:
- محمد؟ قال:
- نعم، قال:
- يا بن عبد المطلب، إني سائلك ومغظ لك في المسألة، فلا تجدن في نفسك! قال:

- لا أجد في نفسي، فسل عما بدا لك، قال:
- أنشدك بالله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك، الله بعثك إلينا رسولاً؟ قال:
- اللهم نعم، قال:
- فأنشدك بالله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك، الله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده، ولا نشرك به شيئاً، وأن نخلع هذه الأنداد التي كانت أبأونا تعبد من دونه؟ قال:
- اللهم نعم، قال:
- فأنشدك بالله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك، الله أمرك أن تأمرنا أن نصلي هذه الصلوات الخمس؟ قال:
- اللهم نعم.

قال: ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضة فريضة؛ الزكاة، والصيام، والحج، وشرائع الإسلام كلها، يناشده عن كل فريضة كما ناشده في التي قبلها، حتى إذا فرغ قال: فإني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً رسول الله، وسأؤدي هذه الفرائض وأجتنب ما نهيتني عنه، ثم لا أنقص ولا أزيد. ثم انصرف إلى بعيه راجعاً. فقال رسول الله حين ولي: إن صدق ذو العقيصتين يدخل الجنة.

قال: فأتى بعيه فأطلق عقاله، ثم خرج حتى قدم على قومه، فاجتمعوا إليه، فكان أول ما تكلم به أن قال: باست اللات والعزي! قالوا: مه يا ضمام! أتق البرص، اتق الجذام، اتق الجنون! قال: ويحكم، إنهما والله لا ينفعان ولا يضران؛ إن الله قد بعث رسولاً، وأنزل عليه كتاباً، استتقذكم به مما كنتم فيه؛ وإني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ وأن محمداً عبده ورسوله، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه.

قل ابن عباس: فو- الله ما- أمسى- ذلك اليوم في- حضره رجل- ولا امرأة إلا مسلماً. فما سمعنا بوفاد قوم كان أفضل من ضمام بن ثعلبة.

إن إسلام ضمامة ثم قومه بني سعد، بهذه الطريقة وبهذه السرعة، اعتماداً على الثقة بأقوال رسول الله، ومن دون طرح أي سؤال من أسئلة مشركي مكة الذين أزعجوا النبي بأسئلتهم التعجيزية عن الآيات والمعاجز، يبين لنا أمرين: إما أن

إسلام الأعراب (والبدو خصوصاً) كان يتم بطريقة بسيطة غير فلسفية، أو أن إسلامهم كان إسلاماً سياسياً سطحياً، خوفاً وطمعاً، ولا سيما أنه جاء بعد انتصار النبي في عموم الجزيرة العربية، وخضوع الملوك العرب في أطرافها المختلفة له.

قدوم وفد الأزدي

وعندما قدم وفد الأزدي، برئاسة سرد بن عبد الله الأزدي وأعلن إسلامه، أمره رسول الله على من أسلم من قومه، وأمره أن يجاهد بمن أسلم من أهل بيته المشركين من قبائل اليمن، فخرج سرد يسير بأمر رسول الله في جيش حتى نزل بجرش؛ وهي يومئذ مدينة مغلقة، وفيها قبائل اليمن، وقد ضوت إليهم خثعم، فدخلوا معهم حين سمعوا بمسير المسلمين، فحاصروهم بها قريباً من شهر، فقتلهم قتلاً؛ ثم خرج وفد جرش حتى قدموا على رسول الله فأسلموا.

وهنا.. نجد أنفسنا أمام عملية إسلام جماعية من أهل جرش في اليمن، بعد رفضهم الإسلام، وإصابة الكثير منهم على يد سرد بن عبد الله الأزدي، ثم إسلامهم بسبب إخبار النبي لوفدهم خبراً غيبياً، وهو ما يدفعنا إلى التشكيك بهذه الرواية، وترجيح احتمال إسلامهم بسبب الشعور بالهزيمة العسكرية والنفسية، وإعلانهم الإسلام بصورة سياسية ظاهرية.

وحدث نفس الشيء مع قبيلة أخرى في اليمن، هي قبيلة همدان، حيث بعث إليها رسول الله خالد بن الوليد، فقام يدعوهم إلى الإسلام ستة أشهر لا يجيبونه إلى شيء، فبعث النبي علي بن أبي طالب، فلما انتهوا إلى أوائل اليمن، بلغ القوم الخبر، فجمعوا له، فصلى علي الفجر، ثم صف المسلمين صفاً واحداً، ثم تقدم إلى همدان، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قرأ عليهم كتاب رسول الله، فأسلمت همدان كلها في يوم واحد، وكتب بذلك إلى رسول الله، فلما قرأ كتابه خر ساجداً، ثم جلس، فقال: السلام على همدان، السلام على همدان! ثم تتابع أهل اليمن على الإسلام.

وتبدو الانتهازية والمصالح السياسية وراء إسلام أحد زعماء اليمن وهو عمرو بن معد يكرب، الذي قال لقيس بن مكشوح المرادي: يا قيس؛ إنك سيد قومك اليوم؛ وقد ذكر لنا أن رجلاً من قريش يقال له محمد قد خرج بالحجاز يقول، إني نبي؛ فلنطلق بنا إليه حتى نعلم علمه؛ فإن كلن نبياً كما يقول؛ فإنه لا يخفى عليك. إذا لقيناه اتبعناه؛ وإن كان غير ذلك علمنا علمه، فأبى عليه ذلك لقيس بن مكشوح وسفه رأيه. فركب عمرو حتى قدم على رسول الله فصدقه وأمن به؛ فلما توفي رسول الله ارتد عمرو، وهو ما كشف عن أن إسلامه لم يكن

عن إيمان و يقين، وانما كان إسلاما سياسيا .

ولا يعني ذلك أن إسلام جميع الناس في ذلك الوقت كان إسلاما سياسيا ظاهريا، بل نجد أمثلة كثيرة على إسلام الناس عن إيمان، ولكن قد نجد أيضا أن عملية الإسلام كانت تقوم على أسس بسيطة، ولا تشترط على النبي أن يأتيها بمعجز أو آية من السماء، كإثبات على صحة رسالته، وربما كان إسلامهم تحت الضغط النفسي والإعلامي،

إسلام مسيلمة الكذاب وبني حنيفة

ومن أبرز الأمثلة على الإسلام السياسي، هو موقف ملك اليمامة هوزة بن علي الذي رفض دعوة النبي له للإسلام، إلا أن يكون له الأمر من بعده، مما يعني أنه كان مستعدا للإسلام السياسي بشرط تحقيق بعض المصالح السياسية، ولم يسلم قومه بنو حنيفة إلا بعد وفاته بسنتين (وكان قد توفي بعد فتح مكة) وذلك بعد أن أسلم الناس من حولهم، فجاءوا إلى المدينة وأعلنوا إسلامهم، وكان من بينهم زعيم لهم يسمى (مسلمة بن حبيب الحنفي) وقد طلب هذا أن يكون له أيضا الأمر من بعد النبي، فقال رسول الله: **لو سألتني هذا العسيب لما أعطيته**. فلما انتهى إلى اليمامة ارتد وتنبا وتكذب لهم، وقال: **إني قد أشركت في الأمر معه، وقال لوفده: ألم يقل لكم رسول الله حيث ذكرتموني: "أما إنه ليس بشركم مكانا"!** ما ذلك إلا لما كان يعلم أني قد أشركت معه؛ ثم جعل يسجع السجعات، ويقول لهم فيما يقول مضاهاة للقرآن. فشهد لرسول الله أنه نبي، وكتب إلى رسول الله: **"من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله. سلام عليك؛ فإني قد أشركت في الأمر معك؛ وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض، ولكن قریشا قوم يعتدون"**. وارتد معه أكثر قومه بني حنيفة.

وهو ما يدل على أن إسلام بني حنيفة كان إسلاما سياسيا ظاهريا، وليس عن عقيدة وإيمان، ولا يقوم على أدلة مقنعة، كما أن إيمانهم بمسيلمة كان عن عصبية وبدوافع سياسية من أجل اقتسام الأرض بينهم وبين قریش.

لقد كانت الوفود في السنة التاسعة من هجرة النبي (ص) ولذلك سمي العام التاسع علم الوفود. **"وذلك بعد أن عرکتهم سرايل النبي وغزواته وأحسوا بأنه لا ملجأ من الله تعالى إلا إليه، وخصوصا أنهم رأوا أن قریشا قد أسلمت وسلمت للنبي، فرأوا أن يسالموا ولا يعاندوا، وخصوصا أن الإسلام أخذ يغزو قلوبهم، وفقدت الأصنام هيبتها التي تخيلوها لهم"** كما يقول محمد أبو زهرة.

وكانت قریش هي التي نصبت لحرب رسول الله وخلافه، فلما افتتحت مكة

ودانت له قريش، ودوخها جيش الاسلام عرف العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله ولا عداوته، فدخلوا في دين الله أفواجا، كما قال تعالى، يضربون اليه من كل وجه.

إعلان البراءة من المشركين

وفي نهاية السنة التاسعة من الهجرة، لم يكن قد بقي من المشركين، في الجزيرة العربية، الا القليل، فأعلن النبي المهلة لهم والبراءة منهم، في حج تلك السنة، ونزلت سورة براءة وفيها:

• "براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين، فسيحوا في الأرض أربعة أشهر، واعلموا أنكم غير معجزي الله، والله مخزي الكافرين، وأذان من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الأكبر: أن الله برئ من المشركين، ورسوله، فان تبتم فهو خير لكم، وان توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله، وبشر الذين كفروا بعذاب أليم، الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا، ولم يظاهروا عليكم أحدا، فأتوا اليهم عهدهم الى مدتهم، إن الله يحب المتقين، فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم، وخذوهم، واحصروهم، واقعدوا لهم كل مرصد، فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم، إن الله غفور رحيم ... قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين، ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء، والله عليم حكيم". (التوبة، 1- 15)

ولما نزلت هذه الآيات بعث بهن رسول الله مع أبي بكر، وأمره على الحج، فلما سار فبلغ الشجرة من ذي الحليفة أتبعه بعلي، فأخذها منه؛ فسار أبو بكر على الحج، وسار على يؤذن ببراءة، فقام يوم الأضحى فأذن فقال: لا يقربن المسجد الحرام مشرك بعد عامه هذا، ولا يطوفن بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين رسول الله عهد فله عهده إلى مدته، وإن هذه أيام أكل وشرب، وإن الله لا يدخل الجنة إلا من كان مسلما. فقالوا: نحن نبرأ من عهدك وعهد ابن عمك إلا من الطعن والضرب. فرجع المشركون فلام بعضهم بعضا، وقالوا: ما تصنعون وقد أسلمت قريش! فأسلموا.

ومن الواضح أن المشركين حاولوا المقاومة في البداية، ولكنهم أصيبوا بانهايار نفسي فأعلنوا إسلامهم. وكان إسلاما سياسيا، وليس عن عقيدة وإيمان، كمن

سبقهم من الأعراب والمنافقين.

سرية خالد بن الوليد إلى بني الحارث بن كعب وإسلامهم

واصل الرسول محمد في السنة العاشرة، مهمة نشر الإسلام في ما تبقى من الجزيرة العربية، سواء بالدعوة السلمية أو السيف، من أجل القضاء على معقل الشرك، فبعث رسول الله، خالد بن الوليد، إلى بني الحارث بن كعب بنجران، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثاً، فإن استجابوا لك فاقبل منهم، وأقم فيهم، وعلمهم كتاب الله وسنة نبيه، ومعالم الإسلام، فإن لم يفعلوا فقاتلهم.

فخرج خالد حتى قدم عليهم، فبعث الركبان يضربون في كل وجه، ويدعون الناس إلى الإسلام، ويقولون: يا أيها الناس أسلموا تسلموا. فأسلم الناس، ودخلوا فيما دعاهم إليه، فأقام خالد فيهم؛ يعلمهم الإسلام وكتاب الله وسنة نبيه. ثم أقبل خالد بن الوليد إلى رسول الله، وأقبل معه وفد بلحارث بن كعب؛ فيهم قيس بن الحصين بن يزيد بن قنان ذي الغصة، ويزيد بن عبد المدان، ويزيد بن المحجل، وعبد الله بن قريظ الزيادي؛ وشداد بن عبد الله القناني، وعمرو بن عبد الله الضبابي. فلما رآهم رسول الله قال: من هؤلاء القوم الذين كأنهم رجال الهند؟ قيل: يا رسول الله، هؤلاء بنو الحارث بن كعب؛ فلما وقفوا عند رسول الله سلموا عليه، فقالوا: نشهد أنك رسول الله، وأن لا إله إلا الله، فقال رسول الله: وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله. ثم قال رسول الله: لو أن خالد بن الوليد لم يكتب إلى فيكم أنكم أسلمتم ولم تقاتلوا لألقيت رءوسكم تحت أقدامكم.

ماذا يعني إسلام الملوك؟

ويمكننا ملاحظة استراتيجية القوة في الدعوة للإسلام السياسي، في لهجة النبي في رسائله إلى ملوك العرب والعجم في أطراف الجزيرة العربية والروم ومصر وفارس، التي كان يدعوهم فيها إلى الإسلام، حيث يقول لكل واحد منهم:

• "أسلم تسلم".

ولم تكن تلك الرسائل تتضمن أية استدلالات على صحة نبوته، وإنما كانت تعبر عن منطق القوة، ولذلك فقد رفضها الملوك الذين كانوا يشعرون بقوة، وربما غضب منها بعضهم ككسرى والحارث الغساني، كما رفضها ملك اليمامة

هوذة بن علي.

ويبدو الدافع السياسي واضحا جدا في جواب ملك اليمامة هوذة بن علي، الذي حاول مساومة الرسول على الاسلام في مقابل تأمين سلطته السياسية: "اجعل الي بعض الأمر أتبعك". وقوله لأركون الكاهن النصراني الذي سأله عن سبب عدم الاستجابة للاسلام: "أنا ملك قومي، وإن اتبعته لم أملك".

ويقال ان هوذة رفض الإسلام، بالرغم من أن ذلك الكاهن دعاه الى الإسلام وأخبره: "بأن محمدا هو النبي العربي الذي بشر به عيسى ابن مريم، وإنه لمكتوب عندنا في الانجيل: محمد رسول الله". كما تقول بعض المصادر التاريخية الإسلامية.(بالرغم من تحفظنا على هذه الرواية التي لا توجد الا في المصادر الإسلامية، التي لا تخبرنا فيما إذا أسلم ذلك الكاهن؟ أم لا؟)

ولا نعرف بالتفصيل كيف ولماذا آمن ملك البحرين المنذر بن ساوي التميمي، ولا ملكا عمان جيفر ابن الجندبي وأخوه عباد، وهم كما يبدو قد آمنوا بصدق، على العكس من بعض ملوك اليمن الذين ارتدوا فيما بعد، وظهر أن إسلامهم لم يكن حقيقيا وعن إيمان، وانما كان إسلاما سياسيا.

ورغم تأثير ملوك البحرين و عمان على نسبة من شعوبهم، فانهم لم يستطيعوا نشر الاسلام بصورة واسعة، حيث بقي كثير منهم على ديانتهم المسيحية أو المجوسية، وأعلنوا الردة، بعد وفاة الرسول.

وأما النجاشي ملك الحبشة، فقصة إسلامه معروفة كما يرويها المؤرخون المسلمون، وهي استماعه الى بعض سور القرآن وخاصة سورة مريم، وإدراكه مطابقة التعليمات والرؤى الإسلامية مع التعليمات المسيحية، وتصديقه بأن محمدا رسول من عند الله، كما قال في جوابه لرسالة النبي: " فورب السماء والأرض إن عيسى ما يزيد على ما ذكرت ثفروقا؛ إنه كما قلت؛ وقد عرفت ما بعثت به إلينا؛ فأشهد أنك رسول الله صادقا مصدقا". ولا يبدو أنه نظر الى جانب إعجازي لغوي أو بلاغي في القرآن بقدر ما نظر الى الفحوى والمضمون. وقد آمن بأن كلام النبي ليس من عنده وانما "ينزل عليه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى" كما قال لعمر بن العاص.

الفصل الثالث: نشوء ظاهرة النفاق في المجتمع المسلم

نتجت عن سياسة الأسلمة السياسية، ظاهرة النفاق في المجتمع الإسلامي. وقد تحدث القرآن عن تلك الظاهرة في بداية سورة البقرة، أي في بداية مجيء النبي الى المدينة، فقال:

• "ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر، وما هم بمؤمنين، يخادعون الله والذين آمنوا، وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون، في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا، ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون، وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض، قالوا: إنما نحن مصلحون، ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون، وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس، قالوا: أنؤمن كما آمن السفهاء؟ ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون، وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا، وغدا خلوا الى شياطينهم، قالوا: إنا معكم، إنما نحن مستهزئون، الله يستهزئ بهم، ويمدهم في طغيانهم يعمهون، أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى، فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين، مثلهم كمثل الذي استوقد نارا، فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم، وتركهم في ظلمات لا يبصرون، صم بكم عمي فهم لا يرجعون، أو كصيب من السماء فيه رعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت، والله محيط بالكافرين، يكاد البرق يخطف أبصارهم، كلما أضاء لهم مشوا فيه، وإذا أظلم عليهم قاموا، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم، إن الله على كل شيء قدير". (البقرة، 8-20)

وتحدث القرآن عن المنافقين في آية أخرى نزلت في أوائل عهد النبي في المدينة، وهي:

• "يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم". (المائدة، 42)

واستمر القرآن يتحدث عن النفاق والمنافقين طيلة السنوات العشر التي قضاها رسول الله في المدينة، وقال له:

• "وممن حولكم من الأعراب منافقون، ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم، نحن نعلمهم، سنعذبهم مرتين، ثم يردون الى عذاب عظيم". (التوبة، 101) حتى أنزل سورة كاملة هي سورة "المنافقون".

وربما يسأل سائل هنا: لماذا لم يمحص النبي المؤمنين من المنافقين، ولم يميز بينهم؟ ولماذا لم يعتمد على المؤمنين فقط؟ والجواب علمه عند الله، ولكننا نحتمل: أن استراتيجية بناء الدولة كانت تقتضي الاستعانة بالمنافقين لدعم المؤمنين،

والاستفادة منهم في الحروب، على أمل ترسخ الإيمان في قلوبهم في المستقبل.

وسوف نقوم في الصفحات القادمة باستعراض أبرز مظاهر النفاق والمنافقين، في أثناء حياة الرسول في المدينة، وهي مظاهر نسبية وبعضها ثابت فيما بعضها الآخر مؤقت وعارض كان ينتاب حتى أوائل المهاجرين والأنصار.

النفاق في معركة بدر

وقد ظهرت أولى بوادر أو علامات النفاق عند المسلمين، في أثناء معركة بدر، في السابع عشر من شهر رمضان، من السنة الثانية للهجرة. حيث ارتد نفر ممن كان قد تكلم بالإسلام من مشركي قريش ولم يستحکم الإسلام في قلوبهم، وهم أبو قيس بن الوليد بن المغيرة، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة، والحارث بن زمعة بن الأسود بن المطلب، وعلي بن أمية بن خلف، والعاصي بن منبه بن الحجاج، فخرجوا مع المشركين يوم بدر، وهم على الارتياب، فحبسهم ارتيابهم، فلما رأوا قلة المسلمين قالوا: "غرّ هؤلاء دينهم". (الأنفال، ٤٩) كما يقول الطبري في تفسيره، وهو ما أكده البغوي في تفسيره أيضا، وقال: هؤلاء قوم كانوا مستضعفين بمكة قد أسلموا، وحبسهم أقرباؤهم من الهجرة، فلما خرجت قريش إلى بدر، أخرجوهم كرها، فلما نظروا إلى قلة المسلمين ارتابوا وارتدوا، وقالوا: "غرّ هؤلاء دينهم" فقتلوا جميعا. وهو ما تتحدث عنه الآية رقم 49 من سورة الأنفال:

• "إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض: غرّ هؤلاء دينهم".

والى جانب أولئك المرتدين، تردد بعض المؤمنين الذين كانوا مع النبي، في القتال، لأنهم إنما خرجوا لاعتراض عير قريش والحصول على الغنائم ففوجئوا بجيش قريش، كما تحكي هذه الآيات:

• "كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون، يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون، وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم، ويريد الله أن يحق الحق بكلماته، ويقطع دابر الكافرين". (الأنفال، 5 - 7)

ورغم أن أصحاب بدر كانوا في قمة الإيمان، ومن خيرة المسلمين من المهاجرين والأنصار، إلا أنهم ما أن انتهت المعركة، حتى اختلفوا حول الغنائم، فمنهم من جمع الغنائم من المعسكر، ومنهم من كان يتعقب المشركين، ومنهم من كان يحرس رسول الله، فقال الفريق الأول الذي جمع الغنائم: هو لنا؛ قد كان

رسول الله نفل كل امرئ ما أصاب. وقال الذين كانوا يقاتلون العدو ويطلبونهم: لولا نحن ما أصبتموه، لنحن شغلنا القوم عنكم حتى أصبتم ما أصبتم. وقال الذين يحرسون رسول الله: والله ما أنتم بأحق به منا؛ لقد رأينا أن نقتل العدو إذ ولانا الله، ومنحنا أكتافهم؛ ولقد رأينا أن نأخذ المتاع حين لم يكن دونه من يمنعه؛ ولكن خفنا على رسول الله كرة العدو، فقمنا دونه؛ فما أنتم بأحق به منا.

وفي ذلك نزلت بداية سورة الأنفال:

• "يسألونك عن الأنفال، قل: الأنفال لله والرسول، فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم، وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين". (الأنفال، 1)

ثم قام الرسول بتوزيع الغنائم على الجميع بالتساوي، بعد إخراج الخمس، ونزلت هذه الآية:

• "واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين، وابن السبيل، إن كنتم آمنتم بالله، وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان، والله على كل شيء قدير". (الأنفال، 41)

وعن أبي أمامة الباهلي، قال: سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال، فقال: فينا معشر أصحاب بدر نزلت؛ حين اختلفنا في النفل، وساءت فيه أخلاقنا، فنزعه الله من أيدينا، فجعله إلى رسوله، فقسمه رسول الله بين المسلمين عن بواء - يقول على السواء - فكان في ذلك تقوى الله، وطاعة رسوله، وصلاح ذات البين.

ولم يكن الخلاف حول الغنائم هو الأسوأ فيما حدث بين المسلمين، فقد كاد أحدهم يزيغ عن الإيمان ويرتكس في النفاق، وهو أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، الذي قتل أبوه وأخوه المشركان في المعركة. وذلك عندما قال رسول الله لأصحابه يومئذ:

• "إني قد عرفت أن رجلاً من بني هلشم وغيرهم قد أخرجوا كرهًا، لا حاجة لهم لقتالنا، فمن لقي منكم أحدًا من بني هاشم فلا يقتله، ومن لقي أبا البخترى بن هشام بن الحارث بن أسد فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبد المطلب فلا يقتله؛ فإنه إنما أخرج مستكرهًا". فقال أبو حذيفة:

• أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشيرتنا، ونترك العباس! والله لئن لقيته لألحمه السيف. فبلغت رسول الله، فجعل يقول لعمر بن الخطاب:

• يا أبا حفص، أما تسمع إلى قول أبي حذيفة، يقول: أضرب وجه عم

رسول الله بالسيف! فقال عمر:

- يا رسول الله، دعني فلاضربن عنقه بالسيف؛ فو الله لقد نافق.
فكان أبو حذيفة يقول: ما أنا بأمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذ، ولا أزل منها خائفاً إلا أن تكفرها عني الشهادة فقتل يوم اليمامة شهيداً.
وكان موقف عامة الصحابة بما فيهم النبي من أسرى بدر، ما عدا عمر بن الخطاب وسعد بن معاذ، وتفضيلهم أخذ الفداء منهم بدل قتلهم، رافة بهم وطمعا في أموالهم، حيث قال رسول الله:

• "أنتم اليوم عالة فلا يفلتن منهم أحدٌ إلا بفداء أو ضرب عنق".

كان ذلك الموقف سببا لنزول هذه الآية الناقدة والمعاتبية للنبي:

- "ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض، تريدون عرض الدنيا، والله يريد الآخرة، والله عزيز حكيم، لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذابٌ عظيمٌ". (الأنفال، 67-68)

فقال رسول الله:

- لو نزل عذابٌ من السماء لم ينج منه إلا سعد بن معاذ، لقوله: يا نبي الله، كان الإثخان في القتل أحب إلي من استبقاء الرجال.

وفي هذا يقول عمر: لما كان الغد غدوت إلى النبي وهو قاعدٌ وأبو بكر، وإذا هما يبكيان، قال: قلت: يا رسول الله أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاءً بكيت، وإن لم أجد تباكيت لبكائكما. فقال رسول الله: للذي عرض علي أصحابك من الفداء.

النفاق في غزوة بني قينقاع

وإذا كان التردد والردة والنفاق قد ظهر في صفوف أصحاب بدر، فقد كان من المتوقع أن يظهر في بعض المسلمين حديثا ممن لم يشارك في بدر، ولا سيما في زعيم الخزرج عبد الله بن أبي بن سلول، الذي كان يعد نفسه ليصبح ملكا على المدينة قبل أن يهاجر إليها الرسول، فشرع بلن الرسول قد سلبه ملكه، وكننت لا تزال لديه علاقات قوية مع حلفائه من اليهود.

وقد تجلت حقيقة إيمانه في موقفه المعارض لقرار الرسول إعدام أسرى يهود بني قينقاع، بعد أن ذهب الرسول إليهم، في أعقاب معركة بدر، في شوال من

السنة الثانية للهجرة، وجمعهم في السوق ثم قال:

- " يا معشر اليهود، احذروا من الله عز وجل مثل ما نزل بقريش من النعمة (في بدر)، وأسلموا؛ فإنكم قد عرفتم أنني نبيٌّ مرسل تجدون ذلك في كتابكم؛ وفي عهد الله إليكم".

ولما رفضوا الإسلام، حاصرهم النبي خمس عشرة ليلة، حتى نزلوا على حكم رسول الله، فكتفهم وكانوا سبعمائة رجلاً، وأراد قتلهم، فرفض عبد الله بن أبي ذلك، وقال: يا محمد، أحسن في موالي - وكانوا حلفاء الخزرج - فأبطأ عليه النبي، فقال: يا محمد، أحسن في موالي، فأعرض النبي عنه، فأدخل يده في جيب رسول الله، فقال: أرسلني، وغضب حتى رأوا في وجهه ظلالاً - يعني تلونا - ثم قال: ويحك أرسلني! قال: لا والله لا أرسلك حتى تحسن إلى موالي، أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأسود والأحمر؛ تحصدهم في غداة واحدة! وإني والله لا آمن وأخشى الدوائر. فقال رسول الله: هم لك. ثم أمر رسول الله بإجلانهم.

النفاق في غزوة أحد

وظهر النفاق في صفوف المسلمين في معركة أحد، أكثر مما ظهر في بدر، فقد أرسل أبو سفيان رسولاً، إلى الأوس والخزرج: أن خلوا بيننا وبين ابن عمنا ننصرف عنكم، فإنه لا حاجة لنا بقتالكم. ولا نعرف بالضبط من هم الذين راسلهم، ولكن مواقف بعض المسلمين أثناء الذهاب للمعركة تنبئ عن استجابة أو تنسيق معين، فقد تشاور النبي مع أصحابه حول الخروج إلى قريش أو البقاء داخل المدينة، وقرر في النهاية الخروج إليهم، استجابة لإصرار الشباب، وما أن خرج جيش المسلمين إلى ساحة أحد، وكان مؤلفاً من حوالي ألف مقاتل، حتى انسحب عبد الله بن أبي، في منتصف الطريق، مع ثلاثمائة من الأنصار، وانتقد النبي قائلاً: أطاعهم فخرج وعصاني؛ والله ما ندري علام نقتل أنفسنا ها هنا أيها الناس! فرجع بمن اتبعه من الناس من قومه من أهل النفاق وأهل الريب، فتبعهم أبو جابر السلمي يدعوهم؛ فلما غلبوه وقالوا له: ما نعلم قتالاً، ولئن أطعنا لترجعن معنا؛ وهمت طائفتان أخريان هما بنو سلمة وبنو حارثة، بالرجوع حين رجع عبد الله بن أبي. وهو ما هزَّ معنويات المسلمين في وقت عصيب جداً.

وعندما بدأت المعركة، عين رسول الله خمسين رامياً على جبل، وقال لهم انضحوا عنا الخيل بالنبل لا يأتونا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا، فاثبتوا مكانكم لا نؤتين من قبلكم. وعندما كانت الغلبة الأولى للمسلمين وهرب القرشيون من أمامهم وتركوا معسكرهم بكل ما فيه، هب المسلمون لجمع الغنائم، فجعل الرماة

يقولون: الغنيمة الغنيمة! أدركوا الغنيمة قبل أن يسبقونا إليها. ولم يلتزموا بوصية رسول الله، فالتف خالد بن الوليد على المسلمين من خلف وقضى على من تبقى من الرماة، ولم يلبث المسلمون الذين كانوا منشغلين بجمع الغنائم إلا أن رأوا المشركين فوق رؤوسهم يعملون فيهم السيف ويقتلون منهم سبعين ويشردونهم ويلحقون بهم هزيمة كبرى، وهرب معظم المسلمين وتركوا النبي وحيدا إلا من بضعة أشخاص، فأصيب بحجر وكسر أنفه ورباعيته وشح، فجعل الدم يسيل على وجهه، وجعل يمسح الدم عن وجهه، وفشا في الناس أن رسول الله قد قتل، فقال بعض المسلمين: ليت لنا رسولا إلى عبد الله بن أبي؛ فيأخذ لنا أمانة من أبي سفيان! يا قوم إن محمداً قد قتل، فارجعوا إلى قومكم قبل أن يأتوكم فيقتلوكم. فقال أنس بن النضر: يا قوم إن كان محمد قتل؛ فإن رب محمد لم يقتل. فقاتلوا على ما قاتل عليه محمد: اللهم أني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء! ثم شد بسيفه فقاتل حتى قتل.

وقد كانت معركة أحد نكسة كبيرة للمسلمين، كشفت حقيقة إسلام الكثير منهم. وقد تحدث القرآن عن هذه الهزيمة ودور النفاق والمنافقين فيها، فقال:

• "ولقد صدقكم الله وعده، إذ تحسونهم بإذنه، حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتهم من بعد ما أراكم ما تحبون، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم، ولقد عفا عنكم، والله ذو فضل على المؤمنين. إذ تصعدون ولا تلوون على أحد، والرسول يدعوكم في أخراكم، فاتأبكم غما لكيلا تحزنوا على ما فاتكم، ولا ما أصابكم، والله خبير بما تعملون". (آل عمران 152-153)

• "وما أصابكم يوم التقى الجمعان، فبإذن الله وليعلم المؤمنين. وليعلم الذين نلفقوا، وقيل لهم: تعالوا قتلوا في سبيل الله أو ادفعوا، قللوا: لو- نعم قتالا لا تبعناكم، هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان، يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، والله أعلم بما يكتمون. الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا: لو أطاعونا ما قتلوا، قل فادعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين". (آل عمران، 166-168)

وخاطب الله الذين كادوا يطلبون الأمان لأنفسهم من المشركين، وقالوا: إن محمداً قد قتل، فارجعوا إلى قومكم:

• "وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا، وسيجزي الشاكرين". (آل عمران، 144)

- " يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين". (آل عمران، 149)

النفاق في غزوة بني النضير

وظهر النفاق مرة أخرى بصورة أشد، في أثناء حصار النبي ليهود بني النضير، في العام الرابع، حيث حاول زعيم الخزرج عبد الله بن أبي الأنشاق عن صف المسلمين، والتمرد على قرار الحصار والحرب، بل ومحاربة المسلمين، فأرسل إلى اليهود يقول: لا تخرجوا، فإن معي من العرب وممن انضوى إلي من قومي ألفين، فأقيموا فيهم يدخلون معكم، وقريظة تدخل معكم. وبعث جماعة آخرون اليهم أيضا: أن اثبتوا وتمنعوا؛ فإننا لن نسلمكم؛ وإن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أخرجتم خرجنا معكم. وهو ما عبر عنه القرآن الكريم بما يلي:

- "ألم ترَ إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم من أهل الكتاب: لئن أخرجتم لنخرجن معك، ولا نطيع فيكم أحدا أبداً، وإن قوتلتم لننصرنكم، والله يشهد إنهم لكاذبون، لئن أخرجوا لا يخرجون معهم، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم، ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون، لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله، ذلك بأنهم قوم لا يفقهون". (الحشر، 11-13)

النفاق في معركة الخندق

عندما احتدمت المعركة بين المسلمين وقريش وحلفائها من اليهود والأعراب، في السنة الخامسة من الهجرة، وقرر اليهود والمشركون شن هجوم شامل وكبير على المسلمين والقضاء عليهم، أبدى المؤمنون الصادقون صموداً وأبلوا بلاءً حسناً، ولكن الخوف من الأحزاب بلغ ببعض المسلمين مبلغاً كبيراً حتى تمنى بعضهم أن يكون خارج المدينة حتى يسلم بنفسه، وأنزل الله قرآناً يصف فيه حالة المسلمين والمنافقين في يوم الخندق:

- " يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها، وكان الله بما تعملون بصيرا. إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، وتظنون بالله الظنونا، هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا، وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض: ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا، وإذ قالت طائفة منهم: يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا، ويستأذن فريق منهم النبي يقولون: إن بيوتنا عورة، وما هي بعورة، إن يريدون إلا فرارا. ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها إلا يسيرا. ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار، وكان عهد الله مسئولا.

قل: لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل، وإذا لا تمتعون الا قليلا. قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة، ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا. قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم: هلم الينا، ولا يأتون بالبأس الا قليلا. أشحة عليكم، فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون اليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت، فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد، أشحة على الخير، أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم، وكان ذلك على الله يسيرا، يحسبون الأحزاب لم يذهبوا، وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون في الأعراب يسألون عن أنبائكم، ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا. لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، وذكر الله كثيرا. ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا: هذا ما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله،

وما زادهم الا إيمانا وتسليما". (الأحزاب، 9 – 22)

وقد قام المنافقون بالاستهزاء بالمسلمين، الذين كانوا يحفرون الخندق حول المدينة، واصطدموا بصخرة صماء لم يستطيعوا كسرها فأخذ رسول الله المعول، فضرب الصخرة ضربة صدعها، وبرقت منها برقة أضاءت حتى لكأن مصباحا في جوف بيت مظلم. فكبر رسول الله تكبير فتح، وكبر المسلمون. ثم ضربها رسول الله الثانية، فصدعها وبرق منها برقة أخرى، فكبر رسول الله تكبير فتح وكبر المسلمون. ثم ضربها رسول الله الثالثة فكسرها، وبرق منها برق أضاء ما حولهم، فكبر رسول الله تكبير فتح وكبر المسلمون، ثم التفت رسول الله إلى القوم، فقال: ضربت ضربتي الأولى، فبرق الذي رأيتم، أضاءت لي منها قصور الحيرة ومدائن كسرى، فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها، ثم ضربت ضربتي الثانية، فبرق الذي رأيتم، أضاءت لي منها قصور الحمر من أرض الروم، فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها، ثم ضربت ضربتي الثالثة، فبرق منها الذي رأيتم، أضاءت لي منها قصور صنعاء، فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها، فأبشروا يبلغهم النصر، وأبشروا يبلغهم النصر، وأبشروا يبلغهم النصر فاستبشر المسلمون، وقالوا: الحمد لله موعد صادق بار، وعدنا النصر بعد الحصر:

• "هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما". (الأحزاب، ٢٢)

وقال المنافقون: ألا تعجبون! يحدثكم ويمنيكم ويعدكم الباطل! يخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى، وأنها تفتح لكم؛ وأنتم تحفرون الخندق ولا تستطيعون أن تبرزوا! فأنزل الله:

• " وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرضٌ ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورًا ". (الأحزاب، ١٢)

ويقول حذيفة بن اليمان: والله لقد رأيتنا مع رسول الله بالخندق، ثم التفت إلينا، فقال: من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع؟ - يشرط له رسول الله أنه يرجع - أدخله الله الجنة؟ فما قام رجل. ثم التفت إلينا فقال مثله، فما قام منا رجل، ثم التفت إلينا، فقال: من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع - يشرط له رسول الله الرجعة - أسأل الله أن يكون رفيقي في الجنة؟ فما قام رجل من القوم من شدة الخوف وشدة الجوع وشدة البرد. فلما لم يبق أحد دعاني رسول الله فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني. فقال: يا حذيفة؛ اذهب فادخل في القوم فانظر ما يفعلون.

النفاق في غزوة بني المصطلق

وبالرغم من انقلاب المعادلات السياسية والعسكرية، بفشل حرب الأحزاب، وقتل يهود بني قريظة، وتحقيق انتصار ساحق على بني المصطلق في السنة السادسة من الهجرة، فإن جذوة النفاق لم تخب، واصيب المسلمون بعدة أحداث كدرت عليهم أفراسهم، بسبب بعض المنافقين، فقد حدث خلاف شخصي بين رجلين منهم، على ماء المريسي، كاد أن يفجر خلافا أكبر بين المهاجرين والأنصار ويهدد وحدتهم السياسية، وكشف في نفس الوقت عن طبيعة إيمان الكثير من "المنافقين" المشاركين في عملية الغزو (لبني المصطلق)، وحجمهم ودورهم.

وتتلخص القصة باحتكاك أجير لعمر بن الخطاب من بني غفار يقال له جهجاه بن سعيد، مع سنان الجهني حليف بني عوف بن الخزرج على الماء، فاقتتلا، فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار! وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين! فغضب عبد الله بن أبي بن سلول، فقال: أ قد فعلوها! قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما عدونا وجلابيب قريش ما قال القائل: " سمن كلبك يأكلك "؛ أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعرز منها الأذل! ثم أقلب على من حضره من قومه، فقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم! أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم! أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير بلادكم.

فسمع ذلك زيد بن أرقم، فمشى به إلى رسول الله، فأخبره الخبر، فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله مر به عباد بن بشر بن وقش فليقتله، فقال رسول الله:

- فكيف يا عمر إذا تحدث الناس: أن محمداً يقتل أصحابه!.. لا، ولكن أذن بالرحيل.

وذلك في ساعة لم يكن رسول الله يرتحل فيها - فارتحل الناس، وقد مشى عبد الله بن أبي بن سلول إلى رسول الله حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلغه ما سمع منه. فحلف بالله: ما قلت ما قال، ولا تكلمت به - وكان عبد الله بن أبي في قومه شريفاً عظيماً - فقال من حضر رسول الله من أصحابه من الأنصار يا رسول الله، عسى أن يكون الغلام أو هم في حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل! حدباً على عبد الله بن أبي ودفاعاً عنه. وقال أسيد بن حضير: يا رسول الله، ارفق به فو الله لقد جاء الله بك، وإن قومه لينضمون له الخرز ليتوجوه؛ فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكاً.

ونزلت السورة التي ذكر الله فيها المنافقين، في عبد الله بن أبي بن سلول ومن كان معه على مثل أمره:

- " إذا جاءك المنافقون، قالوا نشهد إنك لرسول الله، والله يعلم إنك لرسوله، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون، اتخذوا إيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله، إنهم ساء ما كانوا يعملون، ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون، وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم، وإن يقولوا تسمع لقولهم، كأنهم خشب مسندة، يحسبون كل صيحة عليهم، هم العدو فاحذرهم، قاتلهم الله أنى يؤفكون، وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله، لووا رؤوسهم، ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون، سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم، لن يغفر الله لهم، إن الله لا يهدي القوم الفاسقين، هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا، والله خزائن السموات والأرض، ولكن المنافقين لا يفقهون، يقولون لنن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعرز منها الأذل، والله العزة لرسوله وللمؤمنين، ولكن المنافقين لا يعلمون". (المنافقون، 1 - 8)

وأتى عبد الله بن عبد الله بن أبي ابن سلول، إلى رسول الله، فقال: إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي - فيما بلغك عنه - فإن كنت فاعلاً فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه؛ فو الله لقد علمت الخزرج ما كان بها رجلٌ أبر بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس فأقتله؛ فأقتل مؤمناً بكافر أدخل النار، فقال رسول الله: بل نرفق به، ونحسن صحبته ما بقي معنا.

وجعل (ابن سلول) بعد ذلك إذا أحدث الحدث، كان قومه هم الذين يعاتبونه

ويأخذونه، ويعنفونه ويتوعدونه، فقال رسول الله لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك عنهم من شأنهم: كيف ترى يا عمر! أما والله لو قتلته يوم ما أمرتني بقتله، لأرعدت له أنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته. قال: فقال عمر: قد والله علمت، لأمر رسول الله أعظم بركة من أمري.

المنافقون وحديث الإفك

وما أن تجاوز المسلمون تلك الأزمة التي حدثت عند بئر المريسيع، حتى تفجرت قضية أخرى أخطر منها، وهم في طريق العودة الى المدينة، وكادت تسقط هيبة الرسول، وتشعل حرباً بين الأوس والخزرج، وهي تهمة الزنا التي وجهها بعض المسلمين الى أم المؤمنين عائشة التي كانت ترافقهم في الحملة العسكرية، بعد أن رأوها تتخلف عن ركبهم وتعود مع شخص عازب هو صفوان بن المعطل السلمي، في اليوم التالي، وكانت عائشة قد ذهبت تقضي حاجتها فحمل الرجال المكلفون بهودجها وهم يظنون أنها فيه، فعادت الى القافلة ولم تجد أحداً من المسلمين، فنامت في مكانها ريثما يفتقدها النبي ويعود ليبحث عنها، ثم مر عليها صفوان فوجدها وحيدة، وحملها على بعيره، وجاء بها الى القافلة، فأساء الظن بهما بعض المسلمين، وقال أهل الإفك فيها ما قالوا، وارتج العسكر، واستغل عبد الله بن أبي الحادثة ليروج الإشاعة ضد عائشة، في محاولة منه لتسقيط هيبة النبي. وقد أبدى النبي انزعاجه الشديد من تلك الإشاعة فذهب يحقق مع زوجته وقال لها:

- يا عائشة؛ إنه قد كان ما بلغك من قول الناس، فاتقى الله؛ وإن كنت قارفت سوءاً مما يقول الناس فتوبي إلى الله؛ فإن الله يقبل التوبة عن عباده. فقالت:
- والله لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبداً؛ والله لئن أقررت بما يقول الناس - والله يعلم أنني منه بريئة - لتصدقني؛ لأقولن ما لم يكن؛ ولئن أنا أنكرت ما تقولون لا تصدقونني. قالت: ثم التمس اسم يعقوب فما أذكره؛ ولكني أقول كما قال أبو يوسف: "فصبرٌ جميلٌ والله المستعان على ما تصفون".

ثم ذهب رسول الله الى المسجد فخطب قائلاً:

- "أيها الناس، ما بال رجال يؤذونني في أهلي، ويقولون عليهن غير الحق! والله ما علمت منهن إلا خيراً، ويقولون ذلك لرجل. والله ما علمت منه إلا خيراً! وما دخل بيتاً من بيوتى إلا وهو معي".

فقام أسيد بن حضير (زعيم الأوس) فقال:

- يا رسول الله، إن يكونوا من الأوس نكفكهم، وإن يكونوا من إخواننا من الخزرج فمرنا بأمرك؛ فو الله إنهم لأهل أن تضرب أعناقهم.

فقام سعد بن عبادة (أحد زعماء الخزرج) فقال:

- كذبت لعمر الله لا تضرب أعناقهم! أما والله ما قلت هذه المقالة إلا أنك قد عرفت أنهم من الخزرج، ولو كانوا من قومك ما قلت هذا! قال أسيد:

- كذبت لعمر الله! ولكنك منافق تجادل عن المنافقين!

وتتاور الناس حتى كاد أن يكون بين هذين الحيين من الأوس والخزرج شر، ثم نزل الوحي على النبي ببراءة عائشة، فقال لها: أبشري يا عائشة؛ فقد أنزل الله براءتك، ثم خرج إلى الناس فخطبهم، وتلا عليهم ما أنزل الله عز وجل من القرآن في الحادثة:

- "إن الذين جاءوا بالإفك عصبة مكم، لا تحسبوه شرا لكم، بل هو خير لكم، لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم، والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم، لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا، وقالوا: هذا إفك مبين، لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء، فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون، ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم في ما أفضتم فيه عذاب عظيم، غد تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم، وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم، لولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا، سبحانك هذا بهتان عظيم، يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا، إن كنتم مؤمنين، ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم، إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة، والله يعلم وأنتم لا تعلمون". (النور، 11-19)

ثم أمر النبي بمسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش - وكانوا ممن أفصح بالفاحشة - فضربوا حدهم.

المنافقون والتحرش بنساء المسلمين

وقد كان المنافقون يؤذون رسول الله والمؤمنين، ويتحرشون بنساء المؤمنين، وكان تحرشهم سببا في نزول آية الحجاب:

- "يا ايها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيهن، ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين، وكان الله غفورا رحيما". (الأحزاب، 59)

قال الطبري في تفسيره: عن قتادة: كانت المملوكة إذا مرت تناولوها بالإيذاء، فنهى الله الحرائر- أن يتشبهن بالإماء. وعن مجاهد: يتجلبن فيعلم أنهن حرائر- فلا يعرض لهن فاسق بأذى من قول ولا ريبة. وكان رجال يجلسون على الطريق للغزل، وقوله "ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين": إندأوهن جلابيهن إذا أدنينها عليهن أقرب وأحرى أن يعرفن ممن مررن به، ويعلموا أنهن لسن بإماء فيتكبنوا عن أذهن بقول مكروه، أو تعرض بريبة.

وقال ابن كثير في تفسيره: قال السدي في شرح هذه الآية: كان ناس من فساق أهل المدينة يخرجون بالليل حين يختلط الظلام الى طريق المدينة، يتعرضون للنساء، وكانت مساكن أهل المدينة ضيقة، فإذا كان الليل خرج النساء الى الطرق يقضين حاجتهن، فكان أولئك يبتغون ذلك منهن، فإذا رأوا امرأة عليها جلاباب قالوا: هذه حرة، كفوا عنها. وإذا رأوا المرأة ليس عليها جلاباب قالوا: هذه أمة. فوثبوا اليها.

وقال الضحاك والكلبي: نزلت في الزناة الذين كانوا يمشون في طرق المدينة يتبعون النساء إذا برزن بالليل لقضاء حوائجهن، فيغمزون المرأة، فإن سكتت اتبعوها، وإن زجرتهم انتهوا عنها، ولم يكونوا يطلبون الا الإماء، ولكن كلنوا لا يعرفون الحرة من الأمة، لأن زي الكل كان واحدا، يخرجن في درع وخمار، الحرة والأمة، فشكون ذلك الى أزواجهن، فذكروا ذلك لرسول الله (ص) فنزلت هذه الآية.. ثم نهى الحرائر أن يتشبهن بالإماء.. والجلاباب هو الملاعة التي تشتمل بها المرأة فوق الدرع والخمار.

وهدد الله تعالى في الآية التالية المنافقين والذين في قلوبهم مرض (الفساق والزناة) والمرجفين، بالجلء عن المدينة إن لم يتوبوا عن أعمالهم، فقال:

- " لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض، والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم، ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا، ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا، سنة الله في الذين خلوا من قبل، ولن تجد لسنة الله تبديلا". (الأحزاب، 60 – 61)

تضعض إيمان بعض المسلمين في الحديبية

بعد قصة المريسيع وحديث الإفك، كاد المجتمع الاسلامي الوليد يمر بأزمة أخرى أكبر، وهي صدمة الصد عن دخول بيت الله للعمرة في شهر ذي القعدة من السنة السادسة، "وقد كان أصحاب رسول الله خرجوا وهم لا يشكون في الفتح، لرؤيا رآها وأخبرهم بها رسول الله ؛ فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع، وما تحمل عليه رسول الله في نفسه، دخل الناس من ذلك أمرٌ عظيمٌ حتى كادوا أن يهلكوا".

فقد خرج النبي معتمرا في ذي القعدة، وساق معه الهدى، وأحرم بالعمرة، ليأمن الناس من حربه، وليعلم الناس أنه إنما جاء زائرا لهذا البيت، معظماً له. فلما دنا من مكة منعه أن يدخل، فسار حتى نزل بالحديبية، فبعثت قريش سهيل بن عمرو، إلى رسول الله ؛ وقالوا: له: أنت محمداً فصالحه، ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لا تحدث العرب أنه دخل علينا عنوة أبداً. ثم جرى بينهما الصلح على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيهن الناس، ويكف بعضهم عن بعض، وأن يرجع النبي عن مكة ذلك العام ، على أن تخلي قريش مكة للمسلمين في السنة التالية، ثلاثة أيام.

فلما التأم الأمر، ولم يبقى إلا الكتاب وثب عمر بن الخطاب، فأتى رسول الله فقال:

- يا رسول الله، أأست برسول الله! قال:
- بلى، قال:
- أولسنا بالمسلمين! قال:
- بلى، قال:
- أو ليسوا بالمشركين! قال:
- بلى قال:
- فعلام نعطي الدنيا في ديننا! فقال:
- أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره، ولن يضيعني.

فلما فرغ رسول الله من قضية الصلح قال لأصحابه: قوموا فانحروا، ثم احلقوا. فما قام منهم رجلٌ حتى قال ذلك ثلاث مرات؛ فلما لم يقم منهم أحد، قام

فدخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: يا نبي الله، أتحب ذلك! اخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك؛ وتدعو حالقك فيحلقك؛ فقام فخرج فلم يكلم أحداً منهم كلمة حتى فعل ذلك؛ نحر بدنته ودعا حالقه فحلقه. فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا؛ وجعل بعضهم يلحق بعضاً.

وعن ابن عباس، قال: حلق رجالٌ يوم الحديبية، وقصر آخرون؛ فقال رسول الله: يرحم الله المحلقين، قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: يرحم الله المحلقين؛ قالوا: والمقصرين؟ قال: والمقصرين؛ قالوا: يا رسول الله؛ فلم ظهرت الترحم لمحلقين دون المقصرين؟ قال: لأنهم لم يشكوا.

وقد حدث الشك في قلوب المؤمنين لأنهم فهموا من الرؤيا التي قصها عليهم الرسول بأنهم سيحلقون رؤوسهم ويقصرون، بعد دخولهم في تلك السنة للبيت الحرام، فأجل الله ذلك الوعد الى العام القادم:

- "لقد صدق الله ورسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين، لا تخافون، فعلم ما لم تعلموا، فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً". (الفتح، 27)

النفاق والمنافقون في معركة حنين

وفي الوقت الذي كان الرسول يحقق انتصارات عسكرية وسياسية على المشركين، كانت جبهته الداخلية تهتز بسبب وجود المنافقين والمسلمين السياسيين والمؤلفة قلوبهم الذين لم يشاركوا في القتال معه الا من أجل الغنائم، فما أن رد سبأيا حنين إلى أهلها، حتى أتبعه الناس يقولون: يا رسول الله، أقسم علينا فيئنا الإبل والغنم، حتى ألبئوه إلى شجرة، فأختطفت الشجرة عنه رداءه، فقال:

- ردوا علي ردائي أيها الناس؛ فو الله لو كان لي عدد شجر تهامة نعماً لقسمتها عليكم، ثم ما لقيتموني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً. ثم قام إلى جنب بعير، فأخذ وبرة من سنامه فجعلها بين أصبعيه، ثم رفعها فقال: أيها الناس، إنه والله ليس لي من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس، والخمس مردود عليكم، فأدوا الخياط والمخيط؛ فإن الغلول يكون على أهله عاراً وناراً وشناراً يوم القيامة.

وأقبل رجل من بني تميم يقال له ذو الخويصرة، فوقف على رسول الله وهو

يعطي الناس، فقال: يا محمد قد رأيت ما صنعت في هذا اليوم! فقال رسول الله:

- أجل؛ فكيف رأيت؟ قال:
- لم أرك عدلت! فغضب رسول الله، ثم قال:
- ويحك! إذا لم يكن العدل عندي، فعند من يكون!

فقال عمر بن الخطاب:

- يا رسول الله، ألا نقتله! فقال:
- لا، دعوه؛ فإنه سيكون له شيعة يتعمقون في الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية، ينظر في النصل فلا يوجد شيء، ثم في القذح فلا يوجد شيء؛ ثم في الفوق فلا يوجد شيء؛ سبق الفرث والدم.

وعندما أعطي رسول الله المؤلفة قلوبهم - وكانوا أشرفاً من أشرف الناس يتألفهم ويتألف به قلوبهم - كأبي سفيان وابنه معاوية وحكيم ابن حزام وصفوان بن أمية وعيينة بن حصن والأقرع ابن حابس التميمي ومالك بن عوف النصراني مئات من الإبل، ولم يعط الأنصار شيئاً من الغنائم، وجدوا في أنفسهم حتى كثرت منهم القالة؛ حتى قال قائلهم: لقي والله رسول الله قومه! فدخل عليه سعد بن عبادة فقال: يا رسول الله؛ إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفئ الذي أصبت؛ قسمت في قومك وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب، ولم يكن في هذا الحي من الأنصار شيء، قال: فأين أنت من ذلك يا سعد! قال: يا رسول الله ما أنا إلا من قومي! فقال رسول الله:

- يا معشر الأنصار، ما قالة بلغتني عنكم، وموجدة وجدتموها في أنفسكم! ألم أنكم ضللاً فهداكم الله؛ وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم! قالوا:

• بلى، لله ولرسوله المن والفضل! فقال:

• ألا تجيبوني يا معشر الأنصار! قالوا:

• وبماذا نجيبك يا رسول الله، لله ولرسوله المن والفضل! قال:

- أمل والله لو شئتم لقلتم فصدقتم، ولصدقتم؛ أتيتنا مكذباً فصدقناك، ومخنولاً فنصرناك، وطريداً فأويناك، وعائلاً فأسيناك؛ وجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألفت بها قومًا ليسلموا، ووكلتكم إلى

إسلامكم! أفلا ترضون يا معشر الأنصار؛ أن يذهب الناس بالشاء والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم! فو الذي نفس محمد بيده؛ لولا الهجرة لكنت أمراً من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً، لسلكت شعب الأنصار! اللهم أرحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار!

قال: فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسماً وحظاً، ثم انصرف رسول الله وتفرقوا.

النفاق والمنافقون في غزوة تبوك

تعرض المسلمون في السنة التاسعة من الهجرة الى امتحان كبير، عندما أمرهم رسول الله بالاستعداد للتوجه نحو قتال الروم، وذلك في زمن عسرة من الناس، وشدة من الحر، وجذب من البلاد؛ وحين طابت الثمار وأحبت الظلال؛ فالناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم، ويكرهون الشخوص عنها على الحال من الزمان الذي هم عليه، فتناقل كثير من المسلمين عن تلبية دعوة النبي فنزلت:

• "يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثقلتم الى الأرض؟ أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة، فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة الا قليل، إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً، ويستبدل قوماً غيركم، ولا تضره شئاً، والله على كل شيء قدير، إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا، فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى، وكلمة الله هي العليا، والله عزيز حكيم، انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون، لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك، ولكن بعدت عليهم الشقة، وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم، يهلكون أنفسهم، والله يعلم إنهم لكاذبون".

وكشف النبي بذلك حقيقة إيمان الكثير من المسلمين في المدينة، أو نفاقهم. فلما خرج رسول الله ضرب عسكره على ثنية الوداع، وضرب عبد الله بن أبي بن سلول عسكره على حدة أسفل منه. وكان - فيما يزعمون - ليس بأقل العسكرين؛ (أي حوالي نصف المسلمين) فلما سار رسول الله تخلف عنه عبد الله بن أبي فيمن تخلف من المنافقين وأهل الريب، وعبد الله بن نبتل، ورفاعة بن زيد بن التابوت القينقاعي؛ وكانوا من عظماء المنافقين؛ وكانوا ممن يكيد الإسلام وأهله،

فأنزل الله فيهم:

• "ولو أرادوا الخروج لأعدوا عدته ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم، وقيل اعدوا مع القاعدين، لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا، ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة، وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين، لقد ابتغوا الفتنة من قبل، وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون". (التوبة، 46-48)

وجاء المعذرون من الأعراب، فأعتذروا إليه، وقال أحدهم (وهو الجد بن قيس): يا رسول الله، أو تأذن لي ولا تفتني! فو الله لقد عرف قومي ما رجل أشد عجبًا بالنساء مني؛ وإنني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر ألا أصبر عنهن. فأعرض عنه رسول الله، وقال: قد أذنت لك؛ فنزلت فيه هذه الآية:

• "ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني، ألا في الفتنة سقطوا، وإن جهنم لمحيطة بالكافرين". (التوبة، 49) وخاطب الله تعالى نبيه الكريم:

• "عفا الله عنك لم أذنت لهم، حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين، لا يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون". (التوبة، 43)

وقال قائل من المنافقين لبعض: لا تنفروا في الحر، زهادة في الجهاد، وشكًا في الحق، وإرجافًا بالرسول، فأنزل الله تبارك وتعالى فيهم:

• "وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حرًا لو كانوا يفقهون، فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا، جزاء بما كانوا يكسبون". (التوبة، 81-82)

ولم يسلم بعض الذين ساروا مع رسول الله إلى تبوك، من النفاق، حيث قال بعضهم لبعض: أتحسبون قتال بني الأصفر كقتال غيرهم! والله لكأنى بكم غدًا مقرنين في الحبال؛ إرجافًا وترهيبًا للمؤمنين. فقال رسول الله لعمار بن ياسر: أدرك القوم، فإنهم قد أحترقوا، فسلهم عما قالوا؛ فإن أنكروا فقل: بلى قد قلت كذا وكذا. فانطلق إليهم عمار فقال لهم ذلك؛ فأتوا رسول الله يعتذرون إليه، وقالوا: كنا نخوض ونلعب؛ فأنزل الله عز وجل فيهم:

• "يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم، قل استهزئوا، إن الله مخرج ما تحذرون، ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب، قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون، لا تعتذروا، قد كفرتم بعد إيمانكم، وإن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين".

وكان في جيش النبي أيضا يهودي "مسلم" يسمى زيد بن لصيب القينقاعي، فلما كان رسول الله ببعض الطريق ضلت ناقته، فخرج أصحابه في طلبها، فقال زيد: أليس يزعم محمد أنه نبي يخبركم عن خبر السماء وهو لا يدري أين ناقته! فقال رسول الله: إن رجلاً قال: إن محمداً هذا يخبركم أنه نبي، وهو يزعم أنه يخبركم بخير السماء وهو لا يدري أين ناقته! وإني والله ما أعلم إلا ما علمني الله، وقد دلني الله عليها، وهي في الوادي من شعب كذا وكذا قد حبستها شجرة بزمامها، فأنطلقوا حتى تأتوا بها، فذهبوا فجاءوا بها.

المنافقون يحاولون اغتيال النبي في العقبة

ولم تتوقف أعمال المنافقين عند السخرية والاستهزاء بالنبي، وإنما حاولوا اغتياله في طريق عودته من تبوك، وذلك عندما مر بعقبة، وهي طريق ضيق في الجبل، فأمر منادياً فنادى: "إن رسول الله (ص) أخذ العقبة، فلا يأخذها أحد". فسار رسول الله في العقبة؛ يقوده حذيفة، ويسوقه عمار، إذ أقبل رهط متلثمون على الرواحل، فغشوا عماراً، وهو يسوق برسول الله، وأقبل عمار يضرب وجوه الرواحل، فقال رسول الله لحذيفة: "قُدْ.. قُدْ، ويا عمار: سُقْ سُقْ" فأقبل عمار على القوم فضرب وجوه رواحلهم، حتى هبط رسول الله من العقبة، فلما هبط، ورجع عمار قال: "يا عمار، هل عرفت القوم؟" فقال عمار: قد عرفت عامة الرواحل، والقوم متلثمون. قال (ص): "هل تدري ما أرادوا؟" قال عمار: الله ورسوله أعلم. قال (ص): "أرادوا أن ينفروا برسول الله فيطرحوه". وفي رواية أخرى: "أرادوا أن يزحموا رسول الله في العقبة فيلقوه منها!".

فقال أسيد: يا رسول الله، فقد اجتمع الناس ونزلوا، فمر كل بطن أن يقتل الرجل الذي هم بهذا... حتى متى ندهنهم وقد صاروا اليوم في القلة والذلة، وضرب الإسلام بجرانه؟

قال رسول الله: إني أكره أن يقول الناس: إن محمداً لما انقضت الحرب

بينه وبين المشركين وضع يده في قتل أصحابه.
فقال: يا رسول الله فهؤلاء ليسوا بأصحاب
قال رسول الله: أليس يظهرون شهادة أن لا اله الا الله؟
قال: بلى، ولا شهادة لهم
قال: أليسوا يظهرون أنني رسول الله؟
قال: بلى، ولا شهادة لهم
قال: فقد نهيت عن قتل أولئك.

وقد أشار القرآن الكريم الى محاولة الاغتيال هذه بقوله "وهموا بما لم ينالوا"
في هذه الآية الكريمة:

• "يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا
لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا
لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ
مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ". (التوبة، ٧٤)

المنافقون ومسجد ضرار

وفي الوقت الذي كان النبي يحقق انتصارات سياسية وعسكرية في السنة
التاسعة من الهجرة، كان النفاق ينتشر في المدينة، ولم يعد حالات فردية، وانما
تطور الى تنظيم سري ومحاولة لشق صفوف المسلمين، ولنستمع الى الطبري
يحدثنا في تفسيره عن هؤلاء المنافقين:

يقول (ما مضمونه باختصار): انهم كانوا اثني عشر رجلا من الأتصار
ابتنوا مسجداً، فقال لهم أبو عامر (النصراني المحارب للنبي): ابنوا
مسجدكم. واستعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح، فإنني ذاهب إلى
قيصر ملك الروم، فأتي بجند من الروم، فأخرج محمداً وأصحابه ! فلما
فرغوا من مسجدهم، أتوا النبي عليه الصلاة والسلام وهو يتجهز إلى تبوك،
فقالوا: يا رسول الله، إنا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة
والليلة الشاتية، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه ! فقال: إني على جناح

سفر وحال شغلٍ ولو قدَّ قَدَمنا أتيناكم إن شاء الله، فصلينا لكم فيه. فلما عاد من تبوك نزل بذي أوان، أتاه خبرُ المسجد، فدعا رسول الله (ص) اثنين من الصحابة، فقال: انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرِّقاه! فخرجا سريعين حتى دخلا المسجد فحرِّقاه وهدماه. ونزل فيهم من القرآن:

- "وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَيَحْلِفْنَ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ (107) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَىٰ التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ (108) أَفَمَنْ أُسِّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أُسِّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (109) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (110) التوبة.

قال أبو جعفر: فتأويل الكلام: "وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل" يقول: وإعداداً له، لأبي عامر الكافر الذي خالف الله ورسوله، وكفر بهما، وقاتل رسول الله، من قبل، يعني من قبل بنائهم ذلك المسجد. وذلك أن أبا عامر هو الذي كان حزب الأحزاب لقتال رسول الله (ص) فلما خذله الله، لحق بالروم يطلب النصر من ملكهم على نبي الله، وكتب إلى أهل مسجد الضرار يأمرهم ببناء المسجد الذي كانوا بنوه، فيما ذكر عنه، ليصلي فيه، فيما يزعم، إذا رجع إليهم. ففعلوا ذلك.

ويلاحظ هنا أنه بالرغم من خطورة المؤامرة على أمن المدينة والإسلام والمسلمين، فإن النبي لم يعاقب المنافقين شخصياً بأي عقاب، واكتفى بهدم المسجد، رغم تمتعه بالقوة الكافية في وقت كان يهاجم تخوم الدولة الرومية.

بوادر الردة في حياة الرسول

انطوى (الإسلام السياسي) الذي لا يرتكز على إيمان حقيقي، على خطر الردة، فما أن طارت الأخبار بمرض النبي حتى وثب الأسود العنسي (ذو الخمار عبهلة بن كعب) باليمن. فكاتبته مذبح، وواعدته نجران؛ فوثبوا بها وأخرجوا عمرو بن حزم وخالد بن سعد بن العاص وأنزلوه منزلهما، ووثب قيس بن عبد يغوث على

فروة بن مسيك وهو على مراد، فأجلاه ونزل منزله؛ فلم ينشب عبهلة بنجران أن سار إلى صنعاء فأخذها، وصفا له ملك اليمن.

ولم يلبث إلا قليلاً حتى ادعى طليحة النبوة في شمال الجزيرة العربية، في بني أسد، واتبعه العوام؛ واستكثف أمره؛ وبعث حبال ابن أخيه إلى النبي يدعوه إلى الموادة، ويخبره خبره.

ووثب مسيلمة باليمامة فادعى النبوة.

وقد ارتج أهل مكة، بعد وفاة رسول الله، وكادوا يرتدون، لولا سهيل بن عمرو الذي وقف على باب الكعبة وصاح بهم: يا أهل مكة لا تكونوا آخر من أسلم وأول من ارتد، والله ليؤمن الله هذا الأمر كما ذكر رسول الله (ص) فلقد رأيته قائماً مقامي هذا وحده وهو يقول: "قولوا معي لا إله إلا الله تدن لكم العرب وتؤدي إليكم العجم الجزية والله لتتفقن كنوز كسرى وقيصر في سبيل الله" فمن بين مستهزىء ومصدق فكان ما رأيتم والله ليكونن الباقي. فامتنع الناس من الردة.

نستنتج من كل ذلك أن الاسلام السياسي كان ينطوي على نفاق، وأن المنافقين كانوا يعلنون إسلامهم طمعا أو خوفاً، وأنهم كانوا ينتفضون على الاسلام عندما تسنح لهم الفرصة، وأنهم كانوا يكيّدون الاسلام والمسلمين طيلة حياة الرسول في المدينة، وبالرغم من أن النبي كان عارفاً بهم، إلا انه فتح الباب لهم لكي يدخلوا في الاسلام، من أجل أن يبني بهم الى جانب المؤمنين، الدولة الاسلامية وينشر الاسلام في كافة الأصقاع.

الفصل الرابع: هل أصبح النبي محمد ملكاً في المدينة؟

لقد كان النبي محمد (ص) منذ أول يوم صدع برسالته، ينفي أن يكون طالب ملك، وكان يؤكد أنه ليس الا نذيراً وبشيراً، ولكن زعماء قريش كانوا يشكون بأن هدف النبي محمد (ص) من دعوته للتوحيد هو الوصول الى السلطة، فاجتمعوا معه وقالوا له: "لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وسفهت الأحلام، وشتمت الآلهة، وفرقت الجماعة، فما بقي من أمر قبيل إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك! فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا، سودناك علينا، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا".

فقال رسول الله (ص): " ما جئتمكم بما جئتمكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن بعثني الله إليكم رسولا وأنزل علي كتابا، وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا ، فبلغتكم رسالة ربي ، ونصحت لكم ، فإن تقبلوا مني ما جئتمكم به ، فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله ، حتى يحكم الله بيني وبينكم".

وعندما حاصره المشركون وعزموا على قتله، استعان النبي بالأنصار وهاجر الى المدينة، ليس لكي يصبح ملكا أو رئيسا عليهم، وانما لكي ينشر دعوته بحرية، واذا نظرنا الى عقد البيعة الذي أخذه النبي من الأنصار في "العقبة الثانية" لوجدناه لا يتضمن سوى الحماية والدفاع كما يحمي الأنصار عن نساءهم وأولادهم، ولا يوجد فيه أي ذكر لإقامة دولة أو ترؤس النبي لها.

ولكن نظرة المشركين الى النبي كملك، تعززت بعد هجرته الى المدينة وإقامة السلطة الاسلامية، وقد عبر عن ذلك أبو سفيان عندما رأى جيوش المسلمين وهي تدخل مكة، يوم الفتح، فقال للعباس: يا أبا الفضل، لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً. فنهره العباس قائلا: ويحك إنها النبوة! فقال: نعم إذا.

وهكذا كان اليهود أيضا ينظرون الى النبي كملك، فقد قال زعيمهم حبي بن أخطب للحبر اليهودي الذي أعلن إسلامه عبد الله بن سلام: "ما تكون النبوة في العرب، ولكن صاحبك ملك".

ولم تختلف نظرة النصارى الى النبي محمد عن نظرة اليهود والمشركين بأنه ملك.

و كان سائر العرب يخلطون بين النبوة والملك ، وينظرون الى النبي محمد وهو يسيطر على الجزيرة العربية، بتردد بين النبوة والملك، وقد اشارت أخت عدي بن حاتم الطائي عليه ، عندما احتلت قوات المسلمين بلاد طي، قائلة: أرى والله أن تلحق به سريعا، فإن يكن الرجل نبيا فالسابق إليه له فضيلة، وإن يكن ملكا فلن تذل في عز اليمن وأنت أنت! قال: والله إن هذا للراي. فذهب الى الرسول وأسلم.

وقال أناس من بني تميم لبعضهم البعض: انطلقوا بنا الى هذا الرجل، فإن يكن نبيا فنحن أسعد الناس به، وإن يكن ملكا نعش في جناحه.

وقد شاعت عن النبي محمد في الغرب الأوربي صورة مشوهة بعيدة عن النبوة، تقتصر على النظر اليه كملك. كما تقول كارين أرمسترونغ في كتابها "سيرة النبي محمد": "لا يزال من الشائع عند أبناء الغرب أن يسلموا دون نقاش بأن محمدا ليس سوى رجل استغل الدين في تحقيق الفتوحات وسيادة العالم، وأن الاسلام دين عنف يعتمد على السيف".

ويعود الالتباس القديم والحديث في النظر الى النبي محمد من قبل المشركين

واليهود والنصارى والمستشرقين: (هل هو نبي؟ أم ملك؟) الى تصورهم عن الأنبياء السابقين وافتراضهم بوجود اقتصار النبي محمد في نشر دعوته - إذا كان نبيا - على قوة الدليل فقط، كما فعل الأنبياء السابقون.

وقد عزز تلك الصورة المغلوطة عن النبي محمد (ص) التطور الذي حصل بين أسلوبه في الدعوة للإسلام في المدينة، عنه في مكة، واتباعه لأسلوب القوة في مواجهة المشركين بدلا من أسلوب اللين والموادعة والسلام، كما تنبئ الآيات التالية التي تأمر بالجهاد:

• "وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ" (الأنفال، 60).

• "فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم، وخذوهم، واحصروهم، واقعدوا لهم كل مرصد، فإن تابوا وأقاموا الصلاة وأتوا الزكاة فخلوا سبيلهم، إن الله غفور رحيم" (التوبة، 5)

• "قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ، مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ" (التوبة، 29)

• و الحديث النبوي الذي يقول: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة؛ فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله تعالى".

وذلك خلافا لآيات سابقة تصف الرسول الأعظم بأنه نبي رسول مبلغ، يرفض استخدام القوة كالأيات التالية:

• "لا إكراه في الدين، قد تبين الرشد من الغي..." (البقرة، 256)

• "قل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر..." (الكهف، 29)

• "وإن جنحوا للسلم فاجنح لها..." (الأنفال، 61)

• "فاصفح عنهم، وقل: سلام، فسوف يعلمون" (الزخرف، 89)

• "قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله، ليجزى قوما بما كانوا يكسبون، من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها، ثم إلى ربكم ترجعون" (الجاثية، 14)

• "لكم دينكم ولي دين" (الكافرون، 6)

• "إنك لا تهدي من أحببت، ولكن الله يهدي من يشاء، وهو أعلم بالمهتدين".

(القصص، 56)

• "ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين، وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله، ويجعل الرجس على

- الذين لا يعقلون". (يونس، 99-100)
- "ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك، ولذلك خلقهم، وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين". (هود، 118-119)
- "أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين، يضل من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات". (فاطر، 8)
- "ليس عليك هداهم، ولكن الله يهدي من يشاء". (البقرة، 272)
- "لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين". (الشعراء، 3)
- "فإنما عليك البلاغ، وعلينا الحساب". (الرعد، 40)
- "فذكر إنما أنت مذكر، لست عليهم بمسيطر". (الغاشية، 21 – 22)
- "... فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم، فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً". (النساء، 90)

وبناء على هذا التطور في أسلوب الدعوة، قال كثير من الفقهاء المسلمين عبر التاريخ بأن آية السيف (التوبة، 5) قد نسخت حوالي مائة آية تدعو للسلم واللين وحرية العبادة والإيمان والموادعة والصبر والدعوة الى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، كآيات التي استعرضنا قسماً منها فيما سبق. ويعني الفقهاء بالنسخ رفع الحكم الشرعي السابق بحكم جديد، تبعاً لتغير الظروف، كانتقال النبي الأكرم من مكة الى المدينة، وامتلاكه لأسباب القوة بعد حالة الضعف السابقة.

ولكن بعض الفقهاء رفضوا مبدأ النسخ، وقالوا بضرورة وضع آية السيف في سياقها وظروفها الخاصة. وهناك من فرّق بين المشركين وأهل الكتاب، فصرف آية السيف الى المشركين، وآيات الموادعة الى أهل الكتاب. وقال بعض آخر بأن آية السيف ليست ناسخة لآيات الموادعة، وإنما تختص كل آية بحالة معينة، فإذا كان المسلمون أقوياء ولهم شوكة فإنهم ينفذون آية السيف، وإذا كانوا ضعفاء فإنهم يلتزمون بآيات الموادعة. وبمعنى آخر فإن آية السيف استراتيجية نهائية، وأن آيات الموادعة تكتيكية مؤقتة حسب الظروف والإمكانات المتاحة، وأن الأصل في الإسلام هو الدعوة والجهاد بهدف تحكيم شريعة الإسلام بكل ما أوتي المسلمون من قوة، وعندما تعترضهم معوقات تعرقل تحقيق ذلك الهدف، فيمكنهم اللجوء إلى المهادنة و المصالحة الى حين امتلاك القوة مرة أخرى.

وبغض النظر عن تفاصيل هذه الآراء حول النسخ والمنسوخ، فإن التجربة التاريخية للنبي الأكرم تؤكد اختلاف مرحلة بناء الدولة في المدينة عن مرحلة الدعوة السلمية في مكة، حيث قاد النبي في المدينة الحروب والغزوات وأخذ الجزية وأقام الحدود وما إلى ذلك.

ولكن ذلك التطور في أسلوب الدعوة من السلم الى الحرب، ومن اللين الى القوة، لم يصاحبه اختلال في شخصية النبي بين المرحلتين المكية والمدنية، إذ أنه لم يستخدم القوة لبناء امبراطورية شخصية أو عائلية، وانما استخدمها فقط من أجل إحداث الثورة التوحيدية ونشر الإسلام، والقضاء على مظاهر الشرك وعبادة الأصنام في الجزيرة العربية.

ولا شك أن النبي الأكرم قد أصبح في المدينة حاكما (ملكا) ذا قوة عظيمة، في إطار النبوة المنتصرة، وهناك حديث منسوب الى النبي يتضمن معنى الملك والسيطرة على العالم، يقول فيه: "نصرت بالرعب على العدو.. وبينما أنا نائم أوتيت بمفاتيح خزائن الأرض فوضعت في يدي". وقد أشار النبي الى ذلك أيضا في أثناء حرب الخندق عندما ضرب الصخرة وقال: والله اعطيت مفاتيح الشام، والله إنني لأنظر قصورها الحمر الساعة. ثم ضرب الثانية فقطع، فقال: الله أكبر اعطيت فارس، والله إنني لأبصر قصر المدائن الأبيض الآن. ثم ضرب الثالثة فقال: الله أكبر اعطيت مفاتيح اليمن، والله إنني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني. وقد يستغرب البعض من وصف النبي محمد بالملك، أو يرفض إطلاق هذه الصفة عليه، ويعتقد أنها تتناقض مع النبوة، كما فعل علي عبد الرازق، في كتابه (الاسلام واصول الحكم) الصادر سنة 1925 ولكن ذلك الرفض قد يعود الى الصورة السلبية عن الملك في الأذهان، وأما الصورة الإيجابية التي تعني الحكم وتطبيق شرع الله وأحكامه، فهي لا تتناقض مع النبوة، وقد أشار القرآن الكريم في آيات عديدة الى اتصاف بعض الأنبياء السابقين كيوسف وداود وسليمان بصفة الملك.

ومن الواضح من سيرة النبي الأكرم المليئة بالزهد والتواضع والخلق الحسن أنه لم يكن يهدف الى الملك الدنيوي، بل كان يرفض أي نوع من التجليل والتعظيم، حتى أنه كان يرفض تقبيل يده، وعندما حاول أحدهم ذات مرة أن يقبل يده، حذف يده منه، وقال مستنكرا: "ما هذا؟ إنما يفعل هذا الأعاجم بملوكها و لست بملك، إنما أنا رجل منكم".

الفصل الخامس: بناء الدولة الإسلامية في المدينة

لم تكن الهجرة من مكة الى المدينة هروبا من قمع قريش فحسب، كما كانت هجرة المسلمين الى الحبشة، وانما كانت منطلقا لمواجهة قريش، ورد الصاع لها

صاعين، وتأسيس الدولة الإسلامية.

دستور المدينة

فما أن استقر الرسول في المدينة حتى كتب وثيقة مع اليهود والمشركين فيها عرف بدستور المدينة، تضمن أمنهم وحریتهم العقدية، وتنص على أن "المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، أمة واحدة من دون الناس".

المواجهة مع قريش

وبعد حوالي سبعة أشهر من الهجرة، نزلت آية تحليل القتال للمسلمين:

- "اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير".
(الحج، ٣٩)

فبدأ النبي يجهز السرايا لاعتراض قوافل قريش، ولكن أيا من السرايا لم يفلح بالسيطرة عليها، ما عدا سرية عبد الله بن جحش الذي أرسله النبي في شهر رجب من العام الثاني؛ إلى نخلة بين مكة والطائف؛ وأمره بترصد قريش واستعلام أخبارهم. فقاموا بقتل رجل من قريش، وأسروا رجلين، وغنموا عيرا لقريش. فلما قدموا على رسول الله، قال: ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام. وقالت قريش: قد استحل محمدٌ وأصحابه الشهر الحرام، فسفكوا فيه الدم وأخذوا فيه الأموال، وأسروا فيه الرجال. فلما أكثر الناس في ذلك أنزل الله عز وجل على رسوله:

- "يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه؟ قل قتال فيه كبير، وصد عن سبيل الله وكفرٌ به والمسجد الحرام، وإخراج أهله منه أكبر عند الله، والفتنة أكبر من القتل". (البقرة، 217)

معركة بدر

وكاد المسلمون بقيادة النبي أن ينجحوا في القبض على عير بقيادة أبي سفيان، في شهر رمضان من العام الثاني للهجرة، ولكن الأمل تحول إلى مفاجأة غير متوقعة، حيث أفلت أبو سفيان مرة أخرى بقافلته القادمة من الشام، وأرسل إلى قريش يستغيث بهم، فوجد المسلمون أنفسهم فجأة في مواجهة جيش قرشي مؤلف من حوالي ألف مقاتل، بينما كان عددهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا، إضافة إلى أنهم لم يكونوا مستعدين عسكريا للقتال، وإنما ذهبوا لاعتراض عير قريش،

ولكنهم قرروا المواجهة والتحدي، فحدثت بينهم مواجهة في بدر، في التاسع عشر من شهر رمضان، من السنة الثانية للهجرة. ولما التقى الناس، ودنا بعضهم من بعض، قال رسول الله: "اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك؛ اللهم فنصرك الذي وعدتني؛ اللهم فأحنهم الغداة! وعندما نظر إلى المشركين وعدتهم، ونظر إلى أصحابه نيفاً على ثلاثمائة، استقبل القبلة، فجعل يدعو، يقول: اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض". وكانت نتيجة المعركة سارة للمسلمين، حيث قتلوا سبعين شخصاً من مشركي قريش بمن فيهم زعيمهم أبو جهل، وأسروا سبعين، وغنموا أموالاً كثيرة، فأخذ النبي خمسها ووزع الباقي على المقاتلين. وكان لتحليل الغنائم أثر كبير في تقوية روح الجهاد لدى المسلمين، ونزلت آية الخمس من سورة الأنفال:

• "واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين، وابن السبيل، إن كنتم آمنتم بالله، وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان، والله على كل شيء قدير". (الأنفال،

(41)

معركة أحد

لم تحسم معركة بدر والهزيمة التي لحقت بقريش الحرب بينها وبين المسلمين، فقد أقسم زعيمها الجديد أبو سفيان ألا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمداً، فقام ببعض المحاولات الفاشلة للإغارة على ضواحي المدينة، ثم أعد جيشاً كبيراً يقدر بثلاثة آلاف رجل، من قريش بأحابيشها ومن أطاعها من قبائل كنانة وأهل تهامة. وأرسل رسولاً، إلى الأوس والخزرج، أن خلوا بيننا وبين ابن عمنا ننصرف عنكم، فإنه لا حاجة لنا بقتالكم. وتحالف مع فريق من أهل المدينة بقيادة أبي عامر الراهب (الذي سماه النبي بالفاسق) لكي يثبط عزيمة الأنصار ويشق صفوفهم.

وهو ما أثر في معنويات فريق من المسلمين، فما أن خرج جيش المسلمين الذي كان يقدر بألف رجل، لملاقاة المشركين في أحد، حتى انسحب زعيم أهل المدينة (المنافق) عبد الله بن أبي، في منتصف الطريق، مع ثلاثمائة من الأنصار، وعندما بدأت المعركة، هرب أهل مكة من أمام المسلمين وتركوا معسكرهم بكل ما فيه، فهب المسلمون لجمع الغنائم، وبينما هم كذلك وإذا بالمشركين بقيادة خالد بن الوليد يلتفون عليهم من خلف الجبل ويعملون فيهم

السيف ويقتلون منهم سبعين ويشردونهم ويلحقون بهم هزيمة كبرى، قبل أن يستعيد المسلمون زمام المبادرة ويقاوموا المشركين. وفشا في الناس أن رسول الله قد قتل، فقال بعض المسلمين: ليت لنا رسولا إلى عبد الله بن أبي؛ فيأخذ لنا أمانة من أبي سفيان! يا قوم إن محمداً قد قتل، فارجعوا إلى قومكم قبل أن يأتوكم فيقتلوكم.

غزوة الرجيع

أدت هزيمة المسلمين في أحد إلى تشجيع بعض القبائل العربية المشركة، على استغلال أجواء الهزيمة، فقدم في السنة الرابعة للهجرة رهط من قبيلتي عضل والقارة فقالوا: يا رسول الله؛ إن فينا إسلاماً وخيراً؛ فابعث معنا نفرًا من أصحابك يفقهوننا في الدين، ويقرؤنا القرآن، ويعلموننا شرائع الإسلام. فبعث رسول الله معهم نفرًا ستة من أصحابه، فخرجوا مع القوم، حتى إذا كانوا على الرجيع (ماء لهذيل بناحية من الحجاز) غدروا بهم، فقتلوا بعضهم وأسروا بعضهم فباعوهم في مكة ليقتلوهم ثأرا ممن قتل في بدر وأحد.

وبسبب ذلك، حاول رسول الله أن يقتل أبا سفيان، فأرسل شخصين إلى مكة، ولكن الخطة فشلت.

وفي نفس الوقت تقريبا، قدم عامر بن مالك بن جعفر ملاعب الأسنة - وكان سيد بني عامر بن صعصعة - على رسول الله؛ وأهدى إليه هدية، فأبى رسول الله أن يقبلها، وقال:

• يا أبا براء، لا أقبل هدية مشرك، فأسلم إن أردت أن أقبل هديتك. ثم عرض عليه الإسلام، وأخبره بما له فيه، وما وعد الله المؤمنين من الثواب، وقرأ عليه القرآن فلم يسلم ولم يبعد، وقال:

• يا محمد، إن أمرك هذا الذي تدعو إليه حسنٌ جميل، فلو بعثت رجلاً من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك. فقال رسول الله:

• إني أخشى عليهم أهل نجد! فقال أبو براء:

• أنا لهم جارٌ، فابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك.

فبعث رسول الله المنذر بن عمرو في أربعين أو سبعين رجلاً من أصحابه من خيار المسلمين، فساروا حتى نزلوا بئر معونة، فلما نزلوها بعثوا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله إلى عامر بن الطفيل، فقال لهم: يا أهل بئر معونة،

إني رسول رسول الله إليكم، إني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، فأمنوا بالله ورسوله. فلما أتاه لم ينظر في كتابه، حتى عدوا عليه وعلى أصحابه فقتلوه عن آخرهم، إلا رجلاً واحداً، فإنهم تركوه وبه رمق، فارتث من بين القتلى، فعاش حتى قتل يوم الخندق.

وحاول يهود بني النضير أيضاً أن يستغلوا أجواء الهزيمة، ويغدروا بالنبي ويقتلوه، رغم ما كان بينهم وبينه من عهد. وذلك عندما جاءهم رسول الله في طلب قرص (دية عن قتيلين) فتأمروا عليه ليقتلوه. فحاصرهم النبي ثم أجلاهم من المدينة، وصادر أموالهم وأسلحتهم.

معركة الخندق

أدى إجلاء النبي ليهود بني النضير من ديارهم في المدينة، ومصادرة أموالهم، إلى تألبهم أكثر، ودفعهم إلى التخطيط لحرب شاملة ضد المسلمين، فخرج زعمائهم سلام بن أبي الحقيق، وحبي بن أخطب، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق؛ حتى قدموا على قريش بمكة؛ فدعوهم إلى حرب رسول الله، وقالوا: إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله، فأجمعوا لذلك واعدوا له.

ثم خرج أولئك نفر من يهود حتى جاءوا قبيلة غطفان فدعوهم إلى حرب رسول الله، وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه؛ وأن قريشاً تابعوهم على ذلك وأجمعوا فيه، فأجابوهم. فخرجت قريش وقائدها أبو سفيان، وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن، والحارث بن عوف المري في بني مرة، ومسعود بن رخيصة؛ فيمن تابعه من قومه من أشجع. وخرج حبي بن أخطب؛ حتى أتى كعب بن أسد القرظي صاحب عقد بني قريظة وعهدهم؛ وكان قد وادع رسول الله على قومه، وعاهده على ذلك وعاقده؛ فلم يزل حبي بكعب يفتله حتى نقض عهده، وبرئ مما كان عليه فيما بينه وبين رسول الله.

فلما سمع بهم رسول الله وبما أجمعوا له من الأمر، ضرب الخندق على المدينة، بمشورة من سلمان الفارسي، فلم تستطع جيوش الأحزاب أن تعبر الخندق ما عدا بعض الفوارس منهم، كعمرو بن ود العامري، الذي قتله علي بن أبي طالب، وهبت ريح عاصف، وألقى الله الرعب في قلوب المشركين ففرقوا بعد عشرين يوماً من الحصار، وعادوا أدرأجهم.

وقد عبر القرآن الكريم عن ذلك، بقوله تعالى:

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا

عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا. إِذْ جَاؤُوكُمْ
 مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ
 وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنُونَا. هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا. وَإِذْ
 يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا
 غُرُورًا. وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا
 وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ
 يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا. وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَاتَوَّهَّا
 وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا. وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ الدُّبَارَ
 وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا. قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ
 وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا. قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ
 سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا. قَدْ
 يَعْلَمُ اللَّهُ الْمَعْوِقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا
 قَلِيلًا. أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ
 كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالسِّنَةِ حِدَادٍ
 أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَبَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى
 اللَّهِ يَسِيرًا. يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ
 أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا
 إِلَّا قَلِيلًا. لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ
 وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا. وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا
 وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا. مِنْ
 الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ
 مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا. لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ
 الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا. وَرَدَّ اللَّهُ
 الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ

قَوِيًّا عَزِيمًا". (الأحزاب، ٩-٢٥)

فشل الأحزاب منعطف تاريخي كبير

أدى فشل أكبر حملة عسكرية لتحالف الأحزاب (قريش مع غطفان واليهود)، ضد المسلمين، الى انقلاب المعادلات العسكرية لصالح المسلمين بصورة عامة، وقد عبر الرسول عن ذلك، بعد منصرفه عن الخندق، حيث قال: "الآن نغزوهم - يعني قريشاً - ولا يغزوننا"، وقد جاءت الأحداث اللاحقة لتؤكد هذه المعادلة الجديدة، حتى فتحت مكة بعد سنتين.

غزوة بني قريظة

قام المسلمون بعد هزيمة الأحزاب مباشرة، بالتوجه نحو حصون قبيلة بني قريظة، الذين غدروا بالمسلمين أثناء معركة الخندق، ونقضوا عهدهم الذي كان بينهم وبين المسلمين، فقاموا بتدفيعهم ثمنا غاليا جدا، فقد حاصروهم حوالي اسبوعين حتى نزلوا على حكم الرسول، فحكم فيهم بقتل الرجال وسبي النساء والذرية. كما قال تعالى:

- "وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيمهم، وقذف في قلوبهم الرعب، فريقا تقتلون وتأسرون فريقا، وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم، وأرضا لم تطأوها، وكان الله على كل شيء قديرا". (الأحزاب، 26 – 27)

تحليل سبي النساء وملك اليمين

وقد أحل الله في هذه الغزوة لأول مرة، سبي النساء، حيث نزلت هذه الآية:

- "يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك... وما ملكت أيماهم، لكيلا يكون عليك حرج، وكان الله غفورا رحيما". (الأحزاب، 50)

قال ابن إسحاق: ثم إن رسول الله قسم أموال بني قريظة ونساءهم وأبناءهم على المسلمين، واصطفى لنفسه من نسائهم ريحانة بنت عمرو، فكانت عند رسول الله حتى توفي عنها وهي في ملكه.

وقام النبي بعد تلك الغزوة، بغزو بني المصطلق، وأسر نساءهم وذريتهم، وتزوج "جويرية" بنت زعيمهم الحارث بن ضرار بعد أن كاتبها واعتقها.

ثم قام النبي بغزو حصون خيبر اليهودية، وأسر صفية بنت حيي بن أخطب (زعيم يهود بني النضير وأحد علمائهم)، فيمن أسر من السبايا، واصطفاهما

لنفسه، ثم أعتقها وتزوجها، وجعل عتقها صداقها. وقبل ما يهدى إليه من الرقيق، مثلما فعل بالنسبة الى مارية القبطية (أم إبراهيم) التي أهداها اليه المقوقس، حاكم الإسكندرية الروماني.

وقد ذكر القرآن تحليل ملك اليمين في عدة آيات أخرى، منها في سورة النساء:

• "وإن خفتن ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع، فإن خفتن ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم" (النساء، 3)

• "إلا ما ملكت أيمانكم". (النساء، 24)

• "ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات... فانكحوهن بإذن أهلن وآتوهن أجورهن بالمعروف... وأن تصبروا خير لكم، والله غفور رحيم". (النساء، 25)

وكما هو معروف فقد كان الرق يومئذ شائعا في الجزيرة العربية والعالم، وكان جزءا من قوانين الحرب الدولية، ولذلك فقد مارس النبي استرقاق الأسرى، في حروب عديدة.

ولم يكن ثمة حكم إلهي (قرآني) في البداية حول الموقف الواجب من الأسرى، هل هو القتل؟ أم الفداء؟ أم المن والعفو؟ وعندما وقعت معركة بدر واسر فيها المسلمون سبعين مشركا قرشيا تردد المسلمون في قتلهم أو قبول الفداء منهم، فشاور رسول الله المسلمين، فقال أبو بكر: يا نبي الله، هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، فإني أرى أن تأخذ منهم الفدية؛ فيكون ما أخذنا منهم قوة، وعسى الله أن يهديهم، فيكونوا لنا عضداً. وقال عمر: لا والله، ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكني أرى أن تمكني من فلان فأضرب عنقه، وتمكن حمزة من أخ له فيضرب عنقه، وتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه، حتى يعلم الله أن ليس في قلوبنا هودة للكفار؛ هؤلاء صناديدهم وقادتهم وأئمتهم. ثم قال رسول الله: أنتم اليوم عالة (أي فقراء) فلا يفلتن منهم أحدٌ إلا بفداء أو ضرب عنق.

لكن الله عز وجل عاتب نبيّه عتاباً شديداً على هذا الاختيار، وأنزل:

• "ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم، لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم، فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا واتقوا الله إن الله

غفور رحيم". (الأنفال، 67-69)

ويبدو أن العتاب كان انتقادا لاختيار أخذ الفداء على قتل الأسرى، في ذلك الوقت الذي كان المسلمون فيه ضعفاء وبحاجة أكبر لردع المشركين عن مهاجمتهم مرة أخرى، في حين كان اختيار الفداء بسبب فقر المسلمين وحاجتهم للمال.

ويمكن أن نفهم من الآية الأنفة: أنها تشرع للأسر، وإباحة الفداء، في حالات القوة (الإثخان في الأرض). وقد فتح هذا الحكم الباب أمام جواز استرقاق الأسرى، حتى يدفعوا الفدية، أو المن عليهم، أي العفو عنهم، وهو ما تشرحه الآية الرابعة من سورة محمد:

• " فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم".

ويمكن أن نفهم من هذه الآية أن المن أي العفو مقدم على الفداء، وأن الاسترقاق ليس خيارا حتميا، بل يمكن أن يبادر المسلمون الى المن بصورة ذاتية، أو بعد الاتفاق مع الكفار المحاربين مسبقا على تبادل الأسرى (مثل التوقيع على اتفاقية جنيف) وإلغاء قانون الاسترقاق والعبودية نهائيا، إذا التزم به الآخرون.

ويؤكد ذلك أن القرآن فتح أبواب الحرية للعبيد والإماء، سواء المأسورون في الحروب أو المشترون من أسواق النخاسة، وذلك بالتشجيع على العتق والفداء والمكاتبية، وتخصيص جزء من أموال الزكاة لتحرير العبيد، فقال في سورة البقرة:

• "ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والنبیین وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب...". (البقرة، 177) وقال في سورة التوبة:

• "إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم، وفي الرقاب...". (التوبة، 60)

وحت على المكاتبية وهي تعهد العبد بالعمل للمالك بما يفي ثمنه، فقال في سورة النور:

- "والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً، وآتوهم من مال الله الذي آتاكم". (النور، 33)

النبي يشن سلسلة من الغزوات على الأعراب

ثم قام النبي باستغلال حالة الهزيمة التي أصابت قريش والأحزاب، بشن سلسلة غزوات صغيرة على القرى والأعراب المحيطين بالمدينة، المناوئين له، وكان من أبرز ما حدث في السنة السادسة من الهجرة:

الانتقام من عكل والعربين

حيث قام رهط من قبيلتي عرينة وعكل، بالتظاهر بالاسلام، ثم ارتدوا وقتلوا راعيا لإبل النبي وحاربوا الله ورسوله، فقام النبي بملاحقتهم والانتقام منهم ومعاقبتهم شر عقوبة. وذلك بقطع أيديهم وأرجلهم، وسمل عيونهم، وتركهم في الحرة حتى الموت. ونزلت فيهم هذه الآية:

- "إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم". (المائدة، 33)

صلح الحديبية

بعد عام من فشل الأحزاب، قام النبي بعملية هجومية على مكة ولكن بصورة سلمية، فقد أعلن في شهر ذي القعدة من السنة السادسة، أنه يريد العمرة، وأخبر أصحابه أنه رأى رؤيا بأنه دخل المسجد الحرام مع أصحابه محلقين رؤوسهم ومقصرين، وخرج في ألف وأربعمائة من أصحابه، لا يريد حرباً، وساق معه الهدى، وأحرم بالعمرة، ليأمن الناس من حربه، وليعلم الناس أنه إنما جاء زائراً لهذا البيت، معظماً له. واستنفر النبي من حوله من أهل البوادي من الأعراب أن يخرجوا معه، وهو يخشى من قريش أن يعرضوا له بحرب، أو يصدوه عن البيت، فأبطأ عليه كثيرٌ منهم. فلما دنا رسول الله من مكة منعه المشركون من الدخول، فسار حتى أتى منى، ثم نزل بأقصى الحديبية، فقال:

- "يا ويح قريش! قد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب؛ فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين؛ وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة. فما تظن قريش!

فوالله لا أزال أجاهدكم على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة. وأضاف: لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألوني صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها. وإنا لم نأت لقتال أحد، ولكننا جئنا معتمرين".

فبعثت قريش سهيل بن عمرو، وقالوا: له: انت محمدًا فصالحه، ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لا تحدث العرب أنه دخل علينا عنوة أبدًا. ثم جرى بينهما الصلح على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيهن الناس، ويكف بعضهم عن بعض، وأن يرجع النبي عن مكة ذلك العام، على أن تخلي قريش مكة للمسلمين في السنة التالية، ثلاثة أيام.

وأجل الله وعد الدخول إلى البيت الحرام، إلى العام القادم، فقال:

• "لقد صدق الله ورسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين، لا تخافون، فعلم ما لم تعلموا، فجعل من دون ذلك فتحا قريباً". (الفتح، 27) ووعدهم في مقابل ذلك بالحصول على مغنم كثيرة في المستقبل:

• "لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم، فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً. ومغنم كثيرة يأخذونها، وكان الله عزيزاً حكيماً. وعدكم الله مغنم كثيرة تأخذونها، فجعل لكم هذه، وكف أيدي الناس عنكم، ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطاً مستقيماً، وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها، وكان الله على كل شيء قديراً". (الفتح، 18 – 21) وبين الله للمؤمنين فوائد الصلح والسلام ومضار الحرب، فقال:

• " وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم، وكان الله بما تعملون بصيراً. هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدي معكوفاً أن يبلغ محله، ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم، ليدخل الله في رحمته من يشاء، لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً". (الفتح، 24 – 25)

وقد تجلت الآثار الإيجابية لصلح الحديبية فيما بعد، كما يقول الزهري: فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه؛ إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة، ووضعت الحرب أوزارها، وأمن الناس كلهم بعضهم بعضاً فالتقوا، وتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه،

فلقد دخل في تينك السننتين في الإسلام مثل ما كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر.

غزوة خيبر

استغل النبي أجواء الصلح الذي عقده في الحديبية مع قريش، في السنة السادسة، ليمهد الطريق نحو إخضاع يهود خيبر، الذين كانوا يقفون عقبة أمام تمدد الدولة الإسلامية الناشئة، وإخضاع اليمامة وقبائل غطفان.

وقد تمت هذه الغزوة في محرم وصفر من السنة السابعة.

رسائل نبوية إلى الملوك

بعد أن كسر النبي شوكة قريش في صلح الحديبية، وأمن شرها، وبينما كان يحاول فرض الأمن والهيمنة على مناطق شمال الجزيرة العربية الشرقية القريبة من المدينة، قام بخطوة تاريخية جديدة هي إرسال رسائل إلى ملوك العرب والعجم في أطراف الجزيرة العربية والروم ومصر وفارس، فبعث:

- حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس (حاكم الاسكندرية البيزنطي). ومعه الرسالة التالية: "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، وإن توليت فان عليك إثم القبط و(يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون)".

- عمرو ابن أمية الضمري إلى النجاشي ملك الحبشة.

- شجاع بن وهب، إلى الحارث بن أبي شمر الغساني (ملك الغساسنة في سوريا). ومعه كتاب فيه: "سلام على من اتبع الهدى وأمن به. إني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبقى لك ملكك".

- دحية ابن خليفة الكلبي إلى هرقل (قيصر الروم) ومعه كتاب فيه: "بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم. السلام على من اتبع الهدى. أما بعد: أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين؛ وإن تتول فإن إثم الأكارين عليك - يعني تحماله".

- سليط بن عمرو العامري إلى هوزة بن علي الحنفي (ملك اليمامة).
ومعه كتاب فيه: "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله الى هوزة بن علي، سلام على من اتبع الهدى، واعلم أن ديني سيظهر الى منتهى الخف والحافر، فأسلم تسلم، وأجعل لك ما تحت يديك".
- عبد الله بن حذافة السهمي إلى (كسرى). ومعه كتاب فيه: "بسم الله الرحمن الرحيم؛ من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس. سلام على من اتبع الهدى، وأمن بالله ورسوله؛ وشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، إلى الناس كافة، لينذر من كان حيا؛ أسلم تسلم، فإن أبيت فعليك إثم المجوس.
- العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى (صاحب البحرين)
- عمرو بن العاص، إلى جيفر بن جلندي وعباد (عبد، عبيد) بن جلندي الأزديين (صاحبى عمان).

ردود الملوك والأمراء النصارى

وقد أخذ النجاشي كتاب رسول الله (ص) فوضعه على عينيه، ونزل من سريره فجلس على الأرض تواضعا ثم أسلم وشهد شهادة الحق وقال: لو كنت أستطيع أن آتية لأتيته، وكتب إلى رسول الله (ص) ، بإجابته وتصديقه وإسلامه، على يدي جعفر بن أبي طالب. وكان النجاشي قد اقترب من الاسلام عندما استقبل المهاجرين الأولين، واستمع الى القرآن بتلاوة جعفر.

وأسلم المنذر بن ساوى (ملك البحرين) وكان نصرانيا، وأسلم معه فريق من قومه، كما أسلم ملكا عمان جيفر ابن الجلندي وأخوه عباد ، وأسلم معهما بشر كثير، ووضع الجزية على من لم يسلم.

وحسبما يروي علي بن برهان الدين الحلبي (1044هـ)، في (السيرة الحلبية) فإن عمرو بن العاص قال لجيفر ملك عمان: إن لم تسلم اليوم وتتبعه تطوؤك الخيل وتبيد خضراءك، أي جماعتك، فإسلم تسلم ويستعملك على قومك، ولا تدخل عليك الخيل والرجال، فأسلم.

وأما ملك اليمامة هوزة بن علي، (وكان نصرانيا أيضا) فقد رد رداً دون رد، وكتب الى النبي: " ما أحسن ما تدعو اليه وأجمله، والعرب تهاب مكاني، فاجعل الي بعض الأمر أتبعك". وأجاز سليطا بجائزة وكساه أثوابا من نسج هجر، فلما قرأ النبي كتابه قال: " لو سألتني سيابة من الأرض ما فعلت، باد وباد ما في يديه.

وذكر الواقدي أن أركون دمشق (عظيم من عظماء النصارى) كان عند هوزة، فسأله عن النبي (ص) فقال: جاءني كتابه يدعوني الى الاسلام، فلم أجبه. قال الأركون: لم لا تجيبه؟ قال: ظننت بديني، وأنا ملك قومي، وإن اتبعته لم أملك. قال: بلى والله لئن تبعته ليملكنك، فان الخيرة لك في اتباعه، وانه للنبي العربي الذي بشر به عيسى ابن مريم، وانه لمكتوب عندنا في الانجيل: محمد رسول الله. ولم يذكر الواقدي سنده الى هذه الرواية.

وقد توفي هوزة بعد فتح مكة.

رد هرقل ملك الروم

وأما هرقل ملك الروم الذي كان حينها في حمص، فتنقل المصادر التاريخية الاسلامية أنه عرف الحق وكاد يسلم، وأنه قال لدحية: ويحك! والله إني لأعلم أن صاحبك نبي مرسل؛ وأنه الذي كنا ننتظره ونجده في كتابنا؛ ولكني أخاف الروم على نفسي؛ ولولا ذلك لأتبعته. وأنه جمع الروم، فقال: يا معشر الروم؛ إني عارضٌ عليكم أمورًا، فانظروا فيهم قد أردتها! قالوا: ما هي؟ قال: تعلمون والله أن هذا الرجل لنبي مرسل؛ إنا نجده في كتابنا نعرفه بصفته التي وصف لنا، فهلم فلنتبعه، فنسلم لنا دنيانا وآخرتنا، فقالوا: نحن نكون تحت يدي العرب، ونحن أعظم الناس ملكًا، وأكثرهم رجالًا، وأفضلهم بلدًا! قال: فهلم فأعطيته الجزية في كل سنة، اكسروا عني شوكته وأستريح من حربه بمال أعطيته إياه، قالوا: نحن نعطي العرب الذل والصغار، بخرج يأخذونه منا؛ ونحن أكثر الناس عددًا، وأعظمهم ملكًا، وأمنعهم بلدًا؛ لا والله لا نفعل هذا أبدًا. قال: فهلم فلأصالحه على أن أعطيته أرض سورية، ويدعني وأرض الشام - وكانت أرض سورية أرض فلسطين والأردن ودمشق وحمص ومادون الدرب من أرض سورية؛ وكان ما وراء الدرب عندهم الشام - فقالوا له: نحن نعطيته أرض سورية؛ وقد عرفت أنها سرّة الشام؛ والله لا نفعل هذا أبدًا. فلما أبوا عليه، قال: أما والله لآتروا أنكم قد ظفرتم إذا امتنعتم منه في مدينتكم.

ويقول الطبري: حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة، قال: حدثنا محمد بن إسحاق، عن بعض أهل العلم، أن هرقل قال لدحية بن خليفة حين قدم عليه بكتاب رسول الله: ويحك! والله إني لأعلم أن صاحبك نبي مرسل؛ وأنه الذي كنا ننتظره ونجده في كتابنا؛ ولكني أخاف الروم على نفسي؛ ولولا ذلك لأتبعته؛ فاذهب إلى (صغاظر) الأسقف فاذكر لهم أمر صاحبكم؛ فهو والله أعظم في الروم مني،

وأجوز قولاً عندهم منى؛ فانظر ما يقول لك.

قال: فجاءه دحية؛ فأخبره بما جاء به من رسول الله إلى هرقل، وبما يدعو إليه، فقال صغاطر: صاحبك والله نبي مرسل؛ نعرفه بصفته، ونجده في كتبنا باسمه.

ثم دخل فألقى ثياباً كانت عليه سوداً، ولبس ثياباً بيضاء، ثم أخذ عصاه؛ فخرج على الروم وهم في الكنيسة، فقال: يا معشر الروم؛ إنه قد جاءنا كتابٌ من أحمد؛ يدعوننا فيه إلى الله عز وجل؛ وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن أحمد عبده ورسوله.

قال: فوثبوا عليه وثبة رجل واحد، فضربوه حتى قتلوه. فلما رجع دحية إلى هرقل فأخبره الخبر قال: قد قلت لك: إنا نخافهم على أنفسنا؛ فصغاطر - والله - كان أعظم عندهم وأجوز قولاً مني.

هذا ما يقوله الطبري، ولا يوجد لدينا ما يؤيد هذه الرواية عن مقاربة هرقل للإسلام (والاسقف الأعظم)، من مصادر مستقلة، ولكن الثابت تاريخياً أن هرقل رد رسول النبي محمد (دحية الكلبي) رداً جميلاً وجزاه بهدايا ثمينة.

ومما يؤيد هذا الموقف الإيجابي أو المحايد لهرقل قول أبي سفيان: فوالله إنا لبغزة. إذ هجم علينا صاحب شرطته؛ فقال: أنتم من قوم هذا الرجل الذي بالحجاز؟ قلنا: نعم، قال: انطلقوا بنا إلى الملك؛ فانطلقنا؛ فلما انتهينا إليه قال: أنتم من رهط هذا الرجل؟ قلنا: نعم، قال: فأيكم أمس به رحماً؟ قلت: أنا.

قال أبو سفيان: وايم الله ما رأيت من رجل أرى أنه كان أنكر من ذلك الأغلف - يعني هرقل - فقال: ادنه فأقعدني بين يديه، وأقعد أصحابي خلفي، ثم قال: إني سأسأله؛ فإن كذب فردوا عليه؛ فوالله لو كذبت ما رودوا علي، ولكني كنت أمراً سيداً أتكرم عن الكذب؛ وعرفت أن أيسر ما في ذلك إن أنا كذبت أن يحفظوا ذلك علي؛ ثم يحدثوا به عني؛ فلم أكذبه، فقال: أخبرني عن هذا الرجل الذي خرج بين أظهركم يدعي ما يدعي! فقال: فجعلت أزهد له شأنه، وأصغر له أمره؛ وأقول له: أيها الملك، ما يهكم من أمره! إن شأنه دون ما يبلغك، فجعل لا يلتفت إلى ذلك، ثم قال: أنبئني عما أسألك عنه من شأنه.

قلت: سل عما بدا لك؛

قال: كيف نسبه فيكم؟

قلت: محضٌ؛ أوسطنا نسبًا.

قال: فأخبرني هل كان أحد من أهل بيته يقول مثل ما يقول، فهو يتشبه به؟

قلت: لا،

قال: فهل كان له فيكم ملكٌ فاستلبتموه إياه، فجاء بهذا الحديث لتردوا عليه ملكه؟

قلت: لا،

قال: فأخبرني عن أتباعه منكم، من هم؟ قال:

قلت: الضعفاء والمساكين والأحداث من الغلمان والنساء، وأما ذوو الأسنان والشرف من قومه، فلم يتبعه منهم أحدٌ.

قال: فأخبرني عن تبعه، أيحبه ويلزمه أم يقليه ويفارقه؟ قال:

قلت: ما تبعه رجل ففارقه.

قال: فأخبرني كيف الحرب بينكم وبينه؟ قال:

قلت: سجالٌ يدال علينا وندال عليه؛

قال: فأخبرني هل يغدر؟ فلم أجد شيئاً مما سألني عنه أغمره فيه غيرها:

قلت: لا، ونحن منه في هدنة، ولا نأمن غدره. قال: فوالله ما التفت إليها مني، ثم كر على الحديث.

قال: سألتك كيف نسبه فيكم فزعمت أنه محضٌ، من أوسطكم نسبًا؛ وكذلك يأخذ الله النبي إذا أخذه؛ لا يأخذ إلا من أوسط قومه نسبًا. وسألتك: هل كان أحدٌ من أهل بيته يقول بقوله؛ فهو يتشبه به؛ فزعمت أن لا؛ وسألتك: هل كان له فيكم ملكٌ فاستلبتموه إياه؛ فجاء بهذا الحديث يطلب به ملكه؟ فزعمت أن لا. وسألتك عن أتباعه، فزعمت أنهم الضعفاء والمساكين والأحداث والنساء؛ وكذلك أتباع الأنبياء في كل زمان، وسألتك عن يتبعه، أيحبه ويلزمه أم يقليه ويفارقه؟ فزعمت أنه لا يتبعه أحدٌ يفارقه؛ وكذلك حلاوة الإيمان لا تدخل قلبًا فتخرج منه. وسألتك: هل يغدر؟ فزعمت أن لا؛ فلئن كنت صدقتني عنه ليغلبني على ما تحت قدمي هاتين؛ ولوددت أني عنده فأغسل قدميه. انطلق لشأنك.

قال: فقمت من عنده وأنا أضرب إحدى يدي بالأخرى؛ وأقول: أي عباد الله؛

لقد أمر أمر ابن أبي كبشة! أصبح ملوك بني الأصفر يهابونه في سلطانهم بالشام!

ومع ذلك لا يمكننا التأكد من هذه الرواية، ولكننا نعرف أن هرقل قاد بعد ذلك حرب مؤتة بجيش كبير مؤلف من الروم والعرب.

وأما المقوقس صاحب الإسكندرية؛ فلم يسلم، لأنه كان تابعاً لهرقل ملك الروم، وكان يخشى بالطبع أن يتعرض لغضب القيصر، وكتب هذا الجواب: "لمحمد بن عبد الله من المقوقس، سلام، أما بعد: فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت، وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبيا بقي، وقد كنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسلك، وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم، وبكسوة، وأهديت إليك بغلة لتركبها، والسلام". وكانت إحدى الجوارى مارية القبطية أم إبراهيم بن رسول الله.

وأما المنذر الغساني (التابع أيضاً لهرقل)؛ فقد غضب عند قراءة كتاب رسول الله، وقال: من ينزع مني ملكي! أنا سائر إليه. وربما اتخذ الغساني ذلك الموقف لأنه لم يكن مستقلاً، فقد كان خاضعاً لقيصر ملك الروم.

وقام والي البلقاء شرحبيل بن عمرو بن جبلة الغساني بقتل رسول النبي محمد إلى ملك بصرى: (الحارث بن عمير الأزدي).

رد كسرى العنيف

وكان رد كسرى الثاني خسرو (590-628) أشد الردود عنفاً وحدةً، ربما لأنه كان يعتبر الحجاز والجزيرة العربية تابعة له، حيث مزق كتاب رسول الله، وقال متكبراً: يكتب إلي هذا وهو عبدي! (فقال رسول الله: مزق ملكه! حين بلغه أنه شق كتابه).

ثم كتب كسرى إلى (باذان)؛ وهو واليه على اليمن: أن ابعث إلي هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك جليدين، فليأتياي به؛ فبعث باذان قهرمانه وهو (بابويه) - وكان كاتباً حاسباً بكتاب فارس - وبعث معه رجلاً من الفرس يقال له (خر خسره)، وكتب معهما إلى رسول الله يأمره أن ينصرف معهما إلى كسرى، وقال لبابويه: أنت بلد هذا الرجل، وكلمه وأتني بخبره، فخرجا حتى قدما على رسول الله (ص) فكلمه بابويه، فقال: إن شاهانشاه ملك الملوك كسرى؛ قد كتب إلى الملك باذان، يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك؛ وقد بعثني إليك لتتطلق معي؛

فإن فعلت كتب فيك إلى ملك الملوك ينفكك ويكفه عنك؛ وإن أبيت فهو من قد علمت! فهو مهلكك ومهلك قومك، ومخرب بلادك. وأتى رسول الله الخبر من السماء أن الله قد سلط على كسرى ابنه شيرويه؛ فقتله في شهر كذا وكذا ليلة كذا وكذا من الليل. فدعاهما فأخبرهما، فقالا: هل تدري ما تقول! إنا قد نقمنا عليك ما هو أيسر من هذا؛ أ فنكتب هذا عنك، ونخبره الملك! قال: نعم، أخبراه ذلك عني، وقولا له: إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ ملك كسرى، وينتهي إلى منتهى الخف والحافر؛ وقولا له: إنك إن أسلمت أعطيتك ما تحت يديك؛ وملكتك على قومك من الأبناء؛ ثم أعطى (خرخره) منطقة فيها ذهب وفضة، كان أهداها له بعض الملوك.

فخرجا من عنده حتى قدما على باذان، فأخبراه الخبر، فقال: والله ما هذا بكلام ملك، وإني لأرى الرجل نبيا كما يقول؛ ولننظرن ما قد قال؛ فلئن كان هذا حقا ما فيه كلام؛ إنه لنبي مرسل؛ وإن لم يكن فسرى فيه رأينا. فلم ينشب باذان أن قدم عليه كتاب شيرويه؛ أما بعد فإني قد قتلت كسرى، ولم أقتله إلا غضبا لفارس لما كان استحل من قتل أشرافهم وتجميرهم في ثغورهم؛ فإذا جاءك كتابي هذا فخذ لي الطاعة ممن قبلك؛ وانظر الرجل الذي كان كسرى كتب فيه إليك فلا تهجه حتى يأتيك أمري فيه. فلما انتهى كتاب شيرويه إلى باذان قال: إن هذا الرجل لرسول. فأسلم وأسلمت الأبناء معه من فارس من كان منهم باليمن.

ولا يمكننا بالطبع التأكيد من جميع تفاصيل هذه الرواية التي ينفرد بها المؤرخون المسلمون، ولم يذكرها أي مصدر آخر محايد.

غزوة مؤتة: تحدي الأمبراطورية الرومانية

وعندما قام والي البلقاء العربي شرحبيل بن عمرو الغساني، التابع لقيصر، بقتل رسول النبي إلى ملك بصرى: الصحابي الحارث بن عمير الأزدي، خلافا للأعراف الدبلوماسية، اعتبر النبي هذا العمل عدوانا على المسلمين واستهانة كبيرة بحرمتهم، وقرر معاقبة ذلك الوالي الغساني، فحشد أكبر جيش إسلامي حتى ذلك الوقت، مؤلف من ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة أقرب المقربين إليه زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة، على التوالي، من أجل تأديب ذلك الوالي الغساني وتحدي الدولة البيزنطية، وذلك في شهر جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة.

ومضوا حتى نزلوا معان من أرض الشام؛ فبلغ الناس أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم، وانضمت إليه المستعربة من لحم

وجذام وبلقين وبهراء وبلى في مائة ألف منهم؛ (هذا ما تقدره المصادر الإسلامية، وأما المصادر الأخرى فتقدرهم بعشرة آلاف فقط) فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا على معان ليلتين، ينظرون في أمرهم، وقالوا: نكتب إلى رسول الله ونخبره بعدد عدونا، فإما أن يمدنا برجال، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له. ولكن أحد قادتهم وهو عبد الله بن رواحة شجعهم وقال: يا قوم؛ والله إن الذي تكرهون للذي خرجتم تطلبون الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به؛ فانطلقوا، وإنما هي إحدى الحسينين؛ إما ظهور؛ وإما شهادة، فقال الناس: قد والله صدق ابن رواحة. فمضى الناس. حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء، لقيتهم جموع هرقل من الروم والعرب، وأنحاز المسلمون إلى قرية يقال لها مؤتة؛ فالتقى الناس عندها، وقتل القادة الثلاثة الذين عينهم النبي، واحدا بعد الآخر، فاستلم الراية خالد بن الوليد وانحاز بالمسلمين عائدا إلى المدينة خوفا من إبادتهم على يد الجيش الرومي.

وبالرغم من قرار خالد بن الوليد، بالانسحاب التكتيكي أملم الجيش الكبير، إلا أن بعض المسلمين في المدينة لم يستسيغوا قرار الانسحاب وعدوه هروبا، فكانوا يعيرون المنسحبين بالجبن والتخاذل، وجعلوا يحثون عليهم التراب، ويقولون: يا فرار، فيقول رسول الله: ليسوا بالفرار؛ ولكنهم الكرار؛ إن شاء الله!

ومع أن المسلمين لم يحققوا نصرا عسكريا في غزوة مؤتة، إلا أن تحديهم للدولة البيزنطية جعل القيصر هرقل يقرر الانسحاب التاريخي من سوريا، ويقف على حدودها مسلماً: "السلام عليك يا أرض سوريا" وهو يودعها نهائيا، فاتحا الأبواب أمام الفتوح العربية الإسلامية القادمة.

فتح مكة

لم يبق أمام النبي محمد لتعزيز سيطرته السياسية على شبه الجزيرة العربية، إلا فتح عاصمتها السابقة مكة، ولكن الالتزام بصلح الحديبية الذي يمتد لعشر سنوات، كان يحول دون ذلك، فكان ينتظر أي خرق تقوم به قريش حتى يتحرر من التزامه ذلك، وهذا ما حدث في السنة الثامنة، أي بعد سنتين من الصلح، عندما انتهكت قريش شروط صلح الحديبية، بإعانتها حلفائها من بني بكر بن عبد مناة بن كنانة على حلفاء الرسول من خزاعة، ورفدهم بالسلاح والرجال. فأعد الرسول جيشا من عشرة آلاف مقاتل من المهاجرين والأنصار، ومختلف القبائل المسلمة والمؤلفة قلوبهم من المنافقين أو المسلمين (الذين لما يدخل الإيمان في قلوبهم) مثل عيينة بن حصن الفزاري، زعيم غطفان، والأقرع بن حابس

التميمي، زعيم بني تميم، وتوجه الرسول في العاشر من رمضان من السنة الثامنة الى مكة فوصلها في العشرين منه.

ودخل رسول الله المسجد الحرام، وخطب فيهم قائلاً: "يا معشر قريش، ويا أهل مكة؛ ما ترون أني فاعل بكم؟" قالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم. ثم قال: "أذهبوا فأنتم الطلقاء." فأعتقهم رسول الله، وقد كان الله أمكنه من رقابهم عنوة، وكانوا له فيئًا، فبذلك يسمى أهل مكة الطلقاء. ثم اجتمع الناس بمكة لبيعة رسول الله على الإسلام، فجلس لهم على الصفا، فبايعهم على السمع والطاعة لله ولرسوله. فلما فرغ رسول الله من بيعة الرجال بايع النساء، واجتمع إليه نساء من نساء قريش؛ فيهن هند بنت عتبة، منتقبة متكررة لحدثها وما كان من صنيعها بحمزة، فهي تخاف أن يأخذها رسول الله بحدثها ذلك، فلما دنون منه ليبايعه قال، رسول الله: تبايعني على ألا تشركن بالله شيئًا! فقالت هند: والله إنك لتأخذ علينا أمرًا ما تأخذه على الرجال وسنوتيكه، قال: ولا تسرقن، قالت: والله إن كنت لأصيب من مال أبي سفيان الهنة والهنة، وما أدري أكان ذلك حلالي أم لا! فقال أبو سفيان - وكان شاهدًا لما تقول: أما ما أصبت فيما مضى فأنت منه في حل، فقال رسول الله: وإنك لهند بنت عتبة! فقالت: أنا هند بنت عتبة، فأعف عما سلف عفا الله عنك! قلل: ولا تزنين، قللت: يا رسول الله، هل تزني الحرة! قلل: ولا تقتلن أولادكن، قالت: قد ربيناهم صغارًا، وقتلتهم يوم بدر كبارًا، فأنت وهم أعلم! فضحك عمر بن الخطاب من قولها حتى أستغرب. قال: ولا تأتين ببهتان تفتريه بين أيديكن وأرجلكن، قالت: والله إن إتيان البهتان لقبيح؛ ولبعض التجاوز أمثل. قال: ولا تعصيني في معروف، قال: ما جلسنا هذا المجلس ونحن نريد أن نعصيك في معروف.

ولقد أطلق إسلام قريش موجة كبيرة من الإسلام السياسي في الجزيرة العربية، ولا سيما لدى تلك القبائل التي كانت ترى في قريش زعيمتها، فلما تهاوت تهاوت كل آمالها بالمقاومة والصمود، وسارعت لإعلان إسلامها أو استسلامها للنبي محمد (ص).

معركة حنين

وبعد أن فتح النبي مكة، شنت قبيلتا هوازن وثقيف (من أهل الطائف جنوب مكة) هجومًا كبيرًا على النبي محمد، وذلك لأنهما ظننا أن النبي كان يستهدفهما في مسيره نحو مكة، حيث أنه كتم هدفه النهائي وحاول مباغته قريش، فحسبت ثقيف وهوازن أن النبي كان يستهدفهما، أو ان القبيلتين توقعتا هجوم النبي عليهما، فحشدتا قواتهما واتجهتا نحو مكة، وسددتا ضربة موجعة للمسلمين

بالحاق الهزيمة المنكرة بهم في الجولة الأولى قبل أن يعود المسلمون ويلحقوا الهزيمة بقوات هوازن وثقيف. وأكمل انتصار المسلمين في حنين انتصارهم في مكة.

وهذا ما عرض ثقيف الى ضغوط كبيرة، فقام زعيمهم عروة بن مسعود الثقفي بالحاق برسول الله، حتى أدركه قبل أن يصل إلى المدينة، فأسلم؛ وسأله أن يرجع إلى قومه بالإسلام، فخرج يدعو قومه إلى الإسلام، ورجا ألا يخالفوه لمنزله فيهم؛ فلما أشرف لهم على عليّة له وقد دعاهم إلى الإسلام، وأظهر لهم دينه، رموه بالنبل من كل وجه، فأصابه سهم فقتله؛ فزعموا أن رسول الله قال فيه: إن مثله في قومه كمثل صاحب يس في قومه.

ثم أقامت ثقيف بعد قتل عروة أشهرًا، ثم إنهم أئتمروا بينهم ألا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب وقد بايعوا وأسلموا. وقال عمرو بن أمية - وكان من أدهى العرب : إنه قد نزل بنا أمر ليست معه هجرة، إنه قد كان من أمر هذا الرجل ما قد رأيتم، وقد أسلمت العرب كلها، وليست لكم بحربهم طاقة، فأنظروا في أمركم. فعند ذلك أئتمرت ثقيف بينها، وقال بعضهم لبعض: ألا ترون أنه لا يأمن لكم سرب، ولا يخرج منكم أحد إلا أقتطع به! فأنتمروا بينهم، وأجمعوا أن يرسلوا إلى رسول الله وفدا بزعامة عبد ياليل ابن عمرو بن عمير - وكان في سن عروة بن مسعود - ليقدّموا البيعة والإسلام، على أن يشرط لهم شروطًا، ويكتتبوا من رسول الله كتابًا في قومهم وبلادهم وأموالهم. وقد كان فيما سألوا رسول الله أن يدع "الطاغية"؛ وهي اللات، لا يهدمها ثلاث سنين؛ فأبى رسول الله ذلك عليهم؛ إلا أن يبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة ابن شعبة فيهدماها؛ فلما أسلموا وكتب لهم رسول الله كتابهم؛ أمر عليهم عثمان بن أبي العاص - وكان من أحدثهم سنًا - وذلك أنه كان أحرصهم على التقه في الإسلام وتعلم القرآن.

أمر طيء وعدي بن حاتم

بعد العودة من فتح مكة وحرب حنين، بدأ النبي في مد نفوذه الى شمال الجزيرة العربية، فوجه، في ربيع الآخر من السنة التاسعة للهجرة، علي بن أبي طالب، في سرية إلى بلاد طيء، فهرب زعيمها عدي بن حاتم الطائي الى الشام، فأغار عليهم المسلمون وسبوا اخته في من سبوا من النساء، وكانت امرأة عجوزًا، فلما أتوا بها الى المدينة طلبت من النبي أن يمن عليها، فأطلق سراحها، فتوجهت الى أخيها اللاجئ في الشام ودعته للإسلام. فعاد وأعلن اسلامه.

وبعدما أسلم عدي، قدم وفد عظيم من بني تميم، فأسلموا. وجاء أعراب من بني أسد فأسلموا.

غزوة تبوك.. إعلان الحرب على اليهود والنصارى

وفيما كانت الوفود العربية تترى على النبي ، معلنة "إسلامها" في السنة التاسعة، أعلن النبي في شهر رجب، الاستعداد لغزو الروم، وأمر أصحابه بالتهيؤ؛ وذلك في زمن عسرة من الناس، وشدة من الحر، وجذب من البلاد؛ وحين طابت الثمار وأحبت الظلال؛ فالناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم، ويكرهون الشخوص عنها على الحال من الزمان الذي هم عليه، وكان رسول الله قلما يخرج في غزوة إلا كنى عنها، وأخبر أنه يريد غير الذي يصمد له؛ ألا ما كان من غزوة تبوك، فإنه بينها للناس لبعد الشفة وشدة الزمان وكثرة العدو الذي يصمد له، ليتأهب الناس لذلك أهبتة، وأمر الناس بالجهاز، وأخبرهم أنه يريد الروم.

ونزلت هذه الآيات:

• "قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون. وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله، ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل، قاتلهم الله أنى يؤفكون. اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله، والمسيح ابن مريم، وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا، لا إله الا هو سبحانه عما يشركون". (التوبة، 29-31)

وقد ذكر الطبري في تفسيره: إن هذه الآية نزلت على رسول الله (ص) في أمره بحرب الروم، فغزا رسول الله (ص) بعد نزولها غزوة تبوك. وكذلك روي عن مجاهد.

ومع أن النبي لم يشتبك مع جيش الروم في تبوك، إلا أنه حقق أهدافا أخرى، فقد فرض سيطرته على المنطقة الشمالية من الحجاز، وأتاه (يحنه بن روبة)، صاحب أيلة فصالح رسول الله وأعطاه الجزية، وجاء كذلك أهل جرباء وأذرح فأعطوه الجزية.

ثم إن رسول الله دعا خالد بن الوليد، فبعثه إلى أكيدر دومة - وهو أكيدر بن عبد الملك، رجل من كندة، كان ملكاً عليها وكان نصرانياً - فاعتقله خالد وهو يصيد البقر ليلا، وقدم به على رسول الله ، فحقن له دمه، وصالحه على الجزية، ثم خلى سبيله، فرجع إلى قريته.

قدوم رسول ملوك حمير على رسول الله بكتابهم

وما أن عاد النبي محمد من غزوة تبوك، حتى جاءت في رمضان (من السنة التاسعة) أخبار سارة عن إسلام ملوك حمير: الحارث بن عبد كلال، ونعيم ابن عبد كلال، والنعمان قيل ذي رعين وهمدان ومعافر، وزرعة ذو يزن، ومفارقتهم الشرك وأهله، فكتب إليهم رسول الله:

• "بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد النبي رسول الله إلى الحارث بن عبد كلال ونعيم بن عبد كلال والنعمان قيل ذي رعين وهمدان ومعافر؛ أما بعد ذلكم؛ فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد؛ فإنه قد وقع بنا رسولكم مقلنا من أرض الروم، فلقينا بالمدينة، فبلغ ما أرسلتم، وخبر ما قبلكم، وأنبأنا بإسلامكم وقتلكم المشركين؛ وإن الله قد هداكم بهدايته، إن أصلحتم وأطعتم الله ورسوله، وأقمتم الصلاة، وآتيتم الزكاة؛ وأعطيتم من المغانم خمس الله، وسهم نبيه وصفيه؛ وما كتب على المؤمنين من الصدقة من العقار عشر ما سقت العين وما سقت السماء، وكل ما سقى بالغرب نصف العشر، وفي الإبل في الأربعين ابنة لبون، وفي ثلاثين من الإبل ابن لبون ذكر، وفي كل خمس من الإبل شاة، وفي كل عشر من الإبل شاتان، وفي كل أربعين من البقر بقرة، وفي كل ثلاثين من البقر تبيع؛ جذع أو جذعة، وفي كل أربعين من الغنم سائمة وحدها، شاة. وإنها فريضة الله التي فرض على المؤمنين في الصدقة؛ فمن زاد خيراً فهو خير له، ومن أدى ذلك وأشهد على إسلامه وظاهر المؤمنين على المشركين؛ فإنه من المؤمنين، له ما لهم وعليه ما عليهم؛ وله ذمة الله وذمة رسوله. وإنه من أسلم من يهودي أو نصراني فإن له مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم، ومن كان على يهوديته أو نصرانيته فإنه لا يفتن عنها، وعليه الجزية؛ على كل حالم ذكر أو أنثى، حر أو عبد؛ دينار واف أو قيمته من المعافر أو عرضه ثياباً؛ فمن أدى ذلك إلى رسول الله؛ فإن له ذمة الله وذمة رسوله، ومن منعه فإنه عدو لله ولرسوله".

وكتب الى زرعة ذي يزن:

• "أما بعد؛ فإن محمداً يشهد أن لا إله إلا الله وأنه عبده ورسوله؛ ثم إن مالك بن مرة الرهاوي قد حدثني أنك أسلمت من أول حمير، وقتلت المشركين فأبشر بخير، وأمرك بحمير خيراً، ولا تخونوا ولا تخذلوا فإن رسول الله مولي غنيكم وفقيركم؛ وإن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لأهله؛ إنما هي زكاة يتزكى بها على فقراء المؤمنين وأبناء السبيل؛ وإن مالكم قد بلغ الخبر وحفظ الغيب، وأمركم به خيراً، وإني قد بعثت إليكم من صالح أهلي

وأولى ديني، وأولى علمهم؛ فأمركم بهم خيرًا فإنه منظور إليهم؛ والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وأضاف: أن إذا أتتكم رسلي فأوصيكم بهم خيرًا: معاذ بن جبل، وعبد الله بن زيد ومالك بن عباد، وعقبة بن نمر، ومالك بن مرة وأصحابهم؛ وأن اجمعوا ما عندكم من الصدقة والجزية من مخالفكم وبلغوه رسلي، وإن أميرهم معاذ بن- جبل؛ فلا ينقلبن إلا راضيًا".

واستمرت الوفود تتوالى بإسلام من وراءها، فقدم وفد بهراء ، ووفد بني البكاء ووفد بني فزارة، ووفد ثعلبة بن منقذ. ووفد بني سعد.

إعلان البراءة من المشركين

ولم يبق في السنة التاسعة من المشركين، في الجزيرة العربية ، الا القليل ، فأعلن النبي المهلة لهم والبراءة منهم، في حج تلك السنة، ونزلت سورة براءة وفيها:

• "براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين، فسيحوا في الأرض أربعة أشهر، واعلموا أنكم غير معجزي الله، والله مخزي الكافرين، وأذان من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الأكبر: أن الله برئ من المشركين، ورسوله، فان تبتم فهو خير لكم، وان توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله، وبشر الذين كفروا بعذاب أليم، الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً، ولم يظاهروا عليكم أحداً، فأتوا اليهم عهدهم الى مدتهم، إن الله يحب المتقين، فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم، وخذوهم، واحصروهم، واقعدوا لهم كل مرصد، فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم، إن الله غفور رحيم، وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله، ثم أبلغه مأمنه، ذلك بأنهم قوم لا يعلمون، كيف يكون للمشكرين عهد عند الله وعند رسوله، الا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام، فما استقاموا لكم فاسقيموا لهم، ان الله يحب المتقين، كيف وأن يظهروا عليكم لا يرقبون فيكم إلا ولا ذمة، يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم، وأكثرهم فاسقون، اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً، فصدوا عن سبيله، إنهم ساء ما كانوا يعملون، لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة، وأولئك هم المعتدون، فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، فإخوانكم في الدين، ونفصل الآيات لقوم يعلمون، وان نكثوا إيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر، إنهم لا إيمان لهم، لعلهم ينتهون، ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول، وهم بدءوكم أول مرة، أتخشونهم، فالله أحق أن تخشوه إن كنتم

مؤمنين، قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين، ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء، والله عليم حكيم". (التوبة، 1- 15)

ولما نزلت هذه الآيات بعث بهن رسول الله مع أبي بكر، وأمره على الحج، فلما سار فبلغ الشجرة من ذي الحليفة أتبعه بعلي، فأخذها منه؛ فسار أبو بكر على الحج، وسار على يؤذن ببراءة، فقام يوم الأضحى فأذن فقال: لا يقربن المسجد الحرام مشرك بعد عامه هذا، ولا يطوفن بالببيت عريان، ومن كان بينه وبين رسول الله عهد فله عهده إلى مدته، وإن هذه أيام أكل وشرب، وإن الله لا يدخل الجنة إلا من كان مسلمًا. فقالوا: نحن نبرأ من عهدك وعهد ابن عمك إلا من الطعن والضرب. فرجع المشركون فلام بعضهم بعضًا، وقالوا: ما تصنعون وقد أسلمت قريش! فأسلموا.

إقرار قانون الزكاة

حصل في السنة التاسعة تطور مهم جدا، وهو إقرار تفصيل قانون الزكاة، وتطبيقها ونزول قوله تعالى: "خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها، وصل عليهم، إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم". (التوبة، 103) فقد كان قيام الدولة الإسلامية حتى الآن يعتمد على غنائم الحرب، بدرجة كبيرة، ثم الجزية في السنوات الأخيرة، وعندما اتسعت رقعة المسلمين، فرضت الزكاة عليهم، من أجل إدارة الدولة الإسلامية الناشئة، وتلبية حاجاتها، وكانت الزكاة بنسبة العشر أو نصف العشر، حسب طبيعة الأموال النقدية والزراعية والأنعام. وكانت جباية الزكاة مظهرا مهما من مظاهر السلطة والدولة، حيث فرق فيها رسول الله عماله على الصدقات.

ورغم أن حكم الزكاة ورد في حوالي ثلاثين آية في القرآن الكريم، منذ أوائل السور المكية، إلا أنها جاءت مطلقة أو مقرونة بالصلاة، ومن دون تفاصيل في مظان الزكاة، أو تسليمها إلى أحد، ما عدا النبي في آية "خذ من أموالهم صدقة"، وهو ما يفتح الباب أمام إمكانية إخراج الزكاة من مالك الأموال بنفسه وتوزيعها على المستحقين، أو تسليمها لزعيم القبيلة، أو تسليمها للرسول وخليفته من بعده، ولا شك أن الرسول نفسه كان يأخذ الزكاة من المسلمين، من كل مكان، ويبعث العمال لتسلم أموال الزكاة، ولكنه لم يحدد من سيأخذها من بعده، لأنه لم يتحدث عن أية خليفة له.

إعلان الحرب على المرابين

وبقدر ما كان النبي الأكرم يحث على الزكاة، ويجعلها ركنا مهما من اركان الإسلام، فقد حارب الربا الذي كان شائعا في الجزيرة العربية، ولا سيما الربا المضاعف (أضعافا مضاعفة) والذي كان يؤدي في النهاية الى استرقاق الأغنياء للفقراء، إذا ما تجاوزت قيمة الربا قيمة العبد.

وقد تدرج القرآن الكريم في تحريم الربا، فقال تعالى:

- "وَمَا آتَيْتُمْ مِّن رَّبًّا لِّيُرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ". (الروم، 39) ونهى عنه قائلا:
- "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ".

(آل عمران، 130) وعاب الله على اليهود اخذ الربا، فقال:
- "وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا". (النساء، 161)

وأخيرا، أنزل الله تعالى أشد الآيات في التحذير من الربا، وهدد المؤمنين بحرب من الله ورسوله، كما لم يفعل في التحذير من أية معصية أخرى، فقال:

- "الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ". (البقرة: 275- 280)

هذا الى جانب الأحاديث النبوية التي أصرت على مكافحة الربا بشدة، كجزء من رسالة الإسلام الأخلاقية، وهدف اقتلاع الروح الأنانية من الانسان. وكان آخر الأحاديث ما ورد في خطبة النبي في حجة الوداع.

خروج الأمراء والعمال على الصدقات

واستكمالا لبناء دولة النبوة، قام رسول الله بتعيين العمال في جميع البلاد التي دخلها الإسلام لجمع الصدقات، وأخذ الجزية من اليهود والنصارى والمجوس،

كإقرار منهم بسيطرة الاسلام، والخضوع للدولة الإسلامية الوليدة. فبعث المهاجر بن أبي أمية بن المغيرة إلى صنعاء؛ وبعث زياد بن ليبيد الأنصاري إلى حضرموت على صدقتها، وبعث عدي بن حاتم على الصدقة؛ صدقة طي وأسد، وبعث مالك بن نويرة على صدقات بني حنظلة، وفرق صدقة بني سعد على رجلين منهم، وبعث العلاء بن الحضرمي على البحرين، وبعث علي بن أبي طالب إلى نجران ليجمع صدقاتهم، ويقدم عليه بجزيتهم.

ولكنه لم يعين من قبله ولاية على الأمصار المختلفة وإنما حافظ على السلطة بيد أمرائها أو ملوكها المسلمين. وذلك لأن الرسول لم يكن يهتم بفرض سلطته السياسية على القبائل العربية التي كانت تدخل في الاسلام، بقدر ما كان يهتم أمر التوحيد والصلاة والزكاة. ولذلك لم يتدخل (ص) كثيراً في أمور السياسة المحلية للقبائل والشعوب التي كانت تعلن الإسلام. وإنما كان يخاطب الملوك المعاصرين له ويدعوهم إلى الإيمان برسالته ويعددهم بالمحافظة على ملكهم تحت أيديهم. وقد ترك الأمراء والملوك والأقيال والسلاطين الذين أسلموا في حياته على ما هم عليه، ولم يطلب منهم التخلي عن سلطاتهم السياسية لسلطته.

وعندما أسلم جيلة بن الأيهم، وهو أحد ملوك الغساسنة، أبقاه النبي ملكاً على قومه إلى أن ارتد في عهد عمر في قصة معروفة. وكذلك عندما أسلم ملوك حمير أبقاهم رسول الله على مكانتهم. وأرسل إليهم معاذ بن جبل يعلمهم الدين ويقضي بينهم، وكتب إليهم عهداً جاء فيه: "هذا عهد محمد بن عبد الله رسول الله إلى معاذ بن جبل وأهل اليمن حين ولاه أمرهم فيهم... وإن يكون أبا رحيماً يتفقد صلاح أمورهم... وإنني لم أبعث عليكم معاذاً رباً، وإنما بعثته أخاً ومعلماً ومنفذاً لأمر الله تعالى ومعطياً الذي عليه من الحق مما فعل، فعليكم له السمع والطاعة والنصيحة في السر والعلانية، فإن تنازعتم في شيء أو إرتبتم فيه فردوه إلى الله وإلى كتابه عندكم، فإن اختلفتم فردوه إلى الله وإلى الرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلكم خير لكم وأحسن تأويلاً".

وكذلك فعل مع ملوك حضرموت الذين أمر عليهم أحدهم وهو وائل بن حجر،

وأمرهم بالسمع له والطاعة. ووعد كثيرا من القبائل العربية التي أسلمت بأن يحافظ على ما بأيديها وان يولي عليها أمراءها. وقد خلت رسائل الرسول الى كسرى وقيصر وعظيم القبط من أية دعوة للتنازل عن الملك إليه، وإنما تضمنت فقط دعوتهم الى الدخول في الدين الجديد.

إن كل ذلك يدل على ان دولة الرسول الأعظم محمد (ص) كانت دولة فريدة وخاصة، لا تشبه الأنظمة السياسية المعروفة، أو الحكومات الدينية اليهودية القديمة التي كان يقودها الكهنة والأحبار، ولا الحكومات المسيحية التي كان يقودها بابوات الكنيسة في العصور الوسطى. ولذا لم يهتم الرسول بتغيير الأنظمة السياسية القائمة بقدر ما كان يهتم بنشر الدعوة الإسلامية.

ومن هنا فان الرسول لم يعين أحدا خليفة من بعده - خلافا لما يقوله الشيعة الامامية والسنة البكرية - لا من أهل بيته ولا من أصحابه. ولم يضع دستورا للحكم من بعده، ولم يتحدث عن أسلوب تداول السلطة وطريقة انتخاب الحاكم أو صلاحياته، ولا عن تفاصيل العلاقة بين الحاكم والمحكوم، كما لم يؤسس مجلسا للشورى يضمن انتقال السلطة بعده بشكل آلي لمن يريد. وإنما أترك ذلك للأمة وأعطاهم الحق بإقامة نظامها السياسي المدني الذي تريد، وأوكل اليها مهمة مراقبة ذلك النظام ومحاسبته وتغييره.

وهذا ما يفسر الغموض والارتباك الذي اعترى المسلمين في عملية اختيار الإمام الأول بعد وفاة الرسول (ص) وحدثت بعض الإشكاليات التي اعترت عملية انتخاب أبي بكر، حيث لم تكن دائرة الشورى التي تنتخب الإمام واضحة تماما، وهل تضم المهاجرين والأنصار؟ أم تقتصر على المهاجرين؟ أو على قريش عموما؟ كما لم يكن واضحا أيضا: من هي الفئة التي يحق لها الترشح للإمامة؟ وهل هي مقتصرة على المهاجرين من قريش؟ أم تشمل الأنصار؟ وبقية الصحابة ممن أسلم بعد الفتح؟ إضافة الى غموض نقاط دستورية أخرى سوف يبتلى بها المسلمون في المستقبل.

ويمكن القول أيضاً: ان الرسول (ص) ترك المسلمين في حالة الطبيعة أحراراً متساويين، دعاهم الى التزام العدل وحثهم على عمل الخير، وعلمهم ممارسة الشورى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

حجة الوداع

مضى رسول الله على حجه؛ فأرى الناس مناسكهم، وأعلمهم سنن حجهم؛ وخطب الناس خطبته التي بين للناس فيها ما بين، فحمد الله وأثنى عليه؛ ثم قال:

• "أيها الناس، اسمعوا قولي؛ فإنني لا أدري لعلني لا ألقاكم بعد عامي هذا، بهذا الموقف أبداً. أيها الناس؛ إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام؛ إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا، وحرمة شهركم هذا؛ وستلقون ربكم، فيسألكم عن أعمالكم. وقد بلغت، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها. وإن كل رباً موضوع، ولكم رءوس أموالكم، لا تظلمون ولا تظلمون. قضى الله أنه لا ربا. وإن ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله، وأن كل دم كان في الجاهلية موضوع، وإن أول دم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب - وكان مسترضعاً في بني ليث، فقتلته بنو هذيل - فهو أول ما أبداً به من دماء الجاهلية.

أيها الناس؛ إن الشيطان قد ينس من أن يعبد بأرضكم هذه أبداً؛ ولكنه رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم.

أيها الناس: "إنما النسئ زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلون عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله"، ويحرموا ما أحل الله؛ وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض؛ و "إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم"، ثلاثة متواليه؛ ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان. أما بعد أيها الناس؛ فإن لكم على نسائك حقاً ولهن عليكم حقاً، لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، وعليهن ألا يأتين يفاحشة مبينة؛ فإن فعطن فإن الله أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع، وتضربوهن ضرباً غير مبرح، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف، واستوصوا بالنساء خيراً، فإنهن عندكم عوان لا يملكن

لأنفسهن شيئاً، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله؛ فاعقلوا أيها الناس واسمعوا قولي؛ فإنني قد بلغت وتركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً؛ كتاب الله وسنة نبيه.

أيها الناس، اسمعوا قولي فإنني قد بلغت، واعقلوه. تعلمن أن كل مسلم أخو المسلم، وأن المسلمين إخوة، فلا يحل لأمرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس؛ فلا تظلموا أنفسكم. اللهم هل بلغت! قال: فذكر أنهم قالوا: اللهم نعم، فقال رسول الله: اللهم أشهد.

ما هو النظام السياسي الذي تركه الرسول وراءه؟

هل توفي رسول الله فجأة، قبل أن يكمل بناء الدولة الإسلامية، ويضع لها نظاماً للحكم؟ هل أراد أن يسلم الحكم إلى قريش وأبي بكر؟ أم أراد أن يجعل ابن عمه علي بن أبي طالب خليفة له من بعده؟ أم يجعل الأمر شورى بين جميع المسلمين؟ أم لم يأمره الله بشيء؟ ولم يرد أساساً تشكيل دولة، وإنما يؤسس لدين جديد فقط؟ لا توجد إجابة واضحة وصريحة على كل تلك الأسئلة، ولكن هناك مؤشرات ضعيفة على هذا وذاك، فمن ناحية يروى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: يوم الخميس وما يوم الخميس! قال: ثم نظرت إلى دموعه تسيل على خديه كأنها نظام اللؤلؤ. قال: قال رسول الله: أنتوني باللوح والدواة - أو بالكثف والدواة - أكتب لكم كتاباً لا تضلون بعده. قال: قالوا: إن رسول الله يهجر.

وإذا صح هذا الحديث فإنه يدل على أن الرسول أراد الوصية لأحد من بعده، أو الوصية بنظام معين، ولكنه غلبه الوجد، واختلف المسلمون حوله، وقال بعضهم: غلبه الوجد، فأمسك النبي.

ويقول الطبري: إن علي بن أبي طالب خرج من عند رسول الله في وجعه الذي توفي فيه، فقال الناس: يا أبا حسن، كيف أصبح رسول الله؟ قال: أصبح بحمد الله بارئاً، فأخذ بيده عباس بن عبد المطلب، فقال: ألا ترى أنك بعد ثلاث عبد العصا! وإنني أرى رسول الله سيتوفي في وجعه هذا؛ وإنني لأعرف وجوه بني عبد المطلب عند الموت؛ فاذهب إلى رسول الله فسله فيمن يكون هذا الأمر؟ فإن كان فينا علمنا ذلك، وإن كان في غيرنا أمر به فأوصى بنا. قال علي: والله لئن سألتها رسول الله فمنعناها لا يعطيناها الناس أبداً؛ والله لا أسألها رسول الله أبداً.

حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة، قال: حدثنا محمد بن إسحاق، عن الزهري،

عن عبد الله بن كعب بن مالك، عن عبد الله بن عباس، قال: خرج يومئذ علي بن أبي طالب على الناس من عند رسول الله ، ثم ذكر نحوه؛ غير أنه قال في حديثه: أحلف بالله لقد عرفت الموت في وجه رسول الله كما كنت أعرفه في وجوه بني عبد المطلب؛ فانطلق بنا إلى رسول الله؛ فإن كان هذا الأمر فينا علمنا، وإن كان في غيرنا أمرنا فأوصى بنا الناس؛ وزاد فيه أيضاً: فتوفي رسول الله حين اشتد الضحى من ذلك اليوم.

جيش أسامة

وواصل الرسول تعزيز حدود الدولة الإسلامية الناشئة، فضرب في المحرم من سنة إحدى عشرة على الناس بعثاً إلى الشام، وأمر عليهم مولاه وابن مولاه أسامة بن زيد بن حارثة، وأمره أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين، فتجهز الناس، وأوعب مع أسامة المهاجرون الأولون. فقال المنافقون في ذلك، ورد عليهم النبي : "إنه لخليق لها - أي حقيق بالإمارة - وإن قلتم فيه لقد قلتم في أبيه من قبل؛ وإن كان لخليقاً لها ."

